
نيكولو أمانيتي
@ketab_n
Follow Me
22.2.2016
آخذك وأحملك بعيداً
ترجمة: معاوية عبد المجيد
تقديم: نصر سامي
رواية
مسكيلياني

نيكولّو أمّانيتي

آخذكِ وأحملكِ بعيدًا

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

مسكيليانى للنشر

عنوان الكتاب الأصليّ

TI PRENDO E TI PORTO VIA

NICCOLÒ AMMANITI

المؤلّف: نيكولّو أمانيتّي
عنوان الكتاب: آخذك وأحملك بعيدا
ترجمة: معاوية عبد المجيد
تقديم: نصر سامي
تدقيق: شوقي العنيزي
أنور اليزيدي
راضي النماصي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 22997848(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-50-8

الطبعة الأولى: 2016

سيرة أولاد إيطاليا المحروقين

تقديم: نصر سامي

تكتشف وأنت تقرأ رواية «آخذك وأحملك بعيدا» للرّوائي الإيطالي نيكولو أمّانيتي أنّك تطيح بكلّ الأسماء الكبرى في السّرد الإيطالي المكرّس الّذي أصبح من الكلاسيكيات[1]، تشعر بتقدّم الفصول أنّ برقا آخر يلفّ بيت اللّغة ونارا أخرى تحرق خشب الحروف، وأنّ بلاغة فريدة لا شبيه لها تظهر كاملة أمام ناظريك. وأمّانيتي واحد من جيل صادم[2]، عنيف، انتهاكي، عُصابيّ، قُمامي، يهتم باللبّ، حارق، آكل ودموي، مربك ومغيّر وموقظ، مختلف ومطيح بكلّ المواضعات، ساهم هو وجيله في تغيير قدر الرّواية الإيطالية تماما، بدم آخر حقنوا قلب اللغة وقلب العالم، وكتبوا بعيدا عن الإيديولوجيا وعن الأسلوب، كتبوا العمق الخفيّ والسرّ المكين، بحساسيّة «آكلي لحوم البشر»، يقول البعض إنّهم إعادة إنتاج «للواقعية القذرة»، أمّا هم فلم يكن أمر التّسمية يهمّهم، ما كان واضحا لكلّ القرّاء أنّ جيلا رومنطيقيا عُصابيّا بصدد التفجّر وأنّ روايات كبرى بصدد كتابة سيرة «أولاد إيطاليا المحروقين»، الّذين استطاعوا الاحتفاظ بشبابهم الأزلي كما وصفهم أومبرتو إيكو.

(1) أمثال أومبرتو إيكو ودينو بوتزاتي وإلسا مورانتي وألبرتو مورافيا ولويجي بيرانديللو وإيتالو كالفينو وكارلو إميليو غادا وإيتالو سفيفو وغيرهم..

(2) تيتزيانو سكاربا وألدو نوفي وجوزيبي كاليتشيتي وروسانا كامبو وسيمونا فينشي وسيلفيا بالسترا.. هؤلاء شكّلوا مع نيكولو أمانيتي جماعة أدبيّة أصدرت بيانات وسمّت نفسها «جماعة آكلي لحوم البشر»، ثم «جماعة الرومانطيقيين العصابيين»، وأطلقت عليهم عديد الأسماء الأخرى، ولقد كانوا دون شكّ حركة تغيير حقيقي في مسار الرّواية في إيطاليا.

شكّل أمّانيتي موجة لوحده، ثمّ تشكّلت حوله مجموعة من الكتّاب استطاعوا أن يسخروا من أخلاق العبيد ومن التّقليد ومن التّكرار ومن النّضوب والإفلاس، بمحاريث ثلاثية، لا بفؤوس، تمّ اختراق بركة الستّينيات الراكدة، بانت الجذور المسوّسة، وبدا واضحا أنّ السّوس، وليس الخضرة، هو حقيقة الكائن وحقيقة الأدب، تعرّت لأوّل مرّة في الأدب الإيطالي غلالة الرقيّ وانكشف بعمق أنّ الوضاعة والخسّة والدّونية والنّهم والحقارة هي الأصل المتواري الّذي حجبته سرديات إيطاليا الكبرى. ما كان بريئا انكشفت وحشياته وتراثاته الآكلة والمأكولة، وما كان مدجّنا نبتت له في التوّ أنياب ومخالب، وما كان من قبيل المراهقات انسدل عليه باب الزمان بفمه الأدرد ولياليه الطّويلة. عالم من النواحات غير المنضبطة، وعقود من المرارة، وراحات ممتدّة من الغضب والعنف والانتهاك، كلّها، ومع بعض، شكّلت لقوّتها وفجائيتها بديلا لكلّ ما كان يعتبر جوهر إيطاليا، وصار جوهر إيطاليا محلّ صراعات جماليّة وفكرية وفلسفيّة، لا مجال فيه لشيء نهائيّ، فالجوهر هو أيضا متغيّر. وصناعة الجوهر أو إعادة التّفكير في ما يعتبر بديهيا فيه، هي حكمة هذا الكتاب.

عصر نهايات، دون بدائل جاهزة، أعلنه هذا الرّوائي، هناك شيء انتهى أو يجب أن ينتهي، وشيء آخر مختلف سيتصدّر المشهد، أو يجب أن يتصدّر المشهد. «إنهم معذّبون وساديون وبلا رحمة. شهوانيون ولا عضويون... لقد حُدّدوا بألف طريقة وطريقة. لكنّهم بكل بساطة عُصابيون. ورومنطيقيون»[1].

وأمّانيتي بوصفه واحدا من جماعة «آكلي لحوم البشر»، ثمّ من جماعة «رومنطيقيون عُصابيون» هو الروائي الأكثر تمثيلا لهذا التيّار، إذ تتجلّى في أعماله براكين متفجّرة من الرّؤيات اللاّ سويّة القلقة،

(1) من مانيفستو تأسيس المجموعة، صدر سنة 1997.

مقترنة بسقف عال من الصّراحة الجارحة الموجعة التّصعيديّة، ومع ذلك كلّه فإنّ «الأنا» في نصوصه تشكّل المرايا الأكثر جلاء للإنسانية القلقة المضطربة. يلفّ أمّانيتي عالمه بغنائية لافتة لعلّها غنائية العنف والفحش والانتهاك، والبعد عن المطلقات. وتطغى على كتابته أيروسيّة مغتلمة فاجرة متلذّذة متفجّرة متعدّدة الحواس، تكاد تنقلب تخيّلا وما هي بتخيّل، وإنّما إمعان في التّذكير بأنْ لا شيء خارج الجسد.

العالم في هذا الكتاب يذكّر بلعبة الدّمى الرّوسيّة، أنت لست فيها غير دمية، محاطة بدمية وتحوي دمى كثيرة في داخلها، دمى، ولا شيء غير دمى، تبدو من الخارج منظّمة ومنسّقة، أمّا في العمق فظلام وسكون قاتم مخيف وعتمة مرعبة ونواحات خافتة، يسود فيها التوجّس وسوء التّفاهم ويعمّ الاضطراب، ويمعن الكاتب في تفصيل تلك الحدود بين الشخوص ويصفها بدقّة، مُعرّيا حقيقتها بهدف القبض على الوجه الإنساني وانهياراته الّتي لا تنتهي. وهو كتاب فاتن، مغو، ستحبّ أنّك فيه مجرّد دمية أدماها ليل العالم ودعستها أحلام اليقظة الّتي لا تتحقّق، ولا تني تأكل من حطب الأيّام.

يستقي أمّانيتي حكاياته من الحياة، من يوميّها الّذي يتهدّده البلى، ومن المعيش المتكرّر، وهنا لن تخطئ عينك ذلك الوصف الدّقيق لإيطاليا، بمدنها وأريافها، بباراتها ومراقصها، ومقاهيها، ومدارسها، في مشاهد متمهّلة، مكتوبة بعناية، تشعر كأنّك تعرف المكان، وتبدو لك عمارته مألوفة، وتحبّ فضاءات الرّواية المتعدّدة، المتجاورة، المغلقة غالبا، الّتي تحيط بالشّخصيات إحاطة السّوار بالمعصم، فنرى دواخلهم. نرى هشاشة الفرد، وتَلَفَهُ المنتظم، ومأساة وجوده، من خلال تجارب متعدّدة، تتبدّى من خلال الفصول، في انطوائيتها وطبائعها الحميمة، لوحات حيّة من فيلم واقعي فيه القلق والتمرّد والغضب والخروج على المألوف، وفيه الاستخدام المميّز للصّورة، والشغف

بتصوير الأجيال الجديدة من الشّباب، ومحاولة فهمهم، دون فرض أيّ نوع من الوصاية عليهم. رواية لا تشبه في شيء ما اعتدنا على قراءته من الأدب الأوروبي ذي النّزعة المنفتحة، الفرديّة، المدنيّة، الباردة، المحايدة، رواية يمكننا ببساطة أن نسمها على رأي الكاتب إدواردو سانغوينيتي[1] بأنّها ذات طابع انطوائي، يعكس حركة تطوّر نحو الدّاخل. الدّاخل الّذي ظلّ لعصور مجهولا ومغيّبا هو قماشة السّارد العظيم هنا، وهي قماشة فاخرة متنوّعة من جميع الأعمار ومن كلّ الفئات.

والكتاب نبت وحده في غابة الرّواية الغربيّة، بقدرة كاتبه على صياغة توليفة أنواعية تداخلت فيها جميع الأنواع الأدبية في ضرب من الإيقاع الأركسترالي المتناغم، الموزّع بانتظام، والمقطّع بعناوين وأرقام كثيرة، راويه يحنو على أبطاله حنوّا يفيض بجماليات لم يحوها كتاب، فيصف حتّى يجعلك ترى، يحبّبك في موصوفاته، ويدفعك عنها دفعا، ليّن وغليظ، طيّب وشرّير، مغو وقاهر، لعنة اللّه عليه. ووصفه يتنامى كعضو طبيعيّ في جسد السّرد، طيّعا مُنسابا.. أمّا الحوار فأعتقد أنّ أمّانيتي قد بذل فيه جهدا كبيرا، أمست بمقتضاه المحاورات عمقا فعليّا للنصّ وليست زائدة وفضلة، وهي تأتي صريحة صادمة فاحشة، مكتوبة بعناية، وكاشفة عن طبائع الشّخصيات الأكثر صدقا. والرّاوي في كلّ ذلك جاف أشدّ الجفاف حين يكون غاضبا، أمّا حين تصفو نفسه فإنّ النصّ يصبح مسرحا لصور بديعة من الشّعر الصافي الممزوج بتفلسف حيّ ساخر مرح تطلع بين السّطور زهورُه السّاحرة. وأمّانيتي رغم طول روايته لا يسهب في السّرد، ويعدّد الخيوط السّردية، ويقطع أفق الانتظار، ويبعّد بين المسارات السّردية، ويقطع تماما مع تقاليد الكتابة الأدبيّة الكلاسيكيّة الأحادية النبرة والصّوت من داخلها، ويعتمد

(1) صاحب كتاب أطلس القرن العشرين الإيطالي. بعض التقييدات منقولة عن مقال لجمانة حدّاد بعنوان جولة في عالم الرّواية الإيطالية.

أسلوبا معقّدا بهندسة «شَذَريّة» قائمة على «التشظية»، إذا صحّت العبارة، تتنافى كلّيا مع إرثها الحكائي. ما يبدو للبعض تقطّعا وتفتيتا لمكوّنات الرواية، هو رؤية جديدة يصبح فيها القارئ، لا متقبّلا سلبيا، بل مشاركا في صنع النصّ. وما يبدو للبعض فقرا أسلوبيّا، هو نفاذ إلى الجوهر، حيث الوحي هو المهمّ لا الغار، والضّوء هو المهمّ لا الفانوس، والتدّفق هو المراد لا النّهر بمياهه الّتي تحيي وتميت. كتابة ضدّ التيّار، قذرة، مفتونة بكلّ ما هو مخفيّ ومستور، وترفل في ليل وحشتها، حارقة ومحروقة في آن، تكتب الواقع بعد حقنه بالملاريا، كما هو في الأصل، صادقة، منفعلة. يمرّر أمّانيتي أصابعه على الكلمات كما يمرّرها بطله جراتزيانو على أوتار غيتاره بخفّة، يبدو عليه على طول الكتاب الشّغف والثّورة، نراه وهو منزرع كالبثور في وجوه أبطاله، نراه ينزّ من عرقهم، ونرى أرواحهم تحلّق في روحه المتألّمة. كتاب يحفل بالفظيع، لا بغرض تطهيره، وتجميله، بل بغرض تأبيده. ولا يعيد الدعوة إلى التفكير بقيمنا الخالدة، فقيمنا الخالدة هي ليست سوى قيم لا خالدة، ولا عادلة. ولا يحفل بالرقّة، ولا بالجميل، بل يسخر من كلّ شيء، ممعنا في تمجيد الفظاعة.

أعجبني الكتاب، لا جدوى من التخفّي وراء الكلمات الباردة. ذكّرني بجيلنا التّسعيني الّذي أضاع عمره دون أن يغيّر شيئا، ليس في تونس فقط، بل في العالم العربي، أتذكّر أنّنا كنّا نريد أن نحقّق أمورا، فأخذنا الوقت، ونهضت في دواخلنا أصوات، لكنّها لم تورق، حلمنا بحمل النصّ وأخذه بعيدا، لكنّنا لم نحقّق ذلك، فشلنا، لكنّنا لم نستطع إلى الآن كتابة رواية فشلنا، ما كان سائدا ولا يزال أنّنا كنّا جيلا مرّ بجانب أحلامه ورآها وهي تتبخّر وتموت، ولم يقدر حتّى على دفنها الدّفن اللاّئق بها. أمّا هذا الكتاب فإنّه نتاج جيل أدبي استطاع اختراع لغة مجدولة من نياحات نساء الأساطير، النّواح والصّراع والعواء، يصبح مادة لا

غرضا، والكلمات تصير عيونا متلصّصة شاهدة ضارية مثل نمرات منزوعات الأبناء، لغة حيّة بحواس متيقّظة تطلع من تراب الجسد حرارتها، الرّاوي فيها مجرّد عين واسعة مفتوحة على الفعل «القذر»، عين ساخرة متوثبة نهّاشة قادرة على تسجيل اللّحظة. وأمّانيتي يعرف قوّته جيّدا، ويمعن في تقليب مهاراته، فيرينا قضايا متعدّدة بتوزيعها على شخصيات متعدّدة، الشّخصيّات عنده كوى للتلصّص المعرفي ومداخل للفعل «الآثم». يقلّب طرق التّعبير ليطرح رؤى للعالم مختلفة ومتباينة، فيصبح الأسلوب طاقية إخفاء توصل إلى الغاية وهي كشف بنية مجتمع لا نعرف إلاّ ظاهره فقط، أمّا حقيقته فأمر شديد التعقيد. وداخل علاقات الحبّ تجد الوجع الناهش للدّواخل، وتجد القهر، والتعابير الأكثر «عهرا»، وترى أن أمّانيتي، وإن لم يكن الأجرأ من بين كتّاب جيله، فإنّه استطاع حقّا أن يُنطق الأجساد لتقول تغريبتها وقضايا مجتمعها الطبقيّة والهوويّة والقومية والفردية، لكنّه كاتب، بإجماع النقّاد، فضائحي، انتهاكي، لا يدير الكلمات في فمه، ولا يتردّد في رميها بكامل شبقها وسمّها، يقولها بكلّ بساطة، يزرعها في أرض الخوف عارية بكامل فجورها وغنجها وعهرها، ولأنّ للكلمات هي أيضا أسرارها وفتنتها فإنّها تقول هي أيضا مخبوءها وسحرها وفتنتها، فتنداح دوائر دلالات تبدو بسيطة، لكنّها في العمق صعبة ومتعذّرة وبعيدة الغور، وتنفتح في الخطاب كوى للهذيان أو الخطاب الذّاتي الشبيه بالمونولوغ، وفيه يصل النصّ إلى أقصى حدود الصّدق والبوح والفضح ويصبح «شائنا» وربّما «فجّا»، هنا تحديدا نلمس بالفعل قوّة الكاتب، بجمله الخاطفة المارقة الّتي تُذكّر بضربات البيانو المفاجئة، هنا نرتاح لنعومة عباراته وهو يمنحها أجنحة ومناقير، ويقفز بها قفزات عصفورية جشعة وفجّة في أحيان كثيرة، ووديعة ناعمة في أوقات أخرى. ولهذا كلّه يربكنا النصّ بقدرته على جعل العالم مجالا

لِعَيْنه الكبيرة، عين ثابتة والواقع يتقلّب أمامها، عين متلصّصة تبعثر الواقع، وتخترق حجبه، متمعّنة في «حقيقته الفجّة المخزيّة» وفي عملية الاختراق نسمع رئة الحياة وهي تهتزّ وتهتزّ بكامل عنفها، والكاتب وهو يزيل حجرات الجدار حجرا حجرا، لا يغفل تطعيم أسلوبه بالحلمي والخيالي والاستعاديّ، طريقة نادرة في التّوليف، تنعدم معها الفواصل بين المتخيّل والواقعي.

هذه الرّواية بشهرتها الكبيرة، وبكلّ ترجماتها في أغلب لغات العالم، فخر لدار مسكلياني أن تنقلها للغة العربية، في ترجمة بديعة لمعاوية عبد المجيد تمّت مراجعتها بدأب وحرص، وجُوّدت حتّى استقام نصُّها عربيّا أو يكاد، وهي الآن نصّ يتنامي مع السّرد الكلاسيكي لأنّه سليل لأكثر نصوصه بهاء، ومتشبّع بأكثر سردياته عمقا، ومتشرّب لأكثر أنماطه رسوخا، لكنّه وهنا سحره يعدّد الطّبقات، كأنّ أربعة رواة مجانين يعملون معا في نصّه، ويسرّع في الإيقاع بضربات إزميله الدّقيق على لحم الكلمات البارد، يسرّع ويبطئ فتحبّ هذا وتحبّ ذاك، وأكثر ما ستحبّه في نصوصه تلك الغابة المليئة بالأسماء، مسرح مكتظّ بأنماط من الشّخصيّات المتباينة بلا حصر، تتساءل ما الّذي يدفع راويا لحشد كلّ ذلك العدد في كتاب واحد؟ تتساءل أيضا كيف يتمكّن من التّمييز بين غابة الرّؤوس الكثيفة التي يحيطها بالرّعاية.

«آكلو لحوم البشر» اسم مدوّ وجارح ومحيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، بلا قواعد، حرّ فوضويّ ضاغط عُصابي مرّ، ولكنّه أيضا محكوم بنظام جديد، احتاج إلى سنوات ليترسّخ باعتباره تيّارا جديدا له روّاده ومريدوه. يقول البعض إنّ أمّانيتي ليس

غير إعادة إنتاج لكلاسيكيات عصره بعد تدويرها ورسكلتها، ولمدرسة الواقعيّة القذرة بعد تدويرها، ولو صحّ ذلك، فإنّ عمليّة التّدوير تلك هي إحدى الفضائل الكبرى في التّاريخ الأدبي الحديث. ولعلّ روايتنا هذي «سآخذك وأحملك بعيدا»، وروايته السّاحرة الأخرى «أنا لا أخاف» هما علامتان، لا على تميّز أمّانيتي فقط، بل على عبقريّة جيل نبت كالفطر على حافة الهاوية، هاوية الاكتمال والنمذجة والنّمط الّتي صارت تتحكّم فيها ماكينات المال والإعلام.

في العمق هناك الصّراخ والوعي العميق بخراب القيم، وبأنّ الحقيقة الّتي يظنّها النّاس حقيقة ليست غير حفرة معتمة مليئة بالسّواد، حقيقة العالم الوحيدة هي عتمته العميقة الغائرة كالجرح النّازف.

يقدّم أمّانيتي رؤية جيل ظلّ خارج مدار الأدب وخارج مجال اهتمامه، وهنا السرّ، الكتابة من خارج المدارات، الكتابة باعتبارها فعل حرّية وفوضى واستبصار، لا أخلاقي، وشاذ، ومليء بالنّقمة. ولكنّه متحكّم بجميع أدواته وخصوصا بمعمارية الرّواية إذ يشقّها خطّان، هما قصّتان، متوازيتان، تتقاطعان في النّهاية فقط، مدارهما معا على حقيقة الكائن، ماهي؟ هل هي في التملّك؟ أم في التحقّق الكياني المتوحّد في جوهر فرد؟ هل هي الظاهر؟ أم الباطن؟ تتغيّر حياة الأبطال في الكتاب مرارا، تتلاعب بهم الأقدار، لكن الرّواية ليست أبدا قدريّة. فالشخصيات تجرّب وتفعل وتنحت مصائرها، وتعرف بعد لأي سرّ سلوكها. ولهذا يشنّ الكاتب حربا على الزائف والمكرّس، مبشّرا بالخروج من الدّوائر المغلقة، حيث لا يزال هناك أمل. يعلّمنا الكتاب أنّ الإنسان يتغيّر، وحين لا يتغيّر يموت، في حركة التغيير حياتك الحقيقيّة. للأسف لن تجد في الغالب من يأخذك ويحملك بعيدا، لكنّك مثلك مثل جراتزيانو ستخرج من العمل محمّلا بثقل حُمّلته دون ذنب، جبال من العذابات، عذابات من؟ وما ذنبك أنت؟ كيف تكون غيرك؟

حين تعجز أن تكون أنت؟ كيف تقرّر القرار فلا يتحوّل إلى قرار عميق؟ كيف تزن بميزان الخفّة والثقل قراراتك؟ رؤى للعالم يسوقها الكاتب هدفها الأوحد طينتك، مادة إنسانيتك الأولى، نَسْلُكَ، ومستقبلك، أن تكون يعني أن تقدر على تغيير حياة بحياة. والكاتب لا يتعجّل الرّسالة ويعرف ثقلها لهذا يكثر من تدويرها ومعالجتها لتستقيم أمامنا في قمّة لذاذاتها وغنجها، هي هي الحياة، ابنة الكلب الّتي نلاحقها ونبذل لها الغالي والنّفيس ولا نطال إلاّ فضلتها.

«الحياة هي في مكان آخر»، هذا ما تحاول رواية أمّانيتي أن تقوله، هناك دائما إمكانية لحياة أخرى، ولكن أيّ حياة، يا كونديرا، وأيّ مكان، يا أمّانيتي؟ وكيف نصل إليها؟ ما من إجابة خارج خطين مهلكين هما خطّ التّراجيديا وخطّ اللهو؟ ألا نجدها دون فقد أو إغراق في اللذّة؟ لهذا يختلف أمانيتي عن غيره، فهو لا يحفل بالأخلاق الّتي تطفو على قشرة الحضارة، ولا يعبأ ببحيرات الاطمئنان الرّاكدة، ولا تعنيه أخلاق القطعان، ما يبدو مهمّا لديه هو الوعي بأنّ العالم لا شيء خارج الجسد وأنّ اللغة لاشيء خارج لغة اليوميّ البذيء الصّادم، وبهذا فإنّ الرّواية تصبح حلبة يمارس فيها فعل التغيير، تُزال القشرة تدريجيا لكن بقسوة وعنف وشجاعة وشذوذ، ويعاد النّظر في ما كان ثابتا، في الأثناء يهتمّ الكاتب بنبش «الآغورا» وخلفياتها وطوابقها السّفلية، يسلّط مرآته المحدّبة على ما لا يرى، وهنا يتعمّد بوضوح وصرامة أن يكون منحرفا وبذيئا وغير منضبط، وتينع شجرة الإيروتيكا بكامل أعضائها دفعة واحدة، فيكون جنس موتور متألّم عنيف غير مشبع وفوضوي، وتذكر أسماء الأعضاء الجنسية، وتمحى تدريجيّا تلك الغلالة الكاذبة المتخفّية وراء ستار الأخلاق. ما يبدو بديعا بحقّ هو غابات الصور والمشاهد الّتي يسردها حيث تتعانق الحواس، لتعكس الشّبق. تتخيّل نفسك فارس السّاموراي الّذي يمتشق سيف الكاتانا أحيانا، وتشعر بأنّ

من «الصعب ألاّ تُفتن النساء بك»، ما اختلافك أنت عن جراتزيانو؟ أحيانا أخرى تشعر بأنّك لاشيء، فاشل أو كالفاشل، «لا شيء سوى أنّني رسبت». «لقد رسّبوك». أنت أنت في الحالين، تحبّ أن تعيش «الحياة كما ينبغي» ولكنّ حياتك مخترقة وتثير الاشمئزاز، «فلا حدود لها أو ثوابت مطلقا». تقول لنفسك «ولكنّني سعيد بها كما هي، ولا يهمّني رأي الآخرين مطلقا»، وفي السرّ تكتشف أنّك لست سعيدا أبدا، وأنّ عملك لا يكفيك، فتحتاج إلى البيع، بيع أيّ شيء، من المخدّرات، إلى الفنّ، إلى الجسد نفسه، وهنا تنتج فلسفتك الخاصة حول البيع، تبيع الوهم لنفسك، وتقنعها بأنّ البطولة ليست لكلّ النّاس، ويسيطر عليك التيّار «برفّ جناح ناعم»، وترخي للمتعة جسدك، «المتعة ديانة، والجسد معبدها، هل يجب أن نكون أبطالا؟». بالقطع لا. ما يجب أن نكونه ليس فرديّا، وقصّة الحبّ في الكتاب من تجارب التّخوم والأقاصي الّتي تنفتح على المهاوي والحافات المرعبة، وهي «أكثر المغامرات المدمّرة في الحياة». لا خلاص إذن؟ هل هذا ما تقوله الرّواية؟ ألا أمل في الخروج من دوائر التّصعلك والجنس والمخدّرات؟ أليس هناك وجود ممكن بعيدا عن العنف؟ ألا ينغمر القلب فجأة بنور المحبّة والسّلام؟ ألا يكون الحبّ دائما إلاّ «عبثيّا، وفاتحة للأسى والشّقاء»؟

لا أريد أن ألخّص الكتاب، لكنّني أقول باطمئنان إنّها قصص مليئة بالنّقص، تُمنح الأجساد فيها «بالتّقطير»، و«تغدق بالآمال»، تنزّ بذلّ يقطّع العروق وبلهاث مسعور، ترتفع كالملائكة لبعض الوقت ولكنّها تنحني، يتحوّل الجنس فيها إلى داء، ووسيلة لقضاء المصالح، ترى العالم «شاحبا وحزينا حتّى الموت»، وينكشف الأمر: لا أحد في الحقيقة يبالي بأحد، الحبيبة تصبح بعد مئة صفحة «لئيمة، مدلّلة، وحقيرة، إنّها تغصّ بالسمّ وتمجّه خارجا متى استطاعت»، والأنثى تصبح «عقابا إلهيّا نزل ليدمّر الحياة»، تقول المرأة: «تفضّل انكحني إن أردت»، النكاح

نفسه يصبح في دائرة القاع شيئا لا بشريّا، يتعاطاه النّاس مثل المواد المخدّرة. هذه قصّة واحدة، تتخلّلها قصص الولد الفقير والبنت الغنيّة وأصحابهما الثلاثة وغيرهم، قصص مليئة بنقص حاد غير مفهوم موجع يمتدّ مثل مدية صدئة إلى العروق، قصص تضع أمّانيتي على قمّة أكثر الكتّاب انتهاكا وقدرة على الصّدق في تصوير الذّات البشريّة. كاتب يستهتر بكلّ شيء في الظاهر، لكنّه في العمق «يهجّن» جنس الرّواية، ليستولد بمرور الوقت جنسا روائيا مختلطا، رواية قادرة على التنامي مع إرثها القديم والحديث مع اختراقه بكلّ جديد. والكتاب بعد هذا كلّه كتاب سهل القراءة، بورنوغرافي المنزع، شاعريّ التفاصيل، صادم للقارئ المنضبط، يؤسّس لعلاقة تفاعلية مع قارئه، فلا يتعالى عليه، ويغمره بكلّ التفصيل اللازم لمواصلة القراءة.

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، رواية هائلة بكلّ المقاييس، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

جِلْمَة 2 أوت 2015

إلى نورا

.. وعادت إليّ الذكريات القديمة، عندما كنت بريئة ولون شعري كضوء المرجان الأحمر... عندما كنت أكثر البنات طموحا، أتّخذ القمر مرآة حتّى أجبره على القول: أنتِ جميلة... أنتِ جميلة.

مقطع من أغنية: *(أنتِ جميلة)*. لوريدانا بيرتيه[1]

لماذا يشدّ المندولين عن اللحن؟

لماذا توقّف الغيتار عن العزف؟

بيت من الأغنية النابوليتانية: *(غواباريا)*. رودولفو فالفو[2]

Alegrìa es cosa buena «المرح شيء جيد.»

بيت من أغنية: *(ماكارينا)*. لوس ديل ريو[3]

(1) Sei bellissima, Loredana Berté.

(2) Guapperia, Rodolfo Falvo.

(3) Macarena, Los del Rìo.

هذا الكتابُ عملٌ أدبيٌّ. كلُّ الأسماء والشخصيّات والأماكن والأحداث الواردة فيه من نسج خيال الكاتب. وأيُّ تشابه يجمعه بأحداث أو أماكن واقعية، أو بأشخاص موجودين، أحياءً كانوا أم أمواتًا، هو محضُ صُدفةٍ لا غير.

18 يونيو 199...

1

انتهت

العطلة. العطلة. العطلة.

ثلاثة أشهر فقط كأنها استمرّت إلى الأبد.

من الشاطئ والسباحة والنزهة على الدراجة مع جلوريا، إلى الغوص حتى الركبتين بين أعواد القصب في الجداول ذات المياه المالحة والدافئة، لاستكشاف صغار السمك والشراغف والسحالي ويرقات الحشرات.

أسند بييترو موروني الدراجة إلى الجدار ونظر حوله.

لقد أتمّ عامه الثاني عشر لكنه يبدو أصغر من عمره. كان الفتى نحيلًا وقد اسمرّت بشرته وغزا البعوض جبينه. ولم تعتن والدته بتسريحة شعره الأسود والقصير. كان له أنف مقوّس وعينان واسعتان بنّيّتان. وكان يرتدي كنزة المنتخب الوطني البيضاء وبنطالًا قصيرًا من الجينز، وصندلًا من المطّاط الشفاف الذي يسبّب بقعا سوداء بين الأصابع.

أين جلوريا؟ تساءل.

مرّ بين الطاولات أمام مقهى سيغافريدو المزدجم حيث كان جميع رفاقه في الانتظار، وهم يتناولون المثلجات مُحتمين بالظلّ.

كان الطقس حارّا جدا. اختفت الرياح منذ أسبوع كأنّها انتقلت إلى مكان آخر حاملةً معها كلّ الغيوم، لتترك لهيب الشمس العظيم يغلي الدماغ في الجمجمة.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحا. ميزان الحرارة يشير إلى 37 درجة. والحشرات الهائجة لا تكفّ عن الأزيز فوق أشجار الصنوبر خلف ملعب الكرة الطائرة. لابدّ أنّ أحد الحيوانات قد مات في مكان ما ليس ببعيد، فرائحة الجيفة الكريهة ما تنفكّ تنبعث بين الحين والآخر.

بوابة المدرسة مغلقة.

لم تُعلّق النتائج بعد.

جال في بطنه ذلك الخوف الخفيّ الطفيف الذي يُتعب الحجاب الحاجز ويضيّق التنفس.

دخل المقهى. كان هنالك الكثير من الفتية في الداخل – رغم ارتفاع الحرارة – متجمّعين حول شاشة ألعاب الفيديو الوحيدة. خرج.

هاهي!

كانت جلوريا تجلس إلى المصطبة على الجانب الآخر من الشارع.

ذهب إليها. ربّتت على كتفه وسألته: - هل أنت خائف؟

- نعم، قليلًا.

- وأنا أيضا.

- كفّي عن هذا. – قال لها. – تعلمين أنك ناجحة بالتأكيد.

- ماذا تفعل بعدئذ؟

- لا أدري. وأنت؟

- لا أدري. فلنفعل شيئا ما.

- حسنا.

خيّم الصمت عليهما وهما جالسان إلى المصطبة. كان بييترو يشعر بتصاعد وتيرة القلق رغم انشغاله بالتفكير في صديقته التي بدت أكثر

جمالًا من المعتاد بتلك الكنزة القطنية الزرقاء. ولو تمعّن في الأمر قليلًا لتيقّن ألاّ داعيَ للقلق، لا سيّما وأنّهم أوجدوا حلًا لتلك المشكلة في النهاية. لكنّ بطنه لا تفكر مثله في الموضوع، إنّما تحرّك رغبته في الذهاب إلى الخلاء.

تزايدت الحركة أمام المقهى، ونهض الجميع لعبور الشارع والتجمّع عند البوابة المغلقة.

تقدّم الآذن إيتالو في الباحة وبيده المفتاح وهو يصرخ: - تمهلوا! تمهلوا! سوف تؤذون أنفسكم هكذا.

- فلنذهب. قالت جلوريا وهي تمشي نحو البوابة.

لم يقوَ بييترو على النهوض وكأنّ قطعا من الجليد تحت إبطيه، فيما كانوا يتدافعون جميعا للدخول.

سمع صوتا ينهض من أعماقه مناديًا: *لقد رسّبوك!*

(ماذا؟!)

لقد رسّبوك!

ليست هواجس أو شكوكا. إنها هكذا بلا مبرر.

(لماذا؟)

هكذا دون مبرر.

بعض الأشياء تُعرف ولا طائل من التساؤل عن سببها.

لماذا يظنّ أنّه راسب؟

اذهب لترَ، ماذا تنتظر؟ هيا، اركض.

تغلّب أخيرا على الشلل الذي حلّ به، وتسلّل بين رفاقه، وقلبه ينبض غاضبا كأنه يقرع على طبل عسكريّ في صدره.

أخذ يُبعد مَن حوله بيديه.

- دعوني أمرّ أرجوكم... أريد أن أمرّ!

- على رسلك. هل جننت؟

- تمهّلْ أيها الأبله. أين تريد أن تذهب؟

تلقّى الصغير دَفعتين من هنا وهناك، وحاول أن يدخل من البوابة لكنّ رفاقه الكبار أمسكوا به وأعادوه إلى الخلف بسهولة. فجثم على ركبتيه وراح يحبو بين الأقدام ليعبر الجمع.

- اهدؤوا اهدؤوا. لا تتدافعوا. مهلًا. اللعـ...

كان إيتالو واقفا إلى جانب البوابة، وعندما رآه ماتت الكلمات في فمه؛ ولكنّها انكتبت فورًا على عينيه: *لقد رسّبوك...*

ركّز بييترو النظر فيه للحظة وانطلق بسرعة صوب السلّم، وصعد الدرجات ثلاثا ثلاثا ثم دخل.

عُلّقت النتائج على اللائحة في آخر المدخل، قرب تمثال البرونز النصفي لمايكل أنجلو.

حينها حدث شيء غريب.

ثمّتَ[1] أحد ما، يبدو لي أنه من الصف الثاني آ، يدعى... لا أذكر اسمه. رآني حينما كان يخرج فتوقف مصعوقا كأنه رأى مخلوقا من المرّيخ. إنه ينظر إليّ الآن ويلكز شخصا آخر يدعى جامباولو رانا. هذا الأخير أذكر اسمه. كان يقول له شيئًا ما، فالتفت جامباولو لينظر إليّ أيضا، يقلّب بصره في اللائحة تارةً وفيَّ طورا آخر، ثمّ يتكلّم مع آخر ينظر إليّ. كلُّهم ينظرون إليّ وهم صامتون...

حلّ الصمت.

انفضّ التجمّع واتجه الفتية نحو اللائحة. أخذتْه قدماه إلى الأمام بين جناحين من الرفاق. فاجتازهما ليجد نفسه على بعد سنتمترات من جدول النتائج وما زال يتلّقى الدفعات ممّن يصل بعده.

---

(1) ثمّتَ: آثرنا أن نكتُبها بالتاء المفتوحة بدلا من الخطإ الشائع «ثمّة»، وقد ورد في لسان العرب: «وثَمَّ: بمعنى هناك وهو للتبعيد بمنزلة هنا للتقريب. وثَمَّتَ أيضًا: بمعنى ثَمَّ.» أمّا «ثمّة» فخطأ شائع ولا وجود له في اللسان (المدقّق).

اقرأ.

بحث عن صفّه.

ب! أين هو؟ ب؟ الصف ب؟ ب الأول... ب الثاني. هاهو!

كان في أسفل اللائحة جهة اليمين.

آباتي. آلتيري. بارت...

راح يتصفّح الجدول بعينيه من أعلى إلى أسفل. ثمّة اسم مكتوب بالأحمر.

ثمّة راسب.

في منتصف جدول الأسماء تقريبا. ميم نون واو باء.

لقد رسب بييريني.

كلا إنه موروني.

أغمض عينيه وفتحهما بسرعة فتعكّرت الرؤية وتموّج كلّ ما يحيط به.

قرأ الاسم ثانية.

موروني بييترو.. راسب

قرأ ثانية.

موروني بييترو.. راسب

ألا تجيد القراءة؟

قرأ مجددا.

مو – رو – ني. موروني. موروني. مور.. مو...

فدوّى الصوت في رأسه: *ما اسمك أنت؟*

(ماذا؟)

ما اسمك؟

(من؟ أنا؟ اسمي بييترو. موروني. موروني بييترو)

وفي الجدول مكتوب موروني بييترو. وبالقرب منه بالخط الأحمر العريض: راسب.

كان الحدس في محلّه إذن! كم تمنّى أن يكون كذلك الشعورِ السيّئ المعتادِ الذي يرافقه حين يسلّمونه الواجب وهو متأكد من عدم جدواه بنسبة تسعة وتسعين في المائة، لكنه يبقى مقتنعا بأنّ الواحد المتبقّي —ذلك الجزء الميكروسكوبيّ— له قدر أكبر من البقيّة.

وماذا عن الآخرين؟ انظر!

بييريني فيديريكو.. ناجح

باتشي أندريا.. ناجح

رونكا ستيفانو.. ناجح

بحث عن اللون الأحمر في كلّ الجدول ولكن عبثا. فالجميع أسماؤهم زرقاء.

لا يُعقل أن أكون الراسبَ الوحيدَ في المدرسة. الآنسة بالميري قالت لي إنّهم سيرفّعونني وإنّ المشكلة قد حُلّت. لقد وعدتني بذلك.

(كلاّ)

ليس عليه أن يفكر في الموضوع الآن. عليه أن يرحل بأسرع وقت.

لماذا سمحوا لبييريني ورونكا وباتشي بالنجاح ورسبتُ أنا دونهم؟

هاهي الزوبعة مجددا.

أعلمه الصوت في رأسه: عزيزي بييترو، *من الأفضل أن تفرّ حالًا من هنا. إنك على وشك البكاء. ولست تريد أن تبكي على مرأى الجميع، أليس كذلك؟*

- بييترو! بييترو! ما النتيجة؟! سألته جلوريا فالتفت إليها.—اُنظر، هل نجحتُ؟

ظهر وجه صديقته من بين بعض الشبّان.

استدار بييترو ليبحث عن اسمها، فوجده مكتوبا بالأزرق كالآخرين.

رغب في إخبارها بالنتيجة لكنه لم يقوَ على ذلك. في فمه طعم غريب وحامض كالنحاس، وهو لا يزال يتلمّظ ويزدرد.

عليّ أن أتقيأ.

- ماذا؟ هل نجحتُ؟

هزّ بييترو رأسه مؤكّدا.

- آه! يا للسعادة! لقد نجحت! لقد نجحت! صرخت جلوريا وأخذت تعانق من حولها.

لماذا تقوم بهذه المسرحية؟

- وأنت؟ وأنت؟

هيّا تشجّع وأجبها.

كان يشعر بالغثيان كأنّ أفعى عملاقة تحاول أن تدخل من أذنيه. ساقاه منهكتان وخداه مشتعلان.

- ما بك يا بييترو؟!

(لا شيء سوى أنني رسبت). كان يريد أن يجيبها. استند إلى الحائط وراح يتهاوى على الأرض شيئا فشيئا.

تخطّت جلوريا جمع الرفاق وتقدّمت نحوه.

- ما بك يا بييترو؟ هل تشعر بألم ما؟ سألته وهي تنظر إلى اللائحة.

- ألم تنجح؟

- لا...

- وماذا عن الآخرين؟

- ... نجحوا.

انتبه بييترو موروني أنّ الجميع يحدّق فيه وقد طوّقوه، فشعر أنه كالمهرج وسطهم، أو كالمعزة السوداء (الحمراء)؛ وأنّ جلوريا لا تقف معه، بل مع الآخرين، فلم يعد يهمّه أبدا - على الإطلاق - إن كانت ترمقه بعينين كعيني الغزال بامبي.

قبل ستّة أشهر

9 ديسمبر

2

في التاسع من ديسمبر، الساعة السادسة والثلث صباحا، وبينما كانت عاصفة من مطر وريح تهبّ على الريف، كانت سيارة سوداء من نوع فيات توربو 1 (السيارة عبارة عن تابوت له محرّك، من بقايا حقبة كنا ندفع فيها بضع ليرات زيادة عن سعر الطراز الأساسي لنشتريها، فتسير مثل البورش وتستهلك مثل الكاديلاك وتُلقى مثل علبة كوكا كولا)... كانت السيّارة السوداء تخرج من المفترق الذي يصل الطريق السريع أوريليا بإيسكيانو سكالو. ثم اتجهت نحو طريق فرعي بين الحقول الموحلة، فاجتازت المدينة الرياضية ومستودع الجمعية الزراعية ودخلت البلدة.

نزعت الريح لافتة مركز التجميل الإعلانية لصاحبته إيفانا زامبيتي، ورمتها على قارعة الشارع العام القصير، شارع إيطاليا، الذي غمرته المياه.

لم يكن ثمّة أحد في المكان، سوى كلب مشرّد أعرج، تَجُول في دمائه سُلالة الكلاب أكثر من عدد الأضراس في فمه، وهو يتسكع بين مزابل حاوية مقلوبة على الأرض.

مرّت السيارة بقربه، وسارت أمام ستار مجزرة ماركوني المغلقة ومحل التبغ والعطور والمصرف الزراعي، وواصلت طريقها حتى ساحة 25 أبريل مركز البلدة.

تطاير المطر مع الأوراق الممزقة والأكياس البلاستيكية والجرائد في ساحة المحطة، وانثنى سعف النخلة القديمة المصفرّ بأكمله إلى جانب واحد، في وسط الحديقة الصغيرة. كان مبنى المحطة صغيرا ومربّعا وذا لون رماديّ، و كان بابها مغلقا. ولكنّ شارات «الستايشن بار» الحمراء المضاءة تشير إلى أنّ البار كان مفتوحا.

توقفت السيارة عند نصب الشهداء، وظلّت هناك والمحرّك يعمل. كان أنبوب السيارة يُصدر دخانا كثيفا أسود اللون، ونوافذها السوداء لا تسمح بالنظر إلى الداخل.

وأخيرا، يُفتح باب السائق.

في البدء يصدر صرير الباب صوتا كالأنين ثمّ تنساب أغنية *(Volare)* بنسخة فلامنكو وأداء فرقة جيبسي كينغز، وبعدها مباشرة يظهر رجل ضخم بشعر أشقر طويل ونظارتين شمسيتين كبيرتين من طراز موسكا وسترة جلدية بنّيّة مطرّز عليها شعار الصقر آباتشي.

إنه جراتزيانو بيليا.

تثاءب الرجل ومطّ ذراعيه وساقيه. وأخرج علبة سجائر Camel وأشعل واحدة.

لقد عاد إلى بلدته من جديد.

الراقصة والقطرس

لكي نعرف لماذا قرّر جراتزيانو بيليا العودة إلى إيسكيانو سكالو مسقط رأسه، في التاسع من ديسمبر تحديدا، بعد عامين من الغياب، علينا أن نعود بالزمن قليلًا إلى الوراء، قبل سبعة أشهر فقط ليس إلا. وعلينا أن نقفز إلى الجانب الآخر من إيطاليا، إلى الساحل الشرقي، تحديدا إلى تلك المنطقة التي تسمّى بالشاطئ الرومانيولي.

نحن في مساء يوم الجمعة، أوائل الصيف، داخل الكاريلون ديل ماري (يدعى أيضا «جوارب ماريو» نسبةً إلى الرائحة المزعجة التي يصدرها الطبّاخ الكازرتاني)، وهو مطعم اقتصادي صغير يطلّ على الساحل، على بُعد بضعة كيلومترات من مدينة ريتشوني، مشهور بإعداد الأطباق البحرية والأمراض المعوية البكتيرية.

ورغم حرارة الطقس فإنّ النسيم البحري ينعش الأنفاس ويخفّف عناء كل شيء. كان المطعم مكتظّا بالعشّاق الذين جاؤوا من شمال إيطاليا أو بالأجانب من هولندا وألمانيا.

هاهو جراتزيانو بيليا، متكئٌ على حافة الكونتوار، يحتسي كأسا ثالثا من مشروب المارغاريتا. يدخل حينها صديقه بابلو غوتيريز إلى المحل ويدنو منه. كان الشاب أسمر اللون وغرّته تغطّي جبينه ووشم الشّبّوط يسبح فوق ظهره.

- هلّا بدأنا؟ سأل الإسباني.

- هيا... التفت جراتزيانو إلى النادل، ففهم الأخير مراده وانحنى تحت الكونتوارليخرج الجيتار ويعطيه إياه.

كان جراتزيانو ملهَمًا ذلك المساء، وله رغبة في العزف مجددا بعد مدة طويلة من الانقطاع.

ومن يدري لمَ؟ ربما بفعل المشروب الذي احتساه منذ قليل أو بفضل الهواء العليل أو ربما للألفة التي تميّز الجو العام في تلك الدائرة عند البحر.

جلس إلى كرسي خشبي وسط المنصّة الصغيرة التي تنيرها الأضواء الحمراء المتوقدة. فتح حاملة الجيتار الجلدية وأخرج منها الآلة، كفارس الساموراي الذي يشهر سيف الكاتانا.

كان الجيتار إسبانيًّا فاخرا، صمّمه العوّاد البرشلوني الشهير خافير مارتينيز خصّيصا لجراتزيانو. شدّ أوتاره فانتابه الانطباع بوجود تيّار

سحري بينه وبين آلته يتدفق ليجعل منهما شريكين قادرين على خلق النغمات الأخّاذة. نظر إلى بابلو الذي وقف مستعدًا خلف طبلتين من الكونجاس، فاشتعلت شرارة الانسجام في عينيهما.

ودون أن يهدرا مزيدا من الوقت، بدآ الحفل بعزف مقطوعة لباكو دي لوثيا، وأخرى لسانتانا، ثم اثنتين لجون ماكلاوجلين، وفي الختام واحدة لفرقة جيبسي كينغز الخالدة.

مرّت أصابعه على أوتار الجيتار بخفة كأنّها تقمّصت روح اندرياس سيجوفيا. ونال إعجاب الجمهور الذي صفّق بحرارة وصرخ وصفّر من شدة الحماس.

حاز على تقدير الجميع، ولا سيّما العنصر النسائي. كان يرى في نظراتهنّ غزلانًا تدعو إلى التكاثر. ولعلّ لسحر الموسيقى الإسبانية دورا في ذلك، إلا أنّ الفضل، كل الفضل، يعود إلى مظهره.

من الصعب ألاّ تُفتن النساء برجل مثل جراتزيانو. فشعره الأشقر الذي يصل حتى كتفيه يمنحه هيبة الأسد. عيناه عربيتان كعيني عمر الشريف. عنقه يحمل طوقا من الأحجار الكريمة. الزغب الأصهب الناعم يعتلي صدره المكتنز. بنطال الجينز المكوي والمكشوف عند الركبة يظهر ضخامة ساقيه. ناهيك عن وشم التريبال الذي يميّز عضلة ذراعه المفتولة. وكلّ ما فيه يتآمر ليحطّم قلوب المعجبات بصوته.

تنتهي الحفلة بعد أن يعيد أغنية السامبا با تي نزولا عند رغبة الجمهور. وإثر تلقّيه قبلات طائرة على الطريقة الألمانية المثيرة يثني على أداء رفيقه بابلو ثمّ يذهب إلى المرحاض ليفرّغ مثانته ويستعيد نشاطه بجرعة موفّقة من السكّر البوليفي.

عندما كان على وشك الخروج دخلت سيدة سمراء بالغت في البرونزاج فبدت كقطعة بسكويت مغمّسة في الشوكولاطة. كانت السيدة في سنّ متقدمة لكن صدرها ما يزال بارزا كالمنطاد.

- إنه حمّام الرجال... نوّه جراتزيانو مشيرا إلى الباب.

صدّته المرأة بيدها:

- أريد أن ألعق قضيبك. هل لديك مانع؟

ومنذ متى يُرفَض عرضٌ كهذا؟

- تفضلّي. قال لها مشيرا إلى المرحاض هذه المرة.

- أريد أن أطلعك على شيء قبل أن ندخل. قالت له السمراء. انظر هناك إلى وسط المطعم. هل ترى ذلك الرجل الذي يرتدي قميص الهاواي؟ إنه زوجي. لقد أتينا من ميلانو...

كان زوجها هزيلًا بليدًا من أولئك الذين يلمّعون شعرهم بالدهن، وكان يلتهم وجبة من الصدف المفلفل.

- أرسلْ له تحية!

حيّاه جراتزيانو بيده، فرفع الرجل كأس الشمبانيا ثم صفّق.

- إنه معجب بك جدا. قال إنك تعزف كالملائكة، وإنك موهوب بالفطرة!

دفعته المرأة إلى الداخل، وأغلقت الباب. جلست إلى المرحاض، وفكّت أزرار بنطاله قائلة: أمّا الآن فسوف نصمّم له قرنين يليقان برأسه!

استند جراتزيانو إلى الحائط وأغمض عينيه، فيما كان الوقت يتلاشى.

هكذا كانت حياة جراتزيانو بيليا في تلك الآونة. لو كانت حياته فيلمًا لكان عنوانه «الحياة كما ينبغي». حياة في حدودها القصوى، مليئة باللقاءات الحميمة والصُدَفِ السعيدة والحيوية المتجددة والطاقة الإيجابية. حياة على إيقاع رقصة الميرينجا. وهل ثمّتَ ما هو ألذّ من نكهة المخدرات المرّة حين تعربد في الفم وتسبّب دوار مليارات

من الجزيئات في الرأس كإعصار يعصف ولا يَفْتِكُ؟ ما الذي يضاهي لسان سيدة مجهولة يلعق قضيبك؟

دعته السمراء للعشاء على طاولتها العامرة بالشمبانيا والصدف والحبّار المقلي.

كان لدى زوجها مصنع أعلاف في شينيزللو بالسامو، وسيارة فيراري حمراء ركنها في مأوى السيارات الخاص بالمطعم.

ومن يدري إن كانا من المولعين بالمخدرات؟ تساءل جراتزيانو. إذا استطاع أن يمدّهما ببعض الغرامات منها ويأخذ مقابلها بعض الليرات، فإنّ هذه السهرة ستتحوّل من رائعة إلى خيالية.

- لابدّ أنك تعيش حياة ماجنة، كلها جنس وكوكايين وموسيقى روك آن رول. أليس كذلك؟. سألته السمراء وقد تدلّى مخلب سرطان البحر من بين أسنانها.

عادة ما يتشاءم جراتزيانو عندما يقولون له ذلك.

لماذا يتفوّه الناس بكلمات سخيفة لا معنى لها؟... جنس ومخدّرات وروك آن رول... متى يستفيقون من هذه الخرافة؟

وظلّ يفكر في الموضوع طيلة السهرة.

إنهم محقّون نوعا ما. فحياته عبارة عن جنس وكوكايين و... ليس روك آن رول... إطلاقا... بل فلامنكو بالأحرى. وماذا بعد؟...

بالتأكيد، قد تثير حياتي اشمئزاز الكثير من الناس. فلا حدود لها أو ثوابت، ولكنني سعيد بها كما هي ولا يهمني رأي الآخرين مطلقا.

في إحدى المرات، قال له بلجيكي شاركه جلسة تصوّف على أدراج الفاراناسي الهندية: «أشعر بأنني كطائر القطرس الذي يحمله التيار الإيجابي، فأسيطر على هذا التيار برفّ جناح ناعم».

حتى جراتزيانو يشعر أنه كطائر القطرس، ويحمل على عاتقه مسؤولية كبرى: أن لا يسبّب الأذى للآخرين ولا لنفسه أيضا.

يرى معظم الناس أنّ بيع المخدرات أمرٌ سيّئ، لكن جراتزيانو يراه متعلقا بكيفية البيع. فإذا أردت أن تبيعها لتتدبر أمورك دون التفكير في الثراء من ورائها، فلا بأس. وإذا بعت للأصدقاء، فلا بأس. وإذا بعت بضاعة جيدة وليس برازا، فلا بأس.

لو كان العزف يكفيه قوت يومه لاستغنى عن بيع المخدرات في الحين.

يرى معظم الناس أنّ تعاطي المخدرات يسبّب الأذى، لكن جراتزيانو يراه متعلقا بكيفية التعاطي. فإذا بالغت في الإدمان عليها وتركتها تقضي عليك، فإنها تسبّب الأذى حتما. ولا تحتاج المسألة إلى طبيب أو راهب ليشرح الأضرار الناتجة عن الغبار الأبيض. أما إذا تناولت جرعة بين الحين والآخر فلا داعي للخوف على الإطلاق.

والجنس؟

الجنس؟ حقّا، أعترف أنني أمارسه دون هوادة، ولكن ما ذنبي إن كنت مصابا بداء الكَسَس، معجبا بالنساء وأعجبّهن؟ (الرجال يسببون لي القرف، فليكن واضحا) الجنس يقوم على الثنائيّ. الجنس أجمل ما في هذا الكون إن مورس بانضباط، أي دون الإكثار من الاستمناء. (لم يفكر جراتزيانو في بداهة هذه المسلّمات من قبل إطلاقا).

وماذا يستهوي جراتزيانو أيضا؟

الموسيقى اللاتينية والعزف على الجيتار في المحلاّت (عندما يدفعون لي!) والاستجمام على الشاطئ والتسكع مع الأصدقاء تحت شمس أرجوانية تغرق في البحر... وفقط.

لا تصدّقْ مَن يخبرك بأنه عليك أن تشقى كي تتلذذ بمتع الحياة. هذا ليس صحيحا. إنهم يريدون القضاء عليك. تذكّرْ أنّ المتعة ديانة والجسد معبدها!

وجراتزيانو كان أهلًا لذلك.

كان يقيم في غرفة مستقلة وسط ريتشوني من يونيو حتى أواخر أغسطس، وفي سبتمبر ينتقل إلى جزر إيبيزا، وفي نوفمبر يغادر إلى جمايكا لقضاء الشتاء.

بلغ عامه الرابع والأربعين وهو يصف نفسه بأنه غجريّ محترف، كزاهد الدارما، ومثل الروح المهاجرة التي تبحث عن الكارما.

هكذا كان يصف نفسه، حتى تلك السهرةِ على الأقل، تلك السهرة اللعينة من شهر يونيو التي تقاطعت فيها حياته مع حياة إريكا تريتيل، الراقصة.

وهاهو الغجري المحترف بعد ساعتين من النهم المتواصل في كاريلون ديل ماري، يجد نفسه في مرقص الهانغ أوفر غاليري مُسترخيا على إحدى الطاولات، كما لو أن أحد اللصوص سرق عموده الفقري، فاغرا فاه وبالكاد يفتح عينيه، ويحمل في يده كأسًا من كوبا ليبيرا لا يقوى على شربه.

- يا إلهي كم أنا منهك. – كان يردّد.

لقد أفرط في الخلط بين الكوكايين وحبوب الإكستاسي المنشطة والنبيذ ومقالي البارانزا البحرية. كانت السمراء وزوجها صاحب مصنع الأعلاف جالسيْن بقربه والمرقص يعجّ بالناس أكثر من السوبر ماركت.

كان يشعر أنه في رحلة بحرية لأنّ المرقص يتمايل ذات اليمين وذات الشمال، وثمّة مضخّم صوت عملاق خلف رأسه يصدّع جهازه العصبي. لقد جلسوا في مكان مرتفع وسيئ مع أنه مخصّص للشخصيات المهمة، وكان صاحبنا يفضّل بتر ساقيه على النهوض لتغيير مكانه.

لم يفهم جراتزيانو شيئا من تلك الأحاديث التي أسهب فيها صاحب المصنع، فرأسه لم يعد يستوعب إلا أبسط الحقائق.

يا لها من سهرة صاخبة. إنها ليلة الجمعة. وليلة الجمعة صاخبة دوما.

نظر إلى أسفل فبدت له خشبة الرقص قريةً ملعونةً من النمل. أدار رأسه ببطء كبقرة هولندية في المراعي، فرآها... رآها ترقص... ترقص عارية على المنصّة وسط قرية النمل.

كان يعرف جميع الراقصات في الهانغ أوفر، لكن تلك لم يرها من قبل.

لابد أنّها راقصة جديدة. يا لها من مليحة حسناء. انظر كيف ترقص بمهارة!

كانت بمُفردها هناك في الأعلى، كالإلهة كالي لا يصل إليها أحد من أولئك المقرفين الذين تتقيأ عليهم مكبّرات الصوت بأغنيات «الدرام ان باس» فيتصببون عرقا من رؤوسهم وأجسادهم ويلوّحون بأذرعهم كالمهابيل.

كانت أضواء الوميض تتسلط عليها في تسلسل لا متناه من وضعياتها المرنة والمثيرة، وهو يرمقها ببلاهة اعتاد عليها المهلوسون. إنها الأنثى الأجمل التي لم ير مثيلًا لها من قبلً.

ماذا لو كانت خطيبتك؟... كم سيحسدونك لو كان لديك واحدة مثلها تعيش بقربك!... ولكن من تكون؟

كان يرغب أن يسأل أحدهم عنها، النادل مثلًا. لكنه لا يقوى حتى على النهوض فساقاه مشلولتان، وأنظاره لا تحيد عنها.

لابدّ أنها أقصى ما وصل إليه جمال النساء، فالعنزات الصغار (على حدّ وصفه) لا تثرن أحاسيسه في طبيعة الحال. وهذا ما أدّى إلى مشكلة في التواصل معها، لأنّه خبيرٌ في اصطياد النسوة الناضجات. فهو يفضّل النبيلات اللواتي يقدّرن ما معنى غروب الشمس والغناء تحت نور القمر، ولا يهدرن الوقت بالترّهات – كما قد تفعل الفتاة في

سنها العشرين – فيذهبن بإرادتهنّ إلى السرير دون الغوص في الأوهام والتخمينات.

لكن هذه الحالة مختلفة كلّيًّا، وأي تمييز أو تصنيف مآله سلة المهملات بلا شكّ، فلو وقف الشواذ أمام فتاة بهذا الجمال لتابوا وعادوا رجالًا.

ماذا لو نكحتها!

خطر في ذهنه مشهد سرابيّ للحظة عناق على شاطئ ذي رمل أبيض في جزيرة مرجانية، وأخذ قضيبه ينتصب شيئًا فشيئًا كأنه رهينة لسحر ما.

ولكن من هي؟ من هي؟ من أين جاءت؟

يا الله، يا بوذا، يا كريشينا، يا قانون الديناميكا الحرارية الأول، يا من خلقتها أيًّا كان اسمك، قل لي إنك كوّنتها للتوّ على تلك المنصة كي تعطيني برهانًا على وجودك.

إنها كاملة الأوصاف.

لكنّ هذا لا يعني أنّ الفتيات اللواتي يتأرجحن على جوانب المنصّة لسن بكاملات، فلدى جميعهنّ مؤخرات مكتنزة وسيقان ممشوقة ونهود مكوّرة وبطون مسطحة وملساء. أمّا هي فلديها ما يميّزها عن الأخريات، وتعجز الكلمات عن وصفه... ميزة وحشية لم يحدث أن صادفها سوى عند الزنجيات في كوبا.

لا يتماهى جسد هذه الفتاة مع الموسيقى، لأنه الموسيقى بعينها. بل إنّه التعريف الملموس للموسيقى. حركاتها متمهلة ومتقنة كحركات معلّم «التاي- تشي»، وتستطيع أن تبقى ثابتةً على قدم واحدة ويتمايل خصرها وذراعاها في الآن ذاته بانسجام قلّ مثيله. لذا تبدو الأخريات متشنجات مقارنة برشاقتها.

إنها استثنائية، تثير الدهشة.

أمّا ما يثير الاستغراب فهو عدم اكتراث أيّ أحد من الحاضرين بها. يا لبلادة هؤلاء، كيف يمكنهم الاستمرار في الرقص والثرثرة، والمعجزة تقع أمام أعينهم؟

وفجأة، تتوقف الفتاة وتستدير صوبه، كأنّها استجابت لشحنات التخاطر التي أرسلها إليها. كان جراتزيانو متيقّنا من أنها تنظر إليه. إنها ثابتة هناك وتنظر إليه فقط، في خضمّ كل هذه الضوضاء، وداخل هذا الهذيان البشري، تنظر إليه فقط وليس إلى أي أحد غيره.

تمكّن من رؤية وجهها أخيرا. تمكّن من معاينة شعرها القصير وفمها الناعم ولون عينيها الأخضر (حتى لون عينيها تمكّن من رؤيته!) ووجهها المدوّر الذي يشبه كثيرا وجه ممثلة... اسمها على رأس لسانه...

ما اسمها؟ تلك التي مثّلت دور غوست؟

كم تمنى لو ساعده أحدٌ ما: ديمي مور. لكنه لم يجرؤ على طرح السؤال، لأنه كان مسحورا مثل كوبرا أمام عازف ناي.

مدّ يديه نحوها فانبثقت من أطراف أصابعه عشرة إشعاعات برتقالية. وها هي الإشعاعات تتوحّد لتمضي زاحفة كموجة إلكترونية وتعبر فوق هذا الحشد من الجهلة، لتصل إليها، عند منتصف المنصّة، وتدخل في سرّتها وتنيرها كعذراء بيزنطية.

أصابته القشعريرة. ها هما يتّحدان تحت قوس كهربائيّ يصهرهما ويحوّلهما من جزأين ناقصين إلى كائن واحد كامل. سيكونان سعيدين معا حتما، كملاكين ملتحمين بين جناحين يُحلّقان متعانقين نحو الجنة.

جراتزيانو على وشك البكاء. لقد قهره حبّ لا يفنى، ولم يجرّبه من قبل. لا تشوبه الشهوانية، إنما هو إحساس طاهر يدفعه للسعي إلى التناسل والدفاع عن حبيبته من المخاطر الخارجية والسكن في كهفٍ يربّي فيه الأطفال.

بسط ذراعيه محاولًا إيجاد تواصل مثاليّ مع الفتاة، فاستغرب منه

القادمان من ميلانو. ولكنه لا يراهما، فقد ابتلع الضباب المرقص بكل ما فيه من بشر وأصوات وموسيقى وضجة.

انقشع الضباب بعد هنيهة ليظهر محل لبيع ألبسة الجينز.

أجل!

لم يكن المحلّ الذي خطر في باله سخيفا كتلك المحلاّت الموجودة في ريتشوني. بل كان جراتزيانو يتطلع لافتتاح متجر فاخر كتلك التي دخلها في ولاية فيرمونت، حيث توجد دعامات مرتبة من الكنزات الصوفية التي يلبسها الرعاة النرويجيون، وصفوف من الجزمات التي ينتعلها عمال المناجم في ولاية فيرجينيا، وأدراج من الجوارب التي تغزلها العجائز في جزيرة ليباري، وعلب من المربى الويلزية، وسنّارات للصيد. حبّذا لو افتتح محلًا كهذا في إيسكانو سكالو بدل محلّ الخياطة التافه الذي تديره والدته. محل ألبسة ضخم يعمل فيه مع تلك الراقصة، زوجته، في حالة طبيعية مثيرة للاهتمام، خلف المسند. ولن يكون مسندا عاديا، بل طاولة تعلّق على حوافها زلاجات لركوب الأمواج. كم جميل أن يتوقف المارة ويدخلون، ويرون زوجته ويحسدونه عليها، ويشترون خفوفا مزركشة وسترة جورتيكس المضادة للرياح، ثم يخرجون.

-محل الألبسة... آه! - غمغم منتشيا وعيناه مغمضتان.

إنه يرى ما يخبّئ له المستقبل: محل ألبسة... تلك الفتاة... وعائلة متماسكة... كفى لهذه الحياة الضالة... كفى لسخافات التصعلك... كفى للجنس دون الحبّ... كفى للمخدرات!... إنه الخلاص!... سيتفرّغ لمهمة سامية في هذه الحياة: عليه أن يعرف تلك الفتاة ويحملها معه إلى بلدته لأنه يحبّها... ولأنها تحبّه.

- الحب... آآآه!

تنهّد جراتزيانو ونهض من الكرسي حتى وصل إلى السياج بذراعين

ممدودتين كي يبلغها. ومن حسن الحظ أنّ الميلانية كانت موجودة لتمسك به قبل أن يسقط إلى الأسفل وتتهشم عظامه.

- هل أصابك مسّ؟ – سألته.

- تعجبه الخنزيرة التي ترقص هناك. – قال زوجها صاحب المصنع وقهقه. – كان سينتحر لأجلها. هل فهمت؟ هل فهمت؟!

لم يصدّق جراتزيانو ما سمع، وظلّ واقفا على قدميه فاغرا فاه متعجّبا.

من هذان الغولان؟ وكيف يسمحان لنفسيهما بالتدخل؟ وعلام يضحكان؟ لمَ يسخران من حبّ غضّ عفيف يتفتّح رغم أنف هذا المجتمع المتعفّن بكل مساوئه ومفاسده؟

بدا أنّ الميلانيّ كاد أن يغمى عليه من الضحك.

سأقتل ابن العاهرة هذا الآن. أمسك جراتزيانو بياقة قميص الهاواي، فتوقف الرجل عن الضحك ورسم ابتسامة على وجهه أظهرت بشاعة لثّته.

- اعذرني. أنا آسف. اعذرني لم أكن أقصد حقا...

كاد جراتزيانو أن يسحق أنف الرجل بقبضة يده، لكنه تراجع. فالليلة ليلة الخلاص، ولم يعد هناك متسع للعنف. فمنذ هذه اللّحظة صار جراتزيانو رجلا آخر تغمر قلبَه المحبّة والسلام.

- لن تفهموا شيئا فأنتم... كائنات بلا قلوب. – قال بصوت منخفض واتّجه مترنّحا صوب الحبيبة.

تبيّن من قصة حبّ جراتزيانو بيليا بـ«إريكا تريتيل»، الراقصة في ملهى الهانغ أوفر، أنها واحدة من أكثر المغامرات المدمّرة في حياته. ولعلّ خلطة الكوكايين وحبوب الإكستازي ومقالي البارانزا التي تناولها في «الكاريلون ديل ماري» هي السبب المباشر في صعقة الحبّ التي

أدخلت دماغه في غيبوبة، إلا أنّ العناد وعمى البصيرة كانا من أهمّ الأسباب العميقة.

جرت العادة أن يبذل المرء جهدا في تذكّر اسمه حين يستيقظ من ليلة حافلة بالكحول والمخدّرات حدّ الإفراط. وبالفعل قامت ذاكرة جراتزيانو بمسح نجاحاته في المطعم، ولثّة صاحب مصنع الأعلاف و... كلاّ، لم ينس الفتاة الراقصة.

فما إن فتح عينيه في اليوم التالي حتى تصوّر نفسه معها داخل محل الألبسة، وقد عششت هذه الصورة في ذهنه وبين أعصابه. وغيّرت من طباعه الجسدية والنفسية كليّا طيلة الصيف. أصبح مثل الدوق فلييد حين يعتلي مركبة الجريندايزر.

نعم، لأنّ الفتاة أغشت عينيه وصمّت أذنيه خلال ذلك الصيف الملعون. لا يريد أن يصدّق أنّها لا تناسبه، ولا أن يدرك أنّ تعلّقه بها كان عبثيّا وفاتحة للأسى والشقاء.

كانت إريكا التي بلغت الواحد والعشرين عاما آيةً في الحسن. قدمت من بلدة قريبة من ترينتو، تدعى كاستيلو تيزينو. وكانت قد فازت في مسابقة الجمال التي رعاها مصنع اللحوم الباردة وهربت من المنزل بصحبة أحد الحكّام. عملت في الموتور شوو في مدينة بولونيا كفتاة لسيارة الأوبل. وظهرت في بعض صور الدليل الشرائي لإحدى الشركات المصنعة لملابس السباحة في كاستلماري ستابيا. وترددت إلى دورة لإتقان الرقص الشرقي.

وحينما كانت تتدلّى على منصة الرقص في الهانغ أوفر، كانت تركّز لتنسجم مع الموسيقى وتعطي أفضل ما عندها. فالأحلام الطموحة تتوقد في رأسها كما تشتعل الأضواء في شجرة الميلاد: أن تنضمّ إلى فرقة الرقص في برنامج "دومينيكا ان"، أو أن تظهر صورتها على

غلاف مجلة «نوفيلا 2000» وهي خارجة من مطعم مع رجل مثل مات ويلاند، أو أن تشترك في برنامج مسابقات أو في دعاية متلفزة للمبشرة الكهربائية مولينكس.

التلفزيون!

رأت فيه مستقبلها، وأقصى ما تصل إليه أمنياتها البسيطة والملموسة.

وعندما عرفت جراتزيانو بيليا، حاولت أن تشرح له ذلك. قالت له إنّ الزواج من صعلوك هرم مولع بفرقة جيبسي كينغز ويشبه ساندي مورتون بعد إصدار ألبوم بأريس – دكار لم يكن من بين أهدافها. ولم تكن لتفكّر ولو للحظة بأن تنجب أطفالاً مشاكسين يدمّرون حياتها، فما بالك بافتتاح محلّ ألبسة في بلدة مثل إيسكيانو سكالو.

لكنّ جراتزيانو لم يكن يفهم، بل كان يشرح لها، كمعلّم صبور لتلميذ عنيد، أنّ التلفزيون أسوأ أنواع المافيا. فقد كان يعرف تلك الأجواء جيدا، لأنه عزف مرتين في البلانيت بار. وكان يقول لها إنّ النجاح في التلفزيون معرّض للزوال السريع.

«عليك أن تنضجي يا إريكا. عليك أن تفهمي أنّ الإنسان لم يُخلق ليضع نفسه في معرض، إنما ليجد فسحة يعيش فيها بوئام مع الأرض والسماء».

وتلك الفسحة برأيه هي إيسكيانو سكالو.

كان لديه وصفة سحرية لينزع من رأسها برنامج «دومينيكا ان»: أن يهاجرا إلى جمايكا؛ معتبرا أنّ عطلة هنيئة في الكاريبي ستجعلها في أحسن حال، لأنه مكان يستمتع فيه الناس بالطمأنينة، ولا تلقى ترهات هذا المجتمع أي أهمية، هناك حيث للصداقة قيمة وحيث يستلقي المرء على الشاطئ ويؤجّل عمل اليوم إلى الأبد.

لقد كان يرغب في تعليمها ما يجده ضروريا لمعرفة الحياة. ولكنّ

هذه السخافات قد تنطلي على فتاة متعصبة لبوب مارلي وتطالب بتشريع المخدرات الخفيفة، أمّا إريكا تريتيل فلم تكن كذلك البتّة. ولعلّ ما يربط بين عدّة تزلّج وجزيرة يونانية أكثر منطقيةً مما قد يربط بينهما. فلمَ كانت إريكا تغدق عليه بالآمال إذن؟

هنا، لا بدّ من الإشارة إلى مقطع من حديث دار بين إريكا وماريابيا مانكوزو، راقصة أخرى في ملهى الهانغ أوفر، حين كانتا تتجمّلان في غرفة التبديل، قد يساعدنا على الإجابة عن السؤال أعلاه.

- أصحيحٌ ما يشاع عنك بأنّك أصبحت خطيبة جراتزيانو؟ — سألتها ماريابيا بينما كانت تقص بالملقط زغبا ناعما نما قرب حلمة نهدها الأيمن.
- ومن أخبرك بذلك؟ — قالت إريكا وهي تقوم ببعض التمارين في وسط الغرفة.
- الجميع يتحدثون عن الأمر.
- أيقولون ذلك حقّا؟

ماريا تدقّق في حاجبها الأيمن على المرآة، ثم تشذّبه بالملقط نفسه.

- هل هذا صحيح؟
- ماذا؟
- أنك بتِّ خطيبة جراتزيانو.
- بعض الشيء... فلنقل إننا مرتبطان.
- بأي معنى؟
- كم أنت مملة! — تأففت إريكا. — جراتزيانو يكنّ لي المودة حقّا، وليس كذاك الحقير طوني.

طوني داوسون، «دي دجي» بريطاني في مرقص الانتراكس، كانت له قصة سريعة مع إريكا ثم تركها ليرتبط بمغنية في فرقة الفونيرال

ستر ايك المتخصصة بعزف الديث ميتال في إقليم ماركيه.

- وأنت هل تبادلينه الود؟

- طبعا، لأنه شخص نزيه ولا يتملّق.

- هذا صحيح. – أثنت عليه ماريابيا أيضا.

- هل تعلمين أنه أهداني جروا في غاية النعومة؟ من عِرْقِ فيلا برازيليرو.

- وما هذا؟

- إنه عِرْقٌ نادر من الكلاب. كانوا يستخدمونه في البرازيل للحاق بالعبيد الذين يفرون من العمل في الحقول. أسميته أنطوان، ويعتني جراتزيانو به، فأنا لا أريده.

- أنطوان على اسم الحلاق؟

- أجل.

- وماذا عن الحكاية التي تشاع بأنكما ستتزوجان وتذهبان للعيش في بلدته وتفتتحان محلاً لبيع الألبسة؟

- يا لك من حمقاء! كل ما في الأمر أننا في سهرة أمس الأول كنا على الشاطئ حينما قصّ هذه الحكاية عن بلدته وعن محل الجينز والكنزات النرويجية ومحل الخياطة الذي تديره والدته، وأنه يريد أن يتزوجني وينجب أطفالاً، وأنه يحبني. أجبته أن الفكرة لطيفة...

- لطيفة؟

- افهميني. كان الحديث بدافع الدردشة لا أكثر. استلطفت الفكرة حينها. ولكن ليس من حقّه أن يجول بين الناس ويروي لهم هذه الحكاية. عليه أن يعلم ذلك. سأبدو في موقف سخيف، وسيغضبني بالفعل إذا استمر في هذا.

- أخبريه إذن.

- سأخبره بالتأكيد.

ماريا تنتقل إلى الحاجب الأيسر.

- هل أنت مغرمة به؟

- لا أستطيع الإجابة... قلت لك إنه شخص لطيف وأكثر طيبةً ألف مرة من طوني الوغد. ولكنه سطحي جدًّا. ناهيك عن قصة محل الألبسة هذه... إن حصلتُ على إجازة في عطلة الميلاد سيأخذني معه إلى جمايكا. أليست فكرة رائعة؟

- وهل تمنحينه جسدك؟...

وقفت إريكا على قدميها وتجهمت.

- أي سؤال هذا؟ كلا بالطبع. أقصد أنه لم يحدث أبدا. لكنه يلحّ كثيرا في الأمر... وأنا أحيانا، في النهاية... أمنحه بـ... كيف تقال؟

- ماذا؟

- عندما تقدّمين جزءا من الشيء وليس كلّه، وتتمنّعين قليلًا.

- وما أدراني؟... أتقصدين برويّة؟

- ماذا تقولين بحقّ السماء؟ أية رويّة. كيف تقال الكلمة؟ هيّا... بـ... بـ...

- ببخل؟

- كلا! كلا!

- بالتقطير؟

- بالضبط. أحسنت! إنني أمنحه جسدي بالتقطير.

ذُلّ جراتزيانو بشكل غير مسبوق في لُهاثه المتواصل خلف إريكا. واسودّ وجهه مرات عديدة وهو ينتظرها لساعات حيث يعلم الجميع أنها لم تكن لتأتي. وعاش متسمّرا أمام الهاتف الجوال يبحث عنها بين ريتشوني وضواحيها. وضلّلته ماريابيا مرارا لتغطّي خروج صديقتها مع

«الدي دجي» الوغد. وغرق حتى أذنيه في الديون ليهديها جروا برازيليّا وزورقا خشبيّا خفيفا، وقاربا مطّاطيّا بمحرّك جبّار ذي خمسة وعشرين حصانا، وآلة رياضية أمريكية الصنع لممارسة الرياضة السلبية، وكمّا هائلًا من ثياب تحمل توقيع مصمّمها، وأحذية بكعب مرتفع عشرين سنتمترا، و«ستريو البانغ ان اولوفسن» وعددا لا يحصى من الأقراص الموسيقية، إضافة إلى تكاليف الوشم على ردفها الأيمن.

وكم أمدّه الطيّبون بنصيحة تلو أخرى كي يكفّ عن هذا، لأنه بدا مثيرا للشفقة وهو بين يدي صبيّة ستقضي عليه. لكنه لم يكن يكترث لخطورة الموضوع، بل تاب عن ممارسة الجنس مع الناضجات وتوقّف عن العزف. وظلّ مصرّا على إيمانه بمحلّ الألبسة، وإن لم يعد يتحدث عن المشروع كي لا يزعجها. وبقي مؤمنا بإمكانية تغيير طباعها عاجلًا أم آجلًا، وبنجاحه في اقتلاع تلك العشبة الضارة التي تنمو في رأسها، أي التلفزيون. ثم إنه لم يكن هو من قرّر كل ذلك، بل هو القدر... إنه القدر الذي شاء لها أن ترقص على المنصّة تلك الليلة في ملهى الهانغ أوفر.

وشاء القدر فعلًا، في لحظة معينة، أن يُهيّئ له فرصة لتحقيق آماله.

ذهب الاثنان إلى روما في شهر أكتوبر. واستأجرا شقة مستقلة في منطقة روكا فيردي، مجرّد جحر في الطابق الثامن من بناية ضخمة محشورة بين الطريق الدولي الشرقي والمفترق المروري.

أقنعته إريكا بأن يتبعها إلى العاصمة لأنها كانت ستشعر بالضياع في مدينة كبيرة كروما. وعليه أن يساعدها في إيجاد عمل أيضا.

كان عليهما القيام بأشياء كثيرة: البحث عن مصوّر عبقريّ يصمّم الألبوم، ووكيل لبيب له معارف واسعة، ومعلّم غناء يساعدها في القضاء على لكنتها الشمالية الجلفة وآخر للتمثيل يصقل مواهبها... وإجراء البروفات.

كانا يخرجان منذ الصباح الباكر، ويقضيان النهار ما بين مدينة السينما ومكاتب اختيار الممثلين والإنتاج السينمائي، ليعودا منهكين إلى المنزل في المساء.

وغالبا ما كانت إريكا تنشغل في الدروس، فيحمل جراتزايانو الجرو في السيارة ويذهب به إلى فيلا بورغيزي، ويجتاز حديقة دايني متّجها إلى ساحة سيينا ثم ينزل إلى الأسفل، ليصل إلى حديقة بينشو مترامية الأطراف حيث يمارس رياضة المشي السريع، لأنه يحبّ التنزه بين الحشائش. ويتبعه أنطوان المسكين مهرولًا بأرجله الضخمة التي تميل إلى الخطوة الثقيلة، فيجرّه بالمقبض ويصرخ: «هيا تحرّك بسرعة أيها الكسول!». عبثا يحاول حثّه، فيجلس على مقعد ليدخّن سيجارة بينما يلعق أنطوان حذاءه.

لم تعد وسامته اللاتينية تجذب الأنظار كما كان في الكاريلون ديل ماري، حيث تقع الألمانيات في غرامه من أول نظرة. وصار يبدو أكبر من عمره بعشرة أعوام، إذ استوطنت البقع الداكنة في تجاويف عينيه، ونمت الخصلات السوداء بين شعره، والشيب في لحيته الكثّة. وغدا شاحبا بثيابه الرياضية، وحزينا حتى الموت.

فكل شيء يجري بما لا يشتهي، وإريكا لا تبادله العشق. تعيش معه لا لشيء إلاّ لأنه يدفع أجرة المنزل والدروس والثياب والمصور، ولأنه يعمل كسائق عند حضرتها، ويأتيها بالفرّوج المشوي الجاهز للعشاء.

إريكا لا تحبه ولن تحبه أبدا. لا تبالي بشأنه، فلنقل الحقيقة!

ما الذي أفعله هنا؟ كم أكره هذه المدينة. أكره الزحمة. أكره إريكا. عليّ أن أرحل من هنا. عليّ أن أرحل من هنا. كلمات تشبه التعويذات الهندوسية لا تفارق ذهنه ويكررها بشكل آلي.

ولمَ لا يرحل إذن؟ الأمر في غاية البساطة: يكفي أن يركب الطائرة، وبعدها فليكن الطوفان.

ليته يقدر على ذلك. ثمّتَ مشكلة: إنه يشعر بالتعاسة ما إن تغيب إريكا عن أنظاره ولو لنصف يوم. تضيق أنفاسه وتلتهب معدته ولا يكفّ عن التجشؤ.

كم جميل لو ضغط على زرّ فنظّف ذاكرته، ونزع من رأسه شفتيها الطريّتين وكعبيها الناعمين وعينيها الجذابتين الماكرتين. غسيل دماغ موفّق. لكنها ليست في الدماغ، بل كانت كشظية زجاجية تستقر في أحشائه.

كان مغرما بفتاة مدلّلة... ولئيمة... وحقيرة. وكلما تقدّمت مهارتها في الرقص ازداد غباؤها في التمثيل. كانت تنسى النص وتقف كالبلهاء أمام الكاميرا، ولمدة ثلاثة أشهر لم تنجح سوى في أخذ دور ثانوي في أحد المسلسلات. لكنه يعشقها حتى لو كانت أسوأ ممثلة في العالم.

اللعنة... كلّما تمادت في لؤمها تعلّق بها أكثر. فظيع!

فعندما لا يتصلون بها لأداء البروفة، تقضي إريكا النهار أمام التلفاز وتأكل البيتزا المجمدة والحلوى الجاهزة. لا يروق لها القيام بشيء، ولا تريد أن تخرج أو ترى أحدا. وتقول إنها مكتئبة ولا يناسبها السهر.

ويبقى المنزل عنوانا للقرف. الثياب المتسخة مبعثرة في الزوايا. والفضلات وأكوام الصحون تعلوها بقايا الصلصات. وأنطوان بات يتبول ويتغوّط على الموكيت. وإن كانت إريكا لا تهتمّ لتراكم الأوساخ، فإنّ جراتزيانو ليس معتادا على هذه المعيشة. لا يتمالك نفسه، ويصرخ قائلًا إنه ملّ من هذا الأسلوب الذي يليق بالمتسولين والمشردين. كفى... سيرحل إلى جمايكا. لكنه يحمل الكلب ويرحل إلى الحديقة.

ما العمل لإرضائها؟ حتى الرهبان البوذيون لن يطيقوا غنجها. تبكي من لا شيء. وعندما تستشيط غضبا تتفوه بعبارات فظة تنزل كالصواريخ على قلبه المرهف فيذوب كقالب الزبدة. إنها تغصّ بالسمّ وتقذفه خارجا متى استطاعت.

إنك تثير اشمئزازي كالخراء. أنا لا أحبك، هل تفهمني؟ أتريد أن تعرف ما الذي يبقيني معك؟ هل تودّ معرفة ذلك حقّا؟ لأنني أشفق عليك. هذا هو السبب. إنني أكرهك. وهل تعلم لمَ؟ لأنك تتمنى أن تبوء محاولاتي بالفشل دائما.

وهذا صحيح. كلما فشلت في بروفة طار جراتزيانو فرحا. فهذا يعني خطوة صغيرة باتجاه إيسكيانو. وسرعان ما يشعر بالذنب.

لا يمارسان الحب. وكلما ذكّرها بالأمر فتحت ساقيها وذراعيها وقالت: «تفضّل. انكحني هكذا إن أردت». وبعد أن يئس المسكين فعلها مرّتين. كان كما لو أنّه ينكح جثة حية، تمسك بجهاز التحكّم وتغيّر القناة كلّما ظهر فاصل إشهاري.

واستمرّا على هذا المنوال حتى الثامن من ديسمبر، اليوم الذي مات فيه أنطوان.

حملت إريكا الجرو وذهبت إلى محل العطور. أخبرتها البائعة أنّ دخول الكلاب إلى المحل ممنوع. فتركته في الخارج، إذ ستشتري أحمر الشفاه ولن يستغرق الموضوع إلا لحظة واحدة. لكن لحظة واحدة تكفي كي يرى أنطوان كلبا ألمانيا على الرصيف من الطرف الآخر، وكي يعبر الشارع، وكي تدهسه – في تلك اللحظة – سيارة مسرعة.

عادت إريكا إلى البيت باكية. وأخبرته بالحادث، وبأنها لم تمتلك الشجاعة لتركض إليه. مازال الكلب هناك. فقفز جراتزيانو راكضا.

وجده على حافة الشارع، بالكاد يتنفس، ويسيل دمه القاني من فمه ومنخريه. حمله إلى بيطري، فما كان بإمكان الأخير إلا أن أجهز عليه بحقنة قاتلة.

عاد جراتزيانو إلى البيت. ليس لديه رغبة في الحديث، فقد كان متعلقا بذلك الكلب المسلّي والمؤنس. بدأت إريكا تبرّر سلوكها بالقول إنّ

الذنب ليس ذنبها، إذ غابت عنه لحظة واحدة لشراء أحمر الشفاه، ولم يضرب ذلك الأرعن على فرامل السيارة. فخرج جراتزيانو من جديد. وركب سيارته ليقوم بنزهة، علّه يسلو نفسه، على العقدة المرورية بسرعة 180 كيلو مترا في الساعة.

لقد أخطأ في المجيء إلى روما. لقد أخطأ في كل شيء. لقد تلقّى صفعة كبيرة بحجم جبل. لم تكن تلك أنثى في الحقيقة، بل عقابا إلهيا نزل ليدمّر حياته.

كانا يتشاجران يوميا في الآونة الأخيرة. ولا يصدّق جراتزيانو ما تسمع أذناه من إهانات لاذعة تتجرّأ الفتاة على لفظها دون تحفّظ. وحينما تهاجمه بعنف لا يقوى حتى على صدّها، أو أن يبادلها الشتيمة، أو أن يشمت في عجزها الفنيّ.

في اليوم السابق مثلًا اتهمته بأنه يجلب سوء الحظ، ولو اعتمدت مادونا على شخص مثله لبقيت فيرونيكا لويزا شيكونا فقط لا غير. وأضافت أنّ الجميع في ريتشوني ينعتونه بأسوأ عازف جيتار على الإطلاق، وأنه بارع في بيع المخدرات والمنشطات فقط. وفي الختام، كي تضع حبة الكرز على قالب الحلوى، قالت إنّ جيبسي كينغز فرقة من الشواذ والمنحرفين.

كفى! سأتركها.

عليه أن ينجح في هذا. لن يموت دونها. سوف يقاوم. حتى المدمن يعيش بلا مخدرات. أجل قد تدمن عليها، وتتألم مثل البهائم، وتحسب أنك لن تنجح، ولكنك تنجح في النهاية وتتطهر منها.

لعلّ وفاة أنطوان كانت مفيدة ليعود إلى رشده على الأقل. إذ ينبغي أن يتركها. والطريقة الأفضل تأتي بخطاب موضوعي وهادئ بلا صراخ، يبدو فيه الكلام وكأنه لرجل قويّ ومحطّم القلب في آنٍ واحد. تماما كروبرت دي نيرو في فيلم رسائل غرامية عندما يهجر جان فوندا.

فعلًا، يكفي هذا.

عاد إلى البيت. كانت إريكا تشاهد برامج الأطفال وتأكل شطيرة بالجبن.

- هلا أطفأت التلفاز؟

إريكا تطفئ التلفاز. جراتزيانو يجلس، يكحّ مرتين ويباغت:

- كنت أودّ أن أخبرك بشيء مهمّ. أظنّ أنّ الأمر قد وصل إلى حدّ لا يطاق وعلينا أن ننهي العلاقة. كلانا يعلم ذلك. فلنتحدّث دون مواربة.

ترمقه إريكا بنظرة. فيهاجم جراتزيانو مجدّدا:

- أنا أريد أن أنهي هذه العلاقة. لقد تسّرعت في الوثوق بها وأخْذها على محمل الجدّ. ولكن يكفي الآن. لم يعد لديّ قرش واحد. نتشاجر كل يوم. ثم إنني ما عدت أطيق البقاء في روما. إنها تحبطني وتثير اشمئزازي. وأنا كطائر النورس، أموت إن لم أهاجر. وأنا في...

- عذرا ولكن النورس لا يهاجر.

- أحسنت. أنا كطائر السنونو الملعون. هل ارتحتِ الآن؟ أنا في مثل هذه الأوقات أكون في جمايكا. غدا سأذهب إلى إيسكيانو، أتدبّر بعض النقود وأنطلق. ولن نلتقي بعدها أبدا. يؤسفني أنّ...

وهكذا ينتهي الحديث على طريقة دينيرو.

التزمت إيريكا الصمت.

يا إلهي كيف يتحدث؟ ما هذه النبرة الغريبة التي ينطق بها؟ في العادة لا يخلو حديثه من الصراخ والغضب والمشاحنات، ويحاول أن يُظهر كلّ ما عنده من رومانسيات بالية. أما الآن فيبدو واثقا من نفسه وواقعيّا، يشبه ممثّلًا أمريكيّا بهذه النبرة الجدّية. ربّما أثّر فيه موت أنطوان.

ما الذي قد يحدث إن ذهب بعيداً؟ إنها مشكلة كبرى.

توقعت إريكا أيّاما سوداء في انتظارها. لا تجرؤ حتى على تصوّر مستقبلها دونه. فالحياة هكذا بطعم العلقم، ودون جراتزيانو ستصبح بطعم البراز. من سيدفع أجرة البيت؟ من سيأتي لها بالفرّوج المشوي؟ من سيدفع أجور دروس التمثيل؟ ثم إنها لم تعد واثقة من نجاحها. وربما أدركت أنه لا حظوظ لها، فمنذ أن جاءت إلى روما وهي تقوم بالبروفات ولم تنجح في أيٍّ منها. لعلّ جراتزيانو كان محقّا: إنها عاجزة ولم تُخلق من أجل التلفزيون.

بدأ البكاء يغلبها.

سوف تكون دون ليرة واحدة وسترغم على الرجوع إلى كاستيلو تيزينو. من الأفضل لها أن تتنازل بدل العودة إلى ذلك المكان الجليدي للعيش مع والديها المملّين. حاولت أن تبتلع اللقمة لكنها وقفت في حلقها أمرّ من عصارة المرارة.

- هل تتحدث جدّيا؟

- أجل.

- هل تريد أن تذهب بعيداً؟

- أجل.

- وأنا ماذا أفعل؟

- لا أدري.

أطبق الصمت عليها ثانية.

- هل اتخذت قرارك؟

- أجل.

- قرار لا رجعة فيه؟

- أجل.

غصّت بالنواح والشطيرة بين أسنانها والدموع تخرّب زينتها، فيما

كان جراتزيانو يتسلّى بولاّعة الزيبو؛ يشعلها ويطفئها.

- أنا متأسف. ولكن من الأفضل أن ننفصل هكذا. على الأقل ستكون لدينا ذكرى طيبة...

- أريد... أريد... أريد الذهاب معك. – إريكا تجهش بالبكاء.

- ماذا؟!

- أريد... أرر... أريد الذهاب معك.

- إلى أين؟

- إلى إيسكيانو.

- وماذا ستفعلين هناك؟ ألم تقولي إنها بلدة سخيفة؟

- أريد التعرف إلى والدتك.

- تريدين التعرف إلى والدتي؟ – جراتزيانو يردّد كالببّغاء.

- أجل. أريد التعرف إلى جينا، وبعدها نذهب إلى جمايكا لقضاء العطلة.

هبط الصمت عليه.

- ألا تريدني أن آتي معك؟

- كلا. من الأفضل أن أذهب بمفردي.

- جراتزي... لا تدعني وحيدة. أرجوك! – أمسكت بيده.

- هكذا أفضل... أنت تعرفين هذا أيضا... الآن...

- لا يمكنك أن تتركني في روما يا جراتزي.

شعر جراتزيانو بالقلق يعصر أمعاءه. ماذا تريد؟ لا يمكنها أن تفعل ذلك. هذا ليس عدلاً. تارة تريده أن يتركها وتارة تريد اللحاق به.

- جراتزيانو تعال إلى هنا. – قالت إريكا بصوت يئنّ من الحزن.

فنهض ليجلس بقربها. قبّلت كفّيه وضمّتهما إليها، ثم أسندت رأسها إلى صدغه. وعاودت البكاء.

شعر حينها برعشة في أمعائه، كأنّ في بطنه ثعبانا يستيقظ من

سباته. وراحت عظام صدره تتمدد على حين غرّة، فأخذ بالشهيق والزفير. ضمّها بين ذراعيه، وهي تقاوم شهقاتها: «أنا آسـ... سـ... ـفة.. أنا آسفة!»

إنّها هكذا. طفلة صغيرة. ضعيفة. طفلة وفي حاجة إليه. أجمل طفلة في العالم. إنّها طفلته.

- حسنٌ. موافق. فلنذهب بعيدا عن هذه المدينة الكريهة. لن أدعك وحيدة. لا تقلقي. ستأتين معي!

- نعم يا جراتزي. خذني معك.

هاهما يتبادلان القبلات بين اللعاب والدموع، فيمسح الكحل عن خدّها بكمّ كنزته.

- أجل. سننطلق صباح الغد. ولكن عليّ الاتصال بوالدتي كي تُهيّئ لنا الغرفة.

ابتسمت إريكا.

- جيد. فلننطلق إذن! – ثم عبست. – يا للمصيبة. لديّ التزام هنا بعد غد.

- وماذا لديكِ؟ – سألها مرتبكا.

- بروفة

- يا إلهي يا إريكا... كأننا لم نتحدث بشيء.

- اسمعني. الوكيل في حاجة إلى فتيات يتظاهرن بالقيام ببروفة، لأن المخرج سبق واختار واحدة بعينها. لكن يجب أن تظهر المنافسة حقيقية. محسوبيات كالعادة. ولقد وعدت الوكيل بالمجيء.

- لا تذهبي. سحقا لهذا التافه الكذاب!

- إنني مرغمة على الذهاب. لقد قطعت وعدا بذلك. ثم إنني أردّ له الجميل بعد كل المساعدات التي قدّمها لي.

- وأي مساعدات قدّمها لك؟ لا شيء. لم يقم إلا بسرقة أموالنا

فقط. أرسليه إلى الجحيم وانسي أمره فنحن علينا أن نغادر هذا المكان.

أمسكت إريكا بيديه.

- اسمع. فليكن كالتالي: أنت تنطلق غدا. وأنا أنهي البروفة، أُوضب حقائبي، أغلق البيت وألحق بك بعد غد.

- ألا تريدين أن أنتظرك؟

- لا. اذهب أنت، فروما تحرق أعصابك. سوف أستقلّ القطار. وسيكون كل شيء جاهزا حالما أصل. اشتر الكثير من السمك. إنني أحب السمك.

- طبعا سأشتريه. سأشتري «أبو الشصّ» أيضا. هل تحبّينه؟

- لا أعرف. هل هو لذيذ؟

- لذيذ جدّا. والمحار، هل تحبّين المحار؟

- المحار يا جراتزي المحار. أنا أعشق الباستا بالمحار.

أضاءت البسمة وجهها فأنارت البيت كلّه.

- أمي فنّانة في تحضير الباستا بالمحار. سوف ترين كيف تغمرك السعادة.

قفزت إريكا وحطّت بين ذراعيه.

لقد مارسا الحبّ في تلك الليلة. وللمرة الأولى منذ ارتباطهما، لعقت إريكا قضيبه بملء فمها. وكان جراتزيانو مستلقيا على ذلك السرير المبعثر والمليء بالقمصان المتسخة وعلب الأقراص وفتات الخبز، ينظر إليها وهي بين ساقيه. لماذا قررت أن تفعل ذلك؟ ألم تقل دوما إنّ هذا يثير اشمئزازها؟ ما الرسالة التي أرادت إيصالها؟

الرسالة واضحة. إنها تحبّني.

اهتاجت مشاعره وبلغ النشوة. وغفت إريكا عارية بين ذراعيه، فضمّها بحنان كي لا يوقظها، ولم يصدّق ما حصل من شدّة الدهشة...

كانت تلك الحسناء له وحده. ولا تملّ عيناه من النظر إليها ولا يداه من ملامستها ولا أنفه من شمّها.

وكم من مرة تساءل كيف لمخلوق بهذا الكمال أن يولد في بلدة نسيها الله. إنها معجزة الطبيعة. وكانت تلك المعجزة ملك يديه. وها هما معا يربطهما الحبّ الذي لن يتلاشى أبدا، رغم كل الخلافات وسوء الفهم الناتج عن طبعها وذنوبه.

لقد أخطأ حقا، وكان ضعيفا ومتردّدا ومتهاونا. ساندها خلال نزواتها الحمقاء وترك الوضع يتدهور حتى وصل إلى تلك الحالة العصيبة. لكنّ انقلابه الأخير جاء في أوانه وحرّر كليهما من شبكة العنكبوت التي كادت أن تُطبق عليهما معا. إريكا من جانبها، شعرت أنّها ستخسره إلى الأبد، وأنّ هذه المرة لم تكن كسابقاتها. فلم تسمح له بأن يتركها ويمضي في طريقه.

كان يقبّل رقبتها، وقلبه يفيض محبّة وعشقا. «هلّا جلبت لي كأس ماء يا جراتزي؟». أتى لها بالماء، وجلست مغمضة العينين لتمسك الكأس بيديها الاثنتين وتشرب بنهم حتى تسرّب الماء إلى صدرها.

- أصدقيني القول يا إريكا. هلْ أنت تحبّينني؟ — سألها وهو يغوص في السرير.

- نعم. — أجابته وغاصت بين أحضانه.

- حقا؟

- حقا!

- و... هل تريدين الزواج بي؟ — زلّ لسانه، كأنّ الأرواح الشريرة وضعت ذلك السؤال في فمه كي تخرّب كل شيء.

تحرّكت إريكا كالأطفال وغطّت وجهها باللحاف وقالت: أجل.

أجل؟! اندهش جراتزيانو لوهلة ووضع يده على فمه وأغمض عينيه مندهشا. ماذا قالت؟ هل قالت إنها تريد الزواج به حقا؟

- حقا؟
- نعم، نعم. – تمتمت إريكا في نعاسها.
- ومتى؟
- ... في جمايكا.
- حقا. في جامايكا. سوف نتزوج على الشاطئ الصخري. ادوارد بيتش، إنه مكان مذهل.

هذا هو السبب الذي جعل جراتزيانو بيليا يغادر روما، في التاسع من ديسمبر حوالي الخامسة فجرا، غير آبهٍ بالعاصفة، إلى إيسكيانو سكالو. حمل معه بعض الأسلحة والحقائب... وخبرا سارّا يثلج صدر والدته.

3

قد يتّضح مشهد هذه القصة لمسافر على متن منطاد، حاملًا بيديه المنظار، أكثر من أي شخص آخر. سوف يلاحظ، على الفور، ذلك الخدش الأسود الطويل الذي يقطع السهول. إنه أوريليا، الطريق السريعة التي تنطلق من روما وتصل حتى جنوة وما بعدها. تظلّ الطريق مستقيمة كمهبط الطائرات لمسافة خمسة عشر كيلومترا، ثم تنحني تدريجيّا نحو اليسار لتبلغ بلدة أوربانو التي تشرف بأكملها على البحيرة. ليس أول ما تنصح به الأمهات، في تلك المناطق، أن «لا تقبل السكاكر من الغرباء» بل «كن حذرًا من الأوريليا». إذ ينبغي أن تلتفت يمينا ويسارا مرتين على الأقل قبل أن تقطع الطريق؛ سواء كنت على قدميك أو بالسيارة (عسى ألّا يتوقف المحرّك في منتصف الدرب). تمضي السيارات مسرعة كسمك القرموط؛ وفي الأعوام السابقة تمّ تسجيل الكثير من حوادث المرور القاتلة. ومؤخرّا تمّ وضع إشارات مرورية تحدّد السرعة القصوى بما لا يتعدى التسعين كيلومترا في الساعة،

وأجهزة رصد السرعة أيضا؛ لكنّ الناس لا يقيمون لها اعتبارا. وخلال نهايات الأسبوع ذات الجوّ المعتدل، أثناء الصيف خصوصا، تزدحم هذه الطريق بطابور يمتدّ عدة كيلومترات بسبب المواطنين الذين يخرجون أفواجا من العاصمة بحثا عن الاستجمام في الأرياف الشمالية.

ولو يمّم المسافرُ العزيزُ المنظارَ نحو اليسار لرأى ساحل كاستروني الذي يرتطم بالبحر مباشرة. حتى أنّ رمال الشاطئ، عندما تضربها الأمواج العالية، تتراكم كالكثبان؛ وعلى من أراد الوصول إلى البحر أن يتسلّقها أوّلًا. لا يوجد هناك أيّ مصيف بحريّ. في الحقيقة ثمّتَ واحد يقع على بضعة أميال نحو الشمال، لكن سكان المنطقة لا يقصدونه لأنه يغصّ بالمراهقين القادمين من روما لتناول المكرونة بجراد البحر ونبيذ الفلانجينا الأبيض. مصيف واحد لا وجود فيه لمظلات ولا لأرائك استلقاء أو لدرّاجات بحريّة، لذلك يظلّ خاويًا حتى في شهر أغسطس.

غريب؛ أليس كذلك؟

كلاّ ليس غريبا. فالمنطقة محميّة طبيعيّة مخصّصة لتوطين النُحام المهاجر. ولا توجد، على عشرين كيلومترا من الساحل، سوى ثلاثة مداخل إلى البحر اعتاد المستجمّون على التكدّس قربها خلال الصيف. ولكن يكفي أن تبتعد ثلاثمائة متر فقط حتى يُدهشك خلوّ المكان من البشر.

ثمّة شريط أخضر طويل خلف الشاطئ تماما، يشتبك فيه العوسج والأشواك بالأزهار والعلّيق والأعشاب الثخينة التي تنبت في الرمل، من الصعب اجتيازه؛ إلاّ إذا رغبتَ في نهاية مأساوية كنهاية القدّيس سيباستيان. بعد الشريط مباشرة، تبدأ الأراضي الزراعية (القمح والذرة وعبّاد الشمس، حسب الموسم).

ولو مال المسافرُ الطيّبُ بالمنظارِ نحو اليمين لرأى بحيرة كبيرة ذات مياه مالحة على شكل حبّة فاصولياء، يفصل بينها وبين البحر شريط أرضي صغير، وتدعى بحيرة تورشيلي؛ يطوّقها سياج، والصيد

فيها ممنوع منعا باتّا. وفي فصل الربيع تصل إليها الطيور المنهكة من إفريقيا. وهي عبارة عن مستنقع مليء بضروب البعوض اللاّسع والمضطرب وثعابين المياه والأسماك وطيور البلشون والغرّة والقوارض والزواحف وشتى أنواع الضفادع وألف حيوان صغير قادر على العيش بين أعواد القصب والطحالب. بجانبها، تتمدّد السكّة الحديدية، بالتوازي مع الأوريليا، لتصل بين روما وجنوة. وفي كل ساعة تقريبا، خلال النهار، يمرّ قطار اليوروستار مُصدرا صريرا حادّا.

وهاهي إيسكيانو سكالو أخيرا، إلى جانب البحيرة.

إنها بلدة صغيرة؛ أعرف ذلك. لقد تطورت، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، حول تلك المحطة الصغيرة التي يتوقف فيها قطار محلي مرّتين فقط في اليوم.

فيها كنيسة، وساحة، وشارع عام، وصيدلية (مقفلة على الدوام)، ومحلّ لبيع الأغذية، وبنك (فيه صرّاف آليّ أيضا)، ومجزرة، ومحلّ خياطة، وبائع جرائد، وجمعية تعاونية، ومقهى، ومدرسة، ومدينة رياضية، وحوالي خمسين بيتا سطوحها من قرميد تسكنها قرابة الألف نسمة.

لم يكن في هذا المكان سوى المستنقع ومرض المالاريا قبل وقت قريب، إلى أن جاء الدوتشي واستصلح الأراضي.

لو ترك المسافرُ الشجاعُ الهواءَ يدفعه إلى الجانب المعاكس لأوريليا لرأى أراض زراعية أخرى وحقول زيتون ومروجا للرعي وقطعة أرض فيها أربعة بيوت تدعى سيرا. من هنا ينطلق درب حصويّ صوب الهضاب وغابة أكواسبارتا، المعروفة بخنازيرها البرّية، وقُرون أبقارها الطويلة؛ والفطر البرّيّ أيضا إذا كان الموسم موفّقا.

هذه هي إيسكيانو سكالو. مكان غريب، قريب جدّا من البحر لكنّه يبدو بعيدا عنه ألف ميل. ذلك لأنّ الحقول تدفعه خلف الحاجز الشوكي. وبين الحين والآخر تصل رائحته مع الرمل الذي تحمله الرياح.

لابدّ أنّ هذا هو السبب الذي جعل إيسكيانو سكالو بعيدة عن السياحة. فهنا لا يوجد ما يستمتع به السياح، لا شقق للإيجار ولا فنادق مزوّدة بمسبح وهواء مكيّف، ولا كورنيش بحريّ يتنزّه فيه الناس ولا ملاهٍ يتوجّه إليها الشبّان للشرب مساءً. هنا تلتهب السهول كموقد الشواء صيفا؛ وتهبّ عواصف تقتلع الأذنين شتاء.

والآن، على مسافرنا أن يهبط قليلًا حتى يتمكّن من رؤية أفضل للعمران الحديث خلف المجمّع الصناعي.

إنّها المدرسة المتوسّطة. مدرسة مايكل أنجلو بوناروتّي. في الباحة يوجد بعض التلاميذ الذين يمارسون الرياضات البدنية. الجميع يلعب كرة السلة والكرة الطائرة، عدا مجموعة من الفتيات الجالسات على حافّة الجدار المنخفض يُدَرْدِشْنَ في أمورهنّ الخاصة. وبعيدا عنهنّ تربّع فتى في مكان مُشمس يقرأ كتابا.

هذا هو بييترو موروني، بطلُ هذه الحكاية الرئيسيّ.

4

لم يكن بييترو يحبّ لعب كرة السلة، ولا الكرة الطائرة؛ ولا حتى كرة القدم. ليس لأنّه لم يحاول البتّة، فقد حاول مرارا، وكيف لا؟! ولكن ربّما لأنّ بينه وبين الكرة سوءَ فهم قديمًا. فكلّما أراد أن يضرب الكرة يمينا ذهبت شمالا. لذلك فمن الأفضل حسب رأيه، أن تنسى الموضوع برمّته عندما يحول سوء الفهم بينك وبين شيء ما. ثمّ إنّ هناك أمورا أخرى كانت تستهويه، كالدرّاجة الهوائيّة مثلا. فقد كان يعشق التنزّه عليها في الدّروب الضّيقة داخل الغابة. وكانت بعض الحيوانات، وليس كلّها، تثير اهتمامه، ولا سيّما تلك التي تثير اشمئزاز الناس: أفاع، ضفادع، سحالٍ، حشرات... وكان يفضّل أن تكون هذه المخلوقات مائيّةً. كسمكة البلامةً. إنّها قبيحة، أجل، وتسبّب لسعتها ألما حادّا وتعيش مختبئة

تحت الرمل؛ لكنّ إبرتها التي تحتوي على السمّ (الذي لم يتوصّل العلماء إلى معرفة مكوّناته حتى الآن) قادرة على شلّ ساق الإنسان؛ وهذا كاف لينال إعجاب بييترو. فلو خُيّر بين أن يكون نمرا أو بلامة، لاختار الثانية طبعا. وكان يحبّ مخلوقا آخر: البعوض. إذ توجد هذه الحشرة في كل مكان، ولا يستطيع الإنسان أن يقلّل من خطورتها. ولهذا اختارها موضوعَ بحثه في مادّة العلوم برفقة جلوريا: الملاريا والبعوض. وفي عصر ذلك اليوم كان سيذهب معها إلى أوربانو لإجراء مقابلة حول الملاريا مع طبيبٍ من أصدقاء والدها.

آنذاك كان يقرأ كتابا عن الديناصورات. وكان الكتاب يتحدّث عن البعوض أيضا؛ فقد يستعين العلماء يوما بهذه الحشرة ليعيدوا استنساخ الديناصورات. إذ عثروا على أحافير البعوض واستخرجوا منها الدّم الذي امتصّته من الديناصورات واكتشفوا الشيفرة الجينية لتلك الديناصورات. لم يستوعب بييترو الموضوع بشكل جيد، لكن في المحصّلة، لولا البعوض لما تمّ إنتاج فيلم جوراسيك بارك.

كان بييترو سعيدا حينها لأنّ معلّم التربية الرياضية أعفاه من اللعب مع الآخرين.

- ما قولك؟ هل تعرف الأسئلة التي ينبغي أن نطرحها على الطبيب كولاسانتي؟

رفع بييترو رأسه. كانت جلوريا تسأله؛ حاملة الكرة بيدها وتتنفّس بعمق.

- أجل... تقريبا...

- جيّد، فأنا لا أعرف شيئا. - ضربت جلوريا الكرة بقبضتها وركضت نحو ملعب الكرة الطائرة.

كانت جلوريا شيلاني صديقة بييترو المفضّلة، وفي الحقيقة كانت صديقته الوحيدة.

لقد حاول في الماضي أن يبني صداقات مع الذكور، ولكن دون نجاح يُذكر. وقد رآه بعضهم مرّتين مع باولينو آنسيلمي، ابن بائع التبغ. كانا في المضمار الكبير يتسابقان على الدّراجة. لكنْ لم يُكتب التّوفيق لهذه الصحبة. إذ أنّ باولينو يصرّ على السّباق، وبييترو لا يحبّ المنافسات. تنافسا مرّتين وفاز باولينو بكليهما، ثم لم يلتقيا بعدها.

ما العمل؟ فالسّباق كان من بين الأمور التي يراها سخيفة. وحينما يقترب من نقطة الفوز قبل خصمه، مسرعا كطلقة نارية منذ الانطلاق حتى قُبيْل النهاية بثوان، لا يقدر إلّا أن يلتفت خلفه ليرى وحشا بأنياب بارزة يتبعه، ممّا يشلّ ساقيه فيبلغه هذا الأخير ويتخطّاه ثم يفوز.

أمّا برفقة جلوريا فليس هنالك أيّ سباق؛ وما من داعٍ لاستعراض العضلات. معها، يكون في أفضل حالاته. وهذا كاف.

يرى بييترو، وكثير من الآخرين الذين يشاطرونه الرأي، أنّ جلوريا من أجمل الفتيات في المدرسة. كانت هنالك جميلات غيرها طبعا، مثل تلك الفتاة من الصّف «الثالث ب» بشعرها الأسود الطويل حتى مؤخّرتها؛ وأماندا من الصّف «الثاني آ»، التي كانت عشيقة فياما. ولكن بييترو يرى أنّهما لا تستحقّان أيّ إعجاب. بل كانتا كسمكة البلامة بالمقارنة مع جلوريا. ولم يكن ليبوح لها برأيه يوما، لكنّه كان واثقا بأنّها ستنال لقب ملكة جمال إيطاليا عندما تكبر، وستملأ صورها مجلّات الموضة.

ورغم كلّ هذا، كانت جلوريا تفعل ما بوسعها لتبدو أقلّ جمالًا ممّا هي عليه. فكانت تقصّ شعرها ليغدو قصيرا كالصبيان؛ وترتدي ثوبًا من الجينز المتّسخ ذي اللون الحائل وقمصانا إسكوتلندية رثّة وحذاء رياضيّا باليا، من نوع أديداس. وكانت الخدوش تغطّي ركبتيها على الدّوام، واللاّصق الطبيّ يخفي بعض الجروح التي تتعرّض لها إثر تسلّقها جدارا أو شجرة. ولم تكن تهاب مصارعة أحد، حتى لو كان تمساحا مثل أندريا باتشي.

لم يحدث أن رأى بييترو صديقته بزيّ الإناث سوى مرّة أو مرّتين في حياته كلّها.

وكانت الحماقة تدفع الكبار من الصّف الثالث (وأحيانا الأكبر سنّا كأولئك الذين يجلسون في المقهى المقابل) ليجرّبوا حظوظهم في الارتباط بها؛ فيأتونها بهدايا صغيرة، أو يعرضون عليها توصيلة إلى البيت بالدّراجة النّارية. لكنّها لم تكن تكترث لأمرهم ولا حتى بالحدّ الأدنى من التواصل. كانوا برأيها أقلّ قدرا من روث البقر.

فلماذا كانت جلوريا، وهي أمنيّة المراهقين في البلدة ومعذّبة قلوبهم وملكة الجمال التي لم يتراجع مستواها عن المرتبة الثالثة على لائحة «أكثر الفتيات إثارة» المنقوشة على أبواب مراحيض الذكور؛ لماذا كانت تقبل بييترو صديقا محبّبا دون غيره، وهو الخاسر والمغفّل والمنبوذ بلا أصدقاء؟

في الحقيقة كان ثمّتَ سبب لذلك، فالصداقة بينهما لم تبدأ من مقاعد المدرسة.

تتكوّن تلك المدرسة من طبقات مغلقة (ولا تقل لي إنّ مدرستك لم تكن كذلك) تشبه الطبقات الاجتماعية في الهند إلى حدّ كبير. هنالك طبقة «المسحوقين» (وتشمل ضعاف القلوب *والمتبوّلين من الخوف والمتخاذلين إلخ*)، وهناك طبقة «العاديّين»، وأخيرًا طبقة «النبلاء»، ومن الممكن أن يسقط العاديّون وينضمّوا إلى المسحوقين، أو أن يقفزوا ويتحّولوا إلى نبلاء. ولكن، ومنذ اليوم الأول في المدرسة، إذا نزعوا منك الحقيبة وألقوها من النافذة أو أدخلوا الطباشير في شطائرك، فسوف تعدّ من بين المسحوقين. لا وجود للشافعين حينها. سوف تبقى في هذه الطبقة للسنوات الثلاث القادمة (وقد تبقى فيها لأعوامك الستين القادمة إن لم تتدبّر أمرك)، وعليك أن ترضى بما كُتب عليك... هكذا كانت الأحوال.

أما بييترو وجلوريا فقد تعارفا في سنّ الخامسة. إذ أنّ والدة بييترو

كانت تذهب ثلاث مرّات أسبوعيًا لتنظيف الفيلا التي يسكنها آل شيلاني، أي عائلة جلوريا، وتصطحبه معها. كانت تعطيه ورقة بيضاء وأقلام الرسم وتطلب منه أن يبقى جالسا إلى الطاولة في المطبخ. «حافظ على هدوئك، أتفهم؟ دعني أعمل كي نعود إلى البيت باكرا». فيبقى جالسا بهدوء على ذلك الكرسي لساعتين اثنتين وهو يخربش على تلك الورقة. ولم تكن الطبّاخة، العجوز العانس التي تعيش في ذلك المنزل منذ وقت طويل، تصدّق ما تراه عيناها. «إنّك ملاك هبط من الجنّة أيها الصغير!».

كان طفلًا ودودا ومؤدبا، لم يكن يأخذ حتى قطعة حلوى دون موافقة والدته. أمّا جلوريا فكانت أيّ شيء عدا كونها بنت الأكابر. كانت كشيطان مدلّل لا ينفع معه سوى الضرب على المؤخّرة. ولم تكن الدّمى في ذلك المنزل تعيش أكثر من يومين، وإذا أرادت أن تشرح لك أنها لا تريد حلوى الشوكولا، ترميها بين قدميك دون خجل.

انبهرت الطفلة جلوريا عندما عثرت على دمية حيّة، من لحم وعظم، في المطبخ. جرّت المسكين من يده وأخذته إلى غرفتها لتلعب به (معه). وقد آذته قليلًا في البداية *(ماما ماما! جلوريا أدخلت إصبعها في عيني!)* حتّى أدركت أنه كائن بشري.

سَعِدَ السّيد شيلاني بما رأى: «الحمد لله أنّ بييترو موجود. لقد هدأت جلوريا كثيرا. المسكينة! إنها في حاجة إلى أخ صغير». ولكن ثمّتَ مشكلة صغيرة، فالسّيدة شيلاني دخلت سنّ اليأس؛ ولم تكن لتتخيّل أن تتبنّى طفلًا ما. ثم كان هنالك بييترو، الملاك الهابط من الجنّة.

باختصار، بدأ الطفلان الحياة معا، يلتقيان كل يوم، كأخوين بالضّبط. وعندما أخذت صحّة مارياجراتزيا موروني، والدة بييترو، تتدهور قليلًا وتتألّم من شيء غريب وغامض يبقيها بلا همّة («شيء ما... لا أعرف. كأنّ بطاريّتي في حاجة للشّحن»)، شيء ما يصفه طبيب التأمين الاجتماعيْ بالاكتئاب ويسمّيه السّيد موروني بالتكاسل

وعدم الرغبة في بذل الجهد في تلك الفيلا، فما كان من السّيد ماورو شيلاني، مدير مصرف روما المركزي في فرع أوربانو ورئيس النادي الشراعي في كيارينزانو، إلا أن تدخّل في الوقت المناسب مع زوجته آدا ليضعا حلاّ للمسألة.

1. ينبغي مساعدة المسكينة مارياجراتزيا فورا. يجب أن يعاينها طبيب مختصّ في الحال. «غدا سأتّصل بالبروفسور كانديلا... ألا تذكرينه؟ إنه كبير الأطباء في مستوصف فيلادي فيوري في شيفيتافيكيا...»
2. لا يمكن أن يبقى بييترو مع والدته طيلة الوقت. «هذا ليس مناسبا لكليهما. بعد المدرسة سيعود إلى هنا مع جلوريا».
3. كان والد بييترو مدمنا على الكحول، وله سوابق، وكاد طبعه العنيف يفتك بتلك البائسة وصغيرها الملاك. «أتمنى ألاّ تسبّب المشاكل يا سيّد موروني. وإلاّ فانس أمر القرض».

وجرى كل شيء بالتمام والكمال. وُضعت المسكينة مارياجراتزيا تحت العناية المركّزة عند البروفسور كانديلا، ذلك الطبيب الحكيم الذي وصف لها كوكتيلًا من الأدوية النفسيّة تنتهي كلّها بـ«يل»: (أنافرانيل، توفرانيل، نارديل إلخ) أدخلتها من أوسع أبواب العالم الخيالي لمثبّطات أوكسيد أحادي المين. وهو عبارة عن عالم ضبابيٍّ مريح، يتكوّن من ألوان باستيلية وامتدادات رمادية وغمغمة كلمات لا تنتهي ومزيد من الوقت المنقضي في تكرار: «يا إلهي نسيت ما أريد تحضيره للعشاء».

استقرّ بييترو تحت الجناح الأمومي للسيّدة شيلاني وما لبث يتردّد إلى الفيلا كل يوم بعد الظهر. ومن الغريب أيضا أنّ السّيد موروني استقرّ تحت الجناح المهيب والعظيم لمصرف روما.

أنهى بييترو وجلوريا المرحلة الابتدائية معا في المدرسة نفسها، ولكن ليس في الصف نفسه. وجرى كل شيء على قدم وساق حتى دخلا إلى

المتوسطة في الصّف نفسه. فتعقّدت الأمور لأنّ كلاً منهما ينتمي إلى طبقة مختلفة. غير أنّ صداقتهما تأقلمت مع الوضع، وصارت تشبه نهرا يجري تحت الأرض ولا يراه أحد، تضغط عليه الصخور، لكن ما إن يجد كوّة أو ثغرة حتى ينبثق بكامل طاقته المذهلة.

قد يبدو لك هذان الاثنان، من الانطباع الأول، كشخصين لا يعرف أحدهما الآخر، ولكنك ستكون أعمى إن لم تر أحدهما يبحث عن الآخر خلال الاستراحة، وكيف يتلامسان ويتجالسان كجاسوسين في زاوية يثرثران في ما بينهما؛ وكيف يبقى بييترو واقفا بعد الدّوام، في آخر الشارع، حتى يرى جلوريا تركب الدرّاجة وتتبعه.

5

كانت السيدة جينا بيليا، والدة جراتزيانو، تعاني من ارتفاع ضغط الدّم. إذ يتراوح بين 120 و180. وكان أيّ تأثير بسيط على المشاعر يكفي لينهال عليها الدوار والغثيان واختلاج في عضلة القلب وتصبّب العرق البارد.

كانت تشعر بالألم من شدّة الفرحة عندما يعود ابنها إلى البلدة، بشكل عام، وتلزم السرير لأكثر من ساعتين. لكن عندما وصل جراتزيانو من روما، في ذلك الشتاء، بعد سنتين من الغياب التّام، صوتا وصورة، وبعد أن قصّ عليها لقاءه بفتاة من الشمال ونيّته الزّواج بها والعودة للعيش في إيسكيانو، قفز قلب المسكينة في صدرها كالنابض المعدني بينما كانت تحضّر باستا الفيتوشيني، فأغمي عليها وانهارت على الأرض لتجرّ معها الطحين والشوبق خلف الطاولة.

عندما استفاقت لم تعد تتحدّث أبدا. وبقيت هناك على الأرض كسلحفاة مقلوبة بين عجين الفيتوشيني تغمغم بكلمات غير مفهومة كأنّها صمّاء بكماء.

جلطة، فكّر جراتزيانو يائسا. توقّف قلبها عن الخفقان لوهلة فتأذّى دماغها.

هرع جراتزيانو إلى الصالون ليتّصل بالإسعاف، لكنّه عاد ورأى أمّه في أفضل حال تنظّف أرضيّة المطبخ. أعطته ورقة مكتوب عليها: «إنّني بخير. لقد نذرت عند سيّدتنا العذراء في كنيسة شيفيتافيكيا أنّني لن أتكلّم لأسبوع كامل إذا ما عدت حاملًا نبأ زواجك. فلبّت العذراء برحمتها الواسعة دعائي وعليّ أن أبقى صامتة أسبوعا كاملا».

قرأ جراتزيانو الورقة وألقى بنفسه على الكرسي محبطا.

– يا أمّاه، ألا تلاحظين أنّ هذا غير معقول؟ كيف ستعملين؟ ثم كيف سأقنع إريكا بالأمر؟ هل تريدينها أن تحسبك مجنونة كليّا؟ توقّفي عن هذا أرجوك!

فكتبت السّيدة بيليا: «لا عليك. سأشرح الموضوع لخطيبتك. متى تصل؟».

– غدا. ولكن يا أمّاه أتوسّل إليك أن تكفّي عن هذا الآن. لم نحدّد موعد الزّواج بعد. توقّفي عن هذا أرجوك!

أخذت السّيدة بيليا تقفز كجنّيّ مصاب بالهستيريا في المطبخ وهي تخور وتضغط يديها على السمّاعة في أذنيها. كانت امرأة مفلطحة وقصيرة القامة، عيناها برّاقتان وفمها كمنقار الديك.

حاول جراتزيانو اللّحاق بها كي يطوّقها بذراعيه.

– أمّاه أمّاه... توقّفي أرجوك. ما الذي دهاك؟

جلست خلف الطاولة وبدأت تكتب: «البيت مقرف. عليّ أن أنظّفه بالكامل. يجب أن أرسل الستائر إلى المصبغة. ينبغي أن أمسح الغبار في الصالون. عليّ الذهاب للتسوّق. اخرج أنت. دعني أعمل». ثم ارتدت معطفها ووضعت حقيبة الستائر على كتفيها وخرجت هي من المنزل.

سأشرح لكم أكثر. إنّ أنظف المختبرات المعقّمة في أشهر المستشفيات

تعدّ أقلّ نظافة من مطبخ السّيدة جينا. ولو استخدمنا الميكروسكوب الإلكتروني الدّقيق فإننا لن نجد أثرا لأيّ ذرّة غبار أو بكتيريا. بوسعكم أن تأكلوا على بلاط ذلك المنزل، وبوسعكم أن تشربوا الماء من صنبور المرحاض بكل طمأنينة. كان لكل تحفة في البيت مكانها، ولكل نوع من الباستا وعاؤه الخاص. وفي كل يوم كانت تراقب جميع زوايا البيت وتمرّ عليها بالمكنسة الكهربائية. عندما كان جراتزيانو طفلا لم يكن يستطيع الجلوس على الأريكة لأنّه قد يتلفها، وكان عليه أن ينتعل خُفّيه ويتابع التلفاز جالسا على الكرسي. فالنظافة أوّل وساوس السّيدة بيليا. الدّين وسواس ثانٍ. الطبخ ثالث الوساوس وأخطرها على الإطلاق.

كانت تُحضّر كمّيات مهولة من طعام في منتهى اللّذة: أنواع متعددة من المكرونة، صلصات الراغو التي يستغرق تحضيرها ثلاثة أيام، كافة أصناف اللحوم الطازجة والمقددة، الباذنجان المطبوخ مع جبن البارميزان، قوالب الأرزّ المرتفعة كقوالب الأعراس، البيتزا المحشوة بالبروكولي، ضروب من الجبن والمرتديلا، المعجّنات المحشوّة بالخرشوف والباشاميل، سرب من الأسماك الملفوفة بالقصدير، صدف البحر المرطّب، حساء من كل نكهة بحرية...إلخ. وهكذا تتوزع خيرات الله إمّا داخل ثلاّجاتها الثلاث المكدّسة أو على زبائنها، فهي تعيش وحيدةً منذ وفاة زوجها قبل خمسة أعوام.

كانت تفقد صوابها كليّا في عيد الميلاد وعيد الفصح ورأس السنة وأيّ مناسبة تستحقّ وليمة عامرة. تتقوقع على نفسها في المطبخ لأكثر من ثلاث عشرة ساعة متواصلة وهي تصبّ الطعام وتزيّت المقلاة وتغربل البازلاّء. تمرّ على وجهها كل ألوان الطيف وتصاب عيناها بأرق الشياطين، وتضع غشاء على رأسها كي لا تلوث شعرها، وتظلّ تفقس البيض وتصفّر وتغنّي مع الراديو كالأشباح. وخلال الغداء لا يراها أحد، إذ تقضي المدّة ذهابا وإيابا بين المطبخ والصالون كالخفّاش

المذعور، وهي تتصبّب عرقا وتتنهّد وتغسل الأطباق. وغالبا ما تسبّب استياء الضيوف، فليس من المحبّذ أن تأكل عند سيّدة ممسوسة تراقب تعبيرات وجهك كي تقدّر شهيّتك على طبق اللازانيا، ولا تدعك تنهي الصحن حتى تملأه لك من جديد وأنت تخشى أن تصيبها الجلطة، في ظروف كهذه، بين اللحظة والأخرى.

من الصّعب أن يفهم أحد لماذا تتصرّف على هذا الشكل، وما نوع العذاب النفسي الذي تعيشه وحيدة في المطبخ. ويتهامس المدعوّون فيما بينهم، بعد الطبق الثاني عشر، عمّا تنوي فعله هذه المرأة وإلى أين تريد أن تصل. هل تريد أن تقتلهم؟ هل تريد أن تطبخ للعالم بأسره؟ هل تريد أن تقضي على الجوع بالأرزّ والجبن وقشور الكمأة وباستا البيستو أم بلحم البقر مع صلصة البطاطا؟

كلاّ، بتاتا. لم تكن السّيدة بيليا لتعير اهتماما لهذه الأمور: العالم الثالث وأطفال إفريقيا وجياع الكنيسة... بل كانت تنقضّ بلا رحمة على أقاربها وأصدقائها ومعارفها. ولا تأمل أكثر من أن يقول لها أحدهم: «يا جينا العزيزة، لم أذق في نابولي نفسها ألذّ وأشهى من المعجّنات النابوليتانية التي تحضّرينها أنت». فتتأثّر حينها كالأطفال، وتتلعثم في الرّدّ، وتحني رأسها كأيّ مايسترو يقود أوركسترا قامت بأداء تناغميّ جبّار. ثم تأخذ من الثلاّجة كيسا مليئا بتلك المعجّنات وتقول: «خذ. أوصيك ألاّ تضعها في الماء المغلّى هكذا وإلاّ فسدت. أخرجْها من الثلاّجة قبل ساعتين على الأقل».

كانت تلك المرأة تخنق ضيفها بلا شفقة. وإن توسّل إليها تجيبه بأنّها لا تحبّ المجاملات. فيخرج من بيتها مترنّحا، شبه سكران، ليفتح زرّ بنطاله ويثنيه قليلا وتتملّكه الرّغبة في الخضوع لعمليّة تطهير الجهاز الهضمي.

كان جراتزيانو، عندما يعود، يسمن خمسة كيلوجرامات على الأقل

خلال أسبوع واحد. تحضّر له أمّه الكلى المقليّة بالثّوم والبقدونس (طبقه المفضّل!). وبما أنّه ذوّاق مخضرم، كانت تجلس بقربه وتحدّق فيه بلهفة. لكنّها لا تحتمل كتمان السؤال، وإلاّ تنفجر. «جراتزيانو، قل لي الحقيقة. هل الطّبق لذيذ؟». فيجيبها: «لذيذ جدا يا أمّاه». «هل ثمّة من يحضّره أفضل مني؟». «لا يا أمّي. إنّك تعلمين أنّ طبق الكلى الذي تحضّرينه أنت هو الأطيب في العالم». وسرعان ما تغمرها السعادة والغبطة، فتعود إلى المطبخ راضية لتغسل الصحون يدويّا لأنها لا تثق بالآلات.

ولكم أن تتخيّلوا قليلًا حجم المأدبة التي كانت تفكّر في إعدادها لكنّتها المستقبلية، إريكا الهزيلة كسمكة السردين التي لا يتعدّى وزنها الستة والأربعين كيلوجراما، وتعتبر نفسها سمينة للغاية رغم هذا. تتغذى على الحبوب واللّبن وبسكويت الفستق عندما يكون مزاجها هادئا، وتلتهم الشوكولا والفرّوج المشويّ عندما تشعر بالإحباط.

6

قضّى جراتزيانو الصباح بسلام مع نفسه والعالم. وخرج ليقوم بنزهة. كان الطقس باردا ومتقلّبا. ورغم توقّف الأمطار لم تكن السّحب المتلبّدة تبشّر بطقس جيّد في الظهيرة. لكن جراتزيانو لم يأبه بهذا فكان سعيدا لأنّه عاد إلى بلدته أخيرا.

بدت له إيسكيانو أكثر بهاء وترحيبا بشكل لم يشعر به من قبل. عالم صغير وقديم. بلدة زراعية لم يصل إليها التلوّث الصناعي بعد.

كان يوم السّوق. عرض الباعة بضاعتهم على الصناديق في الرحبة قبالة المصرف الزراعي. وخرجت نساء البلدة بحقائبهن ومظلاّتهن للتسوّق، والأمهات يَجْرُرْنَ عربات الأطفال. وتوقّفت شاحنة صغيرة عند بائع الجرائد كي تمدّه بطرود المجلاّت. كانت جوفانا، بائعة

التبغ، تُطعم القطط المدلّلة والسمينة على المصطبة. تواعد نفرٌ من الصيادين قرب نصب الشهداء، وكلابهم المطوّقة بالمقابض تتحرك باهتياج. جلس العجائز إلى طاولات الستايشن بار يحاولون التمسّك، كالزواحف، بخيط من تلك الشمس الخجولة. وكانت صرخات الأطفال الذين يلعبون في الباحة تتصاعد من المدرسة الابتدائية. ثمّتَ رائحة زكية في الجو تفوح من خشب محروق وسمك القدّ الطازج في صندوق بائع السمك.

هذا هو مسقط رأسه، مكان بسيط، قد يكون مليئا بالجهلة، لكنّه أصيل. كان جراتزيانو فخورا بأن يكون واحدا من هذا المجتمع الصغير الذي يخشى الله ويقوم بأعماله بكل تواضع، رغم أنّه كان يشعر بالعار حتى وقت قريب عندما يسألونه عن أصله، فيجيب بأنّه من نواحي سيينا، إذ يبدو له أكثر أبّهة ونبلًا.

يا لي من غبيّ. إيسكيانو سكالو مكان رائع. عليّ أن أكون سعيدا لأنني ولدت فيه. بدأ يعي ذلك بعدما بلغ عامه الرابع والأربعين. ربّما كان هذا الطواف من مكان إلى آخر من العالم، بين كل تلك المراقص والأمسيات التي عزف فيها، مفيدًا ليجعله يعي ذلك، ليعيد إليه الرغبة في أن يكون إيسكيانيًا معتدًا بنفسه. لابدّ من الارتحال كي نجد ذواتنا. كانت تجري في عروقه دماء فلاّح، فلطالما انحنت ظهور أجداده وهم يعملون بكدّ في هذه الأرض القاحلة والوعرة.

مرّ أمام محلّ الخياطة الذي تديره والدته. كان محلاّ صغيرا ومتواضعا، يحتوي على كلسات وسراويل مصفوفة بالترتيب خلف الواجهة، كما توجد شارة فوق الباب الزجاجي. في هذا المكان سوف يظهر محلّ الألبسة.

كان يرى منذ تلك اللحظة أنّ المحل سيكون أجمل ما في البلدة. وعليه أن يبدأ حالا بالتفكير في الأثاث. قد يحتاج لمهندس من ميلانو، أو

من أمريكا دفعة واحدة، كي يساعده على تحقيق حلمه بأفضل الطرق. لن يهتمّ لأمر التكاليف، سيتحدث في الأمر مع والدته وسوف يقنعها بأن تسحب قرضا. حتى إريكا قد تساعده، فهي صاحبة ذوق رفيع.

بعد هذه الأفكار الإيجابية، استقلّ سيارته وأخذها إلى مغسلة السيارات. تركها تنزلق بين المقشّات الضخمة ثم مرّر المكنسة في الدّرج لتسحب أعقاب الحشيش والفواتير وبقايا الشيبس، والكثير من الأشياء المقرفة التي استقرّت تحت المقاعد.

نظر إلى نفسه في المرآة الصغيرة وأدرك أنّه لا يحترم الوصيّة الأولى: «تعامل مع جسدك على أنّه معبد».

لقد شوّهت الإقامة في روما مظهره وهدّت حيويّة بدنه. فلم يعد يهتمّ بنفسه وغدا مثل إنسان الكهوف، بتلك اللحية السائبة، وشعر القنفذ ذاك. ينبغي أن يستعيد وسامته، قبل وصول إريكا، حتما.

صعد إلى السيارة مجدّدا، اتّجه نحو الأوريليا. وبعد سبعة كيلومترات توقّف عند مركز التجميل لصاحبته إيفانا زامبيتي. كان المركز مجمّعا ضخما يقع على جانب الطريق الدولي، بين مشتل أزهار ومصنع أثاث حِرَفيّة لومباردية.

7

كانت إيفانا زامبيتي، صاحبة المركز، امرأة شديدة السمنة كلها أرداف وأثداء. شعرها أسود بتسريحة ليز تايلور، فمها كفم سمك القُشُر بفكّين متباعدين قليلًا، أنفها خاضع لعملية تجميل، عيناها صغيرتان تتّقدان شراهة. وكانت ترتدي القميص الأبيض الذي يسمح برؤية صلابة لحمها، وصندل الدكتور هيرتمان، وتظلّ محاطة بغيمة من رائحة العرق والعطور.

وصلت إيفانا من بلدة فيانو رومانو أواسط السبعينات ووجدت في

أوربانو عملًا في إحدى صالات التجميل. واستطاعت في عام واحد أن تتزوج الحلاق العجوز صاحب الصالة وتسحب بساط الإدارة من تحته. فحوّلت الصالة إلى محل حلاقة حديث، استبدلت الأثاث وأزالت الورق القميء من على الجدران واستعاضت عنه بمرايا ورخام، ثم أضافت إلى ذلك المغاسل وخوذات لتسريح الشعر. تُوفّي زوجها بعد عامين، وسط الشارع العام في أوربانو، بسكتة قلبية. فباعت إيفانا البيوت التي ورثتها عنه في سان فولكو وافتتحت محلّين آخرين للحلاقة في المنطقة، الأوّل في الكازال ديل برا والثاني في بورغو كاريني. وفي صيفٍ مّا من نهاية الثمانينات، ذهبت للقاء أقاربها البعيدين المهاجرين إلى مدينة أورلاندو في فلوريدا، حيث تعرّفت إلى مراكز اللّياقة الأمريكية التي وصفتها بمعابد الصحة والرفاهية. فأذهلتها تلك المستوصفات المجهزة بكافة المعدّات للاعتناء بالجسد، من أخمص القدمين إلى أعلى الرأس، والحمّامات الطينية والأسرّة الشمسية وغرف التدليك العادي واللمفاوي والعلاج بالمياه ووسائل ترطيب البشرة وصالات الرياضة البدنية ورفع الأثقال.

عادت بأفكار لامعة وسرعان ما حقّقتها. فباعت محلاّت الحلاقة الثلاثة واشترت مستودعا كبيرا للجرّارات الزراعية، يشرف على الأوريليا، وحوّلته إلى مركز متنوع الاختصاصات للعناية بالجسد. كان يعمل فيه عشرة أشخاص بين مدرّبين ومتخصّصين في التجميل وأطبّاء. لقد أصبحت غنيّة حدّ البذخ يتطلّع إليها العُزّاب في المنطقة. لكنها كانت تقول إنّها وفية لذكرى زوجها الحلاّق العجوز.

8

عندما دخل جراتزيانو استقبلته إيفانا بلهفة، وكادت تطحنه بين ثدييها المتعرّقين وقالت له إنّه يبدو كجثّة وستتولى إعادة إحيائه بنفسها. خطّطت له برنامجا. ستقوم قبل كل شيء بسلسلة من التدليك

وحمّام الطحالب، ثم تحمله إلى السرير الشمسي المتكامل، وبعدها تصبغ شعره، ثم تمسّد يديه وقدميه، وأخيرا «دولسيس ان فوندو» أو ما تسمّيه هي بعلاج الحيويّة المستعادة.

كلّما عاد جراتزيانو إلى إيسكيانو كان يضع نفسه تحت تصرّف إيفانا وعلاجها. إذ تعرض عليه أساليب معيّنة من التدليك من ابتكارها، تطبّقها حصريّا بعد انتهاء توقيت العمل، وتهبها فقط للزبائن المميّزين. وقد خصّصتها لإيقاظ أعضاء محدّدة من الجسد لتشعر بنفسك مثل القديس لعازر عندما قام من القبر.

ولكن في ذلك اليوم، رفض جراتزيانو العرض.

- اعذريني يا إيفانا، فإنّني سأتزوّج قريبا.

فعانقته وتمنّت له حياةً زوجيّة سعيدة.

وبعد ثلاث ساعات، خرج جراتزيانو من المركز وقام بجولة في متجر السكوتيش هاوس في أوربانو ليشتري بعض الملابس المنسجمة مع الحياة الريفية التي كان ينوي أن يبدأها. وأنفق حوالي 930000 ليرة.

وهاهو بطلنا أخيرا، أمام أبواب الستايشن بار، يقف مستعدّا.

كانت عيناه السودوان تبرقان، ورائحة البلسم تفوح من شعره الأشقر اللاّمع بفعل الأكسجة، وعطر الإيغويست يشذو من ذقنه الحليقة. وتبدو خلايا جلده مجدَّدة بفعل مادة الميلانين التي أعادت إليه ذاك اللون المثير، بين البني والبرونزيّ، الذي يُخرج الإسكندنافيات عن طورهنّ.

كان يبدو لوردا بريطانيّا قضّى إجازته في جزر المالديف، إذ ارتدى قميصا قطنيّا أخضر وبنطالاً من المخمل البنّي الفضفاض والجيليه الإسكتلندية من الطراز القبليّ (هكذا وصفها البائع) وسترة صوفية بسحّاب حديدي وحذاء ضخما بعلامة تايمبرلاند التجارية.

دفع جراتزيانو الباب، ودخل بخطى واثقة ومحسوبة على طريقة

جون وين حتى اقترب من كونتوار البار.

لم تشعر باربارا، الشابة التي تعمل في البار وتبلغ من العمر عشرين عاما، بالانزعاج وهي تراه يظهر هكذا، في يوم اعتيادي، بلا جوقة تتقدّمه وبلا أبواق، ولا حتّى فرمانا يعلن وصوله المظفّر قبل حين.

ها قد عاد ابن بيليا زير النساء، ومنارة السكس في إيسكيانو وما حولها. عاد ليوقد الوله الجنسيّ الذي لا ينطفئ، وليثير من جديد حسد الجميع وهم يتحدثون عن مغامراته. عاد إلى إيسكيانو بعد نجاحاته المتتالية في ريتشوني وغوا وبورت فرانس وباتيباليا وإيبيزا. عاد الرجل الذي عزف في البلانيت بار مع الأخوين رودريغز. عاد الرجل الذي تمّت دعوته إلى برنامج ماوريتزيو كوستانزو التلفزيوني ليتحدّث عن تجاربه الغرامية. عاد الرجل الذي كانت له علاقة حب مع الممثّلة مارينا ديليا (ظهرت صورته، وهو يدلّك ظهر مارينا ديليا ويقبّل رقبتها في شاطئ ريتشوني، على غلاف مجلة «نوفيلا 2000»، وظلّت معلّقةً قرب طاولة البلياردو في ذلك البار لستة أشهر، ومازال روشو يحتفظ بها حتى اليوم في ورشة الصيانة بين صور العارضات العاريات). عاد الرجل الذي فاز بكأس الترومبادور، منافسة الفحولة، محطّما الرقم القياسي في «الشحن» (إذ شحن 300 امرأة إلى السرير خلال صيف واحد كما تقول الصحف). عاد وكان أكثر تألّقا وحيوية.

أصبح رفاقه معيلين، ومنهمكين في حياتهم الرتيبة وقد شاب شعرهم وارتخوا ككلاب البولدوغ. أما هو، فكلّما تقدمت به السّنّ غدا أكثر وسامة وجذبا للأنظار. ما سرّه؟ كم كان كرشه الصغير يليق به، وتلك التجاعيد حول عينيه، والتشققات الطفيفة على شفتيه، والفراغات الخفيفة على جوانب جبينه...

- جراتزيانو! متى عدت؟ - قالت باربارا وهي تحمرّ خجلًا كالفُليفلة الحمراء.

وضع جراتزيانو السبّابة على فمه، أمسك بفنجان وضربه بعنف على الكونتوار ثم صرخ:

-ما الذي يحدث في هذا المحلّ الحقير؟ لا أحد يلقي التحية على ابن البلد العتيق وقد عاد إلى الدار؟ اسمعي يا باربارا... وزّعي المشروب على الجميع!

التفت الجميع إلى الخلف: عجائز جالسون يلعبون الكوتشينة، ومراهقون متجمّعون على ألعاب الفيديو، وصيادون ورجال شرطة.

كان بينهم أصدقاؤه أيضا. أصدقاؤه المقرّبون إلى القلب. رفاقه القدماء أيّام العربدة. كان كلٌّ من روشو والأخوين فرانشسكيني وأوتافيو باتيلوكي جالسين إلى طاولة يقرؤون أرقام اليانصيب ويتصفّحون مجلّة الرّياضة. وحالما رأوه أمامهم وقفوا على أقدامهم، ركضوا إليه وعانقوه وقبّلوه وعبثوا بتسريحته وأخذوا يغنّون معا: (إنّه شاطر إنّه شاطر... لا أحد ينكر ذلك)، وغنّوا مقاطع أخرى من الأفضل أن نشفّرها. هكذا كان يتمّ الاحتفال بعودة الولد المثابر في تلك الأماكن.

وهاهو بعد نصف ساعة في صالة مطعم الستايشن بار. كانت الصالة عبارة عن غرفة مربّعة خلف المحلّ. سقفها منخفض ويُنيرها مصباحُ نيون أصفر طويل، وفيها بعض الطاولات. تطلّ نافذتها على سكّة الحديد، وهنالك رسومات قطارات قديمة على الجدران.

كان جالسا إلى طاولة مع روشو والأخوين فرانشسكيني والشاب برونو ميلي الذي انضمّ إليهم، بينما اعتذر باتيلوكي ليصطحب ابنته إلى طبيب الأسنان. وكانت على الطاولة خمسة أطباق من الباستا بصلصة الأرنب البرّي زكيّة الرائحة، وجرّة نبيذ أحمر، وصحن منوّع من الزيتون واللحوم الباردة.

- أجل يا أصدقاء. هذه هي الحياة السعيدة فعلًا. ليس بوسعكم أن تتخيّلوا كم كنت مشتاقا إلى هذا الطعام. – قال جراتزيانو

مشيرا بالشوكة إلى الباستا.

- هات أخبرنا ما الذي تنوي فعله هذه المرة؟ هل تضرب وتهرب كالعادة؟ متى ستغادر؟ - سأله روشو وهو يصبّ النبيذ في الكأس.

كان روشو صديق جراتزيانو الحميم منذ الصغر. وحينها كان يافعا هزيلا بشعره الأصهب الكثيف والمجعّد، لسانه ثقيل التعبير لكنّه سريع كالنمس بيديه. كان والده صاحب مقبرة سيارات قرب الأوريليا ويتاجر بالأغراض المسروقة. وكان روشو يعيش بين تلك الجبال من الخردة وهو يفكّ المحرّكات ويركّبها. تعلّم ركوب الدّراجة النّارية في سنّ الثالثة عشرة، وفي سنّ السّادسة عشرة شارك في السّباق على الجسر المعلّق في براتوني. وفي إحدى الليالي من عامه السابع عشر، تعرّض إلى حادث مؤلم. إذ تعطّل المحرّك وثبت على سرعة 160 كيلومترا في الساعة، فطار روشو بلا خوذة من الجسر كالصاروخ. وجدوه في اليوم التالي، تحت خمسة أمتار من الشارع، عند أنبوب الصّرف الصّحّي، شبه ميّت ومهروسا كنملة سقط فوقها قاموس. ظلّ مجبّرا لثمانية أشهر بأكثر من ثلاث وعشرين رضّة بين عظام مهشّمة ومكسورة، وأكثر من أربعمائة جرح في عدة أنحاء من جسمه. وظلّ لستّة أشهر على الكرسيّ المتحرّك وستّة أشهر أخرى على العكّاز. وفي سنّ العشرين استطاع أن يمشي بعرج ملحوظ إذ لم يكن يستطيع ثَنْيَ ساقه. وفي سنّ الواحد والعشرين حبلت منه فتاة ريفيّة فتزوّجها، ولديه منها الآن ثلاثة أولاد. وبعد وفاة والده تولّى إدارة المستودع وأضاف إليه ورشة صيانة أيضا. ومن المحتمل أن تكون لديه مشاريع قذرة مثل أبيه. كان جراتزيانو يسافر كثيرا بعد ذلك الحادث، وتغيّرت طباع روشو فأصبح انطوائيا وتباغته نوبات غضب فجائية، يُكثر في الشرب، ويقال عنه في البلدة إنّه كان يعنّف زوجته.

- مع من ستفعلها الآن، أيّها الثعلب المخضرم؟ هل مازلت مع تلك

اللّعوب الممثلة...؟ – قال برونو ميلي بفم ملآن. – ما اسمها؟ مارينا ديليا؟ ألم تظهر في فيلم جديد؟

شبّ برونو ميلي في العامين اللّذين تغيّب فيهما جراتزيانو، وكان يعمل شرطيًا. من كان يتوقّع أنّ مراهقا مثل برونو، المعروف ببلاهته، يصبح حاكما ويطبّق القانون؟ كانت الحياة في إيسكيانو تمضي ببطء ولكنّها لا تتوقّف، حتى دون جراتزيانو.

كان برونو ميلي يقدّس جراتزيانو كإله، بعد أن اكتشف علاقته بممثلة مشهورة. غير أنّ جراتزيانو المسكين كان يستشيط غضبا كلّما تذكّر هذه الحكاية. لا ينكر أنّه استفاد كثيرا من صورته على غلاف «نوفيلا 2000» وبات أسطورة محلّية، لكنّه كان يشعر بالذّنب بسببها في الوقت نفسه. فهو لم يكن على علاقة بمارينا ديليا أبدا. كلّ ما في الأمر أنّها كانت تتشمّس على شاطئ ريتشوني، وعندما رأت واحدا من الباباراتزي، يتسلّل إلى الشاطئ بحثا عن فضيحة يبتزّ بها المشاهير، أخذت ترتجف، وسرعان ما خلعت حمّالة الصدر وراحت تصرخ. كانت وحيدة إذ أنّ الممثّل الفرنسي الفاشل الذي يطارحها الغرام، كان مغلقا على نفسه حينها في الفندق. كان مجرّد شابّ فرنسي أحمق يتباهى بأكل الأصداف نيّة، تلك التي تطوف قبالة الميناء، قائلا إنّ والده كان صيّاد سمك بريتونيا. فوقع في شرّ أعماله وأصيب بالتسمّم وارتفعت حرارته. لكنّ مارينا كانت في موقف محرج حينها، فعليها أن تجد أحدا يحميها على الفور. ركضت على الشاطئ تبحث عن شابّ بمظهر جيّد كي تجلس معه. خطفت النظر إلى كل الشباب ذوي الأجسام الرياضية الذين يسبحون وأولئك المستلقين على الرمال، فلم تجد أفضل من جراتزيانو. طلبت منه، إن لم يكن لديه مانع، أن يدهن صدرها بزيت الشمس ويقبّلها ما إن يمرّ ذلك الرجل صاحب الكاميرا بقربهم.

هذه هي حكاية الصورة الشهيرة. ومن الوارد أنّها كانت لتنتهي

في مكانها لو لم تصبح مارينا ديليا معبودة الجماهير في إيطاليا بعد تمثيلها في فيلم مع ممثّل كوميدي توسكاني. فالنجمة المشهورة لا تُظهر ولا سنتمترا من جسدها حتى لو كان السعر ملايين الدولارات. كانت تلك الصورة الوحيدة التي تفضح جمال نهديها. وعاش جراتزيانو على أمجادها لأكثر من سنتين، وهو يقصّ أنّه نكحها من الأمام والخلف، في المصعد والجاكوزي، خلال الطقس المعتدل والماطر. ولكن حان الوقت ليضع حدّا لذلك. فقد مضت خمسة أعوام، وكلّما عاد إلى إيسكيانو يسأله الجميع عن تفاصيل علاقته بمارينا ديليا.. *سحقا لتلك العاهرة! متى ستنتهي حكايتها؟*

- قرأت في إحدى المجلات أنها باتت خطيبة لاعب كرة قدم وغد.
- تابع ميلي ورأسه يلج طبق الباستا.
- لقد تركتك من أجل لاعب خطّ وسط في نادي سامبدوريا. سامبدوريا يا رجل! ألا تخجل من نفسك؟ – قهقه جوفاني، الأكبر من بين الأخوين فرانشسكيني.
- لو كان مهاجما في لاتسيو مثلًا لما قلنا شيئا. – أضاف إيليو، الأخ الأصغر.

كان للأخوين فرانشسكيني مسمكة يربّون فيها سمك القاروس على ضفاف البحيرة. وكانت أسماكهما مميّزة لأنّ طولها عشرين سنتمترا وتزن 600 جراما وعيونها جاحظة وطعمها قريب من السلمون. كان الأخوان متلازمين ويعيشان في كوخ يحيط به البعوض، بجانب البحيرة مع زوجتيهما وأولادهما، حتى لم يعد أحد يفرّق بين أولاد هذا ولا زوجة ذاك. كان سمك القاروس مصدر رزقهما، لكنهما لن يغتنيا طالما يتشاجران يوميا حول أحقّية الخروج بالسيارة لشرب البيرة ليلًا.

قرّر جراتزيانو أنّ وقت تصفية الممثلة ديليا قد حان. وكان متردّدا في أن يخبر أصدقاءه عن مشاريعه. من الأفضل ألاّ يتكلّم بشأن محلّ

الألبسة، ففي البلدة يسرقون الفكرة من فمك في لحظة، وينتشر الخبر بسرعة البرق، وما أدراك أيّ ابن قحبة قد يضاربك فيه. عليه أن يفكّر في المشروع جيّدا، ويستدعي المهندس الميلاني ثم يتحدث بشأنه. ولكن لماذا لا يخبرهم بالخبر الآخر، الأجمل؟ أليسوا أصدقاءه؟

- اسمعوا يا أصدقاء... لديّ خبر جديد.

- فلنستمع. من نكحت مؤخّرا؟ هل ستخبرنا أم نكتشف الأمر على صفحات الجرائد؟ – قاطعه روشو وهو يملأ له الكأس بذلك النبيذ الخائن الذي يجعلك تشربه كمياه غازية ثم يستحوذ على رأسك ويشطره كحبّة ليمون.

- هل اغتصبت سيمونا راتجي أم من يا ترى؟ – قال فرانشسكيني الأكبر.

-كلاّ. أعتقد أنّ أندريا مانتوفاني هو الذي ينكحها. فالشواذ لهم حظوظ أوفر في هذا العصر. – أضاف الأصغر محرّكا يده، وضحك الجميع مثل المجانين.

-اصمتوا لحظة أرجوكم. – ضرب جراتزيانو الشوكة بالكأس بعد أن كاد ينفجر غضبا. – توقّفوا عن قول الترّهات. اسمعوني. لقد ولّى زمن الممثلات اليانعات والأرقام القياسية إلى غير رجعة... – ضحك الآخرون مستهزئين، لكنه تابع. – ... لقد صار عمري أربعة وأربعين عاما ولم أعد فتى مراهقا. لا أنكر أنّني استمتعت كثيرا في حياتي وجُبت العالم وحملت إلى السرير الكثير من النساء حتى لم أعد أذكر وجوههنّ.

- ولكنّك تذكر مؤخّراتهنّ بالتأكيد. – قال ميلي سعيدا كالطفل للنّكتة التي أبدعها، فتزايد الضحك والهمز واللّمز.

بدأ جراتزيانو يتوتّر، إذ لا يستطيع أن يتحدث بجدّية مع أولئك الحمقى. كفى. عليه أن يخبرهم بالأمر دون مقدمات.

- يا أصدقاء. سوف أتزوج.

فانطلق التصفيق والغناء والتصفير. ودخل بعض الناس إلى البار وسمعوا بالنبأ. وعمّ الهرج والمرج لأكثر من ربع ساعة.

جراتزيانو سوف يتزوج؟ مستحيل! غير معقول!

خرج النبأ من البار وانتشر كالفيروس. وفي غضون ساعة عرفت كل البلدة أنّ جراتزيانو سوف يتزوج. وبعد القبلات والتهاني والعناق عاد المكان على ما هو عليه. كان الأصدقاء الخمسة معا من جديد، واستطاع جراتزيانو أن يستأنف من حيث قطعوا كلامه.

- تدعى إريكا. إريكا تريتيل. لا تخافوا! ليست ألمانية، إنها من نواحي ترينتو. تعمل كراقصة. ستأتي إلى هنا غدا. وهي لا تحبّ الأرياف، لكنها لا تعرف إيسكيانو سكالو. إنّني متأكّد من أنّ بلدتنا ستنال إعجابها. أريدها أن تكون بأحسن حال وأن تشعر بالسعادة حقا. لذا عليكم أن تساعدوني يا أصدقاء.

- وماذا ينبغي أن نفعل؟ — سأل الأخوان فرانشسكيني معا.

- لا شيء... بوسعنا أن ننظّم حفلة مسلّية مساء الغد مثلًا.

- ماذا؟ — سأل روشو مرتبكا.

كانت تلك إحدى مشاكل ذلك المكان، فما إن يفكّر المرء في تنظيم حفلة مسلّية حتى يستولي الاستغراب على الجميع وتنعدم الاحتمالات في عقولهم وتفتر الهمم. لا يوجد شيء البتّة في إيسكيانو سكالو.

أطبق الصمت على جمع الأصدقاء، والتفّ كل واحد منهم بفراغ رهيب.

أيّ تسلية بوسعنا القيام بها هنا حتى تنال إعجاب إريكا؟ كان جراتزيانو يفكّر. كاد أن يقترح عشاء في ديل كارو، مطعم البيتزا الخرائي، حين باغتته رؤية عجيبة:

الليل. هو وإريكا يخرجان من سيارته السوداء. يظهر مرتديا ثوب السباحة الأنيق، وهي ترتدي البيكيني البرتقالي. كلاهما طويلا القامة،

في أوج الحيوية، أكثر جمالا من الآلهة الإغريقية، وأكثر جاذبية من ممثلي مسلسل Baywatch. يجتازان الساحة الطينية يدًا بيد. الطقس بارد، لكن لا يهمّ، ثمّتَ بخارٌ ورائحة كبريت. يدخلان في الينابيع الدافئة ويغطسان في حوض من المياه الحارة. يتبادلان القبل ويتعانقان. ينزع عنها حمّالة الصدر وتنزع عنه السروال، على مرأى الجميع. لا يهمّ. بل هذا ما يريده بالضبط. يمارسان الجنس أمام الجميع، بشكل إباحي ومخلٍّ بالآداب. هذا ما كان عليه فعله. *الذهاب إلى ساتورنيا*، أحواض المياه الكبريتية. فعلا، فإريكا لم تذهب إلى هناك مطلقا. *سيعجبها الاستحمام ليلًا تحت ذلك الشلّال الدافئ حتى الجنون، ناهيك عن الفوائد الذي يقدّمها للجلد أيضا*.

سيكسر أعين الجميع عندما يرون جسدها الشبيه بعارضات الأزياء، ويقارنون بين التجاعيد المزمنة على مؤخرات زوجاتهم وأرداف إريكا الناعمة والممشوقة، وبين أثداء زوجاتهم المترهلة بنهد إريكا المصقول، وبين سيقان الغزال وأقدام الفيلة. سيسيل لعابهم عندما يرونه يمتطي تلك المهرة، ويشعرون بأنّهم مجرّد نكرات لعلّهم يفهمون، لمرّة واحدة وإلى الأبد، ما الذي دفع بصديقهم إلى الزواج. أليس كذلك؟

- يا أصدقاء، خطرت ببالي فكرة عبقرية. بوسعنا أن نتناول العشاء في تري غاليتي، الحانة القريبة من ساتورنيا ثم الذهاب للاستحمام عند الشلّالات. ما قولكم؟ — اقترح متحمّسا، كأنه يحدّثهم عن رحلة في المناطق الاستوائية. — أليست فكرة رائعة؟

لكنّ الجواب لم يكن على قدر الفكرة. إذ أغلق الأخوان فرانشسكيني فمهما. وعبّر ميلي بكلمة واحدة لا معنى لها: «آها». وقال روشو بعد أن رأى الآخرين:

- لا تبدو لي فكرة عبقرية، فالطقس بارد.
- وقد تمطر! — أضاف ميلي وهو يقشّر تفاحة.

- ما هذا؟ لقد أصبحتم جبناء. — زمجر جراتزيانو. — يا إلهي! تأكلون، تنامون وتعملون. هل هذا ما تقومون به؟ أنتم أموات، كسالى. ألا تذكرون أمسياتنا الخرافية، عندما كنّا نقضّي الليالي متنزّهين في الأرياف نسكر ثم نذهب لنلقي القنابل في البحيرة الاصطناعية وفي النهاية نسترخي تحت الشلاّلات...

- ياللروعة... — قال جوفاني فرانشسكيني بعينين سارحتين في السقف، وقد صفا وجهه وبرقت عيناه. — أتذكرون كم ضحكنا عندما حطّم لامبرتيلي رأسه وهو يغطس في الحوض؟ وأنا نكحت واحدة من فلورنسا.

- لم تكن واحدة، بل كان واحدا. — علّق أخوه — واسمه سافيريو.

- وهل تذكرون عندما رمينا الحجارة على باص السّياح الألمانيين ثم رميناه إلى أسفل الوادي؟ — تذكّر ميلي متحمّسا.

ضحك الجميع على وقع ذكرياتهم الشبابية الجميلة. كان جراتزيانو يعرف أنّه وقت الإصرار والتشبّث بالفكرة.

- هيّا إذن، فلنقم بهذه المغامرة المجنونة. غدا مساء نستقلّ سياراتنا ونذهب إلى ساتورنيا. نشرب حتى الثمالة في تري غاليتي ثم نتوجّه للاستحمام.

- لكن أسعاره باهظة جدّا. — ردّ ميلي.

- هيّا يا رجل. ألا تحتفلون بزواجي؟ يا لكم من بخلاء!

- حسنا، سنقوم بمغامرة مجنونة لمرّة واحدة. — قال الأخوان فرانشسكيني.

- ولكن عليكم أن تحضروا زوجاتكم وخطيباتكم، هل فهمتم؟ لا يمكننا الذهاب هكذا كجيش من اللّوطيين. ستتعرّض إريكا للإحراج.

- ولكن زوجتي تعاني من عرق النسا... — قال روشو — قد تغرق في

الماء.

- وزوجتي أجرت للتوّ عملية جراحية على الفتق. - أضاف إيليو مرتبكا.

- كفى، أجبروهن على المجيء. من هو الرجل في المنزل، أنتم أم هنّ؟

تقرّر أن تنطلق المجموعة من الساحة العامة في الثامنة من مساء اليوم التالي. ولن يستطيع أحد أن يعتذر في اللحظة الأخيرة، فكما قال ميلي: «من يتخلّف عن القافلة... فأمّه قحبةٌ سافلة».

مشى جراتزيانو صوب البيت منتشيا ومسرورا كطفل في الملاهي.

- الحمد لله أنّني تركت تلك المدينة الملعونة. كم أكرهك يا روما. يا لها من مدينة مقزّزة. - كان يردّد بصوت مرتفع.

كم كان مرتاحا في إيسكيانو سكالو وكم كان أصدقاؤه رائعين. شعر بأنّه غبيّ لأنّه تجاهلهم طوال تلك المدة. وشعر بالحنان يتدفّق في قلبه. ربّما قد هرموا قليلًا، لكنّه سيتكفّل بإعادة إحيائهم. في تلك اللحظة كان يشعر بأنّه قادر على فعل أيّ شيء لإرضاء تلك البلدة. فبإمكانه افتتاح حانوت على النّمط الإنكليزي، بعد محلّ الألبسة طبعا، وأشياء أخرى كثيرة.

صعد الدرج مستندا إلى الدرابزين ودخل البيت. كانت هنالك رائحة بصل ثاقبة تصيب بالقشعريرة.

- يا إلهي. ما هذه الرائحة الكريهة. ماذا تفعلين يا أمي؟ - أطلّ برأسه على المطبخ.

كانت السّيدة بيليا تذبح بغلًا أو حمارا بساطور ضخم على طاولة الرّخام.

- ااااافففففاااافففف... - عوت والدته.

- ماذا تقولين؟ لا أفهم شيئا. لا أفهم شيئا. - قال جراتزيانو متّكئا

على الباب. ثم تذكّر: *آه حقًا. النّذر.* استدار وجرجر نفسه إلى غرفته ثم هوى على الفراش.

وقبل أن يغفو قرّر الذهاب في الغد إلى الأب كوستانسو *(هذا إذا ما يزال حيًا. قد يكون ميتًا منذ زمن، من يدري)* ليتحدث معه بشأن نذر والدته، لعلّه يستطيع إقناعها بإلغائه. إذ لا ينبغي أن تراها إريكا في تلك الحالة. لكنّه فكّر أنّها ليست مشكلة عويصة، فأمّه كاثوليكية متديّنة وهو أيضا كان يؤمن بالله كثيرا في طفولته، وقد تستوعب إريكا الأمر. غفى. ثمّ نام قرير العين، تحت ملصق لفيلم «حمّى ليلة السبت» لجون ترافولتا، فاغرا فاه وقدماه خارج السرير.

9

هيّا بسرعة... بسرعة... لقد تأخّرت. أسرعي ولا تتوقّفي أبدا.

كان بييترو يأمر الدرّاجة عند المنحدر. لم يكن يرى شيئا في الظّلمة، ولكن لا يهمّ. كان فمه مفتوحا وهو يضغط بكلّ قوّته على الدوّاسات. انثنى وأنزل قدمه ليواجه المنعطف منزلقا نحو الحصى. ثم عدّل وضعيّته مندفعا بالضّغط على العجلة، بينما تصفّر الريح في أذنيه وتسحب الدّمع من عينيه.

لم يعتمد كثيرا على ضوء الدّراجة الخافت، فكان يعرف الطريق عن ظهر قلب بكلّ حفرها ومنعطفاتها، ويستطيع السير عليها مغمض العينين ودون ضوء.

كان عليه أن يحطّم الرقم القياسي الذي وصل إليه منذ ثلاثة أشهر، ولم ينجح في بلوغه بعدها. ومن يدري ما الذي كان لديه يومها ليسير بسرعة البرق؟ استطاع أن ينطلق من فيلا صديقته ويصل إلى بيته في ثماني عشرة دقيقة وثمان وعشرين ثانية. *ربّما لأنّني غيّرت غطاء العجلة الخلفية؟* وما إن وصل، في تلك المرّة، حتى شعر بالإعياء

وتقيّأ في فناء الدار من شدّة الدفع.

ولكن في هذا المساء لم يكن عليه تحطيم الرقم رغبةً في ذلك أو لدواعٍ رياضية، بل لأن الساعة كانت الثامنة وعشر دقائق وقد تأخّر الوقتُ. يجب أن يقفل الباب على الكلب زاغور حيث يبيت، وأن يرمي النفاية في الحاوية وأن يطفئ مضخّة الحقل و... *سيذبحني أبي إن تأخّرت.هيّا... بسرعة بسرعة.*

وكالعادة، السبب عائد إلى جلوريا. لم تكن لتُخلي سبيله، بل تلحّ عليه: «ألا ترى كم سخيفة هي اللوحة؟ ساعدني في رسم الأحرف على الأقل. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة واحدة. هيّا ولا تزعجني». وهكذا ظلّ بييترو يرسم على صورة البعوضة وهي تمتصّ الدماء، أحرفا وإطارا باللّون الأزرق، ولم ينتبه لمرور الوقت.

لقد نجح طبعا، وبشكل ممتاز، في رسم اللّوحة المدرجة ضمن البحث المخصّص للمالاريا. ستكون الآنسة روفي راضية بعملهما وستعلّق اللّوحة على حائط الصف حتما، لكنّ الأمر استغرق نهارا كاملا.

ذهب بييترو للغداء عند جلوريا بعد المدرسة، في الفيلا الحمراء على التلّ. تناولا الباستا بالكوسا والبيض وشرائح الدجاج على الطريقة الميلانية والبطاطا المقلية. آه ولا يجب أن ننسى الحلوى أيضا. كان كل شيء يعجبه هناك: الأثاث الفاخر، ولوحة زيتيّة للسفن المحترقة في معركة ليبانتو، في صالة الغداء ذات الشرفات الزجاجية التي تطلّ على المرج المحروث على الطريقة الانكليزية، وحقول القمح والبحر في الأفق. وثمّتَ خادمة تقدّم الطعام أيضا.

لكنّ أكثر ما يثير إعجابه هو المائدة المعدّة بكلّ شيء، كأنها طاولة في مطعم. المنديل الأبيض الخارج لتوّه من الغسيل، والصحون اللامعة، وسلّة الخبز والكعك وقطع التوست الصحّي، وقارورة المياه الغازية. *كلّ شيء على أتمّ وجه.*

ومن الطبيعي أن يأكل بطريقة مهذّبة وفم مغلق، إذ ما من أحد يشاغب على الطاولة أو يمسح بقايا الصلصة بالخبز. أمّا في بيته، فعليه أن يُخرج الطعام بنفسه من الثلاّجة، أو ما بقي من الباستا على الفرن. *تأخذ الصّحن وكأس الماء وتجلس إلى الطاولة في المطبخ أمام التلفاز وتأكل. مفهوم؟*

وعندما يوجد ميمو، أخوه الكبير، لم يكن يستطيع حتى مشاهدة أفلام الكرتون. فلأخيه سطوة تمكّنه من أخذ جهاز التحكّم ليشاهد برامجَ لا تروق لبييترو، ويحسم المسألة ببساطة: «كُلْ ولا تزعجني».

«في بيت جلوريا يأكل الجميع معا.» كان بييترو يقصّ على أهله ذات مرّة بفصاحة لم يعتد عليها. «يجلسون إلى المائدة مثل مسلسل عائلة برادفورد. ينتظرون وصول الوالد من العمل ليباشروا طعامهم. يغسلون أيديهم دائما قبل الجلوس، ولكل واحد منهم كرسيّه المعتاد. وتسألني والدة جلوريا دائما عن أمورنا في المدرسة وتقول إنّني خجول جدّا وتغضب من ابنتها لأنّها تتحدث كثيرا ولا تفسح لي المجال. ذات مرة حكت لهم جلوريا أن باتشي الوغد ألصق المخاط في دفتر تريجاني، فغضب والدها لأنّه ليس من الأدب التفوّه بالكلمات القذرة على مائدة الطعام».

«طبعا، فهم لا يفعلون شيئا طوال اليوم.» قال والده وهو يأكل بشراهة. «حتى نحن يسعدنا أن يكون لدينا خادمة. عليك أن تتذكّر دوما أنّ أمّك كانت تعمل عندهم منظّفة، فأنت أقرب إلى الخادمة لا إليهم».

وأضاف ميمو: «ولماذا لا تعيش عندهم مادمت تشعر بالراحة هناك؟».

فأدرك بييترو أنّه من الأفضل ألا يتحدث عن عائلة جلوريا مع ذويه.

لكن ذلك اليوم كان مميّزا لأنّ والد جلوريا اصطحبهما بعد الغداء إلى أوربانو *بسيارة الرانج روفر!*

كان بييترو جالسا في الخلف يستنشق رائحة المقاعد الجلدية ويستمع إلى الستريو، بينما تغنّي جلوريا بصوت جهير مثل بافاروتي.

شبك يدا بيد وأحنى رأسه على النافذة ليشاهد الأوريليا ومحطات الوقود والمسامك والبحيرة الكبرى، كلّها تمرّ بسرعة أمام ناظريه. وتمنى أن يتقدّموا حتى جنوة، حيث يوجد أكبر حوض للأسماك في أوروبا حسب ما يُقال (وتوجد فيه الدلافين أيضا). لكنّ السّيد شيلاني خفّف السرعة وانعطف إلى أوربانو. أوقف سيّارته السريعة أمام البنك في ساحة النهضة دون أن يركنها، كأن السّاحة من أملاكه. «اتصلي بي يا ماريا إذا احتجتم إلى المكان». قال للشرطية التي وافقت بهزّ رأسها.

كان والده يقول إنّ السّيد شيلاني ابن عاهرة. «لطيف دوما. يدردش كثيرا. تفضّل يا سيدي.. كيف الحال؟ هل ترغب في القهوة؟ كم لطيف ابنك بييترو، لقد أصبح صديق جلوريا الودود. بالتأكيد... بالتأكيد... وكيف لا. أيا ابن السفّاح! لقد قضيت عليّ بذلك القرض. لن أنتهي من تسديده حتى أموت... بوسع هؤلاء أن يسلبوا حتى البراز من مؤخّرتك لو استطاعوا».

لكن بييترو لم يكن يرى السّيد شيلاني كذلك، بل كان معجبا به حقّا. *إنّه لطيف. ويعطيني النقود لأشتري البيتزا. وقال إنّه سيأخذني إلى روما يوما ما...*

كان بييترو وجلوريا ذاهبين إلى المستشفى لمقابلة الدكتور كولاسانتي. وكانت مجرّد بناية من ثلاثة طوابق، مغطّاة بالقرميد الأحمر، بالقرب من البحيرة تماما. فيها حديقة صغيرة ونخلتان كبيرتان على جانبيّ المدخل. وكان بييترو قد دخل إليها ذات مرة لإسعاف ميمو حين سقط من الدّراجة النّارية خلف نافورة الماركي، وراح يلعن الآلهة في الدّاخل بسبب الضرر الذي ألمّ بهيكل الدّراجة.

كان الدكتور كولاسانتي، طويل القامة ذا لحية رمادية وحاجبين سوداوين كثيفين، وكان جالسا خلف المنضدة في قسم الإسعاف. «حسنا يا أولاد، سأعرّفكم إلى أنوفيلة البعوضة الشريرة». قال وهو يشعل الغليون.

أسهب الطبيب في حديثه وسجّلت جلوريا كلامه. وتعلّم بييترو أنّ من ينقل الملاريا إلى الإنسان ليس البعوض، إنّما جُسيّمات صغيرة تعيش داخل لعابها فتنتقل إلينا عندما يمتصّ البعوض دماءنا. وهي نوع من الميكروبات تتغلغل في الكريات الحمراء وتتضاعف هناك. استغرب بييترو عندما عرف أنّ البعوض نفسه مصاب بمرض الملاريا. ومن المستحيل ألاّ يتركا انطباعا حسنا في الامتحان بعد أن حصلا على كل هذه المعلومات.

كان بييترو يتقدّم في ليلة باردة ومظلمة. تجلد الريح الحقول وتدفع الدّراجة خارج الطريق، فيبذل الفتى كلّ جهده ليبقيها مستقيمة. وحينما تنفتح كوّة بين الغيوم، يفيض نور القمر الأصفر فوق الأراضي الممتدّة حتى الأوريليا، ثم تعود الأمواج السوداء لتلتهم العشب الفضّي. ولا يتوقّف بييترو من الضّغط على الدّواسة والتّنفّس وتمتمة أغنية ما.

انعطف إلى اليمين، وأخذ دربا صغيرا بين الحقول ليختصر الطريق، ودخل إلى سيرا واجتازها بسرعة الطلقة.

لم يكن ذلك المكان يعجبه في الليل أبدا لأنّه مخيف. تتكوّن سيرا من ستّة بيوت عتيقة ومتردّية ومستودع تحوّل إلى ناد اجتماعيّ منذ عدة أعوام، يقصده الفلاحون والرعاة للعب الكوتشينة وتشمّع الكبد، ومحلّ بقالة فارغ دوما، وكنيسة بُنيت في الستّينات بكتلة من الإسمنت المسلّح تتخلّلها فتحات بدل النوافذ. يبدو جرس الكنيسة على جانبها كصومعة القمح، وعلى الواجهة ثمّة لوحة فسيفساء لقيامة المسيح، وعتبات الباب مليئة بالبطاقات المزينة يلهو بها الأطفال. وهنالك قنديل خافت وسط الساحة، وآخر على الطريق وعلى شبابيك النادي. كانت تشبه مدن الأشباح بأزقّتها الضّيقة وظلال البيوت المخيفة التي تستطيل على الشارع، والبوّابة التي تصفقها الريح والكلب الذي يعوي خلفها.

قطع الساحة ودخل إلى الطريق من الجهة الأخرى. وراح يضغط

على الدّواسة أكثر بين شهيق وزفير على إيقاع سريع. كان ضوء الدّراجة ينير عدة مترات من الطريق ثم لا شيء سوى الظلام والرياح التي تهزّ أشجار الزيتون وصرير العجلة على الإسفلت المبلّل، وأنفاسه.

لم يبق أمامه سوى القليل ليبلغ البيت. كان باستطاعته الوصول قبل والده ليوفّر على نفسه حفلة من التوبيخ. ويأمل ألاّ يلتقي به عائدا على الجرّار، فعندما يُكثر من السّكر يبقى في النادي حتى ساعة الإغلاق غافيا على أحد الكراسي البلاستيكية قرب طاولة البلياردو، ثم يترنّح حتى الجرّار ويعود إلى البيت.

في البعيد، على بعد مئة متر تقريبا، كانت ثلاثة أضواء ضعيفة تتعاقب، تختفي ثم تظهر ثانية، مصحوبة بأصوات عجلات وقهقهات.

«أيّها الخنزير...»

من هؤلاء؟ وماذا يفعلون في هذه الساعة؟ أبطأ سيره. لا أحد يركب الدّراجة هنا وفي ساعة كهذه إلاّ... إلاّ إذا كانوا هم.

وداعا للرقم القياسي إذن. *كلاّ، كلاّ، ليسوا* هم... كانوا يتقدّمون ببطء وهدوء. ايهيهيهيهيهيهيييييييه... *اللعنة، إنهم أولئك الأوغاد.*

صدحت تلك القهقهة الكريهة مثل حكّ الأظفار على الزجاج وتخبّطت مثل نهيق الحمار. قهقهة مقزّزة ومصطنعة ومبالغ فيها... *هذه ضحكة أندريا باتشي*... ضاقت أنفاسه وهو يفكّر إن كان هناك جِلفٌ غير باتشي بوسعه أن يضحك هكذا، وإذا أراد أحد أن يضحك هكذا فعليه أن يكون جِلفًا مثله.

إنهم الأشقياء... اللعنة... يا للمصيبة...

فيديريكو بييريني. أندريا باتشي. ستيفانو رونكا.

لم يكن ينقص بييترو في تلك اللحظة إلاّ لقاء أولئك الثلاثة الذين يتمنّون أن يرونه ميتا. والأغرب أنّه لم يكن يعرف السبب. *لماذا يكرهونني وأنا لم أفعل لهم شيئا؟* ولو قرأ شيئا عن التقمّص لاعتقد

أنّهم أرواح شرّيرة جاءت تعاقبه على ما اقترفه في حياة سابقة. لكنّه تعلّم أن لا يبحث عن أسباب حظّه العاثر. *لن ينفع شيء في النهاية. إن كُتب عليك التعرّض للأذى فلا مهرب من ذلك.*

في سنّ الثانية عشرة قرّر بييترو ألاّ يبذّر وقته في معرفة أسباب الشؤم الذي يطارده. إذ لا تتساءل الخنازير البرّية لماذا يشبّ حريقٌ في الغابة، ولا يتساءل البطّ عمّا يدفع الصيادين لإطلاق النار. يلوذون بالفرار ليس إلاّ. هذا هو الخيار الوحيد. وفي حالات كهذه عليك أن تفرّ بسرعة الضوء، وإن أخفقت وحشروك في الزاوية فعليك أن تنكمش على نفسك كالقنفذ وتدعهم يفرّغون أحقادهم حتى يبلغوا الرضا، تماما كحبّات البرد التي تنهال عليك أثناء نزهة ريفية.

ولكن ماذا أفعل الآن؟

أخذ يدرس الاحتمالات المتاحة على عجل: أن يختبئ حتى يمرّوا. بوسعه الاختباء والانتظار في الحقول طبعا. *كم سيكون الأمر جميلًا لو كنتُ خفيًا، مثل سوزان ستورم في فيلم «المذهلون الأربعة»، يمرّون من أمامك ولا يرونك. بل أفضّل أنّني لم أكن موجودا على الإطلاق، ليتني لم أولد!*

(كفّ عن هذا وفكّر!)

سأختبئ في الحقل.

لكن هذا خيار سخيف، إذ كانوا سيرونه في كلّ الأحوال. *ويلٌ لك إن وجدوك مختبئًا كالأرنب. إذا أظهرت خوفك لأعدائك فتلك نهايتك الحتميّة.*

ربّما من الأفضل أن يعود إلى الوراء حتى يصل إلى النادي. كلاّ، كانوا سيلحقون به. فمثلما رأى أضواء درّاجاتهم، رأوا ضوء درّاجته. ولن يجد أولئك المتخلّفون عقليا متعة أكبر من مطاردة ليليّة.

مطاردة؟! كان يعرف أنّه أسرع من أيّ تلميذ آخر في المدرسة، لكن كان يخسر في السّباق، وخصوصا أنّه كان منهكا حينها وساقاه

محطّمتان وعضلاته متصلّبة كالخشب. لم يكن ليتحمّل طويلًا. كان سيتوقّف مرغما، وحينها...

الحلّ الوحيد أن يتقدّم ويتظاهر بالهدوء، ويمرّ بقربهم ويلقي عليهم التّحيّة آملًا أن يدعوه بسلام. *أجل. لابدّ أن أفعل هذا!*

كانوا على بعد خمسين مترا فقط، يتقدّمون بارتياح، يتحادثون ويضحكون وربّما كانوا يتساءلون عن صاحب تلك الدّراجة. بدأ يميّز عندها صوت بييريني المنخفض من صوت رونكا الحاد وقهقهات باتشي. كانوا معا، كأنّهم متأهّبون لمعركة. *تُرى إلى أين يذهبون؟* إلى البلدة حتما. *هل يقصدون البار، أم ماذا؟*

10

كان الثلاثة ذاهبين إلى ذلك البار حتما، وإلاّ فما الذي بوسعهم أن يفعلوه: أن يعضّ الأول ذراع الثاني أو ينطح الثالث رأس الأول، أم أن يلعبوا الغمّيضة، أم أن ينهوا واجباتهم المدرسية؟ سيذهبون إلى ذلك البار بالتأكيد إمّا ليشاهدوا الكبار يلعبون البلياردو، أو ليجرّبوا حظهم بسرقة بعض العملات الحديدية من خلف الصندوق ويتبارزوا في لعبة «مورتال كومبات» التي يقدّسونها جميعا.

كان فيديريكو بييريني الوحيد الذي يفعل ما يحلو له، فلا يأبه بأوامر والده ويعود إلى المنزل متى أراد ويبقى متسكّعا حتى ساعة متأخرة من الليل. وهذا ما يسبّب مشكلة لأندريا باتشي وستيفانو رونكا اللّذين يواجهان بعض المصاعب في إدارة العلاقة مع والديهما، بل ولأنهما يسلّمان أمرهما للزعيم الطبيعي حالما يرفسهما أو يصرخ في وجهيهما.

كانوا يتقدمون على خطّ واحد في الظلام، ويدفعون عجلاتهم باطمئنان في وسط الشارع. كانوا يسيرون بهدوءٍ كالكلاب البرية الذاهبة للصيد.

تعيش الكلاب البرية ضمن القطيع في الغابات الإفريقية. وما إن يكبر الجرو حتى ينضمّ إلى قطيع مستقلّ عن نواته العائلية. يتعاونون في الصيد ويدعم الواحد الآخر، لكنهم يخضعون لنظام عسكري صارم يترسّخ بعد مبارزات طقسية. فهنالك الزعيم وهو أضخمهم وأشدّهم بأسا، ويليه جنوده التابعون. يتجول القطيع في السافانا بحثا عن الغذاء كقطّاع الطرق. ولا تقوم عناصرُه بمهاجمة الحيوانات السليمة أبدا، بل يطاردون الحيوانات الضعيفة والمريضة فقط، تلك الكبيرة أو الصغيرة في السن. يحاوطون الحمار الوحشي، يخيفونه بعوائهم، ثمّ ينقضّون عليه معا بفكٍّ فولاذيٍّ وأضراسٍ حادّة حتى يخرّ أرضا. وبعد ذلك يأكلون فريستهم وهي حيّة، خلافا للهرّيات التي تضرب العمود الفقري أوّلا.

إذن، كان فيدريكو بيريني هو الزعيم، يبلغ من العمر أربعة عشر عاما. وما يزال في الصف الثاني المتوسط لأنه رسب فيه مرّتين.

قام بعض العلماء في مجال الطب العصبي الفيزيولوجي بأبحاث على مجتمعات السجون في الولايات المتحدة. واختاروا من السجناء أكثرهم عنفا ووحشية (صعاليك متوترين ومتهمين بالإجرام والاغتصاب إلخ). وأجروا التحليلات على سيّالات الخلايا العصبية في أدمغتهم. ولم يستخدموا مقياس أمواج الدماغ التقليدي (الذي يقتصر على تحليل النشاط الكهربائي الطبيعي للدماغ)، بل جهازا أكثر دقّة قادرا على تسجيل النشاطات الكهربائية الخاصة بكل منطقة لحائية. وقاموا بتغطية رؤوسهم بالوصلات الكهربائية ثم أجلسوهم لمشاهدة فيلم وثائقي عن الإنتاج الصناعي للأحذية الرياضية. ولاحظ الباحثون أنّ نشاط المنطقة الأمامية للدماغ، في معظم الحالات، كان ضعيفا جدّا مقارنة بالأشخاص العاديّين (الطيّبين). وطالما أنّ وظيفة هذه المنطقة من الدماغ استقبالُ الأخبار الآتية من الخارج، فهذا يعني أنّ القدرة على التركيز تكمن هناك تحديدا. فمثلًا يشاهد أحدنا فيلما من بدايته

إلى نهايته دون أن يشرد أو ينفعل أو يضايق الجيران حتى لو كان الفيلم مملاً جدّا، وأكثر ما يقوم به تنهيدة أو النظر إلى الساعة من حين إلى حين. وهكذا تمكّن الباحثون من تشكيل فرضية مفادها أنّ عدم القدرة على التركيز هو من أهمّ الأسباب التي تدفع المرء إلى العنف، وهو ما يؤدّي إلى انفجار الحسّ العدوانيّ لديهم. فهم ضحايا لنوبة غضب لا يستيطعون لجمها فيلجؤون إلى الهجوم الشرس كي يفرّغوا غلّها.

فإذا اصطدمت سيارتك بخلفية سيارة أخرى عن طريق الخطأ، وخرج السائق وبيده عصا غليظة كي يهشّم رأسك، فلا تحاولْ أن تُهدّئ من روعه بإهدائه كتابا عن النجوم أو اشتراكا بنادٍ سينمائي. لا جدوى من ذلك. من الأفضل في ظرف كهذا أن تلوذ بالفرار، كما يرى بييترو موروني.

إنّما كان كلّ ذلك فقط كي نمهّد لأمرين:

1. فيديريكو بييريني الفتى الأكثر وحشيةً في المنطقة بأسرها.
2. فيديريكو بييريني كارثة مدرسية لا يُعلى عليها. يقول عنه الأساتذة إنه عديم التركيز، مقتنعين ضمنيا بفرضية العلماء الأمريكيين.

كان فيديريكو شديد البأس: طويل القامة عريض المنكبين. وكان يحلق شاربه ويشدّ حلقة إلى أذنه. أنفهُ المقوّس يُباعد ما بين عينين غائرتين وسوداوين كالفحم ومواربتين دائما. ولم يُحرم من خصلة بيضاء في غرّته التي تتدلى على جبينه. كان يجمع كل الصفات الضرورية ليكون زعيم القطيع، وكان يقوم بذلك على أكمل وجه.

كان واثقا من نفسه وصارما. يقرر كل شيء وحده دون أن يُشعر أتباعه بعدم مشاركتهم في صنع القرار. لم تكن لديه شكوك تثني عزيمته. ولم يكن يبالي بأي حدث في الدنيا مهما كان فظيعا، كأنّه مستثنى من الشعور بالألم.

«أنا لا أكترث لأي شيء في هذه الحياة» هذا ما يكرّره دوما.

كان كلامه مصيبا بما فيه الكفاية. لا يكترث لأبيه الذي يوبّخه ويصفه بالأرعن الفاشل الذي لا يعوّل عليه. لا يعبأ بجدّته الغبية البائسة كما كان يصفها. لا يبالي بالمدرسة ولا بذلك القطيع من الأساتذة المهابيل.

«لا ينبغي لأحد أن يزعجني» كانت جملته المفضلة على الإطلاق.

أمّا ستيفانو رونكا فكان قصير القامة، غامق اللون، مجعّد الشعر، يملأ اللعابُ فمَهُ على الدوام. كان مشاكسا ومضطربا كبرغوثةٍ سمّمها مبيد حشري. هو على أهبة الاستعداد للصراخ ما إن يتشاجر مع أحد، وللانقضاض عليه ما إن يُدِرْ له ظهره. كان مشهورا في المدرسة كلّها بسلاطة لسانه وبذاءة شتائمه. ينزلق من حلقه صوت حادّ بنبرة وقحة وهستيرية تضرب الأعصاب، تجعله يبدو كمخصيّ متحذلق.

وأمّا أندريا باتشي، الملقّب بالميريnديا نظرا إلى ولعه بقطع البيتزا، فكانت لديه مشكلتان أساسيتان.

1. والده شرطيّ. «وعلينا أن نذبح كل رجال الشرطة» وفق رأي فيديريكو.
2. كان مستديرا كحدوة الحصان. وجهه مغطّى بالنمش وشعره الحليق بالكامل أصهب حدّ القذارة. أسنانه صغيرة ومتباعدة يسندها جهاز تقويم فضي. لا يفهمه أحد حين يتحدث، إذ يلدغ السين ويدغم الراء.

لا يناسبه شيء آخر سوى أن يكون أضحوكة الجميع، نظرا إلى شكله الهزلي. ولكنّ المزاح معه لم يكن محبّذا. جرّب أحد المغفّلين ذات مرّة أن يحيطه علما بأنّه أقرب إلى كتلة من الشحوم المطرّزة بالبقوليات. وسرعان ما وجد نفسه أرضا تحت أندريا الذي أعمل قبضتيه في وجه ذلك المغفّل المسكين كما لو أنه يعبّد طريقا. فتعاون أكثر من أربعة أشخاص كي يخلّصوه منه، وظلّ أندريا، لأكثر من ربع ساعة، يبصق

ويصيح بشتائم غير مفهومة وهو يركل باب الحمّام حيث أغلقوا عليه.

وحده فيديريكو يجرُؤ على السخرية منه، إذ يخلط الإهانة: «هل تعلم أنك أقذر من مجاري الصرف، عندما تأكل؟» بالكلام المعسول: «لعمري إنك الأقوى في المدرسة، ولا أشك أنك قد تقضي على فياما إذا استشاط غيظك». كان يضعه في حالة مزمنة من عدم الرضا وانعدام الثقة، ففي بعض المرات يصفه بالصديق المفضّل، ثم يفضّل عليه ستيفانو فجأة. يتغير تصنيفه لأصدقائه المفضلين كل يوم، بحسب المزاج والطقس. وفي مرات أخرى، يختفي ويهجر كليهما ليذهب مع الأكبر سنّاً. جماع القول، كان فيديريكو متقلب الطبع مثل النهار في نوفمبر وذا عزم مثل الصقر، وكان ستيفانو وأندريا يتعاركان كغريمين ليحظيا بتقدير الزعيم.

اقترب أندريا من فيديريكو: ماذا نفعل الآن ؟ ماذا نقول لروفي غدا؟

كانت مُدرّسة العلوم قد أمرتهم بكتابة بحث عن ممالك النمل. فقرروا أن يشتروا كاميرا ليصوّروا ممالك النمل الضخمة التي توجد في غابة اكواسبارتا، لكنهم استثمروا نقود الكاميرا في شراء السجائر وقصة إباحية مصورة. ثم ذهبوا ليحطموا موزع الصيدلية الآلي الذي يحتوي على الواقي الذكري. اقتلعوه من الحائط، ووضعوه قرب السكة. وعندما مرّ القطار ضرب الصندوق فطار كصاروخ أرض-جو، وهبط على بعد خمسين مترا. فحصلوا بذلك على كمية من الواقي تكفيهم لينكحوا كلّ فتاة من فتيات المنطقة ثلاث مرات. وحاولوا أن يحطّموا الصندوق الذي يحتوي على النقود، لكنه كان مغلقا كمخزن البنوك السويسرية.

اختبؤوا خلف شجرة وبدؤوا يجرّبون الواقي. أدخل ستيفانو عصفوره في الواقي وأخذ يستمني بسرعة وهو يقفز ويصرخ: «هل أستطيع أن أنكح الزنجيات بهذا الشيء؟». أجل، لأنّ فيديريكو قال لهما

إنه ينكح الزنجيات عند الأوريليا، بصحبة جاكانيلي وفياما وريكاردو، النادل في فيكيو كارو. قصّ عليهما أنه نكح عاهرة على أريكة عند حافة الطريق وكانت تتأوه بلغة إفريقية. ومن يدري، ربما كان صادقا.

«للزنجيات أفخاذ ضخمة تبتلع حتى جذع الشجرة دون أن يشعرن بشيء. وقد يضحكن إذا رأوا هذا الصوص بين ساقيك أيها الأحمق» قال فيديريكو وهو يفحص قضيب ستيفانو. فتوسل الأخير للأول أن يريه قضيبه. أشعل فيديريكو سيجارة وأغمض عينيه ثم أخرج عضوه الذكري. فانصعق ستيفانو وأندريا واستوعبا سبب استمتاع الزنجيات مع زعيمهما.

وعندما حان دور أندريا قال إنه لا يرغب في ذلك.«أنت شاذ! أنت شاذ!» هتف ستيفانو منتشيا، وأضاف فيديريكو: «أرنا قضيبك، وإلا هشّمت وجهك». وهكذا أرغم المسكين على إخراج عصفوره. «انظر... كم هو صغير...» بدأ ستيفانو يسخر منه. «لأنك بدين جدا، – علّل الزعيم– سينمو ما إن تنحف». قال أندريا واثقا: «لقد بدأت بحمية...»، فقاطعه ستيفانو غاضبا: «رأيت حميتك السخيفة هذه. البارحة دفعت خمسة آلاف ليرة لشراء البيتزا».

انتهت لعبة الواقي عندما تبوّل ستيفانو فيه وأخذ يدور عليهما بذلك البالون الأصفر المعلّق على عصفوره. فثقب فيديريكو البالون بجمر السيجارة وتبلل بنطال ستيفانو ببوله حتى كاد أن يبكي.

ثم ذهبوا بعد ذلك ليبحثوا عن ممالك النمل في الغابة، لكنهم نجحوا في التقاط بعض الصراصير الضخمة ورشّها بالوقود ورميها كقذائف مشتعلة على ممالك النمل. على كل حال لقد بذلوا جهدا ما.

- بوسعنا أن نقول لروفي إننا لم نعثر على أي مملكة نمل، أو أن الصور احترقت أثناء التحميض. –تنهّد أندريا الذي كان يتصبب عرقا رغم سيرهم البطيء وبرودة الطقس.

- تخيّل أن تصدّقك... – اعترض ستيفانو– ربما بوسعنا نسخُ بعض المعلومات واقتصاصُ الصور من كتاب ما.

- كلاّ. لن يذهب أحد إلى المدرسة غدا. – صرّح الزعيم بييريني بعد أن مجّ السيجارة المعلّقة بين شفتيه.

هبط الصمت لوهلة فيما كان أندريا وستيفانو يقلّبان الفكرة. في الواقع كان الحلَّ الأبسطَ والأدقَّ. ولكن:

- لااااا. أنا لا أستطيع البتة. سيأتي والدي غدا ليأخذني من المدرسة وإن لم يجدني... لقد آذاني في المرة السابقة عندما هربنا إلى البحر. – قال أندريا بنبرة خجولة.

- وأنا أيضًا لا أستطيع. – أضاف ستيفانو متظاهرا بالجدية فجأة.

- أنتما جبانان كالعادة... – سكت بييريني لوهلة ليفهما كلامه ثم أضاف: على أي حال لا ينبغي عليكما فعل شيء. فغدا عطلة، ولن يذهب أحد إلى المدرسة.

كانت هذه الفكرة تحلّق في رأسه منذ زمن، وآن الأوان لتطبيقها. غالبا ما تخطر ببال فيديريكو أفكار جهنمية، لها صلة بالانحراف.

هاهي بعض الأمثلة: في رأس السنة وضع قنبلة في صندوق البريد. وذات مرة كسر باب الحمّام في «الستايشن بار» ليسرق السجائر والسكاكر. وفي مرة أخرى بعج دواليب سيارة الآنسة بالمييري.

- عطلة! بأي معنى؟ – لم يستوعب ستيفانو الأمر. فاليوم اللاحق كان يومَ أربعاء عاديًّا، لا إضرابات فيه ولا احتفالات ولا شيء البتة.

أخذ فيديريكو وقته، أنهى سيجارته ورمى العقب بعيدا، وقد امتلأ تابعاه تشويقا.

- حسنا. أصغيا إليّ جيّدا. سوف نذهب الآن إلى المدرسة، ثم نأخذ قفلك ونطوّق به البوابة. – أشار إلى القفل المعلّق بدراجة أندريا– وهكذا لن يستطيع أحد الدخول صباح الغد، وسيرسلوننا

إلى البيت جميعا.

- عظيم! عبقري! - أعجب ستيفانو بالفكرة. كيف تخطر بباله مثل هذه الأفكار؟

- هل فهمتما؟ لن يذهب أحد...

- حسنٌ ولكن... المشكلة أنني.. - لم يبدُ أندريا مقتنعا بالفكرة تماما، فكان يحب ذلك القفل كثيرا لأنّ درّاجته صغيرة ورديئة ومتسخة دوما بسبب الوحل، وعندما يضرب على الدواسة تصل ركبته إلى وجهه، وكان ذلك القفل الذي أهداه إياه والده أجمل ما في الدراجة.- لا أحبّذ أن أرمي القفل هكذا. سعره غال، وقد تُسرق الدراجة دونه.

- هل أنت أحمق؟ درّاجتك يشمئز منها اللصوص، وقد يتقيؤون عليها لو صادفوها. بل ربما تستعين بها الشرطة كي تمسك بهم: يلقون القبض على أحدهم ويُرُونَهُ درّاجتك، فإذا تقيّأ فإنه لصّ لا محالة. - قهقه ستيفانو.

غضب أندريا وقال: عليك اللعنة يا رونكا! لمَ لا تضع قفلك؟

- اسمعني يا أندريا - تدخّل بييريني - لن يقاوم قفلي أو قفل ستيفانو كثيرا. في صباح الغد سينادي المدير الحدّاد ليكسر القفل في أقل من دقيقة، وسنرغم حينها على الدخول إلى المدرسة. أمّا إذا وجدوا قفلك، فلن يستطيعوا تحطيمه. تخيّل أن نجلس إلى طاولات المقهى بينما يلعن الحداد والأساتذة الآلهة وهم في انتظار رجال الإنقاذ المدني ليصلوا من أوربانو. وكل هذا سيكون بفضل قفلك. أفهمت؟

- وهكذا لا نهدر وقتنا بالبحث عن النمل المنيوك. - أضاف ستيفانو.

قُضي على أمر أندريا. لكنه رأى في الأمر مفخرة: بفضل قفله سيتم إغلاق مدرسة بكاملها واستدعاء رجال الإنقاذ المدني من أوربانو أيضا.

- حسنا. لن أكترث. سأضع القفل القديم على الدراجة.
- رائع. فلنذهب إذن.

ابتسم فيديريكو، وشعر بالرضا، فالآن لديهم ما يفعلونه. لكن ستيفانو أخذ يقهقه وينهق كالحمار.

- يا للحماقة! يا لكما من غبيّين! لن تنجح الخطة...
- وماذا هنالك الآن؟ وعلام تضحك أيها الحيوان. — وبّخه بييريني على تكدير مزاجه وكاد يحطّم أسنانه.
- لم تأخذا في الحسبان أمرا مهمًا... هههههه.
- ما هو؟
- أمر كريه جدّا... هههههه.
- ما هو؟ هيا انطق أيّها الجحش.
- سَيَرَانَا إيتالو، عندما نضع القفل. إنه يكشف البوابة من نافذة غرفة الحراسة. وهو أرعن وقد يطلق النار...
- وما المضحك في الأمر أيها الحيوان؟ إنها مشكلة. وأنت لا تفهم أنّنا مرغمون على تقديم البحث غدا إن لم نضع القفل اليوم. ولن يضحك على هذا إلاّ وغد غبي مثلك. — دفعه براحة يده وكاد الغبي يهوي من الدرّاجة.
- سامحني... — تمتم وعيناه إلى الأرض.

ولكنّه كان محقّا. فالمشكلة قائمة، وبوسع ذاك الآذن المعتوه أن يُفشل العملية. إذ كان يقضي جلّ وقته في غرفة الحراسة بجانب البوابة، وبات يراقِب المدرسة مثل الكلب النابوليتاني منذ أن دخل اللصوص منزله.

أحبِط فيديريكو. فإذا رآهم إيتالو سيخبر المدير وتتعقد المسألة. ثم إنه مجنون كالثور الهائج. يقال إنّ لديه مسدّسا برأسين ومخزنٍ معبّإ تحت مخدّته.

وما العمل؟ لابدّ أن نؤجّل العملية... كلاّ، مستحيل.

ليس من المعقول أن يترك فكرة عبقرية كهذه تتحوّل إلى قشّة تلهو بها الرياح بسبب عجوز مزعج. بل كان سيطوّق البوابة بذلك القفل، حتى لو وصل إليها وهو يحفر كالخلد الملعون.

أنا لا أستطيع الذهاب. هكذا كان يفكّر. لأنني مُنيت برَفت في الشهر الماضي. لا بدّ أن يذهب ستيفانو، غير أنه غبيّ إلى درجة أنّ إيتّالو سيراه لا محالة. لماذا يرافقني أغبى اثنين في البلدة كلّها؟

وفي تلك اللحظة، يظهر ضوء دراجة تأتي من البعيد.

11

اهدأ. اهدأ. عليك أن تبدو طبيعيا. لا تريهم أنك خائف. ولا أنك مستعجل. كان بييترو يردّد هذه الجملة في سرّه مثل تعويذة.

تقدّم ببطء ومازال يتساءل عمّا يدفعهم كي يضمروا له الحقد. لقد أجبر نفسه على ألاّ يطرح هذا السؤال، لكنه ما يزال مرتبكا. كان ألعوبتهم المفضلة، كالفأر الذي تتدرّب عليه مخالبهم.

ماذا فعلتُ بحقّهم؟ لم يكن بييترو يزعج أحدا، يقضي أيّامه بعيدا عن الجميع، لا يتحدث إلى أحد، ولا يتدخل في شؤون أحد.

تريدون أن تكونوا زعماء المدرسة، لا بأس. أنتم أقوى ثلاثة في المدرسة. فلمَ لا يدعونه وشأنه؟

نصحته جلوريا، التي كانت تكرههم أكثر منه، أن يجتنبهم مرارًا، فهم سيلحقون به الأذى عاجلًا أم آجلًا.

كانوا على بعد أمتار قليلة عنه. لم يعد يستطيع اجتنابهم الآن، أو الاختباء عن أنظارهم. لذا خفّف سرعته، وأخذ يتفحّص المقبضين تحت الظلام خلف ضوء الدراجة. واتّجه إلى جانب الطريق كي يفسح لهم المجال. كان قلبه يخفق بشدة، جفّ لعابه وانتفخ لسانه مثل الكرتون المقوّى.

اهدأ.

لم يعد يسمع أصواتهم. توقّفوا في قارعة الطريق. ربّما عرفوا من هو، وراحوا يستعدّون. تقدّم قليلًا. كانوا على بعد عشرة أمتار، ثمانية، خمسة... *اهدأ.*

أخذ نفسا عميقا وقرّر ألاّ يخفض نظراته، بل أن ينظر إليهم في وجوههم. وكان متأهّبا. إذا حاولوا أن يحاصروه فعليه أن يخترقهم ويمرّ من بينهم. وإن لم يمسكوا به فسيلتفّون بدرّاجاتهم، وهو ما يعطيه أفضلية في السباق كافية ليصل إلى البيت سالما.

ولكن حدث شيء لم يكن ليخطر في باله. شيء غريب، أغرب من لقاء كائن مرّيخيّ يمتطي بقرة تغنّي «آه يا شمسي». لم يتوقع بييترو شيئا كهذا فازداد ارتباكه.

- أهذا أنت يا ابن موروني. مرحبا بك. إلى أين تذهب؟ — سأله فيديريكو.

كان الحدث غير معقول لعدة أسباب.

1. لم يدعُهُ فيديريكو بـ«رأس القضيب» كما كان يفعل عادة.
2. فيديريكو يتحدث بنبرةٍ لطيفة لم تتحدث حباله الصوتية القذرة بها أبدا حتى ذلك المساء.
3. حتى أندريا وستيفانو يرحّبان به، ويلوّحان بيديهما كطفلين بريئين ومهذّبين يودّعان العمّة الحنون.

ظل بييترو مشدوها. *كن حذرا. إنه فخّ.* وبقي واقفا، كالأبله، في وسط الطريق، لا تفصله عنهم سوى ثلاثة أمتار أو أقلّ.

- مرحبا! — قال أندريا وستيفانو معا.
- مر... مرحبا... — أجابهم دون تركيز. ومن الوارد أنّها المرة الأولى التي يحيّيه أندريا باتشي.
- إلى أين أنت ذاهب؟ — سأله فيديريكو ثانية.
- ... إلى البيت.

- آه... إلى البيت...

كان بييترو، وقد وضع قدما على الدوّاسة، مستعدًّا للفرار. إن كان فخًّا فسيهاجمونه عاجلًا أم آجلًا.

- هل أنهيت بحث العلوم؟

- أجل...

- عمَّ أجريته؟

- عن الملاريا.

- آه. كم هي جميلة الملاريا!

لم يفلح الظلام في إغراق وجوههم. فكان بييترو يرى كيف يهزّون رؤوسهم كأنهم من علماء الميكروبيولوجيا وخبراء في الأمراض الاستوائية.

- هل أجريت البحث مع جلوريا؟

- أجل.

- آه حسنا. إنها شاطرة أليس كذلك؟ – لم ينتظر الزعيم إجابة فتابع– نحن أجرينا البحث عن النمل. أسوأ من الملاريا... اسمع، هل أنت مضطر للذهاب إلى البيت؟

هل أنا مضطر للذهاب إلى البيت؟ أي سؤال هذا؟

بمَ كان عليه أن يجيبه؟ بالحقيقة طبعا.

- أجل.

- آه. يا للخسارة! كنا نفكّر في القيام بشيء... شيء رائع. بوسعك المجيء معنا. إنه يخصّك أنت أيضا. يا للخسارة. سنستمتع أكثر لو أتيت معنا.

- حقًّا. سنستمتع أكثر. – كرّر أندريا باتشي.

مسرحية كوميدية عظيمة. ثلاثة ممثلين فاشلين يقومون بأداء سخيف. هذا ما أدركه بييترو على الفور. وإن كانوا يظنّون أنهم يثيرون

فضوله فهم مخطؤون. فهو لم يكن ليكترث بشيء تصنعه أياديهم.

- يؤسفني ذلك. ولكن عليّ العودة إلى البيت.

- أعلم أعلم. ولكن المشكلة أننا لا نستطيع القيام بذاك الشيء وحدنا، نحن في حاجة إلى شخص رابع وفكّرنا أنّك... قد تساعدتنا...

أخذ الظلام يخفي وجه فيديريكو بييريني، ولم يكن بييترو يسمع سوى صوته الحاد ممزوجا بحفيف الأشجار والرياح.

- هيا. لن يستغرق الأمر طويلًا...

- لفعل ماذا؟ - استطاع بييترو أن ينطق بها أخيرا، ولكن بصوت منخفض لم يسمعه أحد. فسأل مجدّدا. - لفعل ماذا؟

أربكه بييريني ثانية عندما وثب من الدراجة وأمسك بمقود دراجته.

أحسنت. ها قد فعلها، وأوقع بك.

ولكن بدل أن يضربه، نظر حوله ولفّ ذراعا على رقبة بييترو كحلّ وسط بين العناق الأخويّ والتهديد في المصارعة الحرّة.

اقترب أندريا باتشي وستيفانو رونكا منهما. لم يكن لدى بييترو الوقت لأيّ ردّة فعل حين انتبه أنّه محاصر. وكان بوسعهم أن يمزّقوه إربًا لو أرادوا ذلك.

- اسمعني. نريد أن نطوّق بوّابة المدرسة بقفل الدراجة. - همس بييريني في أذنه كأنه يدلّه على مكان الكنز.

- فكرة عبقرية. أليس كذلك؟ - تأرجح رأس رونكا من شدة السعادة.

- لن يستطيعوا فكّه أبدا. - قال باتشي وهو يُظهر القفل.

سألهم بييترو: ولماذا؟

- كي لا نذهب إلى المدرسة غدا. أفهمت؟ سوف نقفل المدرسة نحن الأربعة ونعود سعداء إلى منازلنا. وسيتساءل الجميع عمّن فعلها. وسنصبح الأبطال لوقت طويل. تخيّلْ كم سيغضب المدير ونائبته

والآخرون. – قال فيديريكو.

– تخيّل كم سيغضب المدير ونائبته والآخرون. –كرّر ستيفانو كالببّغاء.

– ما رأيك؟ – سأله فيديريكو.

لم يعرف بييترو بأيّ جواب يجيب. ولم يرق له الأمر أصلًا، فهو كان يودّ الذهاب إلى المدرسة. كان جاهزا للامتحان ويريد أن يُري الآنسة روفي اللوحة.

وتخيّل لو كُشف الأمر... إن أراد هؤلاء اصطحابك إلى مكان ما فاعلم أنّ في الأمر مكيدة.

– هل تريد المجيء معنا؟ – أخرج فيديريكو علبة السجائر وعرض عليه واحدة، لكن بييترو رفضها.

– لا أستطيع. أنا آسف.

– لماذا؟

– أبي.. في انتظاري.. –ثم تجرّأ وسأل: ولماذا تريدونني أن آتي معكم؟

– لأنّ الأمر ممتع. وبوسعنا القيام به معًا. ومن الأفضل أن نكون أربعة.

كم كان المشروع كريها!

– أعتذر. عليّ الذهاب إلى البيت. لا أستطيع حقّا.

– لن يستغرق الأمر كثيرا. تخيّل ما سيقوله عنّا الآخرون في الغد.

– لا أستطيع... حقّا.

– وماذا لديك؟ هل تتبوّل على نفسك كالعادة؟ هل أنت خائف؟ عليك أن تركض إلى بابا وماما، إلى البيت، كي تأكل البسكويت وتتغوّط في وعاء الصغار؟ – انحشر ستيفانو بينهما بصوته المزعج كطنين الذباب.

ها هم يسخرون منك الآن ثم يضربونك. هكذا تنتهي دائما.

وجّه فيديريكو نظرة ملتهبة إلى ستيفانو.

– اخرس أنت! ليس خائفا. يريد العودة إلى المنزل فحسب. – كان

فيديريكو مريحا- وأنا أيضا أريد العودة إلى بيتي باكرا وإلاّ ضربتني جدتي على مؤخرتي.

- وما الشيء المهم الذي لديه في البيت؟ - أصرّ ستيفانو ببلادة.

- ليس من شأنك. لديه ما لديه. هذا لا يعنيك.

- ستيفانو يتدخل دوما في شؤون الآخرين. - لامه أندريا باتشي.

- كفى. دعاه يقرّر بسلام...

كان الوضع كالتالي: وضعه بييريني أمام احتمالين.

1. أن يقول لا. وحينها سيرمونه على الأرض وينهالون عليه بالرفس واللكمات. كان متأكدا من ذلك وبوسعه أن يراهن عليه أيضا.

2. أن يذهب معهم إلى المدرسة ويسلّم أمره لمجريات الأمور. من الممكن أن يحدث كل شيء هناك: قد يضربونه وقد ينجح في الفرار...

وبصراحة كان يفضّل الحلّ الثاني على الأول حين بدأ بييريني الطيب يتلاشى.

- ماذا قررّت إذن؟ سأله بنبرة أقسى.

- فلنذهب. ولكن علينا إنهاء الأمر بسرعة.

- بسرعة البرق.

12

كان فيديريكو مسرورا للغاية بعد أن ابتلع «رأس القضيب» الطعم. انطلت عليه الحيلة وها هو يتبعهم. ولابدّ أنه أبله حقّا حتى يصدّق أنهم في حاجة إلى واحد مثله.

لقد ضحكت عليه بسهولة. هيا، تعال معنا، سنصبح أبطالًا. يا له من أبله.

كان سيرغمه على وضع القفل بالقوة، إذ خطرت في باله فكرة

مضحكة: أن يصرخ بأعلى صوته حتى يستيقظ إيتالو العجوز الدميم. حبّذا لو رآه يقفل البوابة فيطلق النيران على مؤخرته. إلاّ أنّ العملية هكذا ستبوء كلّها بالفشل، وقد يشمله الرفت من المدرسة لأسبوع على الأقل.

كان باتشي المنيوك يقترب منه ويحاكي أفكاره، فلسعه بييريني بنظرة ملتهبة.

وإذا تمنّع عن الذهاب لوضع القفل؟ ابتسم آملًا ذلك. أرجوك يا الله اسمعني. دعه يقول إنه لا يريد وضع القفل. كم سنستمتع حينها.

اقترب من رأس القضيب وقال له: ستكون مجرد مزحة. فأومأ الأخير برأسه مؤكدا.

كم كان يحتقره ويشمئز من تسريحة شعره. كانت الرغبة في العنف تعربد في رأسه. أجل. لديه رغبة في إيذائه، أن يمسك رأسه الصغير ويهشّمه على صخرة. إذ أنه لن يعترض على شيء أبدا. لو قال له إنّ أمّه عاهرة وإنّ سائقي الشاحنات ينكحون دُبرها ليلَ نهار، لهزّ رأسه مؤكدا. *حقّا، أمي تفضّل أن يلج القضيب دُبرها*. تتساوى كل الأشياء عند بييترو، وليس لديه أي ردة فعل على أي شيء. كان أغبى من هذين الأحمقين اللّذين يرافقانه. ولكن أندريا السمين لا يطأطئ رأسه عند قدمي أحد، وستيفانو كان يسلّيه من الحين إلى الآخر (مع أنّه لا يستلطفه كثيرا). أمّا بييترو فيتحلّى بهالة استعلاء فريدة تحرق أعصاب فيديريكو.

بييترو موروني لا يتكلم في الصّف أبدا، ولا يلعب مع الآخرين في حصة الرياضة، ويسرح في السماء. أنت لا شيء، بل أنت منبوذ هل فهمت يا جميل؟

وليس إلاّ لعاهرة جميلة مثل جلوريا شيلاني، التي تظنّ أنّها صاحبة الفرج الوحيد في العالم، أن تتخذ من هذا الكائن السافل *(حبيبا؟)* صديقا. كانا يفعلان ما بوسعهما لإخفاء حقيقة العلاقة بينهما، لكنّ

بييريني – الذي يفهم كل شيء – أدرك أنهما مرتبطان، أو شيء من هذا القبيل. كانا شريكين على كلّ حال، ومن الوارد جدّا أنهما يتناكحان.

ظلّت قصة جلوريا، صاحبة الفرج الوحيد، تعذّبه كشوكة نمت في رأسه. يحدث أن يستيقظ بعض المرّات في الليل، ولا يستطيع العودة إلى النوم، وهو يفكّر في تلك القحبة. كانت تؤرقه حتى الجنون، وإذا جُنّ فقد يرتكب أشياء لا تُحمد عُقباها.

منذ عدة أشهر نظّمت كاترينا مارازي، تلك الطالبة القبيحة في الثالث آ، حفلة خرائية مساء يوم سبت في بيتها احتفاءً بعيد ميلادها. ولم تدعُ إليها بييريني ولا باتشي ولا حتى رونكا (وإحقاقا للحق لم تدع حتى بييترو). ومنذ متى يحتاج أصدقاؤنا الطيبون إلى دعوة كي يشاركوا في حفلة؟

تشّرفت كاترينا باستقبال فياما أيضا في بيتها. كان عمره ستة عشر عاما، وكان أحمق بكلّ المعايير وله طباع كلب البيتبول وهو بكامل همجيته. كان المسكين مضطرب العقل، يعمل حمّال صناديق في سوبرماركت أوربانو، ويقهقه كالمخبول عندما يطلق النار بالمسدّس على الخرفان أو على أيّ كائن حيّ يقتاده حظّه العاثر إلى طريق فياما. في إحدى الليالي دخل إلى حظيرة السيد موروني وأطلق النار على الحمار، لأنه شاهد في اليوم السابق فيلم «قائمة شندلر» على التلفاز ووقع في غرام النازي الأشقر.

ورغم أنهم جاؤوا إلى الحفلة دون دعوة، فإنّهم لم ينسوا إحضار هدية لائقة معهم. جيفة قطّ من العِرْقِ السوريّ الجميل، عثروا عليه مدهوسا عند الأوريليا.

«لو لم تكن الجيفة بهذه الرائحة الكريهة لصنعت كاترينا من وبره معطفا شتويا. في الحقيقة هو يليق بها. ولكنه قد يناسبها حتى في هذه

الحالة، فقد تتفاعل رائحة الجيفة مع عَرَقِ كاترينا ليشكّلا رائحة جديدة» قال ستيفانو وهو يعاين القطّ من كثب.

عندما دخل الأربعة إلى البيت، وجدوا طقسا كئيبا: أضواء خافتة، كراسيَ مسنودة إلى الحائط، وأغانيَ ناعمة، وحمقى يرقصون مَثْنَى مَثْنَى. فبدأ فياما بإثبات وجوده وغيّر الموسيقى ووضع قرصا لفاسكو روسي. ثم راح يرقص وحده وسط الصالة، ومن الممكن إغفال هذا الأمر لولا أنه لم يلوّح بالقط كالهراوة ليضرب به كلّ مَن يمرّ قربه. ولم يرض بذلك، فأخذ يصفع كل الذكور على وجوههم فيما كان أندريا وستيفانو يلتهمان الشيبس وقطع البيتزا والمشروبات.

كان فيديريكو جالسا إلى الأريكة يدخّن ويتابع باهتمام سير العملية الممتعة التي ينفّذها أصدقاؤه. «تهانينا. لقد جئت بكل المعتوهين إلى هنا». التفت فيديريكو ورأى جلوريا جالسة إلى المسند. لم تكن ترتدي الكنزة وبنطال الجينز المعتاد بل ثوبا أحمر قصيرا يجعلها جذّابة أكثر ممّا كانت. «أنت لا تستطيع التحرك وحدك، أليس كذلك؟». ظلّ فيديريكو مندهشا كالأبله. «بلى. إنني قادر...». «لا أصدقك». كانت ترمقه بابتسامة لعوب. «أنت تشعر بالضياع إن لم يتبعك هؤلاء الصعاليك». ارتبك فيديريكو وبقي مشدوها. «هل تعرف الرقص على الأقل؟». «كلا. الرقص يزعجني. – قال بينما كان يُخرج قنينة بيرة من سترته الجلدية– أتريدين؟». «شكرا» أجابته. كان يعرف أنها فتاة قوية ومختلفة عن كل الحمقاوات اللواتي يهربن حالما يدنو منهنّ. إنها فتاة تشرب البيرة. فتاة تنظر بحزم في عينيك. لكنها كانت أقذر بنت أكابر في المنطقة أيضا، وهو كان يودّ رؤية أبناء الأكابر معلّقين على المشانق. مرّر إليها البيرة. ارتشفت منها قليلًا. «يا للقرف إنها حارة... – ثم سألته– هلاّ رقصت معي؟». كان معجبا بها لهذا السبب. لم تكن تخجل. وأن تطلب منك صبية مرافقتها للرقص في إيسكيانو سكالو

فهذه سابقة فريدة من نوعها. «لقد أخبرتك أنّ الرقص يزعجني...». لم يكن يؤسفه في الحقيقة أن يشارك تلك الفتاة الرقص ويضمّها إليه قليلًا، لكنه لم يكن يكذب، إذ كان راقصا فاشلًا وقد يعطي انطباعا سيّئا. لن يرقص، نقطة. انتهى. «هل أنت خائف؟ – ألحّت الماكرة– هل تخاف أن يسخروا منك إذا ما رأوك ترقص؟». نظر فيديريكو حوله. كان فياما في الطابق العلوي والآخران منزويين يثرثران، وثمّتَ ظلام مثير وأغنية جميلة «الفجر المذهل» ملائمة لاقتراف رقصة رومانسية حقّا. وضع السيجارة في فمه ونهض، وطوّق خصرها بيد وأدخل الأخرى في جيبه، وبدأ يهزّ وركه بانسجام كأنه لم يتعلّم في حياته سوى الرقص. ضمّها إلى صدره وشمّ عطرها. عطر إنسان نظيف يستخدم الشامبو. كم كان متفاعلًا معها. «ما دمت تعرف الرقص، – همست في أذنه فاقشعرّ زغب رقبته وانحبست أنفاسه وقرع قلبه كالطنبور– هل تعجبك الأغنية؟». «جدّا». لابدّ أن يرتبط بها فهي تناسبه كثيرا، كان يفكر. «الأغنية تتحدث عن فتاة تبقى وحيدة دوما...». «أعرف...» تمتم بييريني بينما وضعت أنفها على رقبته حتى كاد يغمى عليه، وانتابه ألمٌ محبّب لانتصاب قضيبه تحت البنطال وتملّكته رغبة آسرة في لثمها. وكان سيفعلها لو لم تُنر الأضواء فجأة... الشرطة!

كان فياما ينهال باللّكمات على والد كاترينا ولا بدّ من الهرب. تركها هناك وفرّ دون أن يقول لها: وداعا... نلتقي غدا... لا شيء.

وفيما بعد، استاء كثيرا ممّا جرى، وكاد أن يتشاجر مع فياما المعتوه في البار لأنّه دمّر كل شيء. ثم عاد إلى البيت وأغلق على نفسه الغرفة يقلّب ذكرى الرقصة كأنّها حجر كريم.

وفي اليوم التالي صمّم أن يكلّمها أمام المدرسة، فذهب إليها وسألها: «هل بوسعنا الخروج معا؟». فنظرت إليه كأنها تراه للمرة الأولى، ثم انفجرت ضاحكة. «هل جننت؟ قد أفضّل الخروج مع إلاتري

(الراهب الذي يدرّس التربية الدينية) على الخروج معك. أنت لا يليق بك إلا البقاء مع أولئك الحمقى». فمسكها من ذراعها بشدة *(لماذا رقصت معي إذن؟)*، لكنها استشرفت:«لا تتجرّأ على لمسي، أتفهم». وظلّ فيديريكو واقفا هناك دون أن يصفعها بكفّ واحد على الأقل.

لهذا السبب كان يكره بييترو، صديق الحقيرة المفضل، ويتساءل كيف لصبيّة بهذا الجمال (كم كانت جميلة! كان يحلم بها ليلًا. يتخيل أنه ينزع عنها ذلك الثوب الأحمر ليراها عارية أمامه. كان سيداعبها كأنها دمية. ولم يكن ليزيح أبصاره عنها، بل سيمعن النظر فيها لأنه على ثقة بكمال أوصافها. *ذلك النهد الصغير وتانكَ الحلمتان البارزتان من تحت الكنزة وسرّتها والزغب الناعم تحت إبطيها، وساقاها الطويلتان وفرجها الذي يعتليه قليل من الزغب أيضا مجعّدا وعشوائيا وناعما مثل فرو الأرنب... كفى!) كيف لصبيّة بهذا الجمال أن تحب بائسا كهذا؟*

كلّما فكّر في أمرها تشنجت معدته، وتمنى لو مزّق وجهها على سلوكها السيّئ معه. والأسوأ من ذلك أنّ تلك الحشرة تحب شخصا لا يعترض إذا أسأت إليه، ولا يغضب ولا يطلب الرحمة ولا يبكي مثل الآخرين، بل يبقى واقفا بلا حركة وينظر إليك بتَيْنكَ العينين... كعيني جرو يائس، كعيني يسوع الناصري، عينين كريهتين تؤنّبان ضميرك. تحبّ شخصا من أولئك الذين يؤمنون بالترهات التي يتفوه بها الرهبان: إذا ضربك أحدهم على خدّك الأيمن فأدر له الخدّ الأيسر.

أمّا أنا، إذا ضربتني على خدّي سأضربك بجمع يديّ حتى أسوّي أنفك بخدّيك.

كان فيديريكو يستشيط غضبا عندما يراه جالسا بكل ألفة إلى مقعده يرسم السخافات بينما كلّ التلاميذ يصرخون في الصف ويشاغبون.

لو كان الأمر بيده لتحوّل بكلّ سرور إلى وحش متعطش للدماء كي يطارد ذلك الأرنب بين الوديان والأنهار والجبال، وما إن ينزلق في

الطين حتى يرفسه ويحطّم عظام صدره ليرى حينها هل يطلب الرحمة أم لا، ويكون كغيره من الناس وليس كـ Et الكائن الفضائي الذي لا يساوي بولة.

ذات مرة في الصيف، كان فيديريكو صغيرا يلعب في الحقل فعثر على سلحفاة كبيرة تأكل الخس والجزر بأمان، كأنها في بيتها. فأخذها وحملها إلى المستودع حيث وضع والده طاولة يعمل عليها. هناك ثبّت السلحفاة بالكمّاشة وانتظر بفارغ الصبر أن تُخرج أقدامها وتهزّ رأسها. حينها أمسك بالمطرقة الكبيرة التي تُستخدم لهدم الجدران، وضربها في منتصف درعها.

طججج.

كان يشبه تحطيم البيض في عيد الفصح لكنه أقسى بكثير. انفتح شرخ طويل بين ألواح الدرع، وخرج منه سائل أحمر ولزج. لكن السلحفاة بدت وكأنها لم تنتبه لما جرى، وراحت تهزّ رأسها وأقدامها بصمت. دنا منها ليبحث عن شيء ما في عينيها، لكنه لم يجد شيئا البتة. لا ألَمَ، ولا دهشةَ، ولا حقد. لا شيء أبدا سوى كُرَتَيْن صغيرتين في غاية البلادة. فضربها مرارا وتكرارا حتى تعبت ذراعه. كانت السلحفاة تحتضر، وتحوّل درعها إلى لعبة بازل من عظام تنزف دمًا، لكنّ عينيها بقيتا ثابتتين على تلك الحال من البلاهة، خاليتين من الأسرار. نزعها من الكمّاشة ووضعها على أرضية المستودع، فبدأت تسير ودمها يتبعها. وراح فيديريكو يصرخ هلعا.

وعليه، فإنّ «رأس القضيب» بييترو يشبه تلك السلحفاة كثيرا.

13

استيقظ جراتزيانو بيليا حوالي السادسة مساء ومازال منهكا من كثرة ما أكل في الأمس. تجرّع دواء الحرقة الفوّار (ألكا سيلتزر) وقرّر

أن يُمضي ما بقي من النهار في البيت ليستمتع بالكسل.

حضّرت له والدته الشّاي والحلوى في الصالون، وحمل جراتزيانو جهاز التحكم. ثم قال لنفسه إنّ بوسعه القيام بشيء أفضل، شيء لا بدّ أن يشرع فيه بانتظام، طالما أنّ الحياة الريفية تحتوي على أوقات فراغ طويلة ينبغي أن يستغلّها ولا يهدر وقته في برامج الشاشة الصغيرة. بوسعه أن يقرأ كتابا.

لم تكن مكتبة آل بيليا تحتوي على كنوز المعرفة. موسوعة عن الحيوانات، سيرة موسوليني لمارك سميث، كتاب لإنزو بياجي، ثلاثة كتب عن الطبخ، وتاريخ الفلسفة الإغريقية للوشانو دي كريشنزو. فاختار دي كريشنزو.

جلس على الأريكة، وقرأ صفحتين. ثم تذكّر أنّ إريكا لم تتّصل به بعد. نظر إلى الساعة. غريب. عندما غادر من روما صباح أمس، قالت له إريكا في نعاسها إنّها ستتّصل به حالما تنتهي البروفة. والبروفة كانت في العاشرة صباحا، أي أنّها انتهت منذ مدّة.

حاول الاتصال بها على الجوّال، فكان خارج نطاق الخدمة. كيف هذا؟ *إريكا لا تطفئ جهازها أبدا*. حاول أن يتّصل بالبيت، فلم يجب أحد هناك أيضا. *ومن يدري أين هي؟*

حاول أن يركّز في الفلسفة الإغريقية.

14

كان الأربعة على بعد خمسين مترا من المدرسة. ألقوا درّاجاتهم في حفرة، واختبؤوا خلف سياج الغار. كان الطقس باردا والريح تتضاعف وتتمادى في ضرب الأشجار السّود. شدّ بييترو معطف الجينز على نفسه ونفخ على يديه لإحمائهما.

- والآن، ماذا نفعل؟ من سيذهب ليضع القفل؟ – سأل ستيفانو

هامسا.

- من الممكن أن نقوم بقرعة. - اقترح أندريا.

- لا قرعة. - أشعل فيديريكو بييريني سيجارة ثم التفت إلى بييترو: ولماذا أتينا برأس القضيب إذن؟

رأس القضيب؟ ...

- حقّا. بييترو رأس القضيب. عليك أن تضع القفل. هذا الجبان الذي يتغوّط في سرواله وعليه أن يعود إلى حضن ماما. - علّق ستيفانو بسرور.

ها هي الحقيقة المقدسة. ها هو السبب الذي دفع بهم ليأخذوه معهم. قاموا بتلك التمثيلية لأنهم يخشون الذهاب لوضع القفل على البوابة. يظهر الأشرار في الأفلام عادة على أنّهم مميّزون، يقاتلون ضدّ البطل، ويتحدّونه بمبارزة ويفعلون أشياء عجيبة كتفجير جسر أو سرقة بنك أو اختطاف أفراد عائلة كريمة. لم يكن سيلفستر ستالوني ليواجه أشرارا يتبوّلون خوفا كهؤلاء الثلاثة. وهذا ما جعل بييترو يشعر بالثّقة، إذ سوف يعلّمهم بنفسه.

- هات القفل.

- انتبه من إيتالو. إنّه مجنون وقد يطلق النار. قد يثقب مؤخّرتك بالرصاص ليقطر منها البراز. - قال ستيفانو هازئا.

لكنّ بييترو لم يعبأ به حتى أنه لم يصغ إليه أصلا. اجتاز السياج متّجها نحو المدرسة.

يخافون من إيتالو. يدّعون أنّهم أبطال وأقوياء وهم ليسوا قادرين حتى على وضع قفل على بوابة. أمّا أنا فلا أخاف.

اشتدّ تركيزه على ما أرادوا له أن يفعل. كانت المدرسة المظلمة والكئيبة كأنّها تطوف في الضباب. يخلو شارع ريجي من المارّة ليلًا إذ لا بيوت فيه. ثمّتَ حديقة صغيرة منسية، أراجيحها صدئة ونافورتها

مليئة بالوحل والنباتات، ومقهى سيغافريدو بالكتابات المطلية على ستاره، ونور مصباح خافتٍ يصدر أزيزا مزعجا. حتى السيارات لا تمرّ من هناك. كان الخطر الوحيد هو إيتالو المجنون لأنّه يعيش في غرفة الحراسة المحاذية تماما لبوّابة المدرسة.

توقّف بييترو مسندا ظهره إلى الجدار. فتح القفل. كان عليه أن يزحف حتى البوّابة، يغلق القفل ثم يعود إلى الخلف. كانت مهمّة سخيفة، وهو يعرف ذلك، لكن قلبه لا يرى الأمر مثله فينبض في صدره كقاطرة بخارية.

سمع بعض الأصوات خلفه، فاستدار. كان الأوغاد الثلاثة يقتربون ليراقبوه من وراء السياج. حرّك ستيفانو ذراعه، ليعطيه إشارةَ التّقدم. فانبطح وأخذ يزحف على مرفقيْه وركبتيْه. وضع المفتاح بين أسنانه والقفل في يده. كانت الأرض مقرفة بذاك الوحل والأوراق اليابسة وبقايا الجرائد الممزّقة، فاتّسخ بنطاله وسترته.

لم يكن بوسعه معرفة ما إذا كان إيتالو خلف النافذة أم لا، لكنّه لاحظ أنّ ضوء التّلفاز الأزرق لم يكن يخرج من بين الفتحات. حبس أنفاسه. ثمّتَ سكون كامل. نهض متغلّبا على الترقّب ووثب بسرعة حتى التصق بالبوّابة وصعد حتى قمّتها. ونظر وراء غرفة الحراسة، حيث يركن إيتالو سيّارته و... *ليست موجودة. السيارة ليست موجودة. إيتالو ليس هناك! ليس هناك!*

ربّما كان في أوربانو، أو ربّما قد ذهب إلى داره القريبة جدّا من بيت بييترو.

وثب لينزل من البوّابة، وطوّقها بالقفل بكلّ هدوء ثم أغلقه.

فعلتها!

عاد إلى الخلف، وهو يمشي بارتياح واضح ولديه رغبة في التصفير لا تقاوم. لكنّه اجتاز الأشجار ودخل إلى الحديقة ليبحث عن الخوّافين.

يقوم دبّ الباندا بحمية دون متطلّبات كثيرة: على الفطور يتناول أوراق البامبو، وعلى الغداء يتناول أوراق البامبو، وعلى العشاء يتناول أوراق البامبو. والويل له إذا نفد البامبو، سيموت جوعا في غضون شهر لا محالة. وليس من السهل تنمية أوراق البامبو، ولعلّ ذلك ما يفسّر سبب نزول هذا الدبّ الأبيض والأسود ضيفا في أرقى حدائق الحيوان فقط. إنّه أحد الكائنات المتخصّصة التي جعلها التطور الطبيعي ضعيفة، تعتمد على نوع غذائي واحد ويرتبط وجودها به. يكفي أن تبيد هذا النوع (أوراق البامبو بالنسبة إلى الباندا، أوراق الكينا بالنسبة إلى الكوالا، الطحال بالنسبة إلى سحلية الاغوانا البحرية في جزر الجالاباجوس إلخ) حتى ينقرض الحيوان. فدبّ الباندا مثلًا لا يسعى إلى التأقلم دون البامبو، بل يمضي إلى الموت.

وكان إيتالو ميلي، والد الشرطي برونو صديق جراتزيانو، كائنا متخصّصا نوعا ما. يعمل آذنا في مدرسة مايكل أنجلو بوناروتّي، وكان الأنموذج المثالي لمن ينطفئ كشمعة إن لم يتناول طبق البوكاتيني بالبهارات ويبحث عن العاهرات.

كان إيتالو، في تلك السهرة، يحاول أن يُشبع ضروراته الحيوية. إذ وضع المنديل على عنقه وجلس إلى طاولة في مطعم الفيكيو كارو، وراح يلتهم طبقا من الباباردِيللي البيتيّة. وهي عبارة عن خلطة من صلصة الخنزير البرّي مع البازلاّء والقشطة والصدف. كان سعيدا كقطعة من اللحم في صلصة الطماطم.

وزن إيتالو ميلي: 120 كيلوجراما. طوله: 165 سنتمترا.

ولكن، للأمانة، يجب التنويه بأنّ كرشه لم تكن مفلطحة أكثر من بيضة. وبأنّ يديه متينتان وأصابعه قصيرة، ورأسه الأصلع، والضخم كالبطيخة، محشور بين كتفيه العريضتَين، وهو ما يجعله كدمية روسية مخيفة.

كان يعاني من مرض السكّري، لكنّه لا يريد أن يصدّق ذلك. أمره الطبيب باتباع حمية متوازنة، إلاّ أنّه لم يقلّب الموضوع من أساسه. وكان أعرج أيضا، فعضلة ساقه اليمنى ضخمة ومنتفخة مثل سندويش الهمبرغر، وعروقه تبرز ملتوية تحت جلده ومكدّسة على بعضها كعقدة ديدان زرقاء.

تمرّ عليه بعض الأيام، وذلك اليوم كان أحدها، يتفاقم فيها الألم حتى تتمّل ساقه ويصعد الخدر إلى المثانة. فينزعج إيتالو ويرغب ببتر تلك السّاق الحقيرة. إلاّ أنّ وجبة البابارديللي تعيد السلام إلى قلبه.

كان مطعم الفيكيو كارو كبيرا ومبنيّا على الطّراز الروستيكي المكسيكي، مزيّنا بالصبّار وعظام البقر، ويقع إلى جانب الأوريليا على بعد بضعة كيلومترات عن إنتيانو. وكان فيه فندق تؤجّر غرفه بالسّاعة، وفيه ملهى وبار وزاوية لوجبات سريعة وصالة بلياردو ومحطة وقود وورشة صيانة وسوبرماركت. بوسعك أن تجد فيه ضالّتك، وإن لم تجدها ستعثر على شيء يشبهها.

كان معظم الزبائن من سائقي الشاحنات وعابري السبيل، وهذا كان سببا لينال تقدير إيتالو. لا يرتاده أهل البلدة الحشريّون. طعامه لذيذ وأسعاره زهيدة.

أمّا السبب الأهم فكان وقوعه بمحاذاة «مرتع المومسات»، كما يسمّيه الناس في المنطقة. وهو عبارة عن شارع إسفلتي بطول خمسمائة متر ينعطف من الأوريليا وينتهي وسط الحقول، والمراد منه فتح طريق جديد إلى أورفيتو، على رأي مهندس مصاب بجنون العظمة. ولكنّه كان مرتع المومسات حتى تلك اللحظة. يفتح أبوابه 24 على 24 ساعة لمدة 365 يوم في السّنة، دون عطلة أو استراحة. أسعاره رخيصة ومحدّدة. لا تُقبل فيه بطاقة الائتمان ولا الشيكات. تجلس العاهرات، النيجيريات عموما، على مقاعد صغيرة على حافّتي الطريق، ويرفعن المظلات أثناء

المطر والحرّ الشديد.

وعلى بعد مائة مترٍ من هناك، ثمّتَ عربة تحضّر سندويش البومبر الشهير: صدر دجاج مشوي مع الجبن والباذنجان المقلي والفليلفة. لكن إيتالو لم يكن ليرضى بسندويش البومبر، فيذهب مرة واحدة في الأسبوع ليقضّي سهرته الفاخرة: المرتع قبل كلّ شيء ثم الفيكيو كارو. خطّة جهنّمية. ذات مرّة حاول أن يغيّر، فذهب إلى الفيكيو كارو أوّلًا ثم إلى المرتع. لكنّ السهرة فسدت عندما شعر بالغثيان، بينما كان ينكح، واضطربت معدته وتقيّأ البابارديللي على مقود السيارة.

منذ حوالي العام وإيتالو لا يغيّر العاهرة، وأصبح زبونا عزيزا لدى حليمة. كان يصل في السابعة والنصف تماما وتكون بانتظاره في مكانها المعتاد، فيشحنها في سيّارته، ويركنها خلف لوحة إعلانية ضخمة بالقرب من هناك. ولا يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق. وهكذا يكون على طاولة العشاء عند الثامنة تماما.

فلنعترف بأنّ حليمة ليست بملكة جمال إفريقيا. كانت مجرّد لحم أرهقته التجاعيد، بمؤخّرة ضخمة مثل الجاموس، وصدر مسطّح وفارغ. تضع على رأسها شعرا أشقر مستعارا من إحدى الدّمى. وقد وجد إيتالو أفضل منها لكن حليمة كانت ماهرة بمصّ القضيب، على حدّ قوله. فكان أسلوبها في غاية الجديّة عندما تُدخل قضيبه في فمها. وهو كان واثقا من إعجابه بها، دون أن يراهن على قطع يده. حاول بعض المرّات أن ينكحها، لكنّ المتعة تحوّلت إلى مصيبة نظرا إلى قياسهما الضّخم (وساقه العرجاء بينهما) داخل سيّارته الصغيرة. ثم إنّ تسعيرة الجنس كانت خمسين ألفا، أمّا هكذا فالسّعر معقول: ثلاثون ألفا لمصّ القضيب وثلاثون ألفا للعشاء. مئتان وأربعون ألف ليرة في الشهر، مصروف معقول.

على الأقلّ، مرّة في الأسبوع، علينا أن نعيش كالسادة، وإلاّ لماذا

ثم إنّه اكتشف ذوّاقة طعام مولعة بالمطبخ الإيطالي. ناهيك أنّ حليمة ليست ثقيلة الظّل، ويجذبه الحديث إليها أكثر من زوجته العجوز التي لم يعد لديها ما تقوله منذ أكثر من عشرين عاما. ولذا كان يأخذها معه إلى الفيكيو كارو، نكاية بالنمّامين.

ومن الغريب أنّهما، في تلك الليلة، لم يجلسا في المكان المعتاد، بل قرب نافذة تطلّ على الأوريليا. فكانت أضواء السّيارات تومض في المطعم وتختفي في الظلام. وكان إيتالو أمام صحْن يغصّ بالبابارديللي، وحليمة تأكل الباستا بصلصة الراغو.

- عليك أن تشرحي لي يا حليمة كيف ينهاك «اللّه» عن أكل الخنزير وشرب النبيذ، بينما يتغاضى عنك وأنت تبيعين الهوى على قارعة الطريق. – سألها إيتالو وهو يمضغ الطعام. – أنا أرى أنّ الأمر سخيف جدّا. لا أقصد أن تكفّي عن البغاء. ولكن، مادمت لست بقدّيسة فاستمتعي بتذوّق لحم الخنزير على الأقلّ. أليس كذلك؟

كانت حليمة قد قررت ألاّ تجيبه على هذا السؤال الذي يكرّره في كلّ مرّة. وقد حاولت في بادئ الأمر أن تشرح له رحمة الله الذي يعرف كلّ تفاصيل حياتنا، وأنّها لن تخسر شيئا إن تجنّبت النّبيذ والخنزير. ولكنّها لا تستطيع التوقّف عن البغاء، فهي ترسل النقود إلى أولادها في إفريقيا. فيهزّ إيتالو رأسه متفهّما، ثم يعيد السؤال نفسه في المرّة التالية. فأدركت حليمة أنّه لا ينتظر منها إجابة، بل كان للسؤال قيمة طقسيّة، كأنّه يقول لها «شهيّة طيّبة» مثلًا. لكن تلك السهرة كانت كريمة بالمفاجآت.

- هل أعجبك الراغو؟ – سألها إيتالو منتشيا بعد أن ازدرد قنّينة نبيذ كاملة.

- لذيذ لذيذ! – قالت حليمة. كانت لها ابتسامة جميلة وعريضة تكشف عن أسنانها البيضاء كاللؤلؤ المنضود.

- لذيذ أليس كذلك؟ هل تعلمين أنّه ليس من لحم الماعز، بل من السالسيشا؟

- لم أفهم.

- إنه لحم خنزير. – كان إيتالو يتحدّث واللّقمة في فمه مشيرا إلى صحن حليمة بشوكته.

- خنزير؟ – حليمة لم تستوعب بعد.

- أجل. خنـ..ـزيـ..ر.. – إيتالو يمضغ ليوضّح كلامه أكثر.

- هل أطعمتني لحم خنزير؟ – أدركت حليمة أخيرا.

- أجل.

نهضت حليمة على قدميها، وتوقّدت عيناها فجأة وأخذت تصرخ:

- أيّها الحقير. أيها القذر. ما عدت أطيق رؤيتك أيّها العجوز التافه.

توقّف الزبائن عن الأكل ونظروا إليهما كنظرة الأسماك في الحوض.

- لا تصرخي يا امرأة. الناس ينظرون إلينا. اجلسي. كنت أمزح. هيّا.

– إيتالو يتحدّث بصوت منخفض، متشبّثا بالطاولة مثل الكلب.

كانت حليمة ترتجف وتتلعثم وتبذل جهدا في كبت دموعها.

- كنت أعلم أنّك قذر منذ البداية ولكنّني ظننتك... اذهب إلى الجحيم! – بصقت في الصّحن، حملت حقيبتها والسّترة الجلديّة وركضت نحو الباب مثل الفيل.

- تعالي إلى هنا. سأعطيك ثلاثين ألفا بقشيشا. – ركض وراءها وأمسك يدها.

- دعني وشأني أيّها القميء.

- كانت مجرّد مزحة...

- اتركني! اتركني! – صرخت وهي تنزع يدها من يديه، وسط ذهول الزّبائن.

- حسنا سامحيني. أنا أعتذر. معك حقّ. سآكل السالسيشا وأنت

تأكلين البابارديللي. فيها صدف وخنزير برّي... وهو مختلف عن الخنزير العادي..

- اذهب إلى حتفك أيّها اللّعين. – ابتعدت حليمة، ونظر إيتالو حوله فرأى الآخرين يحدّقون فيه. حاول أن يستردّ كرامته، فنفخ صدره ورفع يده إلى جهة الباب.

- فلتغتصبك وحوش الغابة! –استدار وعاد إلى الطاولة لينهي طعامه.

16

- فعلتُها. رمى بييترو مفتاح القفل إلى الثّلاثة الجالسين على الأراجيح. أنهيت العملية. خذوا المفتاح. –لكن لم ينهض منهم أحد.

- ألمْ يرك إيتالو؟. – سأله أندريا باتشي.

- كلاّ. لم يكن هناك. – شعر بييترو بمتعة كبيرة حينما قال ذلك، كأنّه تبوّل بعد احتباس طويل.

هل عرفتم من هو الذي يتبوّل خوفا؟ قمتم بكل هذه التمثيلية خشيةَ إيتالو الذي لم يكن موجودا أصلًا. أحسنتم. كم تمنّى أن يبوح لهم برأيه فيهم.

- ألم يكن هناك؟ هل تسخر منّا؟ – اتّهمه فيديريكو.

- أقسم لك إنّه ليس هناك! لا وجود لسيّارته الصغيرة. لقد نظرت جيّدا... والآن بوسعي الذهاب إلى المنز...

لم يتسنَّ له الوقت كي يكمل جملته حتى طار إلى الخلف ووقع على الأرض بشدّة. انقطعت أنفاسه، وهو ملقى على الوحل يتضوّر ألما. آلمه الوقوع على ظهره، فتح فمه، وجحظت عيناه وحاول أن يتنفّس ولكن هيهات. كأنّه وجد نفسه على سطح المرّيخ في غفلة منه. حدث ذلك في لحظة واحدة ولم يكن لديه أيّ فرصة لصدّه عندما رآه أمامه.

كان فيديريكو قد قفز من الأرجوحة وارتمى عليه بكل ما أوتي من

عزم فوقع أرضا كأنّه باب وانصفق.

- أين تريد الذهاب؟ إلى المنزل؟ لن تذهب إلى أيّ مكان.

كان بييترو يحتضر، أو أحسّ بذلك على الأقلّ. لو لم يعاود التنفّس خلال ثلاث ثوانٍ لكان ميتا. ابتلع ريقه دفعة واحدة، مضغ، ومضغ، مصدرا آهات صمّاء، حتى عاود التنفّس أخيرا. أخذ يستنشق الضروري كي لا يموت. وقرّرت عضلات صدره أن تتعاون، وكان يشهق ويزفر، بينما يضحك أندريا وستيفانو.

تساءل بييترو إن كان بوسعه أن يصبح حقودا مثل فيديريكو بييريني حتى يضرب أحدا بهذه القسوة. كان غالبا ما يحلم بأنّه يضرب النّادل في الستايشن بار، ولكنّه لم يكن يتأوّه رغم أنّ بييترو يفرّغ ما أمكنه من قوّة وغضب وعنف على وجه النّادل. *هل سأمتلك مثل شجاعته يوما ما يا ترى؟ لا بدّ أنّ الشجاعة هي ما تنقصني لإيذاء الآخرين.*

- هل أنت متأكّد يا رأس القضيب؟ – جلس فيديريكو على الأرجوحة وبدا كأنّه لم ينتبه لانفجار غيظه. – هل أنت متأكّد؟. ألحّ في السؤال.

- ممّ؟

- من أنّ سيّارته لم تكن هناك؟

- أجل. أقسم لك.

حاول أن ينهض، لكنّ أندريا انقضّ عليه، وجلس على بطنه بكلّ أكياله الستّين.

- كم هو مريح الجلوس هنا... – كان أندريا يتظاهر بالجلوس على أريكة. وضع ساقا على ساق، وتمطّى واتّكأ على ركبتيّ بييترو.

- اضرط عليه يا أندريا، هيّا! هيّا! – ستيفانو يثب من السعادة.

- إنّني أحاول! أحاول! – تمتم أندريا وقد احمرّ وجهه الكبير من الضغط.

- اجعل شعره أشقرا هيا!

كان بييترو يتمايل دون نتيجة سوى الإرهاق، فلم يستطع أن يحرّك ولا مليمترا من أندريا، وكاد يختنق من رائحة ذلك البدين المتعرّق.

اهدأ. فكلّما تحرّكت ازداد وضعك سوءا. اهدأ.

سحقا، أيّ وضع هذا؟ كان ينبغي أن يكون في البيت، في سريره الدّافئ، يقرأ كتابا عن الديناصورات استعاره من جلوريا.

- فلندخل إلى المدرسة. — قال فيديريكو من على الأرجوحة.
- أين؟ — سأل أندريا.
- إلى المدرسة.
- كيف؟
- مسألة بسيطة. نقفز من على البوّابة وندخل من مراحيض البنات، من جهة ملعب الكرة الطائرة. النّافذة هناك لا تغلق جيّدا، وتكفيها دفعة واحدة. — شرح الزعيم فيديريكو.
- حقّا. — أكّد ستيفانو. — ذات مرّة رأيت ألبرتا وهي تتغوّط. يا إلهي كم كانت رائحتها كريهة... أجل فلندخل. فلندخل. فكرة جهنّميّة.
- تخيّل لو أمسكوا بنا. لو عاد إيتالو مثلًا... أنا... — قال أندريا مرتبكا.
- لا تخش شيئًا. لن يعود. ولقد أزعجتنا بمخاوفك.
- وماذا نفعل برأس القضيب؟ هل نقتله؟
- ساعداه على النهوض. سيأتي معنا.

كان متّسخا بالوحل، وتؤلمه عظام صدره وظهره. لم يحاول الهرب، ومن غير المجدي أصلًا. إذ أنّ فيديريكو أصدر قراره. من الأفضل اللّحاق بهم والبقاء صامتا.

ترك جراتزيانو كتاب الفلسفة الإغريقية وحاول أن يشاهد فيديو مسجّلًا لمباراة البرازيل وإيطاليا في مونديال 1982. لكنّه لم يستمتع، كان لا يزال يفكّر بإريكا.

حاول الاتّصال مجدّدا. لا شيء سوى ذلك الصوت الآلي المقزّز. وبدأ القلق، النّاعم كالرّيش، يحرّك ما لم يهضمه بعد من الفيتوشيني بصلصة الأرنب واللحوم المقدّدة والكريم كاراميل التي استقرّت في معدته وتجاوبت مع القلق.

إنّ القلق أمر مزعج. وقد جرّب الجميع هذا الإحساس المقيت. عادةً ما يكون آنيًا ومتعلّقا بظروف خارجية قادرة على إنتاجه. وفي بعض الحالات ينتج تلقائيا دون سبب واضح. ويصبح عند بعض الأشخاص مثل المتلازمة، ويتعايش بعضهم معه طيلة الحياة، إذ ينام ويعمل ويقيم علاقات اجتماعية مع ذلك الوسواس المزمن. وقد يخشاه آخرون ويعجزون حتى على النهوض من السرير ويحتاجون إلى أدوية معيّنة تساعدهم على إزالته.

بوسع القلق أن يعرّيك ويحطّم معنويّاتك ويكون سبب شقائك. يبدو كمضخّة خفيّة تعزل عنك الهواء الذي تحاول عبثا أن تستنشقه. تنحدر الكلمة الإيطالية «Ansia» من الفعل اللاتيني «Angere» الذي يعني (يضغط)، وهذا تماما ما يقوم به القلق: يضغط على أسفل بطنك ويشلّ الحجاب الحاجز ويعصر أمعاءك وغالبا ما ترافقه هواجس بشعة.

كان جراتزيانو يتمتّع بمظهر صلب يمتصّ أكثر أنواع القلق شيوعا في الحياة الحديثة، ولديه أمعاء قادرة على هضم الحصى. لكنّه كان حينها أسيرا لدى ذلك الخوف المتصاعد، والذي يتحوّل إلى حالة هلع في كلّ دقيقة تمرّ.

تشاءم من ذلك الهدوء، فراح يشاهد فيلما للي مارفن، وكان أسوأ من المباراة. عاود الاتّصال. لا نتيجة. عليه أن يهدأ. ما هذا الخوف الذي اعتراه؟

لم تتّصل بك إلى الآن. وإذن؟ هل تخشى أنّها... أخرس ذلك الصوت اللّعين بصوت آخر: إريكا سارحة دوما. إنّها حمقاء. ربّما ذهبت لتتسوّق ونسيت أن تشحن بطارية الجوّال. ما إن تعود إلى المنزل حتى تتّصل بك.

18

- كلب. وغد. كيف تسمح لنفسك؟ كم اسودّ وجهي بسببها. والجميع يحملق بعيون قبيحة. إلام تنظرون؟ انشغلوا بأموركم الخاصة. ولكن في هذا البلد يتدخّل الجميع في شؤون غيره. ثم إنّني كنت أمزح. وما الضّير في هذا؟ إذا أطعموني حلوى اللّوز بدل رقائق الخبز، ما المشكلة؟ إنّها قحبة فعلًا، تشعر بالإهانة علاوة على ذلك. حسنا حسنا لقد أخطأت. قلت لها: آسف، لم أكن أقصد الإساءة. آسف. آسف. تبًا لها! — كان إيتالو ميلي يقود السيّارة ويتحدّث مع نفسه بصوت مرتفع.

دمّرت تلك القحبة سهرته، وتلاشت قابليّته للطّعام بعد أن مضت. ترك نصف حساء السّمك. وليزيد الطّين بلّة، ازدرد لترا آخر من النبيذ. وكان يقود وهو سكران وأنفه يلاصق المقود فيُرجعه بيده بين الحين والآخر. كان يشعر بالثّقل في رأسه وجفنيه وأنفاسه.

- ومن يدري أين ذهبت؟ لها طباع... يا ساتر...

كان يبحث عنها دون أن يعرف بماذا يبرّر فعلته. كان يريد أن يعتذر من جهة وأن يعيدها إلى مكانها المعتاد من جهة أخرى.

عاد إلى مرتع المومسات وسأل عنها الأخريات دون نتيجة. انعطف

إلى طريق الساحل الموازية لسكّة القطار، وارتفعت ريح زمهرير في الظلام، وكانت السحب في السماء تتفكّك وتتلبّد، وعلا زبد الأمواج الشاطئ. شغّل مكيّف السيّارة.

- ...حسنا لن أكترث. لقد قمت بواجبي. والآن؟ أ أعود إلى المدرسة أم أذهب إلى بيتي اللّعين؟

تذكّر فجأة أنّه وعد زوجته بتغيير قفل الباب ولم يقم بذلك. كان عليه أن يغيّر القفل كل ستّة أشهر، وإلاّ فلن تستطيع تلك العجوز أن تنام.

- كيف خطرت على بالي الآن؟ ستقلب ليلي نهارا... أوف.. غدا. غدا أغيّر لها القفل. من الأفضل أن أعود إلى المدرسة.

كانت إيدا ميلي مصابة بالرّهاب من اللّصوص منذ عامين. ففي إحدى الليالي، وبينما كان إيتالو في المدرسة، توقّفت شاحنة أمام البيت. نزل منها ثلاثة رجال، حطّموا نافذة المطبخ ودخلوا إلى البيت. وبدؤوا بتفريغ كلّ الأدوات الكهربائية المنزلية والأثاث في الشاحنة. استيقظت إيدا، التي تنام في الطّابق العلويّ، على إثر الضّجة. من تراه يكون؟ لم يكن في المنزل أحد. كان ابنها في بريندیزي يقوم بالخدمة العسكرية، وابنتها في فورتي ديمارمي حيث تعمل نادلة. لا بدّ أنّ إيتالو قرّر العودة إلى المنزل للنّوم. ولكن ماذا يفعل في الثّالثة ليلًا؟ هل قرّر أن يغيّر مكان الأثاث في المطبخ؟ هل جنّ؟

نزلت بثوب النوم والخفّ ودون طقم الأسنان، وكانت ترتجف كورق الشجر. «إيتالو إيتالو؟ أهذا أنت؟ ماذا تفـ....». لم يكن هنالك شيء: الثلاّجة. طاولة الرّخام. حتى الفرن الغازي القديم الذي كانوا ينوون تغييره.

وعلى حين غرّة، أطلّ رجل ملثّم برأسه من خلف الباب كدمية متحرّكة، وزأر في أذنها: «مين حبيب بابا !!».

فسقطت إيدا المسكينة فريسة لجلطة قلبية كاملة المعالم. ووجدها إيتالو في الصباح متجمّدة على الأرض بجانب الباب أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. ومنذ تلك الليلة اختلّ عقلها، وهرمت عشرين عاما بضربة واحدة. تساقط شعرها، ولم تعد تطيق البقاء وحيدة في المنزل. كانت ترى رجالًا ملثّمين أينما قلّبت أنظارها، وترفض الخروج بعد مغيب الشمس. لكن هذا أقلّ ما يقال. فالأسوأ أنّها أصبحت تهلوس بمضادّ السّرقات متعدّد الرنّات والأبواب المكهربة والأشعّة تحت الحمراء وكاميرات المراقبة والأجهزة اللاسّلكيّة التي تتّصل بالشرطة تلقائيا. «عفوا ولكن لماذا لا تعملين مع أنطونيو ريتوشي؟ سيقبلك على الفور» قال لها إيتالو مرة بعد أن ضاق ذرعا. (أنطونيو ريتوشي من أفضل التقنيّين في أجهزة المراقبة في أوربانو). وكان إيتالو يعلم جيّدا من هم أولئك الثلاثة الذين سلبوا عقل زوجته ودمّروا حياتها.

إنّهم السارْدينيّون لا محالة. وحدهم قادرون على دخول البيوت هكذا، غير آبهين بأهلها ليسرقوا كلّ شيء. حتى الفجر يترفّعون عن فرن قديم لا يعمل. أستطيع الرهان على رأس ابنتي أنّهم السارْدينيّون.

إن كانت إيسكيانو تعيش في رعب منذ وقت قصير، ويغلق أهاليها مصاريع النوافذ ولا يخرجون ليلًا خشيةَ السرقة أو الخطف، فمردّ كل ذلك، حسب رأي إيتالو المتواضع، إلى السارْدينيّين.

«لقد دخلوا إلى بلدتنا دون إذن. وتطاولت أياديهم القذرة على أرضنا. خرفانهم المريضة ترعى في مراعينا وتترك روثها على المروج. إنّهم برابرة لا أخلاق لهم. لصوص، منحرفون، وتجّار حشيش. يعتقدون أنّ هذه أرضهم، وقد ملؤوا مدارسنا بأولادهم أبناء الحرام. فليرحلوا من هنا».

كم من مرّة ردّد رأيه على الناس في البار. وكان أولئك الحمقى الجالسون إلى الطاولات يرونه محقًا، ويدعونه يتحدث حتى ينتفخ

كالدّيك الرومي. ويقولون له إنّهم سينظّمون دوريّات من الحرس لاعتقال السارْدينيّين وإرجاعهم إلى جزيرتهم الملعونة. ثم لا يفعلون شيئا في النهاية. بل وقد رآهم مرّة يسخرون منه ما إن خرج من البار. وتحدث في الأمر مع ابنه أيضا. *الشرطي!* لكن برونو لم يكن ينفع إلاّ في الكلام وتلميع المسدّس والطواف في البلدة مثل المسيح الهابط إلى الأرض، ولم يفلح ولو لمرّة واحدة في اعتقال سارْدينيّ واحد على الأقل.

لم يكن إيتالو يعلم من هو الأسوأ: أولئك العجائز المقهورون أم زوجته الممسوسة أم ابنه المغفّل أم السّارْدينيّون. لم يعد يحتمل الوضع مع إيدا، ولطالما أمل أن تجنّ تماما كي يشحنها بسيّارته إلى أقرب مستشفى مجانين ويضع حدّا لتلك الحكاية ويستعيد حياته كأيّ شخص عادي. لم يشعر بالنّدم يوما على مغامراته الجنسية ما بعد الزواج، فإيدا السّاذجة كانت ماهرة في تحضير المرتديلا فقط. وهو، ورغم تجاوزه الستّين عاما بساقه العرجاء، كان يشعر بطاقة جسده المزلزلة التي يحسده عليها كثير ممّن يصغرونه سنّا.

توقّف إيتالو عند تقاطع الشارع بسكّة القطار. *أتمنّى لمرّة واحدة أن أرى هذا الحاجز مرفوعا*. أطفأ المحرّك، أشعل سيجارة، رمى رأسه إلى الوراء، أغمض عينيه منتظرا مرور القطار.

- أيّها السّارْدينيّون الملاعين... كم أكرهكم. كم أكرهكم... يا إلهي كم أنا سكران... — أخذ يتثاءب وكاد أن ينام لو لم توقظه صفّارة القطار المتّجه إلى الشمال. ارتفع الحاجز. أشعل المحرّك مجدّدا ودخل البلدة.

لم يكن هنالك أحد في تلك الشوارع الأربعة المظلمة. كان السكون يلفّ المكان وتفلت بعض الأضواء من البيوت المنخفضة. كانت الحياة في إيسكيانو تتمركز في صالة الألعاب والمقهى الذي يبيع التبغ. لم يتوقّف عنده، فكان لديه ما يكفيه من السجائر ولم تكن لديه رغبة

في لعب الكوتشينة أو التحدث عن الكلاب أو اليانصيب القادم. كان متعبا ويرغب في النّوم على السرير بكمّادات دافئة قرب المدفأة الودود ليستمتع ببرنامج تلفزيوني. كان ذلك القصر المريح (غرفة الحراسة) في المدرسة هبة من الله.

وفجأة رآها تمشي على طول الأوريليا باتّجاه الجنوب.

- حليمة! ها أنت. وأخيرا عثرت عليك.

19

كان فيديريكو محقّا كعادته، فنافذة الحمّام لا تغلق جيّدا، ويكفيها دفعة واحدة لتفتح. دخل الزعيم أوّلا، ثم ستيفانو وبييترو اللّذان رفعا أندريا البدين.

لم تكن الرؤية واضحة في الحمّام، ناهيك عن برودة الطقس ورائحة المعقّمات الثاقبة. وقف بيترو جانبا، مُستندا إلى الصنابير الرّطبة.

- لا تشعلوا الأضواء فقد يرانا أحدهم. - كانت شعلة الولاّعة المتراقصة ترسم هلالا على وجه فيديريكو، وتقدح عيناه في الظلام شررا كالذئاب. - اتبعوني بصمت.

ومن كان ليتحدّث؟ لا أحد يجرُؤ على سؤاله: إلى أين يمضي بهم؟

كان ممرّ الصّفّ ب مظلما كأنّ أحدهم طلاه باللون الأسود. تقدّموا تباعًا، بينما كان بييترو يتلمّس الجدار بيده. كل الأبواب مغلقة. فتح فيديريكو باب صفّهم، فرأوا ضوء القمر الواهن يدخل من النّوافذ الزّجاجيّة الكبيرة ويطلي المكان بلونه الأصفر الشّاحب. كانت الكراسي موضوعةً بالتّرتيب فوق المقاعد، والصليب مصلوبًا على الحائط. وفي نهاية أحد الرّفوف، كان هنالك قفص تجمّعت داخله بعض القوارض المحنّطة ونبتة الفكوس ومجسّد لأحد الهياكل العظميّة البشريّة.

وقف الأربعة عند الباب مسحورين، وكأنّ الصّفّ ليس صفّهم

بكلّ هذه الوحشة. فعاودوا السّير بصمت خائفين كعبَدة الأوثان في الأماكن المقدّسة. كان فيديريكو يتقدّمهم لينير الطريق بالولاّعة، ولا صوت لخطواتهم. لكنّهم لو توقفوا للحظة، تحت هذا السكون الظاهري لسمعوا بعض الأصداء ووشوشات وقرقعة. فمغسلة حمّام الذكور كانت تقطر. بق.. بق.. بق.. والساعة في آخر الممرّ تتكتك والريح تدفع النوافذ وخشب المقاعد يئزّ والماء في السخّانات يغلي والبراغيث تلتهم الطاولات.

لا تبرز هذه الأصوات خلال النهار. لطالما كان ذلك المكان، في ذهن بييترو، كلاً واحداً مع أصوات البشر الذين يتردّدون إليه، كمخلوق واحد عملاق يتكون من التلاميذ والأساتذة والأذنة. ولكن عندما ينصرف الجميع ويقفل إيتالو البوّابة، تستمر الحياة في المدرسة، وتستيقظ الأشياء لتتكلّم في ما بينها. كتلك الأقصوصة التي تحيا فيها الدّمى ما إن يخرج الأطفال من الغرفة (يتحرّك الجنود بانضباط، وتفحّط السيّارات على السجّادة، ودمى الدّببة التي...).

وصلوا إلى الدّرج. كان الباب الزّجاجي يفصل بينهم وبين مكتب الإدارة وأمانة السرّ والمدخل. أشعل فيديريكو أضواء سلالم البهو التي تغرق في الظلمة.

- فلنذهب إلى الأسفل.

20

- حليمة! إلى أين تذهبين؟

كانت المرأة تمشي على الرّصيف ولا تلتفت إليه.

- اغرب عن وجهي.

- توقّفي لحظة أرجوك. - تمهّل إيتالو وأخرج رأسه من نافذة السّيارة.

- اذهب إلى الجحيم.

- لحظة واحدة من فضلك.
- ماذا تريد؟
- قولي لي إلى أين تذهبين؟
- إلى شيفيتافيكيا.
- هل جننت؟ ماذا تفعلين هناك في هذا الطقس؟
- أنا أذهب إلى حيث أريد.
- موافق. ولكن لماذا إلى شيفتافيكيا؟
- لي أصدقاء هناك. – التفتت إليه.– هل ارتحت الآن؟ سأطلب توصيلة من أحد عند محطّة الوقود.
- توقّفي. انتظريني قليلًا، سأنزل من السّيارة.

توقّفت حليمة ووضعت يديها على خصرها.

- ها قد توقّفت. ماذا تريد الآن؟
- حسنا... أنا... أنا... اللّعنة عليّ! لقد أخطأت. انظري ماذا جلبت لك. – أعطاها طردا صغيرا.
- وما هذا؟
- حلوى التيراميسو. لقد أخذتها من المطعم لأجلك، لأنّك لم تأكلي شيئا. ألا تحبّين التيراميزو؟ إنّها لذيذة. ولا تحتوي لا على الخنزير ولا على الكحول.
- لست جائعة. – ورغم هذا أخذت الحلوى.
- تذوّقيها. سترين كيف تنهينها في ثوانٍ، أو تأكلينها على الفطور صباح الغد.

أدخلت حليمة إصبعها في الحلوى ووضعته في فمها.

- كيف؟
- لذيذة جدّا.
- اسمعي. لم لا تنامين هذه الليلة عندي في غرفة الحراسة؟ إنّه

مكان لطيف جدّا ودافئ. لديّ عصير الدّراق أيضا.

- في غرفة الحراسة ؟

- أجل. هيّا. نشاهد برامج التلفاز ونضطجع معا على...

- لن أدعك تنكحني أبدا، فأنت مقرف.

- ومن قال إنّني أريد ذلك؟ أقسم لك إنّني بلا رغبة. ننام فقط.

- وصباح الغد؟

- سأرافقك إلى انتيانو، باكرا جدّا. فإن رأوك عندي تنزل عليّ المصائب.

- في أيّ ساعة.

- في الخامسة.

- حسنا. تنهّدت حليمة.

21

كان فيديريكو يعلم بالضّبط إلى أين هو ذاهب. إلى قاعة التربية التقنية حيث يوجد تلفاز فيليبس 21 بوصة وجهاز الفيديو من نوع سوني. لقد وضع هذا الهدف في رأسه منذ أن عرف أنّ إيتالو ليس موجودا.

كانت مُدرّسة العلوم تستخدم أجهزة الفيديو التربوية (يسمّونها هكذا) لعرض الأفلام الوثائقية على التلاميذ. فيتعرّفون على السافانا وعجائب الشعب المرجانية وأسرار المياه إلخ. وبين الحين والآخر تستخدم مُدرّسة اللغة الإيطالية، الآنسة بالميري، القاعة أيضا.

طلبت مُدرّسة اللغة من أصحاب المدرسة أن يشتروا سلسلة أفلام عن العصور الوسطى، وكانت تعرضها دائما على تلاميذ الصّفّ الثّاني في كلّ عام.

وفي شهر أكتوبر حان دور الصّفّ الثّاني ب. أجلست المُدرّسة

تلاميذها أمام الشاشة وتولّى إيتالو مهمّة تشغيل الشريط.

لكن فيديريكو بييريني لم يكن ليهتمّ بالعصور الوسطى أكثر من غيرها. فتسلّل من الخلف عندما أطفأت الأنوار، وذهب ليلعب الكرة الطائرة مع تلاميذ الصّفّ الثّالث. وعاد في نهاية الحصّة متسلّلًا كي لا يراه أحد، وجلس وهو يتصبّب عرقا.

وفي الأسبوع التالي عرضت المُدرّسة الحلقة الثانية فيما كان فيديريكو قد نظّم مباراة أخرى في الباحة. ولكن كُشف أمره هذه المرّة.

- أوصيكم أيّها التلاميذ أن تتابعوا بانتباه وتكتبوا الملاحظات. أمّا أنت يا بييريني فعليك أن تكتب موضوعا في البيت من... من خمس صفحات، لأنّك فضّلت اللّعب على الدّرس في المرّة الماضية. وإن لم تأتني به في الغد فسوف تُفصل من المدرسة. - قالت بالميري.

- ولكن يا آنسة... - حاول فيديريكو أن يردّ.

- لا أقبل عذرا. هذه المرّة أتكلّم جدّيّا.

- يا آنسة، اليوم لا أستطيع. عليّ الذهاب إلى المستشفى...

- آه يا مسكين! وهلّا نوّرتنا بما يؤلمك؟ أ لم تقل لي ذات مرّة إنك ذاهب إلى طبيب العيون، ثم رأيتك تلعب الكرة في الساحة؟ ومرّة أخرى قلت إنّك لم تكمل واجباتك لأنّك تعاني من مغص كلويّ. وأنت لا تعرف حتى ماذا يعني المغص الكلويّ. حاولْ أن تكون عبقريّا في ابتكار الأكاذيب على الأقلّ.

لكنّ فيديريكو قال الحقيقة يومها. كان عليه أن يذهب إلى مستشفى شيفيتافيكيا بعد الظهر ليزور أمّه المصابة بسرطان المعدة. عاتبته لأنّه لا يزورها أبدا فوعدها بالمجيء. والآن تتجرّأ هذه العاهرة الصّهباء على وصفه بالكاذب وتسخر منه أمام جميع التلاميذ. لم يكن يطيق أن يسخر منه الآخرون.

- لمَ تريد الذهاب إلى المستشفى؟

- حسنا يا آنسة... - أجابها بوجه يذوب من الأسى: الفيلم الوثائقي عن العصور الوسطى يسبّب لي الإسهال.

فانفجر التلاميذ من الضحك (انقلب ستيفانو أرضا وهو يشدّ على خصره). أرسلت المُدرّسة هذا الولد السفيه إلى المدير. وتوجّب عليه أن يبقى في المنزل طيلة العصر ليكتب ذلك الموضوع اللّعين. وعندما عاد والده، أشبعه ضربا لأنّه لم يذهب إلى المستشفى. لم يتألّم من الصفعات ولم يشعر بها أصلًا. لكنّه انزعج لأنّه لم يكن عند وعده.

ثم توفّيت والدته في نوفمبر، وجاءت بالميري تعتذر منه بعد أن عرفت أنّ أمّه كانت مريضة.

اعتذري من قضيبي يا قحبة.

ومنذ ذلك اليوم كفّ بييريني عن دراسة اللّغة الإيطالية وإتمام الواجبات. وعندما تكون بالميري في الصّفّ، يضع السمّاعات على أذنيه ويسند قدميه إلى المقعد. وهي تتظاهر بأنّها لا تراه ولا تنبس ببنت شفة، ولا تسأله شيئا، وتغضّ طرفها عندما يحدّق فيها.

ولم يرتضِ فيديريكو بهذا، فراح يوقعها بسلسلة من المقالب الطريفة: إذ بعج عجلات سيّارتها، وأحرق السّجلّ، وكسّر زجاج البيت بالحصى. وكان متأكّدا أنّها تعلم علم اليقين من يكون صاحب هذه المقالب، لكنّها لا تقول شيئا، لأنّ ركبتيْها ترتعدان خوفا من ردوده.

كان بييريني يتحدّاها باستمرار ويفوز في كل مرّة، وينتشي من كونها تهابه. ويصل به الأمر إلى الاستمتاع بنشوة كثيفة الحسّ وشديدة الغرابة والقذارة. فكان يستمني في حوض الاستحمام وهو يتخيّل أنّه ينكح الآنسة ذات الشعر الأصهب. ينزع ثيابها، يضرب وجهها بقضيبه، يُدخل أيرا رجّاجا في فرجها، ويصفع مؤخّرتها وهي تستمتع بكلّ هذا. كانت تتظاهر بالحياء، لكنّها قحبة وهو على ثقة في ذلك.

لم يكن يطيقها أبدا. وبعد حادثة الفيلم الوثائقي، تجذّر الغيظ

الفظيع في ذهن فيديريكو بييريني، فتأجّج حقده واستعرت آلامه.

اليوم أراد أن يرفع المستوى ليرى كيف سترّد تلك العاهرة الصهباء.

22

توقّفت سيارة إيتالو أمام بوّابة المدرسة.

- ها قد وصلنا! — أطفأ إيتالو المحرك.— أعلم أنّ غرفة الحراسة تبدو مقرفة لكنّها رائعة من الداخل.
- أحقًا لديك عصير الفواكه؟ — سألته حليمة وهي تتضوّر جوعا.
- طبعا. لقد حضّرته زوجتي من دراق شجرتنا. — لفّ إيتالو رقبته بالشال وخرج من السّيارة. بحث عن المفاتيح فرأى قفلًا يطوّق البوابة.

23

- وهذا الأوّل!

انفجرت شاشة التلفاز حين ارتطمت بالأرض محدثة ضجّة كبرى. وانتشرت الشظايا في كل مكان، تحت المقاعد والكراسي وبين الزوايا.

- وهذا الثاني. — أمسك فيديريكو بجهاز الفيديو ورفعه فوق رأسه وضربه بالحائط ليجعل منه خردة رثّة.

كان بييترو مصعوقا ممّا رأى. ما الذي دهاه؟ لَماذا كان يحطّم كل شيء؟ تنحّى أندريا وستيفانو جانبا ليشاهدا كيف تخرج قوّة الطبيعة عن طورها.

- سنرى الآن... كيف... ترغموننا على مشاهدة الأفلام الخرائية... عن العصور الوسطى... المنكوحة. — كان فيديريكو يتنهّد وهو يركل الجهاز.

إنّه مجنون. لا يعي ما يفعل. قد يرسب هذه السنة بسبب هذا.

(وإن اكتشفوا أنّك كنت معه أيضا...)

كلاّ.. كلاّ.. انظر ماذا يفعل... إنّه يدمّر السّمّاعات أيضا...غير معقول.

(عليك أن تفعل شيئا ليكفّ عن هذا... وبسرعة).

وماذا عساي أفعل؟ لو كنت شاك نوريس، بروس لي، سكوارزي، سلفستر ستالوني لأوقفته عند حدّه.

لم يشعر بالعجز في حياته كلّها كما شعر حينها. كان يرى أمام عينيه نهاية السنين المدرسية السعيدة ولا يجرُؤعلى فعل شيء. توقّف عقله عن العمل عندما كان يحاول أن يتخيّل العواقب بكلمات مثل رفت أو رسوب أو دعوى قضائية. بل وضاقت أنفاسه كأنّه ابتلع سندويشا كاملا دفعة واحدة. اقترب من أندريا.

- قل له شيئا. دعه يتوقّف. أرجوك.

- وماذا أقول له؟ – غمغم أندريا محبطا، فيما يواصل فيديريكو هجومه الشرس على ما تبقّى من الأجهزة الصوتيّة. ثم التفت ورأى شيئا، فارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه. اتّجه نحو الخزانة المعدنية الكبيرة التي تحتوي على كتب وأجهزة كهربائية وأدوات أخرى.

- تعال إلى هنا يا ستيفانو. هات يدك كي أصعد. – اقترب الأخير وشبك يديه، فاستند فيديريكو إليه وتسلّق الخزانة. رمى علبة كرتونية على الأرض، فانفتحت وتدحرجت منها عشرات البخّاخات. – والآن سوف نستمتع!

24

مَن الكلب ابن الكلب هذا الذي وضع القفل على البوابة؟

إنه تلميذ مغفّل مسكين يرغب في إعادة السنة.

راح إيتالو يدوّر القفل بين يديه عاجزا عن فعل شيء. بدأ يضيق

ذرعا من هذا المزاح الثقيل. *ما حال هؤلاء الفتية الصغار؟* إن قلت لهم شيئا ينهالون عليك بالشتائم ويهزؤون منك في حضورك. لا يحترمون الأساتذة ولا المدرسة ولا أي شيء. وتبدو عليهم علامات الانحراف وأمارات تعاطي المخدّرات من عامهم الثالث عشر، فما بالك حين يكبرون. *لا لوم في تربيتهم سوى على العائلة.*

- ما الذي جرى؟ – أطلّت حليمة من نافذة السيارة.– لم لا تفتح؟ الطقس بارد.

- اهدئي قليلًا. إنني أفكر.

قسما بالرّب لأقلبنّ عاليها أسفلها هذه المرّة.

لابدّ أن يتمّ إيقافهم ومعاقبتهم، وإلا فقد يحرقون المدرسة في المرة القادمة. والآن كيف سأدخل؟ بدأ صبره ينفد وقد تملّكته رغبة هوجاء في تحطيم كل شيء.

- إيتالو؟!

- ها! لا تستفزيني! ألا ترين أنني أحاول إيجاد حلّ ما؟ اهدئي...

- اللعنة عليك! خذني إلى الـ...

بووووم

دوّى انفجار. في داخل المدرسة. انفجار أصمّ لكنه قوي.

- ما هذا؟ هل سمعت يا حليمة؟ – تلعثم إيتالو.

- ماذا؟

- كيف؟ ماذا؟ الانفجار!

- أجل. – أشارت حليمة إلى المدرسة– من هناك جاء الصوت.

استوعب إيتالو كل شيء. اتضّحت له الحقيقة كلّيا، حقيقة مطلقة لا ريب فيها.

- الساردينيّون! – أخذ يعوي– الساردينيّون الملاعين!

ثم انتبه أنه كان يصرخ كالأهبل، فوضع إصبعا على فمه وسار

كعنكبوت يتموّج نحو حليمة وقال بصوت خفيض:

- اللعنة... اللعنة على الساردينيّين. ليسوا تلامذةً في الداخل بل ساردينيّون.
- الساردينيّون؟ - نظرت إليه باستغراب.
- اخفضي صوتك. أجل الساردينيّون وضعوا القفل، أفهمت؟ هكذا يسرقون دون أن يزعجهم أحد.
- لا أعرف يا إيتالو... - كانت تأكل التيراميزو- من هم الساردينيّون؟
- أي سؤال هذا؟! الساردينيّون هم الآتون من جزيرة ساردينيا. لكنهم أخطؤوا هذه المرة. سأجعلهم يندمون. انتظريني هنا ولا تتحركي.
- إيتالو؟!
- اخرسي. قلت لك لا تتكلمي. انتظري. - مشى إيتالو بمحاذاة الجدار وهو يجرّ قائمته العرجاء. لا أضواء موقدة في المدرسة - *لم أكن أحلم*. حتى حليمة سمعت الصوت.- تلفّت مرة أخرى وكان البرد يذبح رقبته فتصطك أسنانه - *ربما وقع شيء ما، أو أنّ تيّار الهواء العنيف صفق الباب... ولكن القفل!* - وحينها رأى ومضة خفيفة، تضيء جدارَ المبنى الخلفيَّ، تخرج من قاعة التربية التطبيقية - هاااا... *إنهم الساردينيّون.*

ماذا عليه أن يفعل؟ هل يتصل بالشرطة؟ قلّب الموضوع في رأسه واستنتج أنه سيحتاج لعشر دقائق على الأقل كي يصل إلى الهاتف العمومي، وعشر دقائق أخرى كي يشرح لأولئك الأغبياء أنّ اللصوص في المدرسة، وعشر دقائق ليعود. ثلاثون دقيقة. مدة طويلة تكفي هؤلاء ليهربوا بسهولة. كلاّ! عليه أن يقبض عليهم بنفسه متلبّسين. وهكذا يقدّم برهانه ملموسًا لأولئك الحقراء في الستايشن بار. - ***أنا لا أخشى***

أحدا– المشكلة كانت في تسلّق البوابة. ركض إلى السيارة لاهثا كمن ينفخ قاربا مطّاطيّا. أمسك بذراع حليمة وأخرجها من السيارة.

– هيّا. عليك أن تساعديني.

– اتركني. خذني إلى الأوريليا.

– خذني وخذني وخذني. ما هذا؟ عليك أن تساعديني وكفى. -جرّها حتى البوابة- والآن سوف تقرفصين كي أصعد على كتفيك. ثم تنهضين بي حتى أتسلّق البوابة. هيّا.

رفضت حليمة وهي تهزّ رأسها وتنظر إلى قدميها. كانت فكرة لا طائل من ورائها، وسيصيبها الجهد بالفتق على الأقل.

– انخفضي. – شدّ إيتالو بيديه على كتفيها ودفعها إلى الأسفل محاولًا أن يخفضها.

– لا لا لا لا أريد! – تسمّرت حليمة.

– اخرسي! اخرسي! انخفضي! قرفصي. –لم يتراجع وحاول جاهدًا أن يركب كتفيها. وحين أدرك أنّ العنف لن ينفع، أخذ يتوسل إليها.– أرجوك يا حليمة أرجوك. ساعديني. وإلاّ سيُقضى عليّ. أنا حارس المدرسة. سيفصلونني ويطردونني. ساعديني أرجوك...

تنهّدت حليمة وارتخت عضلاتها في لحظة سرعان ما استغلّها إيتالو فضغط على كتفيها واعتلاهما بقفزةٍ رشيقة.

تحوّل الاثنان، بهذه الوضعية، إلى غولٍ عملاق متأرجحِ السّاقين وأسود اللون كبرميل كوكا كولا، له أربع أذرع ورأس كبير ومستدِير مثل كرة البولينغ. لم تستطع حليمة، تحت مائة كيلوغرام ونيف، أن تحافظ على توازنها، فترنّحت يمنة ويسرة وإيتالو فوقها يتمايل كرعاة البقر على الأحصنة الجامحة.

– أووووه! أوووووووه! أين تذهبين؟ سوف نقع هكذا. البوابة هناك.

اذهبي إلى الأمام. التفّي. التفّي! – إيتالو يحاول أن يعطيها التوجهات.

- لا... أسـ...تطـ...يع...

- سوف نقع هكذا. هيا حبّا بالرّب هيا!

- لا ... أقـ... ـدر... انـ... ـزلْ... انـ... ـزلْ!

علقت إحدى قدميها في حفرة وانكسر كعب حذائها. بقيت معلّقة للحظة، قامت بخطوتين لكنها فقدت التوازن كليّا وانثنت على نفسها. فتهاوى إيتالو إلى الأمام وتشبّث بشعرها الشبيه بذؤابة الحصان، كي لا يقع.

لكن الحركة لم تكن ذكية. إذ سقط إيتالو على وجهه وتمرّغ في الوحل، ومازالت يده تمسك بشعر حليمة المستعار. كانت تقفز في الساحة وتصرخ، وتتلمّس جلد رأسها. نتف كثيرا من شعرها مع الباروكة. ولكنّها اقتربت منه حين رأته مستلقيا هكذا.

- إيتالو؟! إيتالو؟! – دفعته فانقلب على ظهره – هل أنت بخير؟ هل متّ؟

فتح إيتالو فمه وأخذ يبصق من قناع الوحل على وجهه. فتح عينيه ونهض كالمجنون صوب السيارة.

- لا لم أمت. الساردينيّون هم الذين سيموتون.

فتح باب السيارة ونزع الفرامل اليدوية ودفعها إلى جانب البوابة. ارتقى سقفها وتسلّق الجدار. تمسّك برؤوس السياج الحديدي وحاول أن يصعد عليه. لا نتيجة. لم يستطع. لم تكن لذراعيه القوة الكافية ليشدّ نفسه إلى الأعلى. حاول مجدّدا وهو يضغط على أسنانه حتى أصبح لونه بنفسجيا ونبض قلبه يصمّ أذنيه.

الآن تصاب بجلطة لذيذة، تسقط أرضا، وتموت مثل أي قميء أراد أن يأخذ دور البطل.

إن كان الجزء المنطقي والواعي في دماغه ينصحه بأن ينسى الأمر ويركب السيارة ويذهب إلى الشرطة، فإنّ الجزء الآخر، المصمّمَ لحمار حَرونٍ، يأمره بعدمَ الرضوخ وتجديد المحاولة.

وبدل أن يرفع جسمه بيديه، مطّ ساقه المريضة ووضعها على حافة الجدار. أصبح الأمر أسهل الآن، فاندفع بهمّة لم يكن يحسب نفسه قادرا عليها، مرتكزا على تلك الساق، حتى وجد نفسه ممدّدا على سطح غرفة الحراسة.

بقي هناك بين شهيق وزفير حتى يستعيد طاقته، منتظرا أن ينخفض خفقان قلبه الهائج. وكان النزول أسهل بكثير، بفضل ذلك السلّم الخشبي الذي يستخدمه لقطف الكرز. وظلّت حليمة تتنهّد مكتوفة الأيدي من خلف البوابة، جالسة إلى صفيح السيارة.

- اجلسي في السيارة. سأعود حالًا. –دخل إيتالو إلى غرفة الحراسة دون أن يشعل الضوء رافعا ذراعيه إلى الأمام، ولم ينتبه لذلك الصندوق الكبير الذي يأكل عليه عندما يشاهد التلفاز، فاصطدم بحافته، وضغط على أسنانه ليكبت الألم. اتّجه بهدوء إلى الخزانة القديمة، فتحها وشرع يبحث بهستيرية بين الثياب النظيفة حتى شعر برطوبة حديدية منعشة تحت أصابعه. وجد مسدّسه العزيز– والآن سنرى... أيها الساردينيّون الأوباش. سنرى. سأركلكم على وجوهكم وأرسلكم إلى جزيرتكم القميئة. قسما بالرّب. – واتّجه نحو المبنى وهو يعرج.

25

«ضعي الشرائط في دبرك يا آنسة بالميري».

غطّت هذه العبارة الضخمة، المكتوبة بالأحمر، كل الحائط آخر القاعة. كانت الأحرف معوجّة ومتشابكة كالأصابع المتشنجة. وكان

حرف الدال ناقصا منها لكن الرسالة وصلت على كل حال ودون أيّ مجال للشكّ.

كانت العبارة من فكر الزعيم طبعا، وحان دور الآخرين ليعبّروا عن أنفسهم.

- هيا! أتنتظرون أن يطلع الصبح علينا مثلًا؟ اكتبوا أنتم أيضا! - أخذ يدفع أندريا باتشي للكتابة- لمَ لا تكتب أيها الفيل البدين؟ تبدون مغفّلين، هل أنتم خائفون؟

كان انطباع أندريا يشبه حالته اليائسة عندما كانت أمّه تأخذه إلى طبيب الأسنان.

- ما الذي دهاكم أيها المخنّثون؟ هيا اكتبوا!

ارتبك أندريا حتى أنه غصّ بالكلمات واكتفى برسم صليب النازيّة المعقوف.

- جميل! يا للروعة! وأنت يا ستيفانو ماذا تنتظر؟

انكبّ ستيفانو رونكا بسرعة على العمل دون أن يتوسّل إليه أحد، وكتب: «المدير يداعب قضيب نائبة المدير».

- مذهل. عظيم يا رونكا! - أثنى فيديريكو- والآن حان دورك. - اقترب من بييترو الذي كان شاردا، مطأطئ الرأس، لا يقوى على بلع ريقه ويمرّر البخّاخ من يد إلى أخرى. ضربه فيديريكو على رقبته - هيّا يا رأس القضيب! - لم يجب، فضربه مرة أخرى- والآن؟ - ضربه بقسوة أكثر- والآن؟

- لا ... لا أريد... - نطق الجوهرة أخيرا.

- لمَ لا؟ - لم تدهش الإجابةُ الزعيمَ.

- لا...

- لماذا؟

- لا أريد وكفى. لا يطيب لي فعل ذلك...

وماذا بوسع فيديريكو أن يفعل؟ قد يكسر له قدما أو يدا، أو أنفه في أسوإ الأحوال، ولكن لم يكن ليقتله. — *هل أنت متأكد؟* — لن يصاب بضرر أكثر من سقوطه عن الجرّار عندما كان صغيرا حيث كُسر كاحله. أو عندما لقّنه والده درسا موجعا حين كان يعبث بالمفكّ. -*من سمح لك بذلك؟ ها؟ قل لي. سوف أعلّمك كيف تلعب بأغراض الآخرين*— ضربه بساق الخيزران، فظلّ أسبوعا كاملًا لا يقوى على الجلوس. لكن الحادثة مرّت... —*هيّا، اضربوني وأنهوا هذه القصة*— كان سيتكوّر على الأرض مثل القنفذ. —*إنني مستعدّ*— وقد يشبعونه ركلًا حتى ينتفخ كالقِرْبَةِ لكنّه لم يكن ليكتب شيئا على الحائط.

- بكم تراهن يا عَزيزي يا رأس القضيب أنك ستكتب أنت أيضا... بكم تراهن؟ — ابتعد عنه فيديريكو وجلس إلى المنضدة.
- أنا... لن... أكتب... شيئا. قلت لك ذلك. اضربني إن أردت.
- وإذا كتبت اسمك هنا في الأسفل؟ — أمسك بالبخّاخ وأشار إلى عبارته — أكتب بييترو موروني بالخط العريض. ها؟ ما رأيك؟

يا إلهي... كيف بوسعه أن يكون شريرا هكذا؟ كيف؟ من علّمه ذلك؟ وكلّما حاولتَ التملّص منه احتال عليك.

- ماذا ستفعل؟ — ألح فيديريكو.
- ضع اسمي، لا يهمنّي. لن أكتب شيئا.
- حسنا. سيلقون اللوم عليك. سيقولون إنك كتبت كل تلك العبارات. سيطردونك من المدرسة. سيقولون إنك حطّمت كل شيء.

لم يعد الجو في القاعة يطاق، كأنّ فيها مكيّفا مبرمجا على أقصى درجات الحرارة. وكان بييترو يشعر بيديه تتجمّدان وخدّيه يشتعلان. نظر حوله، فرأى طيف بييريني الشرير يحوم حول كل شيء: من العبارات المكتوبة على الجدران، إلى ضوء النيون الأصفر، فحطام التلفاز. اقترب بييترو من الحائط. *ماذا أكتب؟* حاول أن يفكّر بصورة

أو جملة شنيعة ولكن عبثا. وما يزال ذلك المشهد الغبيّ يراوده:

كان قد رأى سمكة تحتضر على مصطبة بين صناديق السردين في السوق. لها فم كبير ومليء بالأسنان وغلاصم حمراء فظيعة. أرادت إحدى السيدات شراءها وطلبت من البائع الشاب أن ينظّفها. اقترب بييترو من المغاسل الحديدية، وأراد أن يرى طريقة تنظيفها. أسند البائع السمكة إلى المغسلة وشقّ بطنها المنفوخ بسكين كبير، وانشغل بأمر آخر. أما بييترو فبقي هناك يشاهد السمكة وهي تموت. برز مخلبٌ من ذلك الجرح ثم مخلبٌ آخر ثم باقي أطراف السرطان. استطاع ذلك السرطان الكبير الهرب برشاقة. ثم خرج من بطن السمكة سرطان أخضر يشبه الأول، ثم آخر ثم آخر. تتوالى خلف بعضها بخفة على سطح الحديد بحثا عن مكان آمن ثم تقع أرضا. أراد بييترو أن يقول للشاب (إنّ *السمكة مليئة بالسرطانات الحية الهاربة!*)، لكن الأخير كان منشغلًا ببيع الصَّدف. فمدّ ذراعه حينها وأغلق الجرح بيده ليسدّ المنفذ. ومازال بطن السمكة المنفوخ يحتشد بالحياة ويمتلأ بحركة الأرجل الخضراء.

- سيبدأ العدّ التنازلي. وإذا انقضى دون أن تكتب شيئا، وضعت اسمك. عشرة، تسعة... — حاول بييترو أن يبعد ذلك المشهد عن مخيّلته— سبعة، ستة...

تنفّس بعمق ونزع الغطاء عن البخّاخ وكتب: «رائحة قدميّ إيتالو كريهة كالسمك». وُلدت هذه العبارة في ذهنه على حين غرّة فكتبها على الحائط دون أن يفكّر فيها.

26

لو كان لأحد أن يرى إيتالو بالأشعة تحت الحمراء لحسب أنّه التيرميناتور ذاته. كان يتقدم في الظلام، بنظرات خاطفة والمسدّس بين يديه. الجزء السفلي من جسمه يتحرك كالرجل الآلي. اجتاز إيتالو

أمانة السر وقاعة الأساتذة، مشتّت الذهن من شدة الحقد والغضب على الساردينيّين. ماذا كان سيفعل بهم؟ أيقتلهم؟ أيقفل عليهم القاعة؟ أم ماذا؟ لم يكن يعرف بالضبط ولكن غايته الوحيدة في تلك اللحظة كانت أن يلقي القبض عليهم متلبّسين. وسيأتي الباقي في ما بعد.

يقول الصيّادون الخبراء إنّ الجواميس الإفريقية حيوانات مخيفة. على المرء أن يكون له قلب قويّ حتى يواجه جاموسا هائجا. وهذه مسألة مفهومة وواضحة بالنسبة إلى الأطفال أيضا. فذلك الجاموس الضخم يعيش بسكينة في السافانا وهو يجترّ، ولكن إن أطلقت عليه النار ولم تقتله فمن الأفضل أن تلوذ بجحر أو تتسلّق شجرة أو تختبئ خلف صندوق مصفّح. ولعلّ الحلّ الأمثل أن تحفر قبرا لترقد فيه بسلام. فالجاموس الجريح قادر على تهشيم سيارة رانج روفر بقرنيه. إنّه أعمى وغاضب ويريد شيئا واحدا: أن يقضي عليك.

وكان إيتالو غاضبا كجاموس إفريقي حقّا. بل إنّ عقله تراجع إلى أكثر درجات سلّم الارتقاء بدائيّةً (*كذلك الجاموس بالضبط*) وكان ينوي أن يركّز على غايته المنشودة بالطبع. أمّا التفاصيل والسياق وما تبقّى، فكان مقفلًا عليها في خزانة مهملة من عقله. ومن الطبيعي إذن ألّا يتذكر أنّ جراتزيلا، الخادمة في الطابق الثاني تغلق الباب الزجاجي الذي يفصل الممرّ عن السلالم كعادتها قبل أن تنصرف. فارتطم به إيتالو وهو يتقدم بسرعة الرصاصة وارتدّ ككرة الباسك ليستقرّ على الأرض وكرشه ترتجّ من شدة الارتطام.

لو تعرّض أيّ كائن طبيعي لحادثة من هذا العيار، لمات أو أغمي عليه أو ناح ألما على الأقل. أمّا إيتالو فلا، بل استشاط غضبا وصرخ:

- أين أنتم؟ اخرجوا!

رجّت الصدمة دماغه فلم يعد يفهم شيئا. حسب أنّ ساردينيّا متربّصا به في الظلام قد ضربه على وجهه بأداة ما. ثم حدس أنه

اصطدم بالباب، فلعن الآلهة ونهض بغيظ مضاعف. - *أين المسدّس؟* - تلمّس منخريه حيث انحصر ألمٌ حادّ وشعر أنّ أنفه ينتفخ بين أصابعه مثل السمبوسك في الزيت المغلي فاكتشف أنّ وجهه مضرّج بالدماء.

- اللعنة، لقد كُسر أنفي... - بحث عن المسدّس في الظلام. كان قد ارتمى في إحدى الزوايا. أمسك به وانطلق مجدّدا بعدوانية أكبر من السابق- *يا لي من مغفّل!* -أنّب نفسه- *من الوارد أنّهم سمعوا صوتي.*

27

وكيف لم يسمعوا صوته؟ لقد نطّ جميعهم في الهواء مثل فلّين الشمبانيا.

- ماذا هناك؟ - قال ستيفانو.
- هل سمعتم؟ ما كان ذلك؟ - قال أندريا.
- لا أعلم. - حتى فيديريكو الزعيم بدا مضطربا.
- فلنهرب من هنا. -رمى ستيفانو البخّاخ أرضا وكان أول من استعاد الوعي.

اتجهوا خارج القاعة وهم يتدافعون ويتجاذبون. وبقوا في الممرّ المعتم ساكتين ليسمعوا اللعنات التي تطارد الآلهة في الطابق الأعلى.

- إنّه إيتالو. إنّه إيتالو. ألم يكن قد ذهب إلى بيته؟ - التفت أندريا إلى فيديريكو وكاد يبكي.

لم يكن أحد على مستوى الإجابة، وكان عليهم أن يفرّوا حالًا. ولكن كيف؟ ومن أين؟ هنالك منوّرٌ في سقف قاعة التربية التقنية. وفي الجهة اليسرى توجد الصالة الرياضية. وفي اليمنى ثمّة السلالم... وإيتالو أيضا.

الصالة الرياضية، قال بييترو لنفسه. ولكنّ الممرّ الملعون كان مظلما، والباب الذي يفضي إلى الفناء مقفلًا والشبابيك مغطّاة بسياج حديدي.

كان إيتالو ينزل الأدراج حابسا أنفاسه، وأنفه ملتهب ومتورّم. ينساب خيط من الدّم على شفتيه فيلحسه برأس لسانه. كان يلتصق بالجدار وينزل بخشية وحذر، كدبٍّ عجوز جريح لم يروّضه أحد. وكاد ينزلق المسدس من بين يديه المتصبّبتين عرقا. وجد بقعة ضوء مزخرفة على الأرض السوداء، وكان الباب مفتوحا. –*الساردينيّون في قاعة التربية التقنية*– عليه أن يباغتهم. نزع صمّام الأمان وأخذ نفسا عميقا. *هيا! ادخل!* قام بما يشبه القفزة ودخل، جَهَرَهُ ضوء النيون، فوجّه المسدّس إلى وسط القاعة وعيناه مغمضتان.

- ارفعوا أيديكم! – فتح عينيه شيئا فشيئا فلم يجد أحدا. وجد الحيطان ملوّثة بعبارات ورسوم مشينة. حاول أن يقرأ ريثما تعتاد عيناه على النور –*المد.. المدير يلـ... يلعق قضيييب نائبة المدير.* –بقي مشدوها لوهلة ولم يفهم شيئا– *ماذا يعني هذا؟* – أخرج نظّارته الطبّية من معطفه ووضعها ثم عاود القراءة. –آه. فهمت. فهمت. –مرَّ إلى العبارة الثانية –*رائحة قدميّ إيتالو كريهة كالسمك.* ماذا؟ يا أولاد العاهرة، رائحتكم هي النتنة أيها الحقراء. –صرخ.

ثم رأى الرسوم الأخرى وشظايا التلفاز ومسجّل الفيديو على الأرض. لا يمكن أن يكون هذا من صنع الساردينيّين. فلن يكترث أولئك للمدير ونائبته ولا للآنسة باميري ولا حتى لرائحة قدميه الكريهة، لأنّ همّهم الوحيد هو السرقة. لا بدّ أنّها من فعلة التلاميذ.

تحطّمت أحلامه بالمجد بعد أن فطن للأمر. لقد تخيّل كل شيء: الشرطة التي تصل لتجد الساردينيّين مقيّدين كاللحوم المقددة وجاهزين لدخول السجن. وكان سيقول، وهو صاحب المسدّس المسلول، إنه قد فعل واجبه فقط. ربما كان المدير سيمنحه ثناء رسميا، ويتلقّى

التهاني من الزملاء، وتُقدَّم كؤوس النبيذ على شرفه في الستايشن بار، ويحصل على زيادة في راتب التقاعد بفضل شجاعته والمجازفة التي أدخل نفسه فيها لخير هذه البلدة. ولكن لا شيء... لا شيء. وهذا ما جعله يغضب أكثر. لقد الْتَوَتْ رُكْبَتُهُ وكُسِر أنفه من أجل شرذمة من التلاميذ.

كانوا سيدفعون ثمن تلك اللعبة السخيفة غاليا حتى أنهم سيروونها لأحفادهم على أنها أبشع تجربة مرّوا بها في حياتهم. ولكن أين هم؟ التفت حوله. أنار الممرّ. كان باب الصالة الرياضية مواربا. فارتسمت ابتسامة شرّيرة على وجهه حتى انفجر من القهقهة.

- أحسنتم عملًا بالاختباء في صالة الرياضة. هل نلعب الغمّيضة؟ ولم لا؟ فلنلعب الغمّيضة! – صرخ بكل ما عنده من أنفاس.

29

كانت مُضرَّبات الوثب الخضراء مسنودٌ بعضها إلى بعض قبالة المشجب. اختبأ بييترو بينها واقفا بلا حركة مغمضا عينيه وكابتا أنفاسه، بينما يتّجه إيتالو الأعرج نحو الصالة يخطو ويكشط: *طق ششش طق ششش.*

أين اختبأ الآخرون؟ كان بييترو قد انفضّ عنهم عندما دخلوا إلى الصالة ولاذ بأوّل مخبإ وجده مناسبا.

- هيا اخرجوا! اطمئنوا فلن أمسّكم بسوء.

لا تثق بإيتالو أبدا، فهو أكبر كذّاب في العالم.

لأنّه وغد. ذات مرة من السنة الماضية، خرج بييترو مع جلوريا من المدرسة خلسة وذهبا إلى المقهى المقابل لشراء الكرواسان. استغرق الأمر أقلّ من دقيقة واحدة. وعندما عادا انقضّ عليهما إيتالو وصادر منهما الكيس الصغير ثم جرّهما إلى الصّفّ من أذنيهما. وظلّت أذنه تؤلمه لساعتين، وكان متأكّدا أن إيتالو الْتَهَمَ الكرواسان بعد ذلك في

غرفة الحراسة.

- أقسم أنني لن أمسّكم بسوء. اخرجوا. إن خرجتم طواعية لن أقول شيئا للمدير. سننظف الأرض والجدران.

كان متأكّدا أنّ الآخرين سيشون به إن خرجوا، وسيحلفون زورا أنه هو الذي أرغمهم على دخول المدرسة وحطّم التلفاز وكتب العبارات.

كانت الهواجس تتعارك في رأسه وتثقل عليه الحالة، زدْ على ذلك أنه تذكّر والده الذي سيسلخ جلده حالما يعود متأخرا إلى البيت *(وهل أنت واثق من العودة إلى البيت؟)* لأنه لم يغلق الباب على زاغور ولم يحمل النفايات إلى الحاوية. كان متعبا ويشعر بالنعاس. *(نَمْ...)* كلاّ! *(نَمْ قليلًا فقط...)*

حبّذا لو غفا. أسند رأسه إلى الفراش الإسفنجي. كان رخوا وكريه الرائحة ولكن لا يهمّ مادام بوسعه ثَنْيُ ساقيه. كان سينام واقفا كالأحصنة، في ذلك المكان الضيّق. استسلم للنعاس وجفناه يتعانقان. وكان على وشك السقوط عندما أحسّ بالمُضَرَّبات تتحرّك. شارف قلبه على التوقّف. - اخرجوا! اخرجوا! اخرجوا! - أغرق وجهه في الفراش ليكبت جماح صرخة خائفة.

30

لم يعد يفهم شيئا.

لم يكن ثمّة أحد في الصالة. أين اختفوا؟ لا بدّ أنهم مختبؤون في مكان ما. أخذ إيتالو يهزّ المُضَرَّبات بعنق المسدّس. - اخرجوا! اخرجوا! - لن يفلتوا من يديه، فالباب الذي يفضي إلى ملعب الكرة الطائرة مقفل وباب المستودع مُقْ... *(دعني أتأكّد)* ...فَلٌ أيضا.

لقد حاولوا تحطيم المقبض، قال لنفسه وابتسم. فتح الباب وأدخل يده ليبحث عن زرّ النور. ضغط عليه ولم ينقشع ذلك الظلام فالنور

معطّل. شرد لوهلة ثم غطس في العتمة وشعر أنه يدوس على شظايا النيون. وكان المستودع الصغير يغصّ بالخزانات والصناديق وليس فيه نوافذ.

- إنّني مسلّح. لا تتهوّروا...

فإذا به يتلقّى ضربة على رقبته من كرة الجمباز المنفوخة بعشرة كيلوغرامات من فتات الخشب. ولم يهنأ بالمفاجأة حتى جاءته ضربة أخرى على كتفه الأيمن، إلى أن استسلم للضربة القاضية: كرة سلّة تندفع بسرعة المكّوك وتستقرّ على أنفه المنهك.

صرخ مثل خنزير على المذبح. ودارت لوالب الألَم حول رأسه لتخنق عنقه وتَصْلِي فؤاده. فخرّ على ركبتيه وتقيّأ البأَبارديلي ومثلّجات الكراميل وباقي العشاء.

مرّوا بجانبه، وقفزوا فوقه، كظلال الجنّ. وحاول المسكين، وأيّ محاولة، أن يمسك بأحد أولئك الأوغاد الصغار، لكنه لم يحصل إلا على خيط من بنطال الجينز لا قيمة له. فسقط وجهه على القيء وشظايا الزجاج.

31

سمعهم يركضون ويصفقون الباب ويهربون من الصالة. فرّ بييترو بسرعة خارج الأفرشة وركض نحو الممر أيضًا. وكاد ينجو حقًا قبل أن تنفجر النافذة الكبيرة بجانب الباب على حين غرّة. تطايرت الشظايا في الهواء ووقعت عليه فتسمّر في مكانه وأدرك أنها طلقة نارية فتبوّل في ثيابه.

فتح فمه وانحنى عموده الفقري وارتخت أعضاؤه وسخنت خصيتاه فجأة ففخذاه فحذاؤه. *هل أصابني؟*

مازال البلّور يتساقط من النافذة. استدار الطفل ببطء شديد

فرأى جثة بغل على الأرض يزحف من المستودع ووجهه مضرّج بالدم ويصّوب فوّهة المسدّس نحوه.

- توقّف. توقّف وإلاّ أصبتك. أقسم بأولادي إنني سأطلق عليك النار.

إنه إيتالو وقد تغيّرت نبرة صوته كأنه أصيب بالحمّى. *ما الذي حدث له؟*

- ابق مكانك أيها الصغير. لا تتحرك. هل فهمت؟ لا تحاول.

رضخ بييترو للأوامر، لكنه أدار رأسه فقط. فرأى الباب قريبا على بعد خمسة أمتار.

ما هي إلا وثبة سريعة وتنجو. هيا. اهرب! لن يسلّم نفسه وحده. عليه أن يهرب بأي ثمن، حتى لو خاطر بطلقة على ظهره.

رغب بييترو أن يفعلها لكنه لم يكن واثقا من قدرته، إذ شعر بنعل حذائه يلتصق بالأرض وركبتيه ترتعشان خوفا. أخفض نظره بين قدميه فرأى بقعة البول. *اهرب!* كان إيتالو يحاول بصعوبة أن يقف على قدميه. *اهرب الآن وإلاّ ستفوتك الفرصة!* فانطلق نحو الممرّ وتزحلق فيه ونهض مجدّدا وركض وتدحرج على الدرج ثم نهض وركض صوب حمّام الإناث... صوب الحرية بينما كان الآذن يصرخ: اركض! اركض! لن ينفعك هذا فقد عرفتك... لقد عرفتك. لقد عرفتك.

32

بمن كان عليه أن يتصل ليعرف شيئا ما عن إريكا؟

بالوكيل طبعا! اتصل جراتزيانو بمكتب الوكيل اللئيم الذي أرغمها على تلك التمثيلية السخيفة. لم يكن موجودا طبعا، لكنه استطاع أن يتحدث إلى السكرتيرة.

- إريكا؟ أجل. كانت هنا في الصباح. قامت بالبروفة وغادرت.

- آه، غادرت... – تنهّد جراتزيانو وأحسّ بالطمأنينة وتلاشت كرة المضرب من حلقه.
- غادرت مع السيد مانتوفاني.
- غادرت مع السيد مانتوفاني؟
- أجل.
- مانتوفاني؟ أندريا مانتوفاني؟
- أجل.
- مقدّم البرامج؟
- ومن غيره؟

استيقظت كرة المضرب في بطنه وراحت تنتفض كالبركان.

- وإلى أين ذهبا؟
- إلى ريتشوني.
- إلى ريتشوني؟
- إلى برنامج غران غالا في القناة الخامسة.
- إلى برنامج غران غالا في القناة الخامسة؟
- بالضبط.
- بالضبط؟

كان على استعداد أن يقضي الليل وهو يردّد ما تقوله السكرتيرة في صيغة استفهام.

- اعذرني، عليّ أن أغلق السمّاعة. لديّ مكالمة أخرى على الخط الثاني. –قالت السكرتيرة وهي تحاول أن تصفّيه.
- وماذا ذهبت لتفعل في برنامج غران غالا؟
- ليس عندي أدنى فكرة. اعذرني ولكن...
- حسنا. سننهي المكالمة ولكن هلاّ أعطيتني رقم مانتوفاني من فضلك؟

- متأسفة. هذا ليس من صلاحياتي. والآن سأجيب على الخط الثاني. المعذرة.

- انتظري لحظة من فضلـ...

بقي جراتزيانو يحمل السماعة مذهولًا. ومن الغريب أنه لم يشعر بشيء في أول عشرين ثانية سوى ذلك الفراغ الواسع من الفضاء الكوني. ثم تسرّب الأزيز الأصمّ إلى أذنيه.

33

اختفى الآخرون. ركب درّاجته وانطلق مسرعا نحو الطريق. اتجه إلى البيت وهو يجتاز البلدة المقفرة سالكا الشارع الوعر من خلف الكنيسة ثم الدرب الصغير الموحل بين الحقول.

كانت الأمطار تشوّش الرؤية، والعجلات تفقد اتجاهها وتنزلق في الطين. *-تمهّل كي لا تقع-* جمّدت الرياح بنطاله وسرواله المبلّلين، وأحسّ أنه عصفوره تقوقع بين فخذيه كرأس السلحفاة.

أسرع فقد تأخّر الوقت! - نظر إلى الساعة - *التاسعة والثلث. يا إلهي كم تأخّر الوقت. أسرع! أسرع! أسرع! (لقد عرفتك... لقد عرفتك)*. من المستحيل أنّ يكون إيتالو قد عرفه، إذ كانت المسافة بينهما بعيدة ولم يكن يرتدي نظّارتيه.

لم يعد يشعر برؤوس أصابعه ولا بأذنيه، وتصلّبت عضلات ساقيه كالصخر، لكنه لم يفكّر في تخفيف السرعة. كانت حبّات الوحل تلسع وجهه وثيابه، ولم يكن ليستكين. *-لقد عرفتك...-* ربما قال ذلك ليدبّ الذعر في قلبه فيمسك به ويسلّمه للمدير. كان فخًا ولم يقع فيه، لأنه لم يكن مغفلًا.

نفخت الريح معطفه وأدمعت عينيه. ولكن لم يبق إلا القليل ليصل إلى البيت.

كان لدى جراتزيانو انطباع بأنّه داخل فيلم رعب، حيث يأمر البولترغايشت الأشياء بالطيران والدوران. لكنّ كان رأسه الشيء الوحيد الذي يدور في ذلك المنزل. *مانتوفاني... مانتوفاني... مانتوفاني...* – كان يهذي وهو جالس على الأريكة – *لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟*

ليس عليه أن يفكّر في معنى ما يحدث. كان فوق الهاوية وحسب، كأنه يتسلق جبال الألب. أخذ هاتفه وضغط ذلك الرقم مجدّدا. ورغب – بكل ما أوتي من قوة تخاطر– في أن تجيب إريكا على اتصاله. ولم يكن قد جرّب في حياته كلها رغبة جارفة كتلك. و... تووووت تووووت. *آه. إنه يتّصل. هيا أجيبي. أجيبي. عليك اللعنة...*

- مرحبا. أنا المجيب الآلي. بإمكانك أن تترك رسالة صوتية. شكرا.
- المجيب الآلي؟! – تعجّب جراتزيانو ثم حاول أن يتحدث بنبرة طبيعية لكنه لم ينجح– إريكا! أأأأنا جراتزيانو. إنني فيييي إيسكيانو. هلاّ اتصلت بي على الفور؟ أرجوك.

أغلق المكالمة وتنهّد بعمق. هل قال الأشياء الصحيحة؟ هل كان عليه أن يقول إنه يعرف كل شيء عن سهرتها مع مانتوفاني؟ هل كان عليه أن يتصل ثانية ويترك رسالة أكثر وضوحا؟ كلاّ. إطلاقا. أمسك الهاتف واتصل ثانية. – شبكة موبايل إيطاليا. الرقم الذي تطلبه خارج نطاق التغطية– ولماذا لا يوجد المجيب الآلي الآن؟ هل كانت تمازحه؟ أخذ يركل الدرج من شدة الغضب ثم هوى على الأريكة محبطا وهو يضغط رأسه بيديه.

دخلت والدته في تلك اللحظة إلى الصالون وهي تدفع عربة وضعت عليها إناء مليئا بالحساء مع التورتيلليني وطبقا منوعا من الجبن

والهندباء المحمّضة والبطاطا المسلوقة والكبد المشوي وحلوى سان هونوريه المليئة بالقشدة.

كاد جراتزيانو يتقيّأ لِما رأى.

- ط... ع... ا... م... – كانت تتلعثم عنوة ولم يكترث بها ابنها. أشعلت التلفاز وألحّت – ط... ع... ا... م...

- لست جائعا! وعليك أن تسكتي نهائيا كي تحفظي النذر، لا أن تتصرفي كالمنغولية. اذهبي إلى الجحيم! استعر غيظه وهوى على الأريكة من جديد وشعره يغطي وجهه.

هربت *تلك العاهرة مع مانتوفاني*. ثم سمع صوتا آخر، ربما صوت العقل: *انتظر. لا تتسرع. ربما طلبت منه توصيلة بالسيارة، أو اصطحبته لأمور متعلقة بالعمل. سوف تتصل بك وستكتشف أنّ سوء فهم قد حصل. استرخِ*. أطاع صوت العقل وحاول أن يهدأ.

- أعزّاءَنا المشاهدِين مساء الخير من مسرح فيجيفاني في مدينة ريتشوني. أهلًا بكم في الحلقة الثامنة من برنامج غران غالا على القناة الخامسة! إنها سهرة النجوم، إنها سهرة توزيع الجوائز... – رفع جراتزيانو رأسه ليرى ذلك البرنامج الحقير على شاشة التلفاز – ستكون السهرة طويلة وسنوزع فيها الجوائز على نجوم التلفزيون. – قالت المقدّمة الشقراء بابتسامة تظهر أربعةً وعشرين ألفَ سنٍّ ناصعة البياض. وكان بجانبها رجل بدين يرتدي بدلة رسميةً ويبتسم برضًى هو الآخر. وارتفعت الكاميرا لتصور الصف الأول الطويل من المسرح. أفخاذ البنات المثيرة تتقدم المشهد. وثمّة نجوم ومشاهير وممثلون من هوليود وبعض المغنّين الأجانب، جميعهم يرتدي بدلات رسمية. – قبل أن نبدأ، لا يسعنا إلا أن نشكر راعي هذا الحفل – تابعت المقدمة – الذي أتاح لنا هذه الفرصة. إنها شركة سينتيزيس للساعات التي

يكاد لا يمرّ الزمن دون إذن عقاربها! -ارتفعت الكاميرا عاليا وانحنت بإتقان فوق رؤوس الحاضرين لتقترب أكثر من معصم تلمع عليه ساعة فاخرة والمعصم جزء من يد واليد محنية علىً كلسات سوداء والكلسات تغطي فخذيّ فتاة والفتاة هي...

- إريكا! - ارتبك جراتزيانو.

كانت ترتدي فستانا أزرق يعرّي رقبتها، وتتموج ضفائر شعرها بتسريحة مجنونة فوق رقبتها الطويلة. ويجلس حذوها مانتوفاني الأشقر ذو الأنف الكبير والنظارة الطبية المقعّرة والبدلة الرسمية، ولا يكفّ عن مداعبة فخذها بيده كأنّها ملكه. كانت له ابتسامة قذرة، ويبدو كمن نكح لتوّه وخرج يستنشق هواء منعشا. وبينما ظهر شريط الإعلانات عن حفّاظات بامبرز، بصق جراتزيانو وكشّر عن أسنانه.

- أقسم أنّني سأدخل يدكَ تلك في مؤخرتكَ يا ابن الحرام!

- إيبيبيكا!!!؟ إيبيكا!!!؟! - سألته والدته باستغراب.

لكنّ حالته النفسية لم تكن مناسبة ليشرح لها الموضوع. أخذ جوّاله وهرع إلى غرفته. اتصل بسرعة ليترك رسالة بسيطة وواضحة: «سأقتلك أيتها العاهرة الوقحة!».

- برونتو! ماريابيا! هل رأيتني؟ هل أعجبك الفستان؟ -ظلّ جراتزيانو مشدوها- برونتو! ماريابيا أهذه أنت؟

- لستُ ماريابيا. - استعاد جراتزيانو وعيه- أنا جراتزيانو. لقد رأيـ... - رأى من الأفضل أن يتصرّف كما لو أنّه لا يعلم شيئا- أين أنت؟ - قال محاولًا أن يبدو لطيفا.

- جراتزيانو...؟ - اندهشت إريكا ثم بدت متحمسة- جراتزيانو كم أنا سعيدة بسماعك!

- أين أنت؟ - كرّر سؤاله بفتور.

- عندي أخبار سارة سأقصّها عليك. هل أستطيع الاتصال بعد

قليل؟

- كلاّ. لا تستطيعين. أنا في الخارج وبطارية الجوال فارغة.
- صباح الغد إذن؟
- كلاّ. قولي لي الآن.
- حسنا. لكنني سأختصر. – تغيّرت نبرتها فجأة من متحمّسة إلى ملولة، ثم سرعان ما عادت متحمسة – لقد قبلوني! أكاد لا أصدّق حتى الآن! قبلوني في البروفة. كنت على وشك المغادرة عندما وصل أندريا...
- أندريا من؟
- أندريا مانتوفاني! رآني وقال: «علينا أن نجرّب هذه الفتاة، إذ تبدو كل علاماتها ممتازة». وقمنا بعدة بروفات أخرى: قرأت نصّا ورقصت فوافقوا عليّ. إنني سعيدة جدّا يا جراتزيانو! قبلوني! أتفهم؟ سأكون العارضة في برنامج مانتوفاني الشهير.
- آه... – حافظ جراتزيانو على جدّيته.
- ألست سعيدا؟
- بلى. سعيد جدّا. ومتى تأتين؟
- لا أعرف... غدا سنبدأ بروفة البرنامج... آمل أن أنهيها عاجلًا...
- لقد نظّمت كل شيء هنا. أمي تطبخ وأصدقائي عرفوا الخبر.
- أيّ خبر؟
- أيّ خبر! خبر زواجنا.
- اسمعني، هلّا تحدّثنا في الأمر صباح الغد؟ ستنتهي الإعلانات وعليّ أن أعود إلى الإستديو.
- ألا تريدين الزواج بي؟ – تلقّى طعنة في خصره.
- هلّا تحدّثنا في الأمر صباح الغد؟

وصل غضب جراتزيانو حينها إلى الذروة، إلى الانفجار. كان بوسعه أن يملأ مسبحا أولمبيًا من غيظه. كان غاضبا أكثر من حصانٍ قبل الترويض، أكثر من عدّاءٍ تعطّل محرّك دراجته عند آخر منعطف وهو على وشك الفوز ببطولة العالم، أكثر من طالبٍ مسحت حبيبته أطروحة الدكتوراه من حاسوبه خطأ، أكثر من مريضٍ استأصلوا كليته بدل علاجها.

خرج عن طوره.

- أيتها القحبة العاهرة! أتحسبينني مغفلًا؟ لقد رأيتك في التلفاز مع مانتوفاني المنيوك وسط زمرة من لاعقي الأحذية. قلت إنك ستتبعينني. ولكنك فضّلت النوم مع ذلك المنيوك. لقد اختارك لأجل هذا فقط أيتها الغبية! أرأيت أنك لا تفهمين شيئا؟ إنك عاجزة عن الوقوف أمام الكاميرا، لكنك ماهرة بلعق أعضاء الذكور فقط.

أطبق الصمت عليهما، وأشفى جراتزيانو غليله. لقد دمّرها وزعزع شخصيتها. لكن الردّ كان أعنف من عاصفة في الكاريبي.

- يا ابن الخنزيرة القبيح. لا أعلم ما الذي جعلني أرتبط بجحش مثلك. أعترف أنني كنت فاقدة لعقلي كليًا. ليتني ألقيت بنفسي تحت قطار مسرع ولا فكّرت في الزواج بك. أتعلم شيئا؟ إنك تجلب الحظ التعيس يا غراب البين! فما إن اختفيت من حياتي للحظة حتى وجدتُ عملًا. وكان كلّ همّك أن تقضي عليّ بتعاستك. أردتني أن أتبعك إلى تلك البلدة الخرائية. أبدا. إنني أحتقرك وأحتقر كلّ مبادئك: أسلوب حياتك وثيابك والترهات التي تتفوّه بها بنبرة متعجرفة تسبّب الإسهال. أضعتَ عمرك سدى دون أن تفهم شيئا أيها المخبول. لستَ إلا قردا كهلًا يبيع المخدرات. اخرج من حياتي. وإن حاولت الاتصال بي مجدّدا،

أقسم بالله أنني سأدفع المال لأحدهم كي يفلق رأسك كالبطيخة. سيبدأ العرض. وداعا. آه. نسيت أن أخبرك بشيء مهم: قضيب مانتوفاني المنيوك أثخن من عصفورك.

وأغلقت السماعة.

35

قد يظنّ الناظر إلى بيت التبن، للوهلة الأولى، أنه أمام مستودع خردة أو مكان لتجميع الأدوات المستعملة. ويعود هذا الانطباع إلى أكداسِ الحديد المتراكمة حول البيت: جرّار زراعي قديم، وسيارتان قديمتان إحداهما بلا أبواب، وثلاجة من ماركة فيلكو. وتتغذى نباتات العوسج والهندباء والشمّر البرّي على صدإ هذه الأغراض خلف بوابة غرفة الحراسة الشبكية. ويمتدّ حولها فناء موحل ومليء بالحفر وبرك الماء. في الجهة اليمنى تنهض كومة من الحصى استلمها السيد موروني من جاره ولم يتسنّ له الوقت لاستعمالها. وفي الجهة اليسرى ثمّة ساتر طويل ومعلّق على أعمدة حديدية يتظلل تحتها الجرّار الحديث وسيارة الباندا ودراجة ميمو النارية. وفي آخر الصيف، كان بييترو يعتلي الجرّار المحمّل بكرات التبن، ليبحث عن أعشاش الحمام بين زوايا السقف.

كان بيت التبن عبارة عن كوخ بطابقين، سقفه أحمر ومائل، وقد نخر البرد والحرّ حوافّ النوافذ. وكان الطلاء الجصّي قد سقط من عدة زوايا ليتيح النظر إلى حجارة القرميد المخضرّ بفعل الطحالب. أمّا الجانب الآخر فكان يتوارى خلف أغصان اللبلاب المتسلّق.

يهجع آل موروني في الطابق الثاني حيث بنوا حمّاما وغرفتيّ نوم، الأولى للوالدين والأخرى للولدين، ويعيشون في الطابق الأرضي حيث المطبخ الكبير الذي يحتوي على مدفأة الحطب ومائدة الطعام. وخلف المطبخ ثمّة مستودع صغير، وتحته، يوجد المخزن – الذي تحوّل إلى

منشرة- حيث توضع براميل الزيت إذا تكرّمت عليهم أشجار الزيتون الأربع التي يملكونها.

ويدعى الكوخ ببيت التين نسبة إلى شجرة التين الضخمة التي تمتدّ أغصانها المتشابكة فوق السقف. وقد بنى السيد موروني قنّ الدجاج وحظيرة الأغنام ورُكْنَ الكلب من الخشب والصفائح المعدنية، بين سنديانتين، دون الاعتناء بشكلها الهندسي. كما يوجد حقل مهمل ومليء بالأعشاب الضارة، وحوض إسمنتي طويل مليء بمياه آسنة تتجمع فيه الأوراق ويرقات البعوض وشراغف الضفادع. وكان بييترو يضع فيه صغار الأسماك التي يصطادها من البحيرة فتتكاثر في الصيف ويهديها لجلوريا لترمي بها في مسبح الفيلا.

أسند بييترو درّاجته إلى درّاجة أخيه، وركض إلى ركن الكلب وتنفّس الصعداء لأول مرة في ذلك المساء، إذ كان زاغور ينتظره مضطجعا على الأرض تحت المطر. رفع رأسه على مضض عندما رأى بييترو، هزّ ذيله ثم حطّه من جديد خلف ساقيه.

كان الكلب ضخما، ذا رأس مربّع كبير وعينين سوداوين تغرورقان بالحزن وساقين خلفيّتين مريضتين. وقد خمّن ميمو أنّه مهجّن من عرق إيطالي وآخر ألماني. ولكن ما الدليل؟ كان طوله إيطاليًا بالطبع ولونه رماديًا كالذئاب. لكنّ رائحته كريهة تسبب التقيؤ، وتحتلّ البراغيث وبره، في كل الأحوال. ثم إنه كان مجنونا بالكامل، ودماغه لا يعمل بشكل سليم على الإطلاق. ربما بسبب الضربات الكثيرة التي تلقّاها بالعصى، أو بسبب القيد، أو بسبب مرض وراثي ما. وكان بييترو يتساءل مستغربا كيف له أن يبقى على قيد الحياة بعد كل ذلك التعنيف الموجع الذي تعرّض له في حياته. كان يهرب في الليل إذا نسي أحدهم حبسه في ركنه، ويعود منهكا في الصباح يزحف كالحيّة وملطخا بالدم

على فروه وأنيابه. كان يهوى القتل وتسعده رائحة الدم حتى الجنون. يتجول في الليل بين الهضاب، ويعوي وينقضّ على أي حيوان أصغر منه حجما: ماعز، دجاجة، أرنب، خروف، قطة، وخنزير برّي أحيانا.

وكان بييترو قد شاهد في التلفاز فيلم الدكتور جيكل ومستر هايد ذات مرة وبقي مضطربا بسببه. فالكلب في الفيلم نسخة عن زاغور، يعاني من المرض نفسه: طيب في النهار وشرير في الليل.

«هذا جزاء الحيوانات المتوحشة. حين تتذوق طعم الدم تدمن عليه ولا ينفع معها الترهيب. فما إن تتسنى لها فرصة جديدة حتى تفلت منك لتفعل الشيء ذاته. هل فهمت؟ لا تغرّنّك عيناه فتأخذك الرأفة به. إنه كاذب. الآن يبدو طيّبا، ولكن فيما بعد يرتكب الشنائع... ثم إنه لم يعد صالحا حتى للحراسة. علينا أن نقتله قبل أن يتسبب في مآس أخرى، ولن أجعله يتألّم. — قال السيد موروني وهو يصوّب المسدّس إلى الكلب الذي يلوذ بالزاوية بعد أن استنفد قواه المجنونة في الليلة السابقة. — انظر ماذا فعل...— كانت أشلاء المعزاة مشرذمة في الفناء. قتلها زاغور وسحل جثتها ثم أخرج أحشاءها. فترك رأسها ورقبتها وساقيها الأماميّتين قرب الكوخ هناك، بينما تخثّر دمها النازف من بطنها وأمعائها في وسط الفناء ليحوم فوقه الذباب. والأسوأ من هذا أنّ المعزاة كانت حبلى، وظلّ الجنين الصغير في كيسه مرميّا في أحد الجوانب. أما عمودها الفقري فكان داخل الركن. —...لقد أعطيت ماعزين لكونتاريللو الوغد. الآن كفى. أنا لا أتفوط مالاً. عليّ أن أقتله».

راح بييترو يبكي ويتشبث ببنطال أبيه كالجراد، ويتوسل إليه ألاّ يفعلها. فلقد كان يحبّ زاغور رغم تصرفاته المجنونة. وتعهّد أن يقفل عليه في ركنه كل مساء. ولمّا رأى ماريو موروني ابنه على تلك الحال، ارتخى شيء ما في قلبه وتردّد في اغتيال الكلب.

رفع الوالد ابنه بين يديه ونظر إليه بعينيه الشرستين. «حسنا.

لن أقتله. لكنّ مصيره معلّق بيديك...». هزّ بييترو رأسه موافقا. «حياته وموته متعلقان بك. إذا هرب في الليل وقتل أحد المارة فسوف يموت. أفهمت؟». «أجل». «وستقتله بنفسك. سأعلّمك كيف تطلق النار كي تقتله. هل أنت موافق على هذا الشرط؟». «أجل». وظلّ المشهد المرعب (أن يحمل مسدّسا بيديه ويصوّبه إلى زاغور الذي يهزّ بذيله مستعطفا) يراوده منذ أن وافق كالرجال على ذلك الشرط. وما فتئ يخلص بما تعهّد به، على الأقل حتى ذلك المساء، فيرجع إلى البيت قبل حلول الظلام ويُدخل الكلب إلى ركنه.

شعر بارتياح شديد عندما رأى الكلب مُسالما. فأدخله وصعد الدرج. فتح الباب وعبر الممرّ الصغير الذي يفضي إلى المطبخ. نظر إلى نفسه في المرآة المعلّقة على الباب. كان منظره يثير الشفقة، شعره أشعث ومتسخ بالطين وعلى بنطاله بقعة بول وحذاؤه ممزّق. وقد تمزّق جيب المعطف أيضا وهو يهرب من نافذة الحمّام. *يا للمصيبة إن عرف أبي بأنني مزّقت المعطف...* من الأفضل ألاّ يفكّر في الأمر. علّقه على المشجب، ووضع الحذاء فوق الرّف وانتعل الخفّ. عليه أن يركض إلى الغرفة ليخلع البنطال فورا وينظّفه بنفسه في المغسلة. دخل بحذر كي لا يُحدث ضجّة. وشعر بالدفء، فمدفأة الحطب موقدة في المطبخ المظلم، والتلفاز بالكاد يبثّ الضوء. ورائحة صلصة اللحم بالطماطم ترفرف مع رائحة أخرى غريبة تبدو كمزيج من رطوبة الجدران واللحوم الباردة المعلّقة قرب الثلاجة.

كانت أمّه غافية على الديوان ملتحفة بالغطاء، وتسند رأسها إلى حضن زوجها الذي يغطّ في نوم كحوليّ عميق، وهو مستلق إلى جانبها وجهاز التحكّم ما يزال في يده. كان قد أسند رأسه إلى الخلف، وفمه مفتوح يُصدر الشخير المتقطّع كخوار البقر، وجبينه الأصلع يعكس زرقة الشاشة.

كان ماريو موروني، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما، هزيلًا وقصير القامة. ورغم كونه مدمنا على الكحول ويأكل مثل الجرّافة، فإنه لم يكن يسمن ولا كيلوغراما واحدا. بل كان جسده جلفا وصلدا، ولذراعيه قوة هائلة قادرة على حمل المحراث الكبير بسهولة. وكانت ملامح وجهه غامضة ومثيرة للارتباك، ربما بسبب عينيه شديدتي الزرقة (التي لم يورّثها لبييترو)، أو بسبب لون جلده المسمّر تحت الشمس، أو لشحّ المشاعر في قلبه الحجري. شعره أسود وناعم يثبّته بالدهن. والغريب أنّ الشيب لم يجرُؤ على الاقتراب من رأسه، بل تفشّى في لحيته التي يحلقها مرتين في الأسبوع.

لم تستيقظ أمّه على وقع دخوله، وبقي يتدفّأ في الزاوية. هل عليه أن يوقظها؟ *كلاّ. من الأفضل أن أذهب للنوم*... هل ينبغي أن يروي لها مغامرته المرعبة التي تورّط فيها؟ فكّر في الأمر وقرّر ألاّ يقول شيئًا. *ربّما في صباح الغد.*

وبينما يصعد إلى غرفته، استوقفه منظر غريب لم يره من قبل. كان والداه نائمين واحدا إلى جانب الآخر. كان يتخيّلهما، حتى تلك اللحظة، مثل الخطوط الكهربائية المتناقضة ما إن تتلامس حتى ينبري الشّرر منها. وقد وضعا درجا بين سريريهما في الغرفة. وأثناء النهار، في الوقت القصير الذي يقضّيه أبوه في البيت، يبدوان من كوكبين مختلفين ومرغمين على تشارك الحياة والأولاد والبيت لسبب غامض، وهذا ما جعله يرتبك حين رآهما بتلك الوضعية الغريبة.

لم يشعر بذلك عندما كان يرى والديْ جلوريا وهما يتلامسان: يعود أبوها من العمل ويضع ذراعيه على خصر أمّها ويقبّل عنقها فتبتسم. ذات مرة دخل بييترو إلى الصالون ليبحث عن الدفتر، فوجدهما يتبادلان القبل الفموية قرب المدفأة بعيون مغمضة. فاستدار وهرب إلى المطبخ مثل الفأر.

- آه لقد عدت. الحمد لله. - استيقظت أمّه فجأة ورأته - أين كنت حتى الآن؟ - فركت عينيها.

- عند جلوريا. لقد تأخّرت.

- أثرت غضب والدك. قال إنّه عليك العودة باكرا كما تعلم. -كانت تتحدّث بنبرة محايدة.

- لقد تأخّرت... *(هل أخبرها عمّا حدث؟)*... كان علينا أن ننهي البحث.

- هل أكلت؟

- أجل.

- تعال إلى هنا. - اقترب منها وهو يقطر ماء- انظر ماذا فعلت بنفسك... اذهب وتغسّل ثم إلى السرير.

- حسنا ماما.

- أعطني قبلة. - عانقها فقبّلته. كان يرغب أن يخبرها بكل شيء، لكنه فضّل السكوت حينما هاجمته رغبة في البكاء فقبّلها كثيرا- ما الذي حدث؟ لِمَ كلّ هذه القبلات؟

- لا شيء...

- أنت مبلّل بالكامل. تغسّل بسرعة قبل أن تمرض.

- حسنا.

- هيا. - ربّتت على مؤخرته.

- ليلة سعيدة يا أمي.

- ولك أيضا. نم بعمق.

دخل بييترو إلى غرفته، بعد أن تغسّل، يمشي على رؤوس أصابعه دون أن يشعل الضوء، فقد كان ميمو نائما.

في تلك الغرفة الصغيرة ثمّة سريران فوق بعضهما، ومنضدة يكمل عليها بييترو واجباته، وخزانة خشبية واحدة لكليهما، ومكتبة صغيرة

معدنية يضع عليها كتب المدرسة ومجموعة من المستحاثات والقوقعات والمحار المجففة وجمجمة قنفذ وجرادة محنطة في قطرميز وبومة محنطة أهداه إياها عمّه فرانكو في عيد ميلاده وأشياء أخرى جميلة وجدها أثناء نزهاته في الغابة. أمّا في مكتبة ميمو فتوجد مسجلة وراديو وشرائط وقصص مصوّرة ومجلات لقيادة الدراجات النارية وغيثار كهربائي مع مضخم الصوت. وعلى الجدران ثمّة ملصقتان: واحدة لدرّاجة نارية مسرعة وأخرى لفرقة إيرون مايدون وفي خلفيتها شيطان مّا يخرج من تابوت وبيده منجل عليه آثار الدماء.

لبس بييترو ثوب النوم وصعد إلى سريره بهدوء حذر وغاصَ تحت اللّحاف. ياله من شعور جميل. كانت تلك المغامرة المرعبة تتلاشى في دفء النعاس، وكان حينها أمام ليلة طويلة وهنيئة. بدت تلك الحادثة بسيطة ولا أهمية لها ولا عواقب، إلاّ إذا اكتشف الآذن أمره طبعا... لكن هذا لم يحدث، لأنه لاذ بالفرار قبل أن يتعرّف إيتالو على شخصه. أوّلاً لأنه كان بلا نظّارات. ثانيا لأنه كان بعيدا جدّا، ولم يكن أحد ليعرفه أبدا. راح يفكّر كالناضجين الذين خبروا الحياة: *ستمرّ الحادثة كأيّ شيء ينقضي، فهذه الحياة تجري سريعا مثل النهر. في هذه الحياة نتجاوز أمورا أكثر صعوبة واستحالة، ونجدها خلف ظهرنا في لحظات فنتابع مسيرنا. فهنالك أشياء جديدة بانتظارنا.* كان يتحرّك تحت اللّحاف، وهو منهك وجفناه من فولاذ. أوشك أن يسلّم نفسه للنوم عندما ناداه صوت أخيه:

- بييترو، عليّ أن أقول لك شيئا...
- خلتك نائما.
- كلاّ. كنت أنتظرك... لديّ خبر سارّ عن الاسكا...

من المستحسن أن نقطع حديثنا في هذه اللحظة كي نتكلّم عن دومينيكو موروني، أو ميمو كما يسمّيه الجميع.

كان ميمو في زمن هذه القصة يبلغ عشرين عاما من العمر ويكبر أخاه بثمانية أعوام. كان يعمل راعيا ويهتمّ بشؤون حظيرة الأغنام الصغيرة التي تحتوي على اثنين وثلاثين رأس ماعز إجمالا. ويعمل في محلّ لتصنيع المفروشات، في الوقت المتبقي، كي يجمع بعض الليرات. لكنّه يفضّل الأغنام على الأرائك ويعرّف نفسه بأنه الراعي الوحيد الذي يسمع موسيقى الميتال في إيسكيانو سكالو وما حولها. وكان الأمر كذلك في الحقيقة. إذ يسوق القطيع إلى المراعي وهو يرتدي سُترةَ الجلد وبنطالَ الجينز الضيق وحزاما بما لا يحصى من الخرزاتِ الفضية وجزمةً عسكريةً ضخمة وطوقًا طويلًا يتأرجح حتى ساقيه. ويضع السمّاعات في أذنيه والعصى بيده. وكان من الناحية الجسدية شبيها بوالده، هزيلًا مثله ولكن بقامة أطول. ورث زرقة العينين بملامح أكثر شراسة وأقلّ رحمة. وورث الشعر الناعم أيضا، لكنّه كان طويلًا يغطّي منتصف ظهره. أمّا فمه الكبير وشفتاه المنفوختان فورثها عن أمّه. لم يكن وسيما وفي زيّ الميتال يبدو أقلّ وسامة، ولكن ما باليد حيلة فهو مولع به.

أجل. لدى ميمو بعض الأشياء التي يولع بها وتسيطر على دماغه حتى يتعصّب لها فيصبح شخصا مملاً. ولهذا لم يكن لديه كثير من الأصدقاء، وقد أوشك على خسارة أكثرهم صبرا.

كانت العصبية الأولى تتمثل في الهيفي ميتال، أي الميتال الثقيل والكلاسيكي. كان يعتبر الميتال دينا وفلسفة في الحياة، بل كل شيء. وكان ربُّه أوزي أوزبورن المضطرب نفسيًا ذا الشعر المجعّد والدماغ الفارغ. يعبده ميمو لأنّ جمهوره يرمي عليه الجيف خلال الحفلات

فيلتقطها ويأكلها، وكاد أن يتسمّم ذات مرة من وجبة خفاش ميّت فنزلت عليه ساعة الغضب وأسعفوه وأعطوه لقاحا في معدته. «وهل تعلم ما قال أوزي العظيم؟ قال إن تلك اللقاحات أسوأ من تحميل عشرين كرة غولف في الدبر...». كان ميمو يردّد تلك المقولة دوما، ولم يفهم أحد أين تكمن العظمة في كل هذه المهزلة. ولكنّ من الواضح أنه معجب جدّا بأوزي العظيم. كان يحب بايرون مايدون وبلاك ساباث أيضا، فيشتري كل كنزات تلك الفرقة. أما الأقراص فكان لديه القليل منها ونادرا ما يسمعها. في بعض الأحيان، عندما يخرج والده، يضع قرصا ويبدأ القفز كالأهوج في الغرفة مع بييترو. «ميتال! ميتال! ميتال! انفعال! انفعال! انفعال! فلنحطم كل شيء!» هكذا يصرخان ويتصادمان، ثم يتدافعان حتّى يقعَا منهكين على السرير. وفي الحقيقة كان ميمو يكره تلك الموسيقى التي لا تثير سوى الضجيج. لكنّ شغفه كان بمظهر المغنّين وأسلوب حياتهم «لأنهم مجانين لا يعبؤون بأي شيء ولا يجيدون العزف، ورغم ذلك تجدهم أغنياء ولديهم ما لا يحصى من الفتيات والدراجات النارية... يا إلهي ما أعظمهم...».

وأما العصبية الثانية فهي الدرّاجة النارية. كان يحفظ عن ظهر قلب كل أسماء المحركات والعلامات والأنواع والإسطوانات وقطع التبديل. واشترى، بعد جهد جهيد ومع توفير جعل منه زاهدا لمدة سنتين، درّاجة مستعملة بمحرّك قديم يستهلك من البنزين قدْرَ ما تبلعه مضخة عملاقة ويتعطل يوميا. فصرف عليه نقودًا كانت تكفيه لشراء ثلاث دراجات حديثة. وقد شارك أيضًا بسباقين كارثيين، كسر في الأول وصلة المحرك، وفي الثاني درعه.

العصبية الثالثة كانت حبيبته باتريزيا لوريا المعروفة بـ باتي. «إنها أجمل الفتيات في إيسكيانو سكالو بالتأكيد» لعدة أسباب موضوعية. كانت طويلة القامة ولها جسم ناري بمنحنيات مثيرة وبالأخص «مؤخرة

ناطقة، بل مغنية». لكن مشكلتها الوحيدة هي وجهها الفظيع. فجبينها مغطى بقشرة مكثفة من حبّ الشباب، وجلدها يشبه سطح القمر لكثرة الحفر فيه. وكانت المسكينة تعالجه بالدهون والأعشاب والمستحضرات دون جدوى، بل كأن تلك الحفر تتغذى على هذه الأدوية. فبعد العلاج تنمو البثور أكثر من ذي قبل. كما أنّ عينيها غائرتان ومتقاربتان بشكل فظيع وأنفها مغطى بكمية هائلة من النقاط السوداء. لكن ميمو لا يكترث لذلك لأنه مولع بالفتاة ويراها جميلة وهذا ما يهمّ. بل وكان متأكّدا من أنّها ستنافس كيم باسينغر في اليوم الذي تشفى فيه من البثور. كان عمرُها اثنين وعشرين عاما، تعمل بائعة لكنها تحلم بأن تصبح معلّمة في حضانة. كانت صارمة وقوية الطباع فينضبط ميمو لأوامرها كأنه مجنّد مسكين.

وها قد وصلنا إلى العصبية الأخيرة والأسوأ: ألاسكا.

تعرّف ذات مرة على شخص نكرة يدعى فابيو لوتوركو، من مدمني الماريوانا ويقول إنه طاف الكوكب وحده على زورق شراعي. وهو في الحقيقة قد جاء من ضاحية قريبة إلى أوربانو وافترش بساطا يبيع عليه أغراضا هندية وكنزات جيم موريسون. ذات مساء في حانة المنارة اقترب من ميمو وطلب منه مشروبا وسيجارة وراح يحدّثه عن ألاسكا. «أتعي ما أقول؟ ألاسكا هي الحلّ. ترسو في أعلى الكوكب في ميناء انكوريج، وتنطلق على مسمكة ضخمة نحو القطب الشمالي للصيد. تبقى هناك سبعة أشهر أو ثمانية، عشرون درجة تحت الصفر، ولا تنزل أبدا. وهناك يُصطاد سمك القاروس على وجه الخصوص. وعلى ظهر تلك المسمكة الطائفة يوجد صيادون يابانيون يعلّمونك الصّيد وهم محترفون في تعليب الأسماك يدويّا بعد وضعها في الثلاجات العملاقة...». «وأين يعلّبونها؟» قاطعه ميمو. «فيما بعد.. على الأرض.. وما شأن هذا في ما أقول؟ – انفعل الصعلوك ثم عاود قصّ الأباطيل

بنبرته الحكيمة- تجد على ظهر السفن رجالًا جاؤوا من كل أصقاع الأرض، إيسكيميون وفنلنديون وروس والكثير من الكوريين. تقبض كثيرا من المال. وفي أقل من عامين بإمكانك أن تشتري قصرا في جزيرة باسكوا». فسأله ميمو بسذاجة: «لماذا يدفعون كثيرا؟». «لماذا؟ لأنه عمل شاق. على المرء أن تكون له خصيتان كبيرتان كي يتحمل العمل في ثلاثين درجة تحت الصفر. هناك يتجمد بؤبؤ العين من شدة البرد. في العالم كلّه، إذا استثنينا اليابانيين وشعوب الإسكيمو طبعا، لا يوجد أكثر من ثلاثة آلاف رجل قادرين على العمل في تلك الظروف. وأصحاب المسامك يعرفون ذلك، فيضعون شرطا في العقد الذي ستوقع عليه أنك إن لم تتحمل كل الأشهر الستة فلن يدفعوا لك قرشا واحدا. أتعلم كم عدد الرجال الذين وصلوا إلى هناك وطلبوا العودة بالحوّامة بعد ثلاثة أيام؟ الكثير الكثير. الوضع جنوني هناك في الأعلى، وعلى المرء أن يكون له جلد تمساح... ولكن إذا قاومت فسوف تُسرّ كثيرا. سوف ترى ألوانا للطبيعة لا توجد في أي مكان من العالم...».

أخذ ميمو الكلام على محمل الجد. ولا نقاش في الموضوع، إذ كان لوتوركو محقّا، وألاسكا ستحلّ مشاكل حياته. وكان واثقا من أنّ جلدَه جلدُ تمساح، فكم تجمّد في صباحات الشتاء القارسة برفقة الغنم. عليه أن يثبت لهم ذلك. أجل، كان يشعر بأنه خلق للصيد في البحار القطبية وفي الليالي المشمسة. ولم يعد يطيق العيش مع والديه، فكلما دخل إلى البيت شعر أنه سيجنّ. ينطوي على نفسه في الغرفة كي لا يقترب من أبيه، وبمجرّد الإحساس بوجوده يحسّ أنّ الجدران تقطر سمّا مُميتا. كم كان يكرهه! ليس بوسعه أن يقدّر كمية الكراهية. حقد أليم، ضغينة متجذرة، تعاسة قاتلة، تختلط عليه هذه المشاعر ولا تفارقه للحظة، وقد تعلّم كيف يتأقلم معها لكنه يتمنى أن يحين اليوم الذي يسافر فيه بعيدا... بعيدا جدّا. أجل. لا بدّ أن يفصل بينه وبين أبيه شيء ما أكبر

من المحيط الأطلسي كي يشعر بالخلاص. فأبوه لا يعرف إلا إعطاء الأوامر. ويقول له إنه ساذج ومعتوه وشوكته ناعمة وعاجز حتى على أن يسوس أربع شياه ويلبس كالمهابيل وسيكون سعيدا جدّا بفراقه. لم يكن يتنازل بكلمة لطيفة، أو ابتسامة. فلماذا كان عليه البقاء؟ هل ينتظر أن يدمّر ذلك الأرعن حياته؟ لقد كان ينتظر الحلّ المناسب، وقد جاء. كم من مرة في المرعى، حلم بأنه يقول لأبيه: «سأغادر إلى ألاسكا. لم يعد يعجبني العيش هنا. عذرا إن لم أكن الولد الذي أردت، ولكنك لست بالوالد الذي أريد. وداعا». يا سلاام! أجل. كان سيقول له ذلك بالضبط. سيعانق أمّه وأخاه ويمضي بعيدا. لكن المشكلة الوحيدة ثمن البطاقة الخيالي. عندما دخل إلى وكالة السفر ليسأل الموظفة عن السعر، نظرت إليه كأنها تنظر إلى مجنون، ثم أطلقت عليه الرصاصة، بعد بحث استمر نصف ساعة... ثلاثة ملايين ومئتا ألف ليرة. يا للرقم!

هذا تحديدا ما كان يفكّر فيه عندما أحسّ بدخول بييترو.

- بييترو، عليّ أن أقول لك شيئا...
- خلتك نائما.
- كلاّ. كنت أنتظرك... لديّ خبر سارّ عن ألاسكا... وجدت فكرة لتدبير المبلغ.
- ما هي؟
- اسمعني. فكّرت أن أطلب المال من والديْ صديقتك جلوريا. فأبوها مدير بنك وأمّها ورثت كل الأراضي. لن يصابا بانتكاسة إن أداناني بعض المال وهكذا أنطلق. وحالما أقبض أول راتب أعيد إليهما المبلغ. هل فهمت؟
- نعم. – تكوّر بييترو على نفسه وأدخل يديه بين فخذيه ليدفّأ السرير.
- سيكون دينا لأجل قصير. لكنني لا أعرفهما بما يكفي، أمّا أنت

فصديق العائلة وطفلها المدلّل وبوسعك أن تستلف المبلغ. ما رأيك؟ ها؟!

37

لم يقتنع بالفكرة. وكان سيخجل من طلبٍ كهذا أشبه بالحسنة منه إلى الدَّين. ثم إنّ والده كان قد اقترض من بنك السيد شيلاني. ولم يكن متأكّدا من أنّ أخاه سيوفي دَيْنه، ولم يكن ليقول ذلك حتى لو شنقوه. وامتعض من أنّ ميمو كلّما أراد حلاً لمشكلاته أدخل فيها الجميع. ولو كان هذا مسموحا لصارت الحياة أبسط مما نتخيّل، كأن يعثر الدوق مونتيكريستو على مفتاح القفص تحت السرير، ويهرب في غفلة الحرس، بدل أن يبذل ذلك الجهد في حفر النفق بالملعقة. عليه أن يقبض ذلك المبلغ بنفسه، وحينها ستكون فعلًا كبعصة في طيز والده، على حدّ تعبير ميمو نفسه. وبغض النظر عن هذا، فإنّ بييترو لم يكن متشجعا للبقاء وحيدا بعد سفر أخيه الوحيد إلى ألاسكا.

- ها. ما رأيك؟

-لا أعرف. -ارتبك بييترو- ربما استطعت أن أتحدث مع جلوريا...

ظلّ ميمو صامتا في الأسفل حتى قال:

- حسنا، لا عليك. سأفكّر في طريقة أخرى. ربما أبيع الدراجة، لن أحصل على ثمن كبير ولكن... - شرد بييترو، وتساءل إن كان الوقت مناسبا ليروي قصة المدرسة لأخيه. أجل، ربما كان ينبغي أن يخبره بها، لكنّه متعب حتى الموت والقصة طويلة جدّا. ثم إنه كان سيشعر بالخجل إذا قال إنّ أولئك الأوغاد الثلاثة خدعوه وأرغموه. سوف يصفه ميمو حتما بالجبان والمعتوه وهذا آخر ما يريد سماعه في تلك اللحظة. أعرف ذلك مسبقا. -...تستقلّ

طائرة وتتبعني. بوسعنا أن نعيش معا في الشتاء، ونذهب لقضاء الصيف في جزر الكاريبي. وقد تلحق بنا باتي أيضا، لنستمتع على سواحل النخيل والشعاب المرجانية، ونصطاد كل أنواع السمك... كم سيكون جميلًا...

أجل، سيكون جميلًا بالفعل. سرح بييترو في مكان آخر ليتخيل الحياة في ألاسكا: أن يكون لديه كوخ أنيق مزركش بالأقمشة وزلاقة تجرّها الكلاب التي سيعتني بها. وكان سيقوم بنزهات طويلة على الجليد بمعطف ثقيل مضادّ للريح وجزمة صلبة. وفي الصيف سيقوم باستكشاف المرجان مع جلوريا (التي ستصطحب باتي). كم من مرة تحدّث عن ألاسكا مع أخيه وهما جالسان في المروج قرب الغنم، واخترعا قصصا خيالية يضيفان إليها تفاصيل جديدة في كل مرة. الحوّامة (ميمو سيأخذ تصريحا بقيادتها على الفور) التي تهبط عند جبال الجليد، والحيتان، والثلاجة المليئة بالمشروبات المنعشة، والسلاحف التي تغرس بيضها في رمل السواحل. لكنه، في ذلك المساء ولأول مرة في حياته، تمنّى أن تتحقق الرحلة بكلّ ما أوتي من أمل ويأس.

- هل بوسعي المجيء حقّا يا ميمو؟ قل لي الحقيقة، أرجوك. — قال بصوت مبحوح. لم يتلقّ ردًّا سريعا، لكنه سمع أنفاس أخيه المحبوسة في الظلام.
- بالتأكيد. عليّ أن أذهب أنا أوّلا. الأمر ليس بسيطا كما تعلم.
- ليلة سعيدة يا ميمو.
- ليلة سعيدة يا بييترو.

مسدّس الشرطي برونو ميلي

على بعد عشرين كيلومترا عن الأوريليا جنوبي إيسكيانو سكالو، يوجد منحدر طويل بطريقين ينتهي بمنعطف عريض وواسع، تمتدّ حوله الأرياف ولا يوجد فيه أي تقاطع خطر. في ذلك القسم من الطريق، تستعيد السيارات القديمة والريتمو ديزل شبابها وتَصدر من محركاتها الكهلة طاقات غير متوقعة. وتنتاب المسافرين، بما فيهم الواعون، الذين يسلكون الأوريليا للمرة الأولى، رغبة جامحة في عدم الضغط على الفرامل عند ذلك المنحنى الرائع، كي يجرّبوا رعشة السرعة. إلاّ أنّ من يعرف الطريق يتجنّب القيام بذلك، فهو يعلم جيّدا أنّ هنالك سيارة شرطة تتمركز على أحد الجوانب، ومستعدة لإطفاء حماسة السباقات بالغرامة وسحب شهادات القيادة.

يشبه عناصر الشرطة على الأوريليا رجال الشرطة الأمريكيين على الفري وي. ولا يتحلّون بلباقة الشرطة المدنية، إنما بالغلظة والجلافة، لا يحبّون النقاش ويقومون بعملهم فقط. وقد يضربونك بالعصيّ إذا هاترتهم. أضواء سيارتك لا تعمل؟ مئتا ألف ليرة. تقود دون حزام الأمان؟ ثلاثمائة ألف ليرة. لمْ تَقُمْ بالمعاينة؟ يصادرون منك السيارة.

وكان ماكس (ماكسيمليانو) فرانزيني يعرف كل هذا جيّدا، لأنه يسلك الطريق مع والديه عشرة مرات في العام للذهاب إلى شاطئ سان فولكو (لدى آل فرانزيني فيلاّ تطلّ على جزيرة روسا). وكان والده، البروفسور ماريانو فرانزيني كبير أطباء التجبير في مستشفى جيميللي في روما وصاحب مستوصفيْن على تخوم العاصمة، قد أوقفته الشرطة مرّتين ودفع غرامة باهظة على الإفراط في السرعة.

إلا أنّ ماكس فرانزيني كان قد أتمّ عامه العشرين قبل أسبوع من تلك الليلة الماطرة، وحصل على شهادة القيادة منذ ثلاثة أشهر،

وكان يقود سيارة مرسيديس (عدّاد السرعة 220 كيلومترا)، بصحبة مارتينا تريفيزان، وهي شابة تعجبه كثيرا. وكان قد دخّن ثلاثة صواريخ من الحشيش المغربي و... *من المعلوم أنّ الشرطة في طوفان كهذا لن تقوم بإزعاج الناس*... وكانت الطريق خاوية، ولا وجود للرومان الذين يغادرون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. لا وجود لأي سبب يجبر ماكس على تخفيف السرعة، كما أنه كان يرغب في الوصول إلى الفيلاّ بأسرع وقت ممكن، ولن تمنعه سيارة والده من تحقيق تلك الرغبة بالتأكيد. كلّ ما كان يشغله هو تنظيم تلك السهرة مع مارتينا.

سوف أستلقي في غرفة بابا وماما ثم أسألها إن كانت تفضّل النوم وحدها في غرفة الضيوف أم معي على السرير الكبير. إن أجابت بنعم فالأمور على ما يرام، أي أنها ترغب بما هو أكثر من النوم. وعمليّا لست مضطرا لفعل شيء. ننام على السرير و... أما إذا أجابت بأنها تفضّل النوم في غرفة الضيوف فسوف تتعقّد المسألة، مع أنّ هذا لا يعني بالضرورة أنها لا ترغب في مطارحة الغرام. ربما تكون خجولة مثلًا. وقد أسألها إن كانت ترغب في مشاهدة فيلم في الصالون، وهكذا نستلقي على الأريكة الكبيرة تحت الغطاء وحينها نرى كيف تجري الأمور...

كانت لديه مصاعب في التعرّف إلى الفتيات: لا يشقّ له غبار في ما يخصّ الغزل والدردشة والمزاح والسينما والمكالمات والترّهات الأخرى، ولكن عندما يصل إلى لحظة التجربة الرهيبة، أي تجربة القبلة، يفقد جسارته. يعذّبه الهاجس أن ترفضه الفتاة فيتسمّر كالصبي في الخدمة الإلزامية. (عندما يلعب كرة المضرب يحدث له شيء من هذا القبيل. إذ كان يرسل ويردّ بقوة لساعات، ولكن عندما تحين لحظة النهاية والفوز بالجولة، ينتابه القلق فيضرب الكرة في الشبكة أو خارج الملعب. وكان عليه دائما أن يستغلّ أخطاء خصمه كي يفوز).

كانت تجربة القبلة، بالنسبة إليه، كالقفز في الماء من فوق صخرة

شاهقة. تطلّ برأسك، تنظر إلى الأسفل، تعود القهقرى وتقول لنفسك إنّك لست مجبرا، فتجرّب ثانية، ترتبك، تدلدل رأسك، وعندما يقفز الجميع لأنهم ملّوا انتظارك، تصلّي، تغلق عينيك وترمي بنفسك وأنت تصرخ. إنها مصيبة بالأحرى. كما أنّ الحشيش لا يساعده على تنظيم أفكاره بالشكل المطلوب.

وكانت مارتينا تلفّ حشيشة أخرى على أنغام فرقة رييم. *يا لها من فتاة جبارة.* انتبه إلى أنهما توقفا عن الحديث منذ مدة، إذ أثقل ذلك الدخان رأسه وهذا ليس جيّدا. فقد تظن مارتينا أنه شاب فارغ ليس لديه ما يقول، وهذا ليس صحيحا. *حسنا سأطرح عليها سؤالا*. ركّز قليلًا وأخفض صوت الموسيقى وتحدّث بنبرة جدّية.

- هل يعجبك الأدب الروسي أكثر من الأدب الفرنسي؟
- بأي معنى؟ – حشرجت مارتينا عندما حبست الدخان في صدرها.

كانت الفتاة نحيفة كأنها مصابة بالنهام، شعرها قصير ومصبوغ باللون الأزرق الإلكتروني، وقد طرّزت حاجبيها وشفتيها بالأقراط، وطلت أظفارها باللون الأسود. وكانت ترتدي قميص بينيتون مخطّطا بالأزرق والبرتقالي وكنزة سوداء ومعطفا، رُسمت عليه بعض البرمائيات الخضراء، كانت قد ثبّتتهُ أمام الزجاج الأمامي.

- أيهما تفضّلين أكثر؟ الأدباء الروس أم الفرنسيين؟
- عذرا، ولكن أيّ سؤال غبيّ هذا؟! إنه سؤال فضفاض. لو سألتني مثلًا: أيهما أفضل هذا الكتاب أم ذاك، كان بوسعي أن أجيب. لو سألتني: أيهما أفضل أرنولد شوارزينجر أم سيلفستر ستالوني كان بوسعي أن أجيب. ولكن بين الأدب الروسي والأدب الفرنسي لا أعرف.
- وأيّهما أفضل؟

- من؟ من؟
- أرنولد أم ستالوني؟
- أنا أفضّل ستالوني بالمطلق. لم يكن أرنولد ليقوم بدور رامبو أو روكي.
- صحيح. – ثم فكّر قليلا– لكنّ أرنولد أخذ بطولة البريداتور. فيلم عظيم.
- وهذا صحيح أيضا.
- أنت محقّة. كان سؤالي سخيفا واعتياديا. كأن يسألني أحدهم: ماذا تفضّل البحر أم الجبل. الأمر نسبي. إذا قلنا جبال نيبال، فأفضّل الجبل طبعا، أمّا إذا قلنا بحر اليونان، فأفضّل البحر بالطبع. أليس كذلك؟
- تماما.

رفع ماكس صوت الموسيقى من جديد.

التقى ماكس بمارتينا ذلك الصباح في قسم التاريخ الحديث في الجامعة. وأخذا يتحدثان عن الامتحان القريب وعن كتب الدراسة الضخمة. واستنتجا أنّهما في حاجة إلى تركيز كبير وإلاّ فلن يتمكّنا من تقديمه. وظلّ ماكس مندهشا من أريحية مارتينا. فهو لم يحظَ بالتكلم مع فتاة واحدة حتى اللحظة بعد سنة جامعية كاملة. وكانت الفتيات في صفّه قبيحات وبدينات ويدرسن كثيرا. أما مارتينا فكانت ناعمة وتبدو لطيفة أيضا.

«يا إلهي... لن أستطيع» قال لها ماكس وهو يبالغ في التعاسة. وكان في الواقع قد قرّر قبل أسبوعين أن يؤجّل تقديم الامتحان. «لا تقل لي ذلك... يبدو أنني سأنسى الموضوع وأقدّم الامتحان بعد ثلاثة أشهر». «عليّ أن أذهب إلى البحر، فهو المكان الوحيد الذي يساعدني هدوؤه على التركيز. – ثم أضاف بعد سكتة متقنة– أعرف أنّني إذا ذهبت

إلى البحر وحيدا سأصاب بالإحباط، كأنني أنتحر». اصطنع كذبة كبيرة بحجم الجبال، وقال إنه يفضّل الموت على أن يبقى وحيدا على الشاطئ. لكنه رمى الطعم كالصياد. *لا أحد يعرف ما تُخبّئه الحياة*. فالتقطت السمكة الطعم بالفعل. «هل أستطيع المجيء معك؟ لقد تشاجرت مع أبويّ ولم أعد أطيقهما. هل يؤسفك هذا؟...». سألته مارتينا بعفويّة لم يصدّقها ماكس، فبذل جهدا في كتم حماسه وأطلق رصاصة الرحمة. «بالتأكيد، لا مشكلة. نغادر هذا المساء إذا كان يناسبك». «جيّد جدّا. شرط أن ندرس».«طبعا سوف ندرس». اتّفقا على اللقاء في السابعة عند محطة المترو في ريبيبيا قرب منزل مارتينا. وكان ماكس مضطربا كأنه أول موعد في حياته. وبصراحة يحمل هذا التشبيه شيئا من الحقيقة. فمارتينا استثناء من بين كل الفتيات اللواتي عرفهن، كأنها من جذور مختلفة. إذ لا واحدة منهنّ ستذهب إلى البحر مع شاب عرفته للتوّ حتى لو دفع لها مليون دولار، وكنّ من سكان وسط البلد والمدينة القديمة ولا يعرفن أين تقع ريبيبيا أصلًا. حتى ماكس نفسه، رغم أنه يرتاد النوادي الاجتماعية ويسرّح شعره كذيل الحصان ويضع خمسة أقراط في أذنه اليمنى ويرتدي بنطالًا أعرض من خصره بضعفين، فقد اضطر أن يبحث عن ريبيبيا في دليل المدينة. ياللروعة! *إنها من سكان الضواحي حقّا. مذهل!* وكان ماكس يأمل في الارتباط بمارتينا، مع أنه ثريّ من سكان حيّ بايرولي الراقي وسيأخذها بسيارة مرسيدس سعرها مئتا ألف مليون ليرة إلى فيلاّ بحرية بطابقين ومجهزة بغرفة بخار وصالة لرفع الأثقال وثلاجة أكبر من خزنة مصرف سويسري. لكنه كان يعتبر الثراء سخيفا، فهو يحلم بأن يصبح عازف درامز ولن يفني حياته في عمل خرائي كوالده الغبي. كان أقرب إلى أجواء مارتينا نفسها ويلبس مثلها ثيابا رديئة ويتشاركان في الكثير من الأمور رغم أنهما من عالمين مختلفين. والدليل على هذا أنّ كليهما يعشق فرق الاكستيس وجيسوس

وماري شاين وهوسكر دو، وليس ذنبه أنه ولد في بايرولي.

وها هما، ماكس ومارتينا، عند المنحدر بسرعة مائة وثمانين كيلومترا في الساعة، في مرسيدس البروفسور ماريانو فرانزيني الذي كان نائما حينها مع زوجته في فندق هيلتون إسطنبول لحضور مؤتمر دولي عن آليات تجبير الورك، مسلّما بأن سيارته الجديدة في الكراج وليس تحت تصرّف ابنه الأبله.

الدفء، صيد السمك ليلًا برفقة أمهر الصيادين الذين يجهّزون المشويات على المركب، وجبة الأخطبوط بعد منتصف الليل، نزهة في غابة استوائية، فندق بأربع نجوم، مسبح، زيارة كولومبو أكثر مدن الشرق إبهارا، الشمس والبرونزاج...

كانت كل هذه الصور تمرّ كشريط سينمائي في مخيّلة الشرطي أنطونيو باتشي بينما كان متصلّبا تحت المطر البارد، على جانب الأوريليا، يرتدي البزّة المضادة للمطر ويحمل الشارة في يده. نظر إلى الساعة فتوتّرت أعصابه. كان يجب أن يكون في جزر المالديف منذ ساعتين. إنه لا يصدّق حتى اللحظة كيف أفسدت الرحلة التي أعدّ لها بشكل جيّد. إذ طلب إجازة هو وزوجته أنطونيلا، أما ابنه أندريا فكان سيبقى عند جدّته. لقد اشترى قناع الغطس البلاستيكي والزعانف وأنبوب التنفّس أيضا، لتذهب مائة وثمانون ألف ليرة أدراج الرياح. كان سيفقد صوابه. فكيف لإجازة منشودة منذ خمسة أعوام أن تتلاشى في خمس دقائق، أي زمن المكالمة: «صباح الخير يا سيد باتشي. إنني الموظفة كريستيانا بيتشينو في وكالة فرانكوروسو للسفر. أتصل بحضرتك لأخبرك عن أسفنا لإلغاء رحلتك إلى جزر المالديف لظروف قاهرة». «ظروف قاهرة؟! ما الذي حدث؟». أعاد سؤاله ثلاث مرات قبل أن يفهم أنه لن يسافر. ظروف قاهرة = إضراب الطيارين

ومساعديهم. – اللعنة عليكم كم أكرهكم!– صرخ يائسا في الليل.

كان العاملون في قطاع الطيران هم الفصيلة البشرية التي يمقتها أنطونيو باتشي، أكثر من المتطرّفين من العرب، ومن العنصريين في شمال إيطاليا، ومن الناشطين ضد الحريات. لقد صمّم على كراهيتهم بعنف منذ أن كان طفلًا، عندما بدأ يشاهد الأخبار المتلفزة ويفهم أنّ أسوأ البشر هم السادة في العالم. *إضراب في الأسبوع. علام تضربون أيها السفلة؟* كانوا يستمتعون بحياتهم أكثر من الجميع، رواتبهم عالية، إمكانية السفر متاحة دوما، ينكحون المضيفات، ويقودون طائرة، وفوق كل هذا يُضربون. *فماذا أقول أنا؟ ها؟* ماذا يقول الشرطي أنطونيو باتشي، وهو الذي قضّى نصف حياته في حاجز على الطريق الدولي، تتجمّد ركبتاه فيصبّ جام مخالفاته على سائقي الشاحنات، ويتشاجر مع زوجته في النصف الآخر من اليوم؟ هل كان عليه أن يموت من الهزال؟ كلاّ. أفضل حلّ أن يطلق رصاصة في حلقه وينتهي من هذا الكابوس مرة واحدة وإلى الأبد. *تبًا لكل شيء!*

لم يكن حانقا من أجله فقط، فهو قادر على التأقلم، بطريقة أو أخرى، دون جزر المالديف الملعونة. سيكون محطّم القلب ولكنّه سيعيش. أمّا زوجته فلا. لم تكن أنطونيلا لتمرّر القصة بسهولة، إذ كان لديها طباع لئيمة ستجعله يدفع الثمن غاليا حتى الألفية القادمة. لقد حوّلت حياته جحيما كأنّه هو الذي قصّر في حقّ الطيارين فأضربوا. لم تعد تتحدث إليه، وباتت تعامله كما لو كان غريبا، فترمي الصحن أمامه وتجلس أمام التلفاز. لماذا كان حظّه سيئا إلى هذه الدرجة؟ ما الذي فعله لينال هذا النصيب من العذاب؟ *انس الأمر ولا تفكّر فيه*. أنت تعذّب نفسك بلا جدوى. أغلق الواقي المطري جيّدا واقترب من الشارع، فإذا بضوء سيارة تخرج بسرعة كبيرة من المنعطف. رفع أنطونيو باتشي الشارة وناجى الله أن يكون في تلك المرسيدس طيّار أو مساعد طيّار أو

كلاهما معا.

- أشار لك الشرطي. ألم تنتبه؟ – أعلمته مارتينا بذلك وهي تدخّن الحشيشة.

- أين؟! – ضرب ماكس على الفرامل.

راحت السيارة تتخبّط وتنزلق على الشارع المبلّل. حاول ماكس السيطرة عليها ولكن عبثا. فرفع الفرامل اليدوية في النهاية. (إياكم أن ترفعوا الفرامل اليدوية أثناء القيادة!). فدارت المرسيدس دورتين وتوقّفت أخيرا على بعد نصف متر من حفرة عند حافة الطريق.

- أوه... يا للحظّ... – تنهّد ماكس بما تبقّى في صدره من أنفاس– كدنا نقع في الحفرة. – اصفرّ وجهه كحبة الليمون.

- ألم تر الشرطي؟ – بدت مارتينا هادئة وكأنها كانت في اللونا بارك تلهو بسيارات المصادمة وليست على طريق دولي بسرعة مائة وستين كيلومترا في الساعة حيث كانت ستلقى حتفها.

- لم أنتبه، صدقا... – رأى شعاع ضوء أزرق، وظنّه أضواء محلّ بيتزا– ماذا أفعل؟ – خلف الزجاج الخلفي الذي يجلده المطر، كان ضوء سيارة الشرطة يبدو كمنارة في العاصفة– هل أعود إلى الوراء؟ – تلعثم وتجمّدت شفتاه.

- وما أدراني أنا؟ عليك أن تعرف أنت ما الذي ينبغي فعله.

- أنا أفضّل التقدم فلن يتيح لهم المطر قراءة رقم السيارة. ما رأيك؟

- أنا أرى أنك تهلوس. بوسع هؤلاء اللّحاق بك وإشباعك ضربا.

- سأعود إلى الخلف إذن. – قطع الموسيقى وعدّل علبة السرعة على المشي الخلفي– أوراقنا نظامية في كلّ الأحوال. ضعي حزام الأمان وارم الحشيش.

لقد خرج من المنعطف بسرعة لا تقل عن المائة وستين وتابع بلا مبالاة. لكن مزاج الشرطي باتشي لم يكن ليساعده على قراءة رقم السيارة وكتابتها، فما بالك بمطاردته. *فليذهب إلى الجحيم.*

تركب السيارة وتدفع برونو الأبله عن مقعد القيادة. تتشاجر معه لأنه لا يريد الذهاب. فتنطلق وحدك كالمهابيل في مطاردة ليس لها آخر، قد تزجّ بك في واد عميق أو تصطدم بشجرة ما. وتخاطر بحياتك من أجل ماذا؟ من أجل معتوه لم ينتبه لوجود الحاجز. لا. لا. لا. ليست الليلة المناسبة. بعد ساعة ينتهي دوري وأعود إلى البيت، لأتحمّم بمياه ساخنة، وأحضّر حساء منزليّا وأخلد للنوم. وإن لم تخاطبني زوجتي المزعجة فهذا أفضل، لأنها لا تشتكي إن بقيت خرساء.

نظر إلى الساعة. كان دور برونو ميلي في المراقبة قد حان. اقترب من السيارة ومسح النافذة بيده ليرى ماذا يفعل زميله. *هذا البهيم نائم!* قضى نصف ساعة تحت المطر بينما تنام تلك الدابة بسعادة وهناء. ويهيب النظام بمن يبقى في السيارة أن يبقى منتبها لنداءات الراديو الطارئة، وإذا غفا وفاتته مكالمة فسوف تكون العقوبة قاسية. وكان سيغرق في المشاكل أيضا جرّاء ذلك المستهتر. عام كامل منذ التحق ذلك الأحمق بسلك الشرطة وهو لا يتوانى عن التواكل. وهذه لم تكن أول غباوة يقوم بها. ثم إنه كان غليظ القلب وهذا ما لا يطيقه أنطونيو. عندما قصّ على مسامعه إضراب الطيارين ونكد زوجته، لم يبادر بأيّ كلمة لطيفة بل قال له بكل صفاقة إنه يفضّل استخدام السيارة لقضاء العطلة على أن تحتال عليه وكالات السفر. وكان له وجه غول. أنفه أكبر من حبّة البطاطا وعيناه كعيني الضفدع. أمّا شعره فكثّ أصهب يثبّته بالدهن. وكان يبتسم في نومه أيضا. *أنا أعمل تحت المطر مثل الكلاب وهو ينام...* أخذ التعب والغيظ يضغطان على جدران بلعومه كالغاز السام. – تبّا لك – وراح يصفق زجاج السيارة الأمامي

كالمجانين ويبتسم كالضباع.

وفي الحقيقة، لم يكن الشرطي برونو ميلي نائما، بل أسند رأسه وأغمض عينيه وسرح يفكّر في أنّ صديقه جراتزيانو بيليا لم يخطئ في نكح الممثلة ديليا، ولكنّه كان من الأفضل ألف مرة أن ينكح واحدة من مقدّمات البرامج الرياضية. *فهنّ أجمل ألف مرة من الممثلات.* كانت تنفرج أساريره لرؤيتهنّ ويثرن رغباته الجنسية، مع أنّ العاهرات يتحدّثن عن كرة القدم ويتوقّعن نتائج البطولة *(توقعات خاطئة على الدوام)* ويسمحن لأنفسهنّ بتقييم استراتيجيات اللعب *(بحماقة قلّ مثيلها)*. لكنه أدرك مغزى تلك البرامج: كي يجعلوا اللاعبين ينحكن المقدّمات. كان كل شيء منظّما لهذا السبب، والباقي عبارة عن تمثيلية سخيفة. والبرهان على هذا أنهنّ غالبا ما يرتبطن بأحد اللاعبين. فكان رؤساء النوادي يموّلون هذه البرامج لإرضاء اللاعبين الذين يردّون الدّيْن بتقديم أداء أفضل مع الفريق. لو أنه لم يختر العمل في سلك الشرطة لاختار كرة القدم. لقد أخطأ حين توقّف مبكّرا عن اللعب. ومن يدري، لو اهتم بلياقته أكثر لأصبح لاعب كرة، وأيَّ لاعب. عليه أن يكون من أقوى اللاعبين كي تُقيمَ له المقدّمات اعتبارا. عليه أن يكون هدّافا مثل دل فرانكو لتستضيفه تلك البرامج وينكح من المقدمات ما يشتهي: سميونا ريجي، أنطونيلا كافاليري، ميريانا، لويزا سومايني وميكيلا جواداني. أجل، كلّهنّ، بلا تمييز أو استثناء. كان يشعر بالنشوة. ومن يدري من كانت أكثرهنّ خبرة؟ *إنها جواداني بلا شكّ. آه كم أشتهيها. يجذبني مظهرها الذي يكشف عن فتاة مهذّبة ويخفي عاهرة مخضرمة. ولكن يجب أن تكون رياضيا كي تقترب منها. سحقا.* راح يتخيل أنه في نكاح جماعي مع ميكيلا وسيمونا والمقدّم أندريا مانتوفاني. ابتسم بعينين مغمضتين مسرورا كالأطفال. *طق طق طق.* أيقظه سيل من الطرقات العنيفة على الزجاج. – ما الذي

يحدث؟- جحظت عيناه وصرخ: آآآآه.

طلع عليه وجه مخيف من خلف الزجاج يحدّق فيه. ثم عرف أنه باتشي القبيح. أنزل زجاج النافذة سنتيمترا وهو يصرخ.

- هل جننت؟ كدت تقتلني بجلطة يا رجل! ماذا تريد؟

- اخرج!

- لماذا؟

- لماذا؟ لأنك كنت نائما.

- لم أكن نائما.

- اخرج!

- لم يحن دوري بعد. - نظر برونو إلى الساعة.

- اخرج هيا.

- لم تنقض نصف ساعة بعد.

- لقد مرّت نصف ساعة وأكثر.

- ليس صحيحا. - دقّق برونو ميلي في الساعة وهزّ رأسه- مازال هناك أربع دقائق. سوف أخرج بعد أربع دقائق.

- تبّا لك، لقد مرّت أكثر من أربعين دقيقة. اخرج. - هجم أنطونيو على مقبض الباب لكن برونو كان أسرع منه وقفله قبل أن يستطيع ذلك المجنون أن يفتحه. - اخرج حالا يا ابن اللعينة - رفع أنطونيو صوته وعاود ضرب النافذة بقبضته.

- ماذا دهاك؟ هل جننت دون أن تخبر أحدا؟ اهدأ. أفهم أنك لم تقض إجازتك في المالديف، لكنّها مجرّد رحلة وليست نهاية العالم. - حاول برونو ألاّ يضحك، فقد أثقل أنطونيو سيّئ الحظّ رأسه شهرين كاملين وهو يحدّثه عن النخيل والشعاب المرجانية والأسماك العجيبة ثم ألغيت الرحلة. كاد برونو يتبوّل من الضحك.

- أتضحك يا سبب الشقاء؟ افتح قبل أن أكسر النافذة وأحطّم أسنانك، قسما بالعذراء.

كاد برونو يبالغ ويقول لزميله إنه ما من داع للغضب، فها هو الآن يستحمّ تحت المطر بدل السباحة في مياه المحيط الهندي. لكنه لجم لسانه، عندما أخطره شيء ما في رأسه أنّ هذا المجنون ينوي تكسير النافذة حقّا.

- افتح!
- كلاّ لن أفتح إلاّ إذا هدأت.
- لقد هدأت. افتح الآن.
- لكنني أرى أنك لم تهدأ بعد.
- أقسم لك أنني قد هدأت. افتح. – ابتعد أنطونيو المبلّل عن السيارة ورفع يديه.
- لا أصدّق. – نظر برونو إلى الساعة مجدّدا– بقيت دقيقتان.
- ألا تصدق؟ انظر إذن. – أخرج أنطونيو المسدّس ووجّهه إلى برونو– أترى كيف هدأت؟ أترى؟

ذهل برونو لما رأى. كيف لذاك الأرعن أن يصوّب المسدّس نحوه؟ ربّما تعطّل دماغه، كأولئك الذين يُطردون من العمل فيقتلون صاحب المعمل. لكنّ برونو لم يكن مستعدّا ليموت على أيدي مجرم مخبول، فأخرج مسدّسه هو أيضا. – وأنا هادئ أيضا– قال بابتسامة لامبالية.

– كلانا هادئان، كأننا شربنا لترا من البابونج.

- انظر إلى الشرطي ماذا يفعل؟ – قالت مارتينا بما يشبه الدهشة.
- ماذا يفعل؟ لا أراه. – انثنى ماكس إلى جانب الفتاة لكنه لم يميّز شيئا، فحزام الأمان يعيقه والظلام كثيف في الخارج والضوء الأزرق ينير طيفا بشريا.
- يحمل المسدّس بيديه.

- مسدّس؟! - كاد أن يغمى عليه.

- ويصوّبه إلى السيارة.

- إلى السيارة؟! - رفع ماكس يديه وبدأ ينوح- أقسم بالله أننا لم نفعل شيئا! لم نفعل شيئا! لم أنتبه إلى الحاجز، هذا كل ما في الأمر.

- اخرس أيها المنغولي. لا يصوّبه إلى سيارتنا. - فتحت محفظتها، أخرجت علبة Camel لايت وأشعلت سيجارة.

- إلى من إذن؟ - سألها.

- اخرس للحظة واحدة. دعني أفهم ما الذي يجري... - أنزلت زجاج النافذة- إلى سيارة الشرطة!

- آه! - تنفس ماكس الصعداء- ولماذا؟

- لا أعلم. ربما يوجد لصّ في الداخل. - أخرجت غيمة دخان من فمها.

- أهذا رأيك؟

- من الوارد أنّ اللص دخل إلى السيارة بينما كان الشرطي يعمل على الطريق. غالبا ما تُسرق سيارات الشرطة بهذه الطريقة. قرأت عن هذا في المجلة. لكن الشرطي قد أمسك به. - كانت تبدو راضية عن هذه الفرضية.

- وماذا نفعل؟ هل نذهب بعيدا؟

- انتظر. انتظر لحظة... دع الأمر عليّ. - أخرجت مارتينا رأسها من النافذة-أيها الشرطي. أيها الشرطي. هل أنت في حاجة إلى مساعدة يا سيدي؟ هل بوسعنا أن نساعدك؟

الآن فهمت لماذا وافقت على المجيء معي من أوّل لقاء. -ماكس يتأمّل بكل إحباط- *لأنها مجنونة. إنها أكثر صديقاتي حماقة.*

رفع أنطونيو رأسه ورأى سيارة مرسيدس زرقاء على حافة الطريق،

ويخرج منها صوت أنثوي يناديه.

- ماذا؟ – صرخ – لم أفهم.

- هل أنت في حاجة إلى مساعدة؟

- أنا محتاج إلى مساعدة؟... كلاّ! – أيّ سؤال غريب هذا؟ ثم تذكّر المسدّس وأدخله في غمده على الفور– هل أنتم الذين لم تتوقفوا منذ قليل؟

- أجل.

- ولماذا عدتم؟

انتظرت الفتاة لحظة قبل أن تجيب: أ لمْ تنوّه لنا بالشارة؟

- صحيح ولكن منذ مدة...

- هل بوسعنا المضي إذن؟ – سألت الفتاة آملة.

- أجل. – قال أنطونيو، ثم فكّر قليلا– انتظرا. ما هي مهنتكما؟

- نحن لا نعمل. ما زلنا طلاّبا.

- ماذا تدرسان؟

- آداب.

- لا تعملين مضيفة طيران، أليس كذلك؟

- كلاّ والله.

- ولماذا لم تتوقّفا؟

- لم ير خطيبي الحاجز بسبب المطر.

- بل لأن خطيبك كان مسرعا كالمجنون. قبل ميل من هنا ثمّة لائحة طويلة عريضة مكتوب عليها: 80 أي السرعة القصوى المسموح بها في هذا الحيّز من الطريق.

- لم يرها خطيبي. نحن متأسفان حقّا. وها هو خطيبي يتأسف أيضا.

- حسنا، سماحٌ هذه المرة. سيرا على مهل، وخصوصا تحت المطر.

- شكرا يا سيدي. أعدك أننا سنخفف السرعة.

انتشى ماكس لثلاثة أسباب.

1. لأن مارتينا قالت «خطيبي». قد يكون لا معنى لهذا من ناحية، لكنه قد يعني شيئا ما من ناحية أخرى. إذ لا تقول الفتاة «خطيبي» اعتباطا. لا بدّ أنّ هنالك مقصدا يظلّ موجودا مهما توارى.
2. مارتينا ليست حمقاء، بل كانت عبقرية. احتالت على الشرطي بذكاء وكاد يحيّيها احتراما.
3. لم يتلقّ المخالفة. فأبوه كان سيرغمه على دفعها حتى آخر ليرة، إضافة إلى أنه سيمنعه من قيادة السيارة الجديدة...

لكنه أخطأ في السعادة، ففي تلك اللحظة بالضبط حان دور برونو ميلي.

عندما رأى برونو تلك الجوهرة تقترب، فزّ من السيارة كأنّ فيها بعوضا لاسعا. مرسيدس *650 تي اكس. أفضل سيارة في العالم حسب المجلة الأمريكية «موتورز اند كارز»*. أضاء مصباحه الكهربائي وصوّبه إلى تلك السيارة. *إنها هي، لونها أزرق، وهذا هو طرازها الوحيد.*

- أنتما في المرسيدس، اقتربا. - ناداهما ثم التفت إلى باتشي- دع عنك. سأتولّى أمرهما بنفسي.

كانت قطرات المطر المنهمرة تلمع تحت ضوء المصباح القوي، وهو ما جعل عينيّ تلك الفتاة تبرقان أيضا. أمعن برونو ميلي النظر فيها. شعرها أزرق، وثمّة خاتم على شفتيها وواحد على حاجبها.

أهي من أتباع الهبيز؟ ماذا تفعل هذه الصعلوكة في سيارة مرسيدس؟ كان برونو يكره الهبيين إذا اعتلوا دراجة نارية، فتخيّل لو رآهم داخل فَخْرِ الصناعة الألمانية. كان يكره شعرهم المصبوغ ووشومهم وأقراطهم وعرقهم المتصبب وكلّ الترّهات الأخرى الفوضويّة الشيوعيّة. ذات مرة عبّرت لورينا سانتيني، خطيبته، عن رغبتها في تثبيت

خاتم على سرتها مثل نعومي كامبل وبيترا مورا.«افعليها وأهجرك!» أجابها. فتلاشت الرغبة تلقائيا، مثلما وُلدت في ذهنها. ومن المحتمل أنها لو كانت خطيبة رجل متفهّم لثبّتت اليوم خاتما في فرجها أيضا.

أمّا لو رأيت خاتما في فرج جواداني فلا ضير. لورينا ليست جواداني، وقد أتغاضى في بعض الحالات.

- سمح لنا زميلك بالذهاب يا سيدي. – قالت الهيبية ويدها فوق عينيها، بصوت قبيح كالغراب.

- ولكنني آمركما بالوقوف.

رُكِنت السيارة في الساحة الصغيرة.

- صحيح. لقد سمحت لهما بالذهاب. – اعترض أنطونيو وهو يهمس.

- أعرف. – لم يخفض برونو من حدّة صوته– وقد ارتكبت خطأ. لم يتوقّفا على الحاجز. هذا خطير جدّا...

- دعهما يمضيان. – قاطعه أنطونيو.

- كلاّ. أبدا. – قال برونو وهو يخطو نحو المرسيدس، لكنّ زميله أمسك بذراعه.

- ماذا تفعل أيها الحمار؟ أنا من أوقفهما. ما شأنك أنت؟

- دع ذراعي. – احتقن برونو.

قفز أنطونيو غاضبا وراح يشهق ويزفر وخدّاه ينتفخان كما تنتفخ القربة. هزّ برونو رأسه وهو ينظر إليه.

يا له من مسكين. لقد فقد عقله. عليّ أن أكتب تقريرا عن تدهور حالته النفسية. لم يعد مسؤولًا عن تصرّفاته وهو لا يعي ذلك. هذا خطير.

إن كان هذان طالبيْن، فهو لا يفهم شيئا في الحياة. وذاك الأحمق سمح لهما بالذهاب... إنهما لصّان... كيف لعاهرة هيبية أن تركب

سيارة كهذه؟ من البديهي أنهما يستخدمان السيارة لتهريب البضائع المسروقة. وإن حسبا أن بوسعهما خداع برونو ميلي فقد ارتكبا خطأ كبيرا جدّا، كبيرا جدا جدا، أكبر من الملعب الأولمبي.

- اسمع. عد إلى السيارة وتنشّف، لأنّك مبلّل بالكامل. سأتولى الأمر. انقضت نصف ساعة وحان دوري. هيا يا أنطونيو اركب السيارة أرجوك. - حاول ما أمكنه أن يستخدم نبرة مسالمة.

- لقد عادا. كنت قد أشرت إليهما بالوقوف وقد عادا. لماذا برأيك؟ لو كانا من اللّصوص لما عادا. - كان يبدو منهكا كأنه تبرّع بثلاثة لترات من الدم.

- ما شأن هذا؟ اصعد إلى السيارة فأنت متعب. - فتح برونو باب السيارة-سأحقّق في هويّتهما وأدعهما يذهبان. - دفعه إلى الداخل.

- ولكن بسرعة فهكذا نذهب إلى البيت نحن أيضا.

أغلق برونو الباب وفكّ أمان المسدّس. *والآن نحن لها*... عدّل قبّعته واتّجه بخطى واثقة نحو المرسيدس المسروقة.

كان لبرونو ميلي مرجعيات محددة: كلينت ايستوود في المقام الأول، المحقّق كالاخان، وستيف ماكوين. إنهم رجال عظماء، لا تُكسر شوكتهم، يطلقون عليك النار دون تردّد، وأفعالهم أكثر من أقوالهم.

وكان ميلي ينوي أن يصبح مثلهم، وقد أدرك أنه ينبغي القيام بمهام محددة ليكون مثلهم، وها هو على مقربة من إحدى تلك المهام: تنظيف المنطقة من الجريمة والانحلال، وإذا اضطر لاستخدام القوة فهذا عزّ الطلب. لكنّ المشكلة تكمن في كرهه للبزّة التي يرتديها، فهي تسبّب له القرف لفظاعتها ومظهرها المضحك وسوء تصميمها من قماش رديء يشبه لباس الشرطة البولندية. وكلّما نظر إلى نفسه في المرآة شعر بضرورة التقيّؤ. لم تكن البزّة تساعده على تقديم أفضل

ما عنده. ولو ارتدى ديرتي هاري ذاته هذه البزة الإيطالية لظهر كأي شخص عادي. كان سيحقّ له تقديم طلب التطوع في قسم العمليات الخاصة بعد سنة. وإن قبلوه كان سيرتدي الزيّ المدني، وحينها سترى إيطاليا العجائب. سيصفّح جسمه بواقي الرصاص، وسيرتدي الترانش الأبيض الذي اشتراه بالتنزيلات الصيفية.

طرق برونو النافذة اليسرى بالمصباح، فانخفض الزجاج. كان شاب ما يقود السيارة العجيبة. حدّق فيه دون أن يزلّ بأي انطباع (ميزة أخرى لإيستوود العظيم). رأى أنّ الشاب في منتهى القبح، ولا بدّ أنه في سنه العشرين، وسيتعرض للصلع بعد خمسة أو ستّة أعوام. كانت نظرته في الصلعان لا تخيب. ورغم هذا كان للشاب شعر طويل مسرّح كذيل الحصان، جبينه ممزّق كأشجار غابة محروقة، أذناه كبيرتان مثل الكرواسان، وتلك اليسرى مقوّسة أكثر من اليمنى. وقد ثبّت خمسة خواتم فضية في شحمة أذنه، كما لو كان وجهه في حاجة إلى تشوهات أخرى. وإن كان هذا الهيبي مقتنعا بأنه يشبه بوب مارلي أو أحد نجوم الروك الصعاليك، فإنه لا يشبه إلاّ الممثل الكوميدي والتر كياري. أما تلك الجنّية ذات الشعر الأزرق والذقن المقوّس، النّاظرة إلى الأمام والسمّاعات في أذنيها، فلا يمكن الإقرار بقبحها في المطلق. أي لا بأس بها إذا اقتلعت الخردة من وجهها والصبغة من رأسها. لا يعني أنها ستصبح آية في الجمال، لكنها ستكون مناسبة للعق القضيب أو نكاح خلفي في الظلام.

- مساء الخير سيدي. الوثائق لو سمحت.

تنبّه لوجود رائحة حادة، لا يُخطئها أبدا، كروث البقر، دخلت في سيالاته العصبية بواسطة الأعصاب القحفية حتى وصلت إلى خليّة المشابك الحسية في مركز الذاكرة. وراح برونو ميلي يتذكر.

كان عمره ستة عشر عاما يغنّي ببراءة على الشاطئ في صحبة

الكشافة من رفاق الكنيسة. وفجأة يصل أربعة مراهقين من الحركة الفوضوية ويبدؤون بلفّ السجائر. عرضوا عليه واحدة فقبلها ليثبت أنه يحب اللهو والمرح. وما إن سحب منها نفسا حتى أخذ يسعل ويدمع. وعندما سألهم عن نوع ذلك الخراء ضحك المراهقون واستهزؤوا به. ثم شرح له أحدهم أنّ تلك السيجارة مغطّسة بالمخدرات. فقضّى أسبوعا مخيفا، وهو على قناعة بأنه أصبح مدمنا على المخدرات. وفي تلك المرسيدس اشتمّ الرائحة نفسها. حشيش. دخان. مخدرات.

كان والتر كياري والجنّية الزرقاء قد دخّنا كمّيّة هائلة من الحشيش. وجّه المصباح إلى منفضة السجائر. *يا سلام! وأنطونيو الأحمق سمح لهما بالذهاب*... رأى كومة من أعقاب الحشيشة تفيض من المنفضة، ولم يكترثا بإزالتها. كان هذان إمّا متخلّفين عقليًا أو أنهما قد دخّنا حتى صارا عاجزين عن إنجاز عملية بسيطة كهذه.

فتح والتر كياري الصندوق الصغير وسلّمه أوراق السيارة والتأمين.

- شهادة القيادة؟

أخرج الولد المحفظة من جيبه وأعطاه الشهادة. يدعى ماكسيمليانو فرانزيني. ولد في الخامس والعشرين من شهر يوليو عام 1975 ويقيم في روما في شارع مونتي باريولي 128. كانت الشهادة نظامية.

- لمنْ هذه السيارة؟

- لوالدي.

تفحّص الأوراق. كانت السيارة باسم ماريانو فرانزيني، المقيم في روما في شارع مونتي باريولي 128.

- وهل لوالدك الإمكانيات المادية التي تسمح له بشراء سيارة كهذه؟

- أجل.

مدّ برونو ذراعه وغزّ فخذ الفتاة برأس المصباح. - انزعي السمّاعات. هات الهوية.

نزعت الجنية الزرقاء السماعات باستياء كأنها تلتهم جيفة فأر، وأخرجت الهوية الشخصية من محفظتها وأعطته إياها بطريقة غير لائقة. تدعى مارتينا تريفيزان وهي أيضًا من روما وتسكن في شارع بالينكو 34. كان برونو خبيرًا بأسماء أحياء العاصمة، ولكن بدا له أن شارع بالينكو قريب من ساحة اقليدس وباريولي. أعاد الهويتين وحدق بكليهما معًا. كان الاثنان من حيّ راقٍ ومع ذلك يتشبهان بالهيبّين، ويبدوان أسوأ من اللصوص بكثير. فاللصوص يخاطرون بأرواحهم على الأقل، أمّا هذان فطفلان مدلّلان عند آبائهم ويتنكّران بزيّ المتمرّدين. كانا من أولئك الذين يولدون على مخدات الريش، بمعنويات عالية، ويقنعهم ذووهم بأنهم أسياد الكون وبأن الحياة مجرد نزهة، وإن أرادوا تدخين الحشيشة فلهم ذلك، وإن أرادوا ارتداء لباس المشردين فلا مشكلة.

ابتسم برونو بلطف ليعرض أسنانه الصفراء. كانت الرموز الفوضوية على ثيابهما بمثابة استخفاف بمن يكسر ظهره تحت المطر والصقيع ليحافظ على النظام. وكان ذلك الحشيش المهمل في المنفضة تعدّيًا سافرًا على من أصابه الرهاب طيلة أسبوع لأنه مجّ سيجارة ملغومة عن طريق الخطأ. وكانت علب الكوكا كولا المرمية بازدراء تحت مقاعد السيارة تتحدى البشرية جمعاء بأنها لن تحصل على سيارة مثلها حتى لو اتبعت أكثر السياسات تقشفًا، وإهانة لمن لديه سيارة ألفا 33 توين سبارك يغسلها يوم الأحد في النافورة ويبحث عن قطع تبديل مستعملة. في النهاية، كانت كل مبادئهما عبارة عن تكبّر عليه وعلى سلك الشرطة بأسره.

كان ابنا القحبة يسخران منه بالمحصلة.

- هل يعلم والدك أنك أخذت السيارة؟

- أجل.

تظاهر بأنه يدقّق في دفتر التأمين، وتابع بنبرة شبابية.

- هل تحبان التدخين؟ – رفع نظره فرأى الولد على وشك الانهيار. وهذا ما أمدّه بالعزم الذي أعاد إليه نشاطه، فاختفى البرد ولم يعد المطر يبلّله. كان يشعر بأنه في أحسن حال، فها هو ينال منهما.

أن تعمل كشرطيّ أفضل بألف مرة من أن تكون لاعب كرة.

- هل تحبان التدخين؟ – كرر بنفس النبرة.
- كيف يا سيدي؟ لم أفهم. – غمغم والتر كياري.
- هل تدخنان؟
- أجل.
- وأي نوع من التدخين تحبان؟
- تشيسترفيلد.
- ألا تحبّان صواريخ الحشيش؟
- كلا. – لكن صوت الولد يرتجف كوتر الكمان.
- كلا؟ ولماذا ترتجف إذن؟
- لست أرتجف.
- حقًا. لست ترتجف، اعذرني. – ابتسم بهناء ووجّه المصباح مباغتًا الجنيّة الزرقاء. – هذا الفتى يقول إنكما لا تحبّان الحشيش. هل هذا صحيح؟

حجبت مارتينا الضوء بيدها وهزّت برأسها نافية.

- ما بك؟ هل أنت مخدّرة ولا تستطيعين الكلام؟
- لقد دخنّا سيجارتين من الحشيش. ماذا تريد الآن؟ – أجابت بنبرة عالية وحادة كمرور الأظفار على الزجاج.

آه... أنت وقحة! ولست ممن يتغوطون في ثيابهم.

- ماذا أريد؟ ربما تنسين أنّ القانون في إيطاليا يعاقب على تعاطي الحشيش.

- إنه استخدام شخصي. - ردت العاهرة بنبرة المعلّمة.

- آه. استخدام شخصي. انظري إذن. انظري ماذا يحدث.

وجد ماكس نفسه في الأرض ممرّغًا بالوحل. لم يستطع أن يردّه أو يدافع عن نفسه أو أن يفعل شيئًا.

انفتح باب السيارة على غفلة وأمسك ابن الحرام بذيل شعره وجرّه إلى الخارج. أحس بأنه أراد اقتلاع شعره من رأسه، لكنه رماه في وسط الساحة. فطار ماكس إلى الأمام، ورأسه في الأسفل، ووجهه في بركة الماء. ضاقت أنفاسه، رفع رأسه وجثم على ركبتيه. هتك الاصطدام بالإسفلت قفصه الصدري وخنق رئتيه. فتح فمه ليعاود التنفس، ولكن عبثًا. كان يلهث منهارًا تحت المطر ويتبخر كل ما يحيط به ليتلاشى في الظلام. فلم يعد يرى غير اللونين الأسود والأصفر، وبدأت مئات الأزهار الحمراء تتفتّح أمام عينيه. ويسمع في أذنيه طنينًا كئيبًا ينبض كمحرّك ناقلة نفط بعيدة.

إنني أموت. سحقًا. إنني أموت.

وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه، أحس بشيء ما، يشبه الصمام، ينفك في صدره. فارتاح بفضله ومرر خيط هواء بصعوبة بالغة إلى رئتيه الجافتين. تحول لون وجهه من البنفسجي إلى الأحمر القاني. ثم أخذ يسعل ويبصق وشعر بالمطر ينهمر على رقبته ويبلل شعره من جديد.

- انهض. قف على قدميك.

أمسكت يد الشرطي بياقة القميص، فوجد نفسه واقفًا.

- هل أنت بخير؟

هزّ رأسه نافيًا.

- بل أنت بخير هيا. لقد تمّ انتشالك من براثن الأفيون الذي استولى عليك. وأراهن الآن بأنك تفهمني بشكل أفضل.

رفع ماكس عينيه فرأى ذاك الحقير في وسط الساحة، بزته ملوثة،

ويرفع ذراعيه مثل واعظ ممسوس ويخفي الظلام وجهه. وكانت هنالك مارتينا أيضًا، واقفة بساقين منفرجين وتسند يديها إلى باب السيارة.

- إذا كان الحشيش استخدامًا شخصيًا، كما اعترفت الفتاة بعظمة لسانها، فعلينا أن نتحقق إذا ما خبأتما المخدرات في مكان ما. ستكون العاقبة خطيرة جدًا جدًا جدًا. وهل تعرفان لماذا؟ لأنها مخالفة حيازة مواد مخدرة لمقاصد تجارية.

- هل أنت بخير يا ماكس؟ هل كل شيء على ما يرام؟ — نادته مارتينا بيأس دون أن تلتفت.

- أجل وأنت؟

- أنا بخير... — كان صوتها مشروخًا وتكاد أن تنفجر من البكاء.

- رائع. وأنا بخير أيضًا. نحن الثلاثة بخير. هكذا بوسعنا أن نلتفت إلى أمورنا بهمة وجدية. — قال الشرطي في وسط الساحة.

إنّه مجنون. حقًا مجنون. قال ماكس في نفسه. ومن الوارد أنه ليس شرطيًا، بل مجرم خطير يتخفى بلباس الشرطة. وأين اختفى الشرطي الآخر، الذي رآهما من قبل؟ هل قتله؟ كانت سيارة الشرطة منيرة من الداخل، لكنه لا يستطيع رؤية ما فيها بسبب المطر المنهمر على الزجاج.

سطع عليه مصباح الشرطي.

- أين البضاعة يا ولد؟

- أية بضاعة؟ ليس بحوزتي شيء. —*سحقًا سوف أبكي أنا أيضًا*— كان يشعر بالبكاء يتغلغل في حنجرته الملعونة، فيرجف رغمًا عنه من رأسه حتى أخمص قدميه.

- انزع ثيابك! — أمره الشرطي.

- ماذا؟

- انزع ثيابك. عليّ أن أفتّشك.

- ليس بحوزتي شيء.

- أثبتْ ما تقول. - رفع الشرطي صوته وكان يفقد هدوءه.
- ولكن...
- لا تعترض. عليك أن تطيع الأوامر. أنا أمثّل النظام والقانون وأنت تمثّل العبث والفوضى. وقد وجدتك مُتلبّسًا بجرم مشهود، فإذا أمرتك بنزع ثيابك عليك أن تفعل. هل فهمت؟ هل أشهر مسدسي وأضع فوهته في رأسك؟ هل تريديني أن أفعل ذلك؟ - عثر أخيرًا على تلك النبرة الفتاكة.

نزع ماكس قميصه الإسكتلندي ورماه أرضًا. ثم نزع كنزة المخمل، بينما يدقق فيه الشرطي وذراعاه مشبوكتان. أشار إليه أن يتابع، ففكّ نطاقه وبنطاله العريض وبقي سرواله فقط. كانت ساقاه البيضاوان ملساوين ونحيفتين كأغصان الشجر.

- انزع سروالك. قد تخفي البضاعة في...
- ها هي! ها هي البضاعة هنا! ليس بحوزته شيء. الحشيش عندي. - صرخت مارتينا من مكانها ولم يتمكن ماكس من رؤية وجهها.
- وماذا لديك أنت؟ - اقترب منها الشرطي.
- خذ! انظر! - فتحت مارتينا الجراب وأخرجت قطعة صغيرة من الحشيش. أقل من جرامين. - هذا كلّ ما عندي.

كان هذا كل ما بحوزتهما. منذ نصف ساعة فقط، في كوكب يبعد عنهم سنين ضوئية، كوكب دافئ فيه مقاعد جلدية مريحة ويضجّ بالموسيقى، كانت مارتينا تتحدث. «حاولت أن أشتري أكثر. ذهبت عند بينوكيو (واستنبط ماكس أنّ لبائعي الحشيش ألقاب سخيفة دومًا) لكنني لم أجده. قطعة صغيرة ولكن لا يهم. ستكفينا. ثم إننا إذا دخّنا كثيرًا لن نتمكن من الدراسة...».

- هاتها. - أخذ الشرطي قطعة الحشيش ووضعها تحت أنفه. - أتسخرين مني؟ هذا هراء. أين أخفيتما البضاعة الثقيلة؟ في

السيارة؟ أم تحت ثيابك؟

- أقسم بالله إنّ هذا كل ما عندنا. هذه الحقيقة يا ابن القحبة. اذهب إلى الجحيم. إنها الحقيقة... –توقفت مارتينا عن الكلام وأجهشت بالبكاء.

كانت تبدو أصغر من سنها عندما تبكي. سال المخاط من أنفها وتمرّغ وجهها بكحل عينيها وذابت الضفيرة الزرقاء على جبينها. صبية عمرها خمسة عشر عامًا ترتجف من البكاء.

- هل هي في السيارة؟ قولي. هل خبأتما البضاعة في السيارة؟

- اذهب وفتّش أيها الكلب. لا يوجد شيء! – صرخت مارتينا الباكية ثم هجمت عليه بقبضتي يديها فأمسك معصميها الناعمين.

- ماذا تريدين؟ ماذا تريدين؟ – صرخ الشرطي. – وضعك يزداد سوءًا. – أثنى ذراعيها خلف ظهرها وقيّد معصميها فصرخت من الألم.

كان ماكس، وبنطاله المنزلق أسفل ساقيه، ينظر إلى زميلته الجامعية وخطيبته المستقبلية كيف تذلّ دون أن يستطيع فعل شيء. يرتعد من نبرة الشرطي فتشلّ حركته. كم كان الشرطي يتصرف بهدوء، كم كان اعتياديًا بالنسبة إليه أن يبطح شابًا في الأرض ويعتدي على فتاة. *إنه هائج كالثور.* فارتاح لهذا الوصف بدل أن يحبطه ويقضي عليه. لن يستطيع أن يفعل شيئًا ضد مجنون.

حدث لبعض الأشخاص أن ماتوا وعادوا ثانية إلى الحياة. لا تستغرق المسألة أكثر من ثوان معدودة، تتوقف خلالها الرئتان عن العمل، ويستقيم خط قياس القلب وتختفي أية علامة عن الحياة. إنه الموت السريري. ثم يستعيد القلب نبضاته بفضل جهود الأطباء والأدرينالين والصعقات الكهربائية والتدليك القلبي، فيعود هؤلاء المحظوظون إلى الحياة. وعند الاستيقاظ، إن كان لنا أن نسمّيه هكذا، يروي بعضهم

عن إحساسه بالموت كأنه انفصل عن جسده ورأى نفسه على السرير يحيط به الأطباء والممرضات. ويرى المشهد من الأعلى، كأنّ الكاميرا تنتقل بجثتهم الميتة (الروح بالنسبة إلى آخرين) فيتحررون من الجسد ويطيرون صوب الأعلى.

عاش ماكس إحساسًا شبيهًا في تلك اللحظة. كان يرى المشهد من بعيد كأنه يشاهد تجارب لتصوير فيلم عنف. رأى سيارة الشرطة وضوءها الأزرق، وأضواء المرسيدس التي تلوّن ظلمات المطر الكئيبة، والسيارات التي تمضي كالسهام على الطريق، وأضواء الريف البعيد.

لم ألحظ كل هذا قبل الآن، الشرطي المزيف والفتاة الهزيلة، *التي عرفتُها في الصباح*، مقيدة وتجثم على ركبتيها. وكان هو أيضًا، بسرواله، يرتجف من البرد وتصطك أسنانه عاجزًا عن فعل شيء.

ومايزيد المشهد خيالًا أنه كان حقيقيًا ويحدث معه. كان سيقدّر مشهدًا بهذا العنف، وهو المولع بأفلام الأكشن، وقد شاهد فيلم المنازلة ألف مرة وفيلم الخلاص أربع مرات، وكان يجلس في الصف الثاني من السينما ليلتهم الفشار. كان سيعجب بواقعيته وعنفه غير المألوف وبإبداع مخرجه. ياللغرابة، كان جزءًا منه وهو الذي لا يتفاعل مع أيّ شيء ولا يشارك في شيء كما كان رفاق صفّه يصفونه.

- دعها وشأنها! – صرخ حتى تشرخت حباله الصوتية. – دعها وشأنها!

انطلق غاضبًا كحيوان جريح نحو ابن العاهرة الوقحة، لكنه سقط أرضًا بعد خطوتين. عرقله البنطال فخرّ أرضًا ليبكي في تلك الليلة الباردة.

هل أنا أبالغ؟ تولّد هذا السؤال الأخلاقي في ذهن الشرطي برونو ميلي بعدما رأى والتر كياري في مشهد مأساوي يتعرقل بثيابه ويقع في بركة ماء ناهقًا كخنزير مذبوح. قد يكون المشهد هزليًا، ذلك المغفل

ببنطاله الهابط يحاول أن يهاجم فيقع أرضًا، لكن القهقهة تجمّدت على وجهه. وأشعره ذلك الفتى الغض بالشفقة فجأة: صبيّ بعشرين عامًا يبكي كالأطفال ويعجز عن تحمّل مسؤولياته. جرّب برونو الشعور نفسه عندما شاهد فيلم الدب، حين يقتل الصيادون الأم ويدرك الجرو أن الأرض مكان حقير يسكنه أولاد العاهرات وعليه أن يعتمد على نفسه. تشنّجت عضلات وجهه بشكل لا إرادي وغصّ شهقاته.

(ما الذي جرى لك؟!) – لا شيء!

لم تحرّك الفتاة في قلبه أية عاطفة، بل كان يرغب أن يصفعها بكف يده. وكانت تثير اشمئزازه بنبرتها الهسترية التي تبدو كصوت المنشار الكهربائي. لم يكن ليفكر حتى بنكحها. بل كان سيصفعها على وجهها بكل سرور. ولكن على ذاك المعاق أن يكف عن البكاء، وإلا كان سيشاركه البكاء هو أيضًا.

اقترب من والتر... ما كان اسمه؟ ماسيميليانو فرانزيني. وحنى إليه بنبرة عذبة أرق من جبنة الماسكاربوني.

- انهض. لا تبك. هيّا وإلا أصابك البرد من الأرض. – لا إجابة. بدا كأنه لا يسمع لكنه كفّ عن البكاء على الأقل. مسك ذراعه وحاول أن ينهض به ولكن عبثًا. – هيا، لا تفعل هكذا. سأفتش السيارة الآن وسأدعك تذهب حيث تشاء إن لم أجد شيئًا. هل ترضى بهذا؟

لم يكن واثقًا بأنه سيتركهما بهذه البساطة لكنه قال ما قال كي ينهض الفتى. لابدّ أن يحقق بشأن صواريخ الحشيش ويدقق الأسماء مع المكتب المركزي في حال كتابة الضبط.

- انهض ولا تجعلني أغضب.

رفع رأسه أخيرًا فظهر وجهه متسخًا بالوحل ويتقيأ الدم من فمه،

وعيناه تومضان متعبتين ولكنهما تحتويان على عزم غريب من نوعه.

- لماذا؟

- لأنه لا ينبغي أن تبقى على الأرض.

- لماذا؟

- لأنك قد تصاب بالزكام.

- لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟

- ماهذا؟

- لماذا تتصرف بهذه الطريقة؟

عاد برونو خطوتين إلى الخلف، كأنّ الفتى تحوّل إلى كوبرا تنفث السمّ.

- انهض. أنا من يوجّه الأسئلة. هيا وإلا... *(اشرح له لماذا تتصرف هكذا)*.

(قل له).

ماذا؟

(قل له الحقيقة. اشرح له الأمر علّنا نفهم شيئًا نحن أيضًا. هيا ولا تفقع رأسنا بصراخك. قل له الحقيقة. ماذا تنتظر؟).

ابتعد برونو ميلي قليلًا. وكان يبدو كالمانيكان ببنطاله الملوث حتى الركبتين والسترة المبللة.

- أتريد أن تعرف السبب؟ سأخبرك الآن. – اقترب منه وعانق رقبته بذراعه والتفّ به في اتجاه المرسيدس. – أترى هذه السيارة؟ يقدّر ثمنها بمائة وتسعة وسبعين مليون ليرة مشمولة الضرائب، بدون ميزاتها. ولكن إذا أضفنا السقف المفتوح والعجلات العريضة ومكيف الهواء المبرمج وأجهزة الصوت والسمّاعات الضخمة ومغيّر الأقراص النشيط والمقاعد الجلدية والوسائد الهوائية وكل ما تبقّى يصل سعرها إلى مائتين وعشرين مليونًا على الأقل.

لهذه السيارة نظام مكابح مضبوط بوحدة معالجة مركزية 16 بت تمامًا كالذي يستخدمه ماكلارين في الفورمولا وان. وفي داخلها علبة تسجيل إلكترونية من ماركة موتورولا تراقب حالة العربة، وتنظم ضغط الإطار المطاطي للعجلات وارتفاع ممتص الصدمات. وهذا في الحقيقة أسخف ما في السيارة، قد تجد ما يشبهه في أي طراز بي ام دبليو أو ساب. ولكن ميزة هذه السيارة، التي تجعل منها استثناء عن الأخريات، تكمن في المحرّك. قياسه ستة آلاف وثلاثمائة وخمسة وعشرون سنتيمترًا مكعبًا موزعة على اثنتي عشرة صفيحة بارتباط عجيب لا يعرف تركيبه الصحيح سوى شركة المرسيدس وحدها. المحرك من تصميم هانس بيتر فينينغ، المهندس السويدي الذي ابتكر نظام دفع المكوك الفضائي والغواصة النووية الأمريكية *ألاباما*. هل جرّبت أن تنطلق من الغيار الخامس؟ لا أرجّح أنك فعلتها، ولكن إن جرّبت ذلك يومًا سترى كيف بوسع هذه السيارة أن تنطلق من الغيار الخامس بكل أريحية. محرّكها مرن حتى أنك تستطيع تغيير المرش دون استخدام الدبرياج. لها قوة اندفاع تضع كل سيارات السباق الخرائية وراءها، وتنتصر بكل فخر على سيارات الموضة كاللامبورغيني والكورفيت. هل كلامي واضح؟ أتريد أن نتحدث عن الموديل؟ إنها أنيقة. كلاسيكية. رفيعة المستوى. متواضعة. لاصبيانية. لا تحتوي على أضواء مريخية أو قطع بلاستيك. هذه السيارة يستقلها جانماريا دافولي، مقدّم برنامج غراند بريكس، الذي بوسعه أن يقتني فيراري 306 إن أراد كأنه يشتري صندلًا. وهل تعلم ما الذي قاله رئيس وزرائنا في معرض تورينو؟ قال إنها «السيارة»، إنها الغاية، وإننا في إيطاليا إذا ما نجحنا في صنع سيارة مثلها فبوسعنا أن نصف دولتنا بالديمقراطية. لكنني

أجزم أننا لن ننجح بذلك يومًا، فنحن تنقصنا العقلية لصنع سيارة كهذه. لا أعلم من يكون والدك، ولا من أين له هذا. وقد يكون من رجال المافيا أو أتباع البابا، لا يهمني. إلا أنّني أحترمه جدًا، فهو شخص جدير بالثناء لأنه يملك مرسيدس 650 تي اكس. إنه يقدّر الأشياء التي تستحق التقدير. اشترى *هذه* السيارة ودفع فيها مالًا طائلًا. ولأقطعنّ يميني إن كان يلبس كالصعاليك، ولألحقنّها باليسرى إن كان يوافق على أنك يا ابن العاهرة تقودها خلسة منه وتصطحب فيها قحبة تصبغ شعرها بالأزرق وتملأ وجهها بالأقراط وتدخّنان فيها الحشيش وترميان في أرضيتها فضلات السندويش المعفّن. أتعرف ما الذي يخطر في بالي؟ يخطر في بالي أنك ستدخل التاريخ لأنك أول بغل يدخّن الحشيش داخل مرسيدس 650 تي اكس في العالم كله. ربما شمّ أحد نجوم الروك الأوباش في مثلها الكوكايين، ولكن لن ينزل أحد لمستوى أن يدخّن فيها حشيشة. لقد ارتكبتما خطيئة لا تغتفر، أقل ما توصف بأنها تطاول على الآلهة، عندما قررتما تدخين الحشيشة في سيارة *كهذه*. لقد أقدمتما على فعلة شنيعة كالتغوط على نصب الجندي المجهول. هل فهمت الآن لماذا أتصرف بهذه الطريقة؟

لو لم يغطّ الشرطي أنطونيو باتشي في نوم عميق حالما جلس في السيارة، لما حقّق *برنامج برونو ميلي* كل هذا النجاح، (بنقل حي ومباشر من النقطة 112 على الأوريليا)؛ ولما روى ماكس فرانزيني ومارتينا تريفيزان هذه التجربة المؤلمة طوال السنين اللاحقة (كان ماكس سيشير إلى الندوب الأبدية على جبينه ليثبت كلامه).

نام قرير العين بعد أن نزع سترته المطرية واستسلم للدفء وحلم بأشجار جوز الهند وألبسة الغطس ومضيفات يرتدين البكيني، إلى أن استيقظ على أنغام الراديو: «سيارة النجدة 112! سيارة النجدة 112!

حالة طارئة. عليكم أن تتجهوا مباشرة إلى مدرسة إيسكيانوسكالو المتوسطة. ثمّتَ مجهولون دخلوا إلى مبنى المدرسة». *تبًا لقد غفوت*، قال ممسكًا بالسماعة وناظرًا إلى الساعة. *كيف يعقل، نمت أكثر من نصف ساعة؟ ماذا يفعل برونو في الخارج؟* هاج وماج حتى فهم ما الذي يريده المكتب المركزي، ثم أجاب أخيرًا. «عُلِم يا سيدي. سنتحرك فورًا. سنكون هناك خلال عشر دقائق كحدّ أقصى».

دخل اللصوص إلى مدرسة ابنه، أندريا. خرج من السيارة، وكانت تمطر بشدة كالعادة، غير أنّ الرياح استشاطت لحدّ لا يوصف. هرول إلى الأمام، ثم خطا. مازالت سيارة المرسيدس في محلّها، والفتاة مقيدة تجلس إلى الأرض وتضغط ساقيها بذراعيها، وبرونو في وسط الساحة يتحدث مع الشاب المستلقي في سرواله عند بركة الماء. اقترب منه وسأله مصدومًا عن الخطب.

- آه... — رفع برونو رأسه وابتسم بسعادة. وكان مبتلًا بشكل كامل. — لا شيء. كنت أشرح له أمرًا ما.

- ولماذا نزع ثيابه؟ — صُعق أنطونيو لحال الفتى الذي يرتجف كأوراق الشجر وينزف دمًا من رأسه.

- لقد فتشته وعثرت على الحشيشة. وصادرت قطعة منها، ولكن مازلت أشك أنهما يُخبّئان الكثير في مكان ما. علينا أن نفتش السيارة...

- هل فقدت عقلك؟ — أمسك أنطونيو بذراعه وجرّه على انفراد. — هل ضربتهما؟ حذار، فإن اشتكيا عليك ستدخل في ورطة كبيرة يا برونو.

- كم مرة قلت لك ألاّ تلمسني؟! — تلوّى برونو. — لم أضربه. اطمئن فالوضع مستتب.

- ولماذا قيّدت الفتاة؟

- لأنها مجنونة. حاولت الاعتداء عليّ. اهدأ. لم أصبها بأذى.
- اسمعني الآن. علينا أن نتجه بأقصى سرعة إلى المدرسة المتوسطة في إيسكيانو. ثمّتَ حالة طارئة. يبدو أنّ أحدهم دخل إلى المبنى وسُمع صوت إطلاق رصاص...
- إطلاق رصاص؟! كيف؟! – ارتبك برونو ميلي وحرّك يديه بطريقة هوجاء. – هل سُمع صوت إطلاق رصاص داخل المدرسة؟
- أجل.
- داخل المدرسة؟
- أجل. أجل. أجل.
- يا الله يا الله يا الله يا الله... – راح يلطم على وجهه ويشدّ شعره بأصابعه الراجفة كأجنحة الجراد.
- ماذا دهاك يا رجل؟
- أبي في المدرسة أيها الغبيّ. إنهم الساردينيون لا محالة! لقد كان والدي مُحقًا. فلنذهب، فلنذهب هيا. لا وقت نضيّعه...

تذكّر أنطونيو أنّ إيتالو ميلي والد برونو كان آذن المدرسة حقًا.

ركض برونو نحو الشاب الذي كان قد وقف على قدميه. جمع ثيابه من الأرض بعد أن غدت خرقًا مبللة ووضعها في يديه. ثم ذهب إلى الفتاة وفك قيدها، ودار من الخلف لكنه توقف فجأة.

- اسمعاني معًا. لقد نجوتما هذه المرة. ولكن لن تفلتا من العقاب في المرة القادمة. كفّا عن تعاطي الحشيشة لأنها تفسد الدماغ. وانزعا هذه الأزياء السخيفة. أقول ذلك لمصلحتكما. نحن علينا أن نذهب. تنشّفا جيدًا كي لا تصابا بالزكام. – ثم اتجه بكلامه إلى الفتى. –لا تنسَ أن تنقل أطيب تحياتي إلى والدك بشأن السيارة. – عاد إلى أنطونيو. وركب الشرطيان في السيارة وانطلقا بمزمار مفتوح.

رأى ماكس سيارة الشرطة تختفي في البعيد. رمى ثيابه ورفع بنطاله وهرع نحو مارتينا ليضمّها إلى صدره. وظلا متعانقين، كتوأم ملتصق، لوقت طويل، وذرفا كثيرًا من الدموع. تداخلت الأيدي وتشابك الوجهان تحت سطوة المطر. ثم تبادلا القبلات، على العنق والخدّين فالشفاه. — فلنركب السيارة. — قالت مارتينا وهي تجرّه إلى الداخل. أغلقا النوافذ وشغلّا مكيف الهواء المبرمج فتحولت السيارة إلى فرن بأقل من دقيقة. ونزعا الثياب، وتنشفا، ثم تغطيا بأدفأ ما لديهما وتبادلا القبل من جديد.

وهكذا اجتاز ماكس فرانزيني امتحان القبلة المروّع. وكانت تلك القبلات هي الأولى من سلسلة طويلة. إذ ارتبط ماكس بمارتينا لثلاثة أعوام (أنجبا طفلة في السنة الثانية وأسمياها ستيلا) ثم تزوجا في سياتل حيث افتتحا مطعمًا إيطاليًا.

وفي الأيام التالية، في الفيلا البحرية، فكّرا جدّيًا برفع شكوى ضد ذلك الشرطي الأخرق، لكنهما فضّلا أن تُطوى الصفحة. فلم يكونا على ثقة من نجاح القضية، ناهيك عن وجود الحشيشة والسيارة التي أخذها ماكس خلسة عن أبيه.

لكنّ تلك الليلة الفظيعة ستبقى منقوشة في ذاكرتيهما، سواء بسبب لعنة اللقاء بالشرطي برونو ميلي أو بسبب فرحة ارتباطهما معًا.

شغلّ ماكس المحرك، ورفع صوت موسيقى الرييم، وانطلق ليخرجا من هذه الرواية إلى الأبد.

10 ديسمبر

38

تررررن... تررررن... تررررن...

عندما رنّ جرس الهاتف، كانت الآنسة فلورا بالميري تحلم بنفسها في صالة التجميل، مستلقية على المقعد المريح وتنعم بالهدوء فينفتح الباب وتدخل مجموعة من دببة الكوالا الرمادية وهي تعلم أنهم، من دون أن تعرف السبب، قادمون ليقلّموا أظفار قدميها. كانت دببة الكوالا، في المنام، تحمل الملاقط وترقص وتغنّي حولها بمرح. «*تررريك. تررريك. تررريك. نحن دببة الكوالا. نحن الدببة الأليفة. جئنا نقلّم أظافر قدميك أيتها اللطيفة. تررريك. تررريك. تررررن... تررررن... تررريك. تررررن... تررررن...*». ومازال الهاتف يرنّ.

فتحت فلورا بالميري عينيها، وكانت الغرفة تغوص في الظلام. تررررن ترررررن تررررن. بحثت يدُها عن الزرّ الذي يُشعل القنديل. نظرت إلى الساعة الرقمية على الدرج قرب السرير. الخامسة وأربعون دقيقة. من يتصل في هذا الوقت المبكّر؟

نهضت من السرير وهرعت إلى الصالة.

- برونتو؟

- برونتو. آنسة بالميري... عذرًا على التوقيت... أنا جوفاني كوزينتسا.

مدير المدرسة!

- هل أيقظتك يا آنستي؟ – سألها مرتبكًا.
- حسنًا. الساعة الخامسة وأربعون دقيقة.
- عذرًا. لم أكن لأتصل في هذا الوقت لو لم يحدث أمر خطير جدًّا...

أخذت فلورا تتخيل «أمرٌ خطيرٌ جدًا» يسمح للمدير أن يوقظها في تلك الساعة دون أن تصل إلى نتيجة.

- ما الذي حدث؟
- دخلوا إلى المدرسة في هذه الليلة وحطّموا كل شيء.
- من؟
- المخرّبون.
- كيف؟
- أجل. دخلوا وحطّموا التلفاز والمسّجلة، وأغرقوا الجدران بالعبارات، ووضعوا قفلًا على البوابة. حاول إيتالو الإمساك بهم لكنه الآن في المستشفى، وقد وصلت الشرطة إلى هنا...
- ما الذي جرى لإيتالو؟
- أعتقد أن أنفه قد كُسر وجُرحت ذراعه.
- ولكن من هم هؤلاء؟
- لم نتعرف بعد على هويتهم. العبارات تشير إلى أنهم تلاميذ في المدرسة ولكن لا نعلم... وصلت الشرطة، وعلينا القيام بأشياء كثيرة، وأن نتخذ بعض القرارات بشأن العبارات الـ...
- أي عبارات؟
- عبارات مشينة. – قال المدير مرتبكًا.
- بأي معنى؟
- مشينة جدًا يا آنسة.
- وماذا تقول هذه العبارات؟

- لا شيء... هل بوسعك الحضور إلى هنا؟
- متى؟
- الآن.
- أجل. بالتأكيد. سأنطلق فورًا... أحضّر نفسي وأصل... خلال نصف ساعة؟
- اتفقنا. نحن في انتظارك.

أغلقت الآنسة المكالمة وهامت بها الأفكار. – الرحمة يا مريم العذراء. ما الذي حدث؟ – ظلّت تدور في المنزل دون أن تعرف ما ينبغي فعله. إنها امرأة منهجية، والحالات الطارئة توتّرها. – حقًا. عليّ الذهاب إلى الحمّام.

39

طاطاطاطاطاطا....

كان جراتزيانو بيليا يشعر بأنّ حوّامة آباتشي العملاقة قد سقطت في رأسه. وكلمّا رفع رأسه عن المخدة ازداد وضعه سوءًا، لأنّ الحوّامة المقاتلة راحت ترمي النابالم على دماغه المحطّم. *كيف كانت حياتي قبلها؟ ألم أكن سعيدًا؟ عليّ ألا أبالي بها وأعود لأعيش حياتي الجميلة دونها... ها!*

كان كلّ شيء يمشي بسلاسة إلى أن دخل إلى بائع السجائر الحقير. آه من ذكريات الليل كم تشبه الستار الخفيف الذي يثقبه شعاع الضوء من حين إلى آخر.

يذكر أنه كان مضطجعًا عند ذلك الشاطئ اللعين في البرد الزمهرير ويغنّي تحت المطر. موجة على موجة، *سفينتي يتقاذفها البحر والموز والتوت الشوكي...*

طاطاطاطاطا...

عليه أن يأخذ دواء ما، وبسرعة. لعلّ البرشامة السحرية تصارع تلك الحوّامة التي صهرت دماغه.

مدّ ذراعه وأشعل الضوء. فتح عينيه ثم أغمضهما. ثم فتحهما ببطء ورأى صورة جون ترافولتا. حمدًا لله. *إنني في منزلي على الأقل.*

40

كان لدى فلورا بالميري طقس صباحي طويل لابدّ منه. قبل كل شيء الاستحمام في الحوض بالشامبو والرغوة الإيرلندية، والإصغاء إلى الراديو وبرنامج «صباح الخير يا بلدنا» مع إيليزابيتا بافيجي وباولو داندريس، ثم تناول الكورن فليكس على الفطور.

ولكنّ ذلك الصباح بالتحديد كان استثنائيًا وعليها أن تلغي طقوسها. كانت تفكّر أن تلك العبارات المشينة، التي لم تكن تعرف بعد ماذا تقول، تخصّها مائة بالمائة. لكنها سعيدة بعض الشيء، فالمدير ونائبته سيتخذان بعض الإجراءات لمواجهة المشكلة.

لقد تعرّضت إلى الكثير من المقالب الغبية منذ بضعة أشهر. وفي البدء لم تكن إلا ألاعيب بريئة: المسحة المعلّقة بالصمغ على المنضدة، والضفدع في الحقيبة، والكاريكاتير على السبورة، والدبابيس على الكرسي، وإخفاء السجل. ولم يكتفوا بذلك، بل رفعوا المستوى وثقبوا عجلات السيارة ثم أدخلوا حبة بطاطا في مدخنة السيارة، حتى وصلت بهم الشقاوة إلى رمي نافذة بيتها بالحصى ذات مساء وهي تشاهد التلفاز وكادت أن تموت بنوبة قلبية.

وحين طفح الكيل ذهبت عند نائبة المدير تشتكي لها. «يؤسفني ذلك، ولكنني لا أستطيع فعل شيء. – قالت الخبيثة. – لا نعرف من الفاعل. ثم إنه لا يحقّ لنا الرد طالما أن الاعتداء حاصل خارج المدرسة. واسمحي لي يا آنسة بالميري أن أحمّلك جزءًا من المسؤولية. فحضرتك

عاجزة عن القيام بحوار بنّاء مع التلاميذ». وبعدها راحت لتقدّم بلاغًا ضد مجهولين ولكن بلا جدوى.

قرّرت أن تدخل إلى الحمّام. عدّلت مياه الدوش ونزعت ثيابها.

41

كان مرتديًا ثيابه وحذاء التيمبرلاند في قدميه. تدفقت في أحشائه رائحة حامضة ومقيتة. –سحقًا. لقد تقيأت على نفسي.– كان جراتزيانو يقود السيارة حين أعلن الويسكي جاك دانيلز عن نيّته في القيام بانقلاب داخل معدته، فأدار رأسه وتقيأ خارج النافذة. غير أنّ النافذة كانت مغلقة. *يا للقرف*...

فتح الصندوق وأخذ يخرج منه الأدوية. الكا سيلزر. نوفالجين. أسبيرين. فولا فوكا. اولين. لكنه لم يفلح في التصدي لموجة البراز الذي اجتاحته. كان يذكر أنه، بعد تلك المكالمة، عاش لمدة ساعتين في حالة تصوّف بوذي منقطع النظير.

42

لا شكّ أنّ الآنسة بالميري كان لها جسد مثير بطول قامتها واعتدال بنيتها ورشاقة ساقيها. ولعلّ الطبيعة التي صقلت خصرها النحيل، وهبتها بالمقابل صدرًا كبيرًا يرتجّ أمامها. كان لون جلدها ناصع البياض كالأموات، يكاد يكون أملس بشكل محض لولا خصلة صغيرة من الزغب بلون الجزر فوق فرجها. وكان وجهها يبدو كأنه منقوش على الخشب، تكثر فيه الزوايا لبروز عظام الوجنتين الحادة. فمها عريض وشفتاها رفيعتان بلون شاحب. وأسنانها مصطفّة وقليلة الصفرة. وأنفها طويل ومخروطيّ كجناح الطائرة يقع بين عينين واسعتين ورماديتين كحصى النهر. وكان شعرها الأصهب جميلًا كلبدة حصان مجعدة تصل إلى

نصف ظهرها، تربطه بضفيرة عندما تخرج من المنزل.

وقفت عند المرآة، رغم استعجالها، بعد الاستحمام. أضافت هذه الوقفة إلى طقوسها منذ مدة. كانت تتقدم في السنّ ولم يكن الأمر يزعجها، ولكنّها كانت تراقب باستغراب كيف يصبح جلدها، يومًا بعد يوم، أقل حيوية وشعرها أقل لمعانًا وعيناها أقل وميضًا. كان عمرها اثنين وثلاثين عامًا ومن الممكن أن تبدو أقل من ذلك لولا التجاعيد الخفيفة حول فمها وعنقها البائس. لم تكن معجبة بنفسها. تكره ثدييها الضخمين، وخصوصًا عندما يأتيها الحيض فينتفخان حتى تضيق بهما حمّالة الصدر الواسعة.

أمسكت بهما وتمنّت أن تضغطهما حتّى ينفجرا كبطيختين ناضجتين. لماذا قامت الطبيعة بهذه المزحة الثقيلة؟ لم تكن لِتَيْنِكَ الغدتين المفرطتين في الضخامة أي صلة بجسمها الناعم. حتى والدتها لم يكن لديها شيئان بهذا الحجم. كان صدرها بشكله هذا يجعلها تبدو امرأة سهلة المراس، ولولا وجود حمالة الصدر المطاطية لارتدت ثيابًا متزمتة تخفي بها صدرًا يثير نظرات الرجال ويشعرها بالحرج والإدانة بالفجور.

لبست ثوب الحمّام واتجهت إلى المطبخ الصغير. رفعت الأباجور. ما تزال تمطر منذ أمس. أخرجت من الثلاجة كبد دجاج جاهزًا وكوسا وجزرًا مسلوقًا، ووضعت كل شيء في الخلاط.

- أمّاه. عليّ أن أذهب. – قالت بصوت مرتفع. – ستأكلين باكرًا هذا الصباح. أنا متأسفة ولكن عليّ الذهاب إلى المدرسة بسرعة... – شغّلت الخلاط فتحوّل كل شيء إلى سائل زهري بلحظة واحدة. أطفأته. – اتصل بي مدير المدرسة وأمرني بالمجيء حالًا. – رفعت غطاء الخلاط وسكبت فيه الماء وزيت الصويا وحرّكت المزيج بالملعقة. – دخل مجهولون إلى المدرسة في

هذه الليلة. إنني قلقة بعض الشيء. – صبّت المخلوط في رضاعة كبيرة ووضعتها في الميكرويف. – لقد كتبوا عبارات مشينة... وأرجّح أنها ضدي.

حملت الرضاعة وعبرت بها إلى غرفة مظلمة. أشعلت الضوء. ففرقع النيون وأنار تلك الغرفة الصغيرة. تحتوي الغرفة على أربعة جدران بيضاء وصليب ونافذة صغيرة مغلقة على مصراعيها ومشمّع رمادي على الأرض وسرير بدعامات طبية وكرسي ودرج صغير ومشجب سيروم. هذا كل شيء. كانت السيدة لوشيا بالميري مستلقية على السرير.

43

كان جراتزيانو قد استحمّ مطولًا وخرج من المنزل حوالي التاسعة والنصف مساء. الوجهة؟ سينما أوربانو. نوع الفيلم؟ أكشن. بطولة؟ العظيم جان كلود فان دام.

السينما هي الدواء السحري لقلبك حين يقتلعونه من صدرك ويهرسونه هرسًا. قال لنفسه. سيأكل بعد الفيلم قطعة بيتزا ثم يعود إلى النوم كعجوز حكيم.

ومن الوارد أنّ الخطة كانت ستنجح لو سار كل شيء على قدم وساق، أي لو لم يتوقف عند بائع السجائر (الذي يبيع الكحول أيضًا) حيث اشترى سجائره وكان على وشك الخروج حين نصح نفسه بكأس من الويسكي يرفع المعنويات. ولم يكن من ضير لو أنّه اكتفى بكأس واحد.

جلس جراتزيانو إلى الكونتوار وتجرع سلسلة من كؤوس جاك دانيلز التي لا تسبب الوجع. لكنّ الألم راح يغلي في الدرك الأسفل من كينونته المحبطة حتى بدأ يعوي كالكلاب الشاردة.

أردتِ أن تهجريني؟ جيد جدًا. من سينكح مؤخرتك؟ لا فرق.

جراتزيانو بيليا سيعيش أفضل حياة دونك أيتها القحبة. اغربي عن وجهي ومارسي الجنس مع مانتوفاني. لن أكترث لهذا الأمر إطلاقًا.

ثم تحدّث إلى نفسه جهرًا. – إنني بأفضل حال. إنني بخير. من تظنين نفسك لأذرف دموعي العزيزة لأجلك؟ كلا يا صغيرتي. أخطأت التقدير. أنا أشفق عليك. أتعلمين كم من النساء أجمل منك؟ الملايين. لن تسمعي أخباري في حياتك كلها. وستندمين كثيرًا. وستبحثين عني ولا تجدينني. – هنالك مجموعة من الفتية على طاولة قريبة يحملقون فيه. – إلام تنظرون أيها الأوغاد؟ تعالوا واجهوني إن كان شيء ما لا يعجبكم. – أخذ يصرخ ممسكًا بزجاجة الويسكي. حملها معه وجلس جريحًا محطمًا إلى أكثر الطاولات انزواء. ثم أخرج الهاتف الجوال.

44

كانت السيدة لوشيا بالميري طويلة كابنتها قبل أن تصاب بالمرض. أما الآن فلا تتعدى المتر ونصف المتر، ولا تزن أكثر من خمسة وثلاثين كيلوجرامًا. كأنّ الطفيليات امتصت لحمها وأحشاءها وحوّلتها إلى هيكل عظمي مغطى بجلد مترهل وأغبر. بلغت من العمر سبعين عامًا وكانت مصابة بتفسخ الجهاز العصبي كليًا بشكل نادر وليس له علاج.

اقتصرت حياتها على التسمّر في السرير، لو كانت هذه تسمّى حياةً، فاقدة الوعي أكثر من رخويات الصدف. لا تتكلم. لا تسمع. لا تحرك أي عضلة. لا تفعل شيئًا. بل كانت تقوم بشيء واحد في الحقيقة: تنظر إليك. بعينين رماديتين، وجاحظتين كأضواء الشاحنة، أورثت لونيهما لفلورا. ويبدو أنّ عينيها رأتا شيئًا عجيبًا غريبًا، أو غريبًا عجيبًا، حتى أصابهما بصعقة أبدية تصلّب على إثرها سائر الجسد. وتحوّلت عضلاتها إلى حساء فاتر وتقلّصت عظامها واعوجت كأغصان الشجر، نظرًا إلى بقائها على هذا الحال من الجمود مدة طويلة. وعندما يحين

موعد تنظيف السرير، تحملها فلورا وتضمّها بين ذراعيها كأنها طفلة صغيرة.

45

اتصلّ جراتزيانو بأول رقم محفوظ في ذاكرة الجوال.

- أنا جراتزيانو. من معي؟

- أنا طوني.

- مرحبًا يا طوني.

طوني داوسون، الدي جي في ملهى الانتراكس وعشيق إريكا السابق. (جراتزيانو لم يكن على علم بالمعلومة الأخيرة طبعًا).

- جراتزيانو؟ أين أنت؟

- في بلدتي. في إيسكيانو. كيف حالك؟

- لا بأس. أعمل كثيرًا. وأنت؟

- جيد. جيد جدًا. — ثم ازدرد كرة المضرب التي كانت عالقة في حلقه وأضاف. — لقد تركت إريكا.

- ماذا؟!

- أجل. — «وإنني سعيد لهذا» أراد أن يقول لكنه لم يستطع.

- ولماذا؟ لقد كنتما ثنائيًا لائقًا جدًا...

هذا هو السؤال الحقير الذي كان سيعذبه طوال السنوات القادمة: كم كنت معتوهًا حتى تخلّيت عن فرْج إريكا العظيم؟!

- ...لأننا لم نكن على وفاق في الآونة الأخيرة.

- هل تركتها أنت أم هي التي تركتك؟

- حسنًا فلنقل إنني أنا من تركها.

- ولماذا؟

- أحم... أحم... بوسعنا أن نقول إننا انفصلنا بسبب التنافر

في الطباع... فنحن مختلفان كليًا، وآراؤنا في الحياة متناقضة بالمطلق.

- مممممم...

ورغم الويسكي الذي أتخم بطنه فإنّ جراتزيانو فسّر تلك الـ«مممممم» على أنّها مزيج من الشك والشفقة وأشياء أخرى كثيرة لا تعجبه. كأنّ ذلك الوغد يقول له: «هيا أيها الكذاب الخرِف. العبْ غيرها وأتحفْنا بكذبة معقولة».

- أجل. لقد تركتها لأنها ناقصة عقل بصراحة. أعتذر لأنها صديقتك لكنها غبية جدًا. إنها ليست محلّ ثقة. لا أعلم كيف استطعت أن تبقى صديقًا لها حتى الآن. ثم إنها تتحدث عنك بالسوء. تقول إنها سترسلك إلى الجحيم حين تحين الفرصة. اسمعني. لا أقول هذا لأنني غاضب ولكن يستحسن بك أن تتركها أنت أيضًا. إنها قحـ... لننس أمرها، فهذا أفضل.

انتاب جراتزيانو حينها إحساس غامض ينصحه بإغلاق المكالمة. فطوني داوسون لم يكن الشخص المناسب الذي يفرّغ عنده همومه، لأنه من أعز أصدقاء تلك القحبة. وكأنّ كل هذا لا يكفي حتى يوجّه طوني الغدار ضربته القاضية.

- إريكا قحبة. إنها هكذا وأنا أعرفها جيدًا.

- أليس كذلك؟ — ارتشف جراتزيانو من الويسكي وارتفعت معنوياته. —هذا رأيك فيها أنت أيضًا؟ الحمد لله. أجل إنها قحبة كبيرة. تستغلك حتى آخر رمق ثم تطعنك غدرًا ما إن تحصل على نجاح ضئيل. انتظرْ منها الأسوأ.

- مثل ماذا؟

- كل شيء. هل تعلم لماذا هجرتني؟ لأنهم قبلوها كعارضة في برنامج ذلك المنيوك أندريا مانتوفاني. فتخلّصت من الأعباء كي

تشرمط على راحتها. لقد تركتني لأنني... لأنني أحتقرك... - جراتزيانو يحاول تقليد لكنتها الشمالية بشكل ساخر. - وأحتقر كل مبادئك: أسلوب حياتك وثيابك والترهات التي تتفوه بها... آه أيتها الزانية القبيحة.

كان الصمت يطبق على الطرف الآخر من المكالمة، لكنّ جراتزيانو لم يعبأ لذلك. يجب أن يفرّغ كل ذلك البراز الذي خزّنه خلال ستة أشهر من العذاب وخيبة الأمل. وليكن على الهاتف مايكل جاكسون بلحمه وعظمه، لم يكن ذلك ليؤثّر في شعرة من شعرات إبطه. يجب أن يفرّغ غلّه وكفى.

- تحتقرني. هل فهمت ما قالته يا طوني؟ ومن أنا؟ أنا المغفل الذي أغرقكِ بالهدايا ووقف إلى جانبك وأحبَّك أكثر من أي شخص آخر في العالم وفعل لأجلك كل شيء. كل شيء. تبًا، تبًا لك. تبًا لكل شيء... إلى اللقاء يا طوني. كن بخير يا صديقي!

أقفل المكالمة بعد أن أحسّ بألم حاد يلسع شرايينه تهاوت إزاءه حالة التصوف البوذي. تأبط جراتزيانو زجاجة الويسكي وخرج مترنحًا من المحل. كان الليل، عديم الرأفة، يفتح فمًا كالحوت ويبتلعه.

46

- ها أنذا. انظري كم هو شهيّ. وضعت فيه الكبد أيضًا... - رفعت فلورا بالميري رأس أمها وأدخلت الرضاعة في فمها. وراحت العجوز ترضع وعيناها منتفختان كالبصل. باتت تشبه الصوص الذي فقس لتوّه البيضة.

والحقَّ يقال إنّ فلورا ماهرة بالتمريض. كانت تُدخل حساء الأطفال في حلقها ثلاث مرات في اليوم وتحمّمها كل صباح وتساعدها في المساء على ممارسة بعض التمارين وتفرّغ لها سطل البراز وسطل البول

على الدوام وتغيّر لها الأغطية والقسطرة الوريدية مرتين في الأسبوع وتحادثها دائمًا وتقص عليها الكثير من الأشياء وتعطيها كمية هائلة من الأدوية و... كانت على هذا الحال منذ اثني عشر عامًا. ولا يبدو أنّ المريضة تنوي الرحيل، بل كان جسدها يتشبث بالحياة كشقائق النعمان على الصخور. وفي صدرها محرّك يخفق كساعة سويسرية. «تهانينا! أمك لديها قلب لاعب جمباز. اللهمّ احفظهًا من الحسد!» قال طبيب القلب ذات مرة.

سحبت فلورا رأس أمها إلى الأعلى: -لذيذ أليس كذلك؟... هل فهمت؟ هذه الليلة دخل مجهولون إلى المدرسة. حطموا كل شيء. تمهّلي، تمهّلي، ستختنقين... -نظفّت بالمنديل الحساء الذي يسيل من طرف فمها. - والآن سيرون بأم أعينهم انحراف بعض التلاميذ. يتحدثون عن حوار. هه. وأولئك يدخلون إلى المدرسة ليلًا... -لوشيا ترضع بنهم وتحملق بإحدى زوايا الغرفة. -مسكينة يا أمي العزيزة. عليك أن تأكلي في هذه الساعة... -سرّحت فلورا شعر أمها الأبيض والطويل بالمشط. -سأحاول العودة باكرًا. عليّ أن أذهب الآن. كوني بخير. -خلعت غطاء الرضاعة وحملت سطل البول من الأرض. قبّلت جبينها وخرجت من الغرفة. -سنستحمّ في المساء. هل يسعدك ذلك؟

47

أيقظه الخوف من نومه بأعنف الطرق، بعد أن تمكّن من دحره في مساء اليوم السابق. فتح بييترو موروني عينًا واحدة وحدّق في المنبّه الضخم الذي يتكتك بسعادة فوق الدرج. السادسة إلا عشر دقائق. *لا يبدو أنني سأذهب إلى المدرسة اليوم. تلمّس جبينه آملًا أن تكون حرارته قد ارتفعت لكنه كان متجمدًا.*

كانت خيوط الشمس تتسلل من النافذة الصغيرة لتنير إحدى زوايا

الغرفة، وأخوه نائمًا والمخدة فوق رأسه، فيما قدمه البيضاء تتدلّى من تحت الأغطية.

نهض بييترو ولبس خفّه وذهب ليتبول. كان الحمّام باردًا حتى أنّ البخار خرج من فمه. مرر يده على الزجاج المبلّل، وهو يتبول، ونظر إلى الخارج.

ما أبشع هذا الطقس. السماء غائرة وراء حشد متماسك من السحب التي تحطّ شؤمها على الأرياف. كان بييترو يستقل حافلة المدرسة الصفراء أثناء الطقس الماطر. يبعد الموقف قرابة الكيلومتر (لم يكن يمر بجوار بيته، لأن الطريق إلى بيت التين مليئة بالحفر). ويرافقه والده أحيانًا، ويمشيها بمفرده في معظم الأحيان. إذ يحمل المظلة ويلبس السترة المطرية والجزمة المطاطية ويركب الدراجة.

كانت أمه في المطبخ. صعدت قرقعة الطناجر ورائحة القلي إلى أعلى. وزاغور يعوي. نظر من نافذة الحمّام فرأى والده متواريًا بردائه المطري، ويحمل سطول الإسمنت الموضوعة قرب ركن الكلب، بينما ينوح زاغور ويلج في الوحل ويهز بذيله محاولًا إثارة الانتباه.

هل أخبره بما حدث؟

لم يهب والده أي نظرة إلى الكلب، كأنه غير موجود. يمسك سطلًا، يرفعه على كتفيه ويحني رأسه، ثم يرميه في عربة الجرار، ويعاود الكرّة.

هل كان عليه أن يخبره بما حدث؟ أن يقص عليه كل شيء، وأن يقول له بأنهم أرغموه على الدخول إلى المدرسة.

(عذرًا أبتاه. عليّ أن أطلعك على أمر. البارحة...) لا لا لا. أحس أن والده سوف يغضب ولم يكن ليتفهم المشكلة. بل كان سينفجر من الغضب. *(ألا يكون الوضع أسوأ إذا عرف الأمر في ما بعد؟) لكنني لستُ مذنبًا.*

هزّ عصفوره بعزم وهرع إلى الغرفة. عليه ألاّ يفكّر بأنه ليس مذنبًا. لم يكن ذلك ليغيّر شيئًا، بل كان الأمر سيزداد تعقيدًا. عليه أن ينام وألاّ يفكّر في الموضوع من أساسه. – اللعنة على هذه الكارثة. – غمغم وصعد إلى سريره الدافئ بقفزة واحدة.

الغسّالة.– تمتم في سرّه. –الغسّالة. الغسّالة.

من المستحيل أن يفهم بييترو آلية «الذنب». غريبٌ جدًا. يوصف المرء بالمذنب حين يرتكب إثمًا مّا لا ينبغي فعله. ويحدث هذا في كل مكان، في المدرسة، في إيطاليا، وفي باقي العالم. ويكون دور العدالة أن تحاسب المذنبين على أخطائهم. إلاّ أنّ الأمور في بيت التين لا تجري على هذا النحو.

وعرف بييترو ذلك منذ أن كان صغيرًا. إذ يهوي الذنب على المنزل من السماء كالنيزك. وغالبًا ما يسقط عليك تحديدًا أو تتفاداه إن حالفك الحظ كورقة يانصيب. ويتعلّق كل شيء بأهواء السيد موروني. إذا كان مزاجه معتدلًا، فبوسعك أن ترتكب خطأ جسيمًا دون أن يترتب عليك شيء. أما إذا كان مزاجه متكدرًا (وهو كذلك دومًا في الآونة الأخيرة) فالذنب ذنبك، لا نقاش، حتى لو تصادمت طيارتان فوق سماء الباربادوس أو سقطت الحكومة في الكونغو.

تعطّلت الغسّالة على يد ميمو في أواخر الربيع المنصرم. إذ كان قد قرأ عبارة «ستون ووشد» على ملصق بنطال الجينز، وكان البنطال لحبيبته باتي. كان البنطال غاليًا على قلب ميمو لأنّ حبيبته شرحت له أنّ روعة البنطال تكمن في اسمه «ستون ووشد» أي المغسول بالحجارة، فالحجارة وحدها قادرة على إعطاء الجينز هذا المظهر. لم يفكّر ميمو في الأمر كثيرًا، وضع البنطال في الغسالة وملأها بالحجارة إضافة إلى لترين من مسحوق الغسيل. النتيجة: البنطال والغسالة إلى النفايات.

عندما عرف السيد موروني بالأمر، كاد أن يغمى عليه. «كيف يعقل أن يكون ولدي غبيًا إلى هذا الحدّ؟ لا أصدّق أنّ حظي سيّئ إلى هذه الدرجة» صرخ وهو يلطم على صدره، ثم اتهم زوجته بأن جيناتها الوراثية هي السبب بإدخال هذا الكم من الغباء على أولاده.

اتّصل بالورشة فاتضحّ أنّ التقنيّ سيأتي تمامًا في اليوم الذي عليه أن يرافق زوجته إلى الطبيب في شيفيتافيكيا، فقال لبييترو: «أوصيك أن تبقى في المنزل. رافق التقني إلى المستودع. عليه أن يأخذ الغسالة معه. أنا ووالدتك سنعود مساء. أوصيك ألا تتحرك من المنزل». فبقي بييترو في البيت، وأنهى جميع واجباته بهدوء، وجلس أمام التلفاز في تمام الخامسة والنصف يشاهد أحد المسلسلات البوليسية. وحينها وصل أخوه مع باتي وجلسا لمشاهدة المسلسل أيضًا. ولكنّ غاية ميمو كانت أنبل من مغامرات رجال الشرطة، فنادرًا ما يجد أمه خارج المنزل وعليه أن يستغل الفرصة. راح يعانق باتي ويدلّك ظهرها، فتملص من بين يديه وتضربه متأففة. «دعني. لا تلمسني. هلا كففت عن ذلك؟». «ما بك؟ لماذا لا يروق لك؟ هل أتتك الدورة الشهرية؟» همس ميمو في أذنها ثم حاول أن يضع رأس لسانه في أذنها. هبّت باتريزيا واقفة وأشارت بإصبعها إلى بييترو. «أنت تعلم لماذا. أخوك هنا. هكذا بكل بساطة. يوجد بيننا دائمًا... إنه كالقملة، يوجّه لنا نظرات غريبة... يتجسس علينا. أرسله بعيدًا».

لم يكن صحيحًا. إذ كان بييترو منشغلًا بمعرفة ما ستؤول إليه مغامرات البوليس، وآخر همّه أن يتجسس عليهما وهما يتبادلان القبل ويكركران. لكنّ الحقيقة كانت شيئًا آخر: باتي تمتعض من وجود بييترو لأنها غيورة، فالأخوان متفاهمان ويسخران معًا من أذواقها. كانت تغار، من حيث المبدأ، من أي أحد يمتلك روابط متينة مع عشيقها.

«ألا ترين أنه يشاهد التلفاز؟...» قال لها ميمو. «أرسله بعيدًا. وإلاّ

لن تحصل على شيء». فاقترب ميمو من أخيه. «لم لا تذهب للّعب في الخارج؟ أو تقوم بنزهة ممتعة. – ثم تحايل عليه. – لقد رأيت هذه الحلقة مسبقًا وهي سخيفة...». «لكنها تعجبني...» ردّ عليه بييترو. فطاف ميمو حانقًا في الصالة يبحث عن حل ووجده في النهاية. بسيطة: يقرّب سرير أمه إلى سرير أبيه فينتج عنهما سريرٌ كبيرٌ. حلّ عبقري.

«متى يعود أبي وأمي؟» سأل ميمو أخاه.«لقد ذهبا إلى الطبيب. ربما يرجعان حوالي الثامنة والنصف أو التاسعة. لا أعرف».

«ممتاز. فلنصعد إذن هيا». شدّ ميمو ذراع باتي وحاول أن يجرها إلى الأعلى ولكن هيهات. تسمّرت قدماها في الأرض. «بتاتًا. لن آتي معك وهذه القملة في المنزل». فجرّب ميمو آخر أوراقه. أخرج من محفظته عشرة آلاف ليرة وأمر أخاه أن يذهب ليشتري له السجائر. وأضاف متظاهرا بالكرم: «...واشتر بالباقي ما تحب من المثلجات واستمتع بألعاب الفيديو في صالة الملاهي».«لا أستطيع. أبي قال إنّ عليّ البقاء في المنزل. عليّ أن أنتظر التقنيّ. – أجاب بييترو بجدّية. – إن خرجت سيغضب». «لا عليك يا أخي. سأتولى أنا المهمة. سأريه الغسالة بنفسي واذهب أنت لشراء السجائر». «ولكن... ولكن أبي سيغضب...». «هيا. اذهب. أتلفت أعصابي. هيا هيا». وضع ميمو النقود في جيب أخيه وحمله بيديه إلى الخارج.

وبالطبع ستجري الأمور بأسوأ الأشكال: بييترو يركض في البلدة، وفي الطريق يصادف جلوريا وهي ذاهبة إلى درس الفروسية وتتوسل إليه أن يصطحبها وهو يقنع نفسه بجواز ذلك كالعادة. وفي هذه الأثناء يصل التقنيّ، يجد باب البيت مغلقًا، يضرب الجرس لكن ميمو لا يسمعه لأنه يخوض معركة حامية الوطيس مع بنطال باتي الضيق (باتي الماكرة تسمع قرع الباب ولكن لا تقول شيئًا)، فيعود التقنيّ من حيث أتى. وفي السابعة والنصف، قبل ساعة من المتوقع، يركن السيد موروني

وعقيلته سيارة الباندا في فناء الدار.

يخرج ماريو موروني من السيارة، غاضبًا كالشياطين، لأنه أنفق 395 ألف ليرة على ترهات التصوير العصبي من أجل زوجته، وهو يصرخ: «لا ينفع في شيء. لا ينفع في شيء سوى أنه يجعلك مغفلة أكثر ويملأ جيوب اللصوص والنصابين الذين اخترعوه». يتوجه إلى المستودع ويكتشف أنّ الغسالة ما تزال في مكانها. يدخل إلى البيت فلا يجد بييترو. يشعر بحرارة في يديه فيحكهما كأنّه أصيب بمرض جلدي. يصعد إلى الأعلى لأن مثانته ستنفجر (كان عليه أن يتبول منذ أن غادر شيفيتافيكيا). يدندل قضيبه في الممر ويفتح باب الحمّام فيبقى مشدوهًا فاغرًا فاه.

وجد باتريزيا، *اللعينة*، جالسة إلى حافة المرحاض. شعرها مبلل وترتدي ثوب الاستحمام الأزرق (ثوبه يا ناس!)، وتلون أظفار قدميها بالأحمر. وعندما رأت قضيبه مدندلًا من السحّاب، أخذت تصرخ وتصفه بالمجنون ظنًّا منها أنه دخل ليغتصبها. أرجع السيد موروني قضيبه تحت السروال، وصفع باب الحمّام بعنف حتى تهلهل طلاؤه الناشف وسقط جزءٌ منه على الأرض. ثم ضرب الباب بقبضته الفولاذية فتهشّم الخشب مخلّفا شرخين في عظام يده. وحبس صرخة حيوانية وذهب ليبحث عن ميمو.

لم يجده. اتجه إلى غرفة النوم (غرفته يا ناس!) وفتح الباب فإذا بالسلطان مسترخ على السرير (سريره يا ناس!) كالطاووس يزهو سعيدًا وعاريًا، تعبيرًا عن الهناء والرضا كمَلاك وسيم تحيط به حُور الجنّة.

تناكحا على سريري، على سريري. أيها الـ...وغد، أيها الـ...نذل الملعون. لا يوجد احترام. لا يوجد احترام. أيتها القحبة اللعينة. أنا من سوف يعلّمك الأدب حتى لا تنسيه طوال حياتك. سأعلمك الأصول يا بنت الكلاب.

استيقظ غضب بدائي ومتوحش كان ينام في أعمق أعماق جيناته الوراثية. غضب أعمى يزأر كالأسود لابدّ أن ينال ما يريد.

أقسم بالله إني قاتله. لا يهمني إن دخلت السجن، بل سأكون سعيدًا ومرتاح الضمير هناك. إنني متعَب، تبًا. تبًا. لم أعد أحتمل. لم أعد أحتمل.

لكنه استطاع أن يضبط نفسه لحسن الحظ. أمسك بأذن ميمو الذي استيقظ وصرخ مذعورًا. حاول أن يتحرر من تلك اليد الفولاذية ولكن هيهات. جرّه أبوه إلى الممر وهو يجدّف بالآلهة ويركله بحدّ قدمه. فتدحرج ميمو على السلالم واستطاع، بقدرة قادر، أن يبقى على قدميه. ولكنه تزحلق عند العتبة الأخيرة ووقع أرضًا وجرح صدغه. ثم نهض متألمًا وركض إلى الخارج وهو يعرج، دون ثياب، في عز البرد، متجهًا إلى المراعي. ركض السيد موروني وراءه وهو يزأر. «لا ترني وجهك أبدًا بعد اليوم. إن عدت سأفلق رأسك. قسمًا بأمنا العذراء. لا ترني وجهك أبدًا بعد اليوم. لا ترني وجهك أبدًا بعد اليوم. هذا أفضل...». دخل إلى البيت وما زال يحكّ يديه فسمع عويلًا خفيضًا. استدار فرأى زوجته.

كانت هناك قرب المدفأة، تخفي وجهها بيديها وتبكي. *أحسنت. أحسنت. هذا ما تجيدين فعله أيتها الغبية. هذه نتيجة تربيتك. أنت مسكينة غبية حمقاء لا تصلحين لشيء... وأنا عليّ أن أعمل وأعتني بكل شيء وأدفع الدنانير كي تجلسي هناك وتبكي... أيتها الشمطاء البليدة والمحشوة بالأدوية.*

«لماذا آذيته؟ ماذا فعل؟» قالت السيدة موروني وهي تبكي. «ماذا فعل؟ أتجرئين على هذا السؤال؟ أتودين معرفة ماذا فعل؟ كان ينكح تلك القحبة في غرفتنا على سريرنا. أيكفيك ذلك؟ سأصعد وأرمي تلك الملعونة خارجًا...». اتجه نحو السلالم لكن زوجته ركضت خلفه وشدّت ذراعه. «ماريو. انتظر يا ماريو انتظر». «دعي يدي!» وضربها بخلف يده على فمها.

كيف أشرح لكم ما معنى أن تتلقوا صفعة بخلف يد السيد موروني؟ حسنًا، كأن يرميكم ماتس ويلاندر بالطنجرة على أسنانكم.

ارتخت المرأة مثل دمية العرائس وظلّت في مكانها.

ومن يدخل إلى البيت في تلك اللحظة العصيبة؟ الجواب: بييترو.

كان بييترو سعيدًا لأنه أشرف على ترويض المُهرة ثم غسلها بالإسفنج والصابون مع جلوريا. وركض ليشتري سجائر أخيه. ولم يتناول المثلّجات لكنّه وفّر المبلغ لشراء سمكة جميلة كان قد رآها في مسامك أوربانو.

«ها هي السجائـ...» بقيت الجملة معلقة. «آه، أهلًا وسهلًا بالسيد بييترو. ها قد وصلت أخيرًا. هل قضيت وقتًا ممتعًا؟ هل كانت النزهة مسليّة؟». اصطدم بوجه أبيه المتجهم. مرّت عيناه على كل المشهد: قميص والده خارج البنطال، شعره أشعث، وجهه محتقن، عيناه تلمعان، لوحة الحائط على الأرض، الكرسي مقلوب، وفي الخلف شيء ما يشبه الكيس ينتعل حذاء والدته. «ماما! ماما!» اتجه الصغير نحو أمه، لكن والده أمسك بعنقه ورفعه وأخذ يلوّح به في الهواء كأنه أراد أن يلصقه بالجدار، وبييترو يصرخ ويحرّك قدميه ويهتز كآلي بدارة قصيرة محاولًا أن يخلّص نفسه. لكن ذراع والده ثابتة ومطمئنة، تحتجزه كحمل صغير.

رفس السيد موروني الباب فانفتح على مصراعيه، ونزل السلّم بينما يحاول بييترو عبثًا أن يملص من بين يديه. حمله إلى المستودع ثم وضعه على الأرض أمام الغسالة. كان بييترو يبكي، وقد تشوهت ملامح وجهه وبدا فمه كفرن مفتوح. «ما هذه؟» سأله والده، لكن الطفل لا يقوى على الإجابة ويبكي بشدة. «ما هذه؟» أمسك بكنزته وراح يخضّه. تضرّج لون وجهه واستصعب التنفس ففتح فمه أكثر ليستنشق الهواء بأي ثمن. «ما هذه؟ أجبني!» صفعه على رقبته بقوة. وعندما

رأى حشرجاته أخيرًا، جلس إلى الكرسي الخشبي وأغمض عينيه وراح يدلّك جبينه. *لن يصاب بمكروه، ولم يمت أحد من شدة البكاء.* أعاد السؤال. «ما هذه؟». ما زال الصغير يرتجف بسبب الشهقات، فصفعه بخفة على رقبته. «والآن! هلا أجبتني؟ ما هذه؟».

التقط بييترو أنفاسه أخيرًا. «الـ.. الـ.. إهئ إهئ.. الـ.. إهئ.. غسـ.. إهئ.. غسّا.. إهئ إهئ إهئ.. سالة...».

«صحيح. وماذا تفعل هذه الغسالة هنا حتى الآن؟».

«لم يكن الذنب... ذنـ... ذنـ... ذنبي. لم أكن أريد أن أخرج. إنه ميمـ... ميمـ... ميمو... أمرني بالخروج... ليس ذنبي» وعاود النواح.

«اسمعني جيدًا الآن. أنت مُخطئ. الذنب ذنبك. أتفهم؟ –قال السيد موروني وقد باغتته نبرة هادئة وتربوية. –إنه ذنبك. بم أوصيتك؟ بالبقاء في المنزل. أمّا أنت فخرجت...».

«ولكن...».

«لا أريد أن أسمع «ولكن». أي جملة تبدأ بهذه الكلمة باطلة من أساسها. لو لم تطع أخاك وبقيت في المنزل كما أوصيتك لما حدث الذي حدث. كان التقنيّ سيأخذ الغسالة، ولم يكن أخوك ليرتكب فعلته وما كانت أمك بهذا الحال. ذنب من إذن، ها؟».

خيّم الصمت على بييترو ثم صوّب عينيه المحمرتين نحو عيني أبيه الشرستين وتنفس بصعوبة. «الذنب ذنبي».

«أعد ما قلت».

«الذنب ذنبي».

«أحسنت. والآن اركض إلى الأعلى واطمئن على والدتك. أما أنا، فمن الأفضل أن أذهب إلى المقهى».

عدّل السيد موروني قميصه وهذب تسريحة شعره وارتدى المعطف الثقيل، وكان على أهبة الانصراف حين التفت. «تذكّر جيدًا يا بييترو

أول قاعدة في الحياة: تعلّم أن تتحمّل عبء ذنوبك. هل فهمت؟».
«فهمت».

نام الجميع بعد خمس ساعات مضت على دوامة العنف التي داهمت بيت التين. كانت السيدة موروني متغطية على سريرها، وشفتها العليا متورمة بالكامل. والسيد موروني نائم على السرير المجاور، يغط في نومه الكحولي دون أحلام، يشخر كالخنزير ويده اليمنى معصوبة ومرخية على الدرج. ونام ميمو في الكراج، مختبئًا خلف أغطية الجرار داخل برميل قديم. ونامت باتي، على بعد كيلومتر، وقد ضمّدت ساقيها الطويلتين بعد أن تهشمّتا وهي تفرّ من نافذة الحمّام فتزحلقت ووقعت على كومة من الأغصان اليابسة.

أمّا بييترو فهو الوحيد الذي لم ينم حينها، لكنه كان قاب قوسين أو أدنى من النعاس، مغمض العينين. كم بكى ذلك الصغير يومها! حتى اضطرت الوالدة رغم آلامها إلى أن تحنو عليه بعطفها وتسند رأسه إلى حضنها تمامًا كما كان طفلًا، وتعيد مرارًا على مسامعه: «كفى يا بنيّ كفى. لقد انتهى كل شيء. لقد مرّ كل شيء. اهدأ يا صغيري ونم. أنت تعرف طباع أبيك. لا تجزع...». تحسّن بعدها وشعر أنه على ما يرام، كما لو أنه قام بنزهة طويلة جدًا أرخت قواه. شدّ قدميه على حقيبة الماء الساخن في السرير، وما انفكّ يغمغم في نعاسه كترنيمة النوم. «ليس ذنبي ليس ذنبي ليس ذنبي ليس ذ...».

تشبه عائلة موروني، إلى حدّ كبير، شعوب الجزر في بحار الجنوب التي تعيش في حالة قلق مستمر. يقضون حياتهم متأهبين لهجر القرى ما إن يشعروا بنذر الإعصار في السماء. يلوذون في الكهوف ويتكدسون فيها حتى تفرّغ قوى الطبيعة كل ما عندها. يعرفون أنّ الرياح الهوجاء

تدوم قصيرًا. وعندما تهدأ العاصفة يرجعون إلى أكواخهم، ويعيدون بناء الأساسات فيرفعون السقف كي يغطّي رؤوسهم. يفعلون هذا بكل صبرٍ وحكمة.

48

حوالي السادسة صباحًا، كان ثمّتَ وحش متنكر بزي جراتزيانو بيليا جالسًا في إحدى زوايا الستايشن بار. كان جاثمًا على كرسي ويسند جبينه براحة يده. وعلى الطاولة فنجان كابتشينو فاتر لم يكن ينوي أن يشربه.

ومن حسن الحظ أنه لم يكن هنالك أحد يعكّر صفوه. إذ كان عليه أن يضع الاستراتيجيات رغم أنّ الأفكار باتت كالمسامير تدقّ في رأسه. تذكر مشكلة خطيرة لابدّ أن يجد لها حلًا سريعًا. كيف كان سيبدو أمام أصدقائه وأهالي البلدة بعد أن عرف الجميع، على مساحة تقدّر بعشرين كيلومترًا، أنه سيتزوج؟

كم كنت غبيًا عندما رويت القصة للجميع. لماذا فعلت ذلك؟

كان السؤال إنكاريًا لا يبحث عن إجابة، كما لو تساءل القندس مثلًا: «ما الذي يدفعني لبناء السدود؟». ولو كان بوسع ذلك القارض أن يجيب لقال: «لا أدري. إنني أبني السدود بشكل عفوي. إنها طبيعتي».

كان على ثقة أنه سيغدو أضحوكة البلدة دون منازع حتى عام 2050 إذا عرفوا بأنه لن يتزوج. خذ مثلًا *لو عرفوا أنها ارتبطت بذلك المنيوك...*

التهبت معدته. لقد قال لهم اسم تلك اللعينة، وكانوا سيرونها على الشاشة أو على صفحات الجرائد. *أجمل ثنائي على خشبة المسرح: مانتوفاني والقنبلة الواعدة إريكا تريتيل... تصوّروا*

وهل نتحدث عن ساتورنيا؟ من بين كل الأفكار السخيفة لم تلمع

في رأسه إلا أكثرها سخفًا: الاستحمام في أحواض ساتورنيا الكبريتية. وهو الذي يتقزز من تلك الرائحة المقيتة منذ أن كان صغيرًا. رائحة بيض نافق تستولي على شعرك وثيابك ومقاعد السيارة. وذلك البرد القطبي الذي ينقضّ عليك ما إن تخرج من الحوض وأنت تغلي من الحرارة. والغاية من كل هذا العذاب أن يرى أصدقاؤه البرابرة جسد تلك العاهرة. *لا تخطر هذه الأفكار الحمقاء إلا في رأسي*. كلّما فكّر في سخفه رغب في التقيؤ، حتى لو لم يبق لديه ما يتقيّأ سوى روحه.

وهل نتحدث عن أمه والنذر؟ – آآآه. التهاب المعدة، يا للألم... – تأوه جراتزيانو. من الصعب أن توجد امرأة بذلك المستوى من الغباء. *هل توجد امرأة تقوم بنذر أكثر غباء من ذاك...؟* كان الحل الوحيد أن يصارحها بالحقيقة، وربما طرحت على نفسها بعض الأسئلة بعد تلك المكالمة القصيرة مساء أمس. ثم يذهب إلى أصدقائه ويقول: «عذرًا يا شباب. لن نذهب إلى ساتورنيا، لأنني لن أتزوج».

آه ما أقساها. بل إنها مستحيلة. أن يقول جراتزيانو جملة كهذه كأن يدوس على أناه الأعلى بقدميه. وجراتزيانو لم يولد ليتألم. الحل الوحيد أن يركب سيارته ويهرب.

كلا!

لم يكن هذا الحل ناجعًا أيضًا، ولم يكن من صفاته بالأحرى. ابن بيليا لا يهرب. بل كان سيذهب إلى ساتورنيا بكل الأحوال. *مع امرأة أخرى! حقًا*. عليه أن يجد امرأة أخرى لا تقلّ إثارة عن إريكا مثل مارينا ديليا. ولكن من؟!

بوسعه أن يتصل بيبترا بيناجوني التي تعيش في البندقية، وهي امرأة جميلة جدًا. سوى أنه لم يتواصل معها منذ وقت طويل، وفي الآونة الأخيرة لم يكونا سمنًا على عسل. ومن غير المنطقي أن يقول لها: «اسمعي. لماذا لا تقطعين أربعمائة كيلومتر في رحلة كي نستحمّ معًا في ساتورنيا؟».

لابدّ أن يجد شيئًا من محيطه، شيئا جديدا يُسهم في ثرثرة جديدة لينزع قصّة زواجه من رؤوس أصدقائه. ولكن من؟

المشكلة أنّ جراتزيانو التهم، كالجراد، كلّ خيرات تلك الأرض القاحلة أساسًا. لم يوفّر حتى القبيحات من بنات بلدته، ناهيك عن الجميلات. وقد جاءت شهرته كزير نساء من هنا: فالفتاة التي لا يفض جراتزيانو بكارتها فإنها غول بين الفتيات ولن تجد من يضاجعها حتى ولو كان غولًا مثلها. وحدث أن بعضهنّ عرضن أنفسهنّ عليه كي لا يشعرن بالنقص من الأخريات. وكان جراتزيانو كريمًا مع جميعهنّ. لكنّ أيام المجد قد ولّت وكان يعود إلى البلدة ليستريح، كقائد روماني مرهق من الحملة في بلاد أجنبية. ولم يكن يعرف أيًا من الفتيات الشابات.

إيفانا زامبيتي؟ ... كلاّ ... من المستحيل إدخال حوت مثلها في حوض مياه كبريتية. ثم إنها لا تثير العجب. وكلّ الجميلات تزوّجن. وإن كانت هنالك من هي مستعدة لقضاء سهرة معه في إحدى المراقص فإنها لن ترضى بالمجيء إلى ساتورنيا.

من الأفضل أن ينسى الأمر. أوصله اليأس إلى حل وحيد، جبان ولكنّه مناسب: الهرب. سيعود إلى المنزل ويقول لوالدته أن توقف حملتها الغذائية وتلغي النذر. ثم يحلّفها بالعذراء أن لا تفشي سرّه وبعد ذلك يعترف لها: «لن أتزوج يا أمّاه. إريكا تخلّت عني». ويتوسل إليها أن تغطيه بكذبة متقنة مثل: «جراتزيانو غادر اضطراريًا إلى أمريكا اللاتينية». أو بالأحرى: «اتصل به باكو دي لوثيا هذا الصباح. وطلب منه المجيء إلى إسبانيا ليساعده في وضع البصمات الأخيرة على قرصه الأخير». وفي النهاية يستدين منها المال لشراء بطاقة إلى جامايكا.

هذا هو الحلّ المناسب. كان سيعالج جراحه في بورت إدوارد بتدخين صورايخ الحشيشة ومضاجعة الخلاسيات على إيقاع الموسيقى. بدت

له فكرة محل الملابس فجأة أنها أحمق الحماقات. لا ينبغي أن ينسى أنه كان موسيقيًا محترفًا. *هل تراني أصلح للبيع والشراء؟ هل أصابني الجنون بفكرة كتلك؟ إنني قطرس يحملني التيار الإيجابي فأسيطر عليه برفّ جناح ناعم. فليذهب كل شيء إلى الجحيم.*

شعر بالتحسن ما إن فكّر في ذلك. أمسك فنجان الكابتشينو وأنهاه في رشفة واحدة.

49

لم تكن الآنسة باليميري تستهوي الستايشن بار. فالفتاة التي تعمل هناك سمجة والمكان عبارة عن تجمع للمقرفين حصرًا. النميمة طبعهم ويضايقونها بالتصفير كالفئران. كانت تشعر بالحرج في الداخل، ولهذا السبب لا ترتاد ذلك البار نهائيًا. ولكنها، في ذلك الصباح، قررت التوقّف عنده لسببين.

1. لأنّ الوقت باكر جدًا، وهذا يعني أنه خالٍ من الناس.
2. لأنها خرجت على عجلة ولم تتناول الفطور. والفطور بالنسبة إليها أساسي كي يعدّل مزاجها وتتواصل مع الآخرين.

أوقفت سيارتها قريبًا ونزلت لتدخل البار.

50

كان جرانزيانو يحاسب العاملة عندما رآها. من هذه؟ حدّق فيها لوهلة. أعرفها، *أعرفها. إنّها... إنّها... المعلمة في المدرسة المتوسطة. بالموري.. بالماري..* شيء من هذا القبيل. كان قد رآها بعض المرات في السوبرماركت، لكنه لم يتحدث إليها أبدًا. يشاع عنها أنها نذير شؤم فيتعوذ الماروّن بقربها. وهو أيضًا تحدّث عنها بالسوء عندما كان يعيش في إيسكيانو. يقال إنها غليظة القلب وغريبة الأطوار وذات روح شريرة.

كان يعرف عنها القليل عمومًا، لكنه متأكد أنها غريبة عن البلدة حيث ظهرت فجأة منذ بضعة أعوام. وتسكن في ذلك الحيّ ذي البيوت الصغيرة إلى جانب الأراضي الممتدة على طريق كاستروني. وقد أخبره أحدهم أنها تعيش لوحدها وتعتني بوالدتها المريضة.

نظر جراتزيانو إليها باهتمام. *إنها مثيرة.*

كلا. لم تكن مثيرة لكنها جميلة. وجمالها باهت وغريب كأنها من العرق الأنجلوسكسوني.

تذكّر أولئك الكسالى الذين يقضون أوقاتهم على طاولات هذا البار، بقراءة الصحف الرياضية ولعب أوراق الشدة. كانوا لا يكلّون عن إطلاق الترهات كلّما عبرت الآنسة الساحة. ويقولون إنها تجلب التعاسة فيما يتخيّلونها حين يمارسون عاداتهم السرية.

أجرى فحوصاته المتقنة في لمح البصر. *كم عمرها يا ترى؟ حوالي الثلاثين أو يزيد.* ترتدي، تحت السترة المطرية، تنورة رمادية تغطّي ركبتيها وتترك مجالًا لرؤية عضلتي ساقيها المضمومتين وكعبيها الرقيقين. ساقان جميلتان ولا غبار عليهما. وكعب حذائها الكحلي منخفض. كانت طويلة ونحيلة ورقبتها أرستقراطية. شعرها مربوط لكن جراتزيانو تكهّن بأنّه طويل وناعم. ولا شكّ أنّ نهديها في غاية الجمال ويبدوان كجبلين تحت الكنزة السوداء. شكل وجهها ليس مألوفًا: عظام وجنتيها مرتفعة وناتئة، وذقنها حاد وفمها عريض ولون عينيها غامق ونظارتها الطبية تليق بمعلّمة فعلًا... *شكلها غريب حقًا ومؤخرتها مثيرة للاهتمام.*

كيف يعقل أن تبقى امرأة بهذا الجمال وحيدة ولا يحاول أحد أن يتقرّب إليها حتى الآن؟ ربما لا تكذب الشائعات في أنها غليظة القلب، لكنه لم يكن متأكدًا من ذلك. إنها تأتي من خارج البلدة وتنشغل بشؤونها الخاصة، بكل بساطة. وكانت محافظة نوعًا ما.

وفي هذه البلدة لا يتركونك بسلام إذا كنت شخصًا جديًا. يقولون عنك إنك مشعوذة وحقيرة وتجلبين التعاسة. كل العقليات متحجرة في هذه البلدة التافهة.

وربما حاول أحدهم أن يجرّب حظوظه معها، بطريقة ريفية فظة، فأرسلته إلى الجحيم. وهكذا أشيع عن الآنسة بالموري أنها تجلب سوء الطالع. رسموا مصيرها وصنّفوها على هذا الأساس. فقد اعتاد الذكور في إيسكيانو على حمية من صغار القوارض والعناكب والبعوض، ولم يكن لديهم الوسائل لاصطياد ذلك النورس الذي يحلّق عاليًا بعيدًا عن أسنانهم. ماذا نقول عن العنب حين يصعب قطفه؟ الجواب: حامض كالحصرم.

وعليه أصبحت بالموري زاهدة وانطوائية ويستحيل الاقتراب منها. لكن هذه النتائج الجاهزة قد تلقى أذنًا عند الآخرين، وليس عند جراتزيانو بيليا. فالمرأة التي «يستحيل الاقتراب منها» غير موجودة في قاموسه. كان جراتزيانو يكوي قلوب العاهرات كإريكا، فتخيلوا أن يفشل في جذب معلمة اللغة الإيطالية في إيسكيانو.

تقول القاعدة الأولى لزير النساء: إنّ كل امرأة لديها نقطة ضعف، والعمل يكون في اكتشافها. حتى المباني الأكثر صلابة في العالم لها نقطة تدمير، ويكفي أن تضرب هناك كي تهوي كلها على الأرض. وكان جراتزيانو خبيرًا في نقاط التدمير.

ربما تكون من أبحث عنها.

شعر بتعاطف عميق تجاه تلك المرأة التي لم يكن يعرفها، وردّه إلى الاشتراك معها بشيء ما: في الأمس قالت له قحبة إنه يجلب سوء الحظ. وكان يعرف كيف يشعر المرء بالألم عندما يوصف بذلك زورًا. إنها أسهل طريقة لجرح مشاعرك وعزلك وتحطيم قلبك.

أجل. كان سيساعدها. وكان سيظهر أن سوء الحظ ليس له وجود.

وإنه من الجور أن يوصف الإنسان هكذا. كان سيحررها من الإقصاء. حمل على عاتقه واجبًا إنسانيًا عظيمًا، لا يقلّ سموًا عن غيرية بوب جيلدوف ونيلسون مانديلا.

أجل، إنها هي.

كان سيأخذها معه في تلك الليلة إلى أحواض ساتورنيا وينكحها. وهكذا يعترف كلٌّ من روشو وميلي والأخوين فرانشسكيني بتفوقه مرة أخرى، وينحنون أمام إبداعه المغوار ونضاله ضد العزل الريفي.

أجل. من الممكن أن نسمّي هذه حفلة وداع الزير اللاتيني. ثم كان سيرتدي الواقي الذكري ويرحل إلى جامايكا.

هذّب تسريحة شعره بيده واتجه صوب الآنسة.

51

أخطأت فلورا بالميري. كان المقرفون موجودين حتى في تلك الساعة. لم تهنأ بشرب الكابتشينو، فثمّة أحد يدقق النظر فيها. كانت تشعر بنظراته تمر عليها كعدسة السكانر، وهي تصبح غشيمة عندما ينظرون إليها هكذا. أوقعت علبة السكر وكادت أن تزحلق الفنجان. لم تلتفت لتنظر إليه، ولكنها رمقته بطرف عينها.

كان الرجل ممن يرتادون هذا البار وقد اختفى منذ مدة. لم تصادفه منذ سنتين على الأقل. ريفيّ مغرور، يقضي جلّ وقته على الدراجة النارية، ويحمل خلفه إحدى الفتيات المسكينات. وكان شعره أسود وممشطًا من الأعلى وطويلًا من الجانبين. أما حينها فكان مائلًا للشقرة ولون جلده المسمّر يعطيه ملامح الطرزان. وكان واحدًا من أولئك الذين يسخرون منها في الطريق، وهذا يكفي لوضعه في الدرك الأسفل من الإنسانية، برفقة الكثير من الذكور الذين يرتادون ذلك البار.

شعرت به يقترب منها ويجلس قربها فارتبكت.

- عذرًا، هل حضرتك الآنسة بالموري؟

وماذا يريد هذا الآن؟ بدأت فلورا تغضب.

- بالميري. – غمغمت وهي تنظر في الفنجان.

- بالميري. عذرًا. الآنسة بالميري. إنني أرغب أن أطلب منك معروفًا لو سمحت...

نظرت إلى وجهه لأول مرة في حياتها. كان يبدو كقرصان الجزيرة الغامضة، أو بطلًا لأحد تلك الأفلام الرديئة التي راجت في إيطاليا خلال الستينيات. يشبه الممثلين المراهقين بشعره المؤكسج وأقراطه الذهبية... ولم يكن يبدو في أحسن أحواله، لابدّ أنه قضى الليلة كلها ساهرًا. كانت عيناه متعبتين ولحيته كثة.

- تفضل.

- لدي مشكلة، احم... –توقف المراهق فجأة عن الكلام كأن دماغه تعطّل ثم استعاد خيط الحديث. –اعذريني. لم أعرّف عن نفسي. أنا جراتزيانو بيليا. لم نتعارف من قبل. أنا ابن الخياطة. وبقيت خارج البلدة لزمن طويل... أعمل في المهجر...

– مدّ يده. فصافحته فلورا بنعومة.

بدا عاجزًا عن المضي قدمًا، وأرادت فلورا أن تخبره بأنها مستعجلة وعليها الذهاب إلى المدرسة.

- تشرّفنا.

- شكرًا. أردت أن أطلب منك معروفًا. عليّ الذهاب للعمل في قرية سياحية في البحر الأحمر بعد بضعة أشهر. هل زرت البحر الأحمر يا سيدتي؟

- لا. –*يا إلهي ماذا يريد هذا؟* ثم تشجعت وهمست. –إنني مستعجلة...

- آه. اعذريني. سأحاول أن أوجز. البحر الأحمر مكان يفوق

الخيال، شواطئه بيضاء وذلك لأنّها مليئة بالمرجان.. بالمحصلة إنه مكان في غاية الروعة. سأذهب للعزف في القرية السياحية. ويسعدني أن أحيطك علمًا بأنني عازف جيتار، وعليّ أن أعمل في تنظيم النشاطات والألعاب للسياح. بالمختصر طلبوا مني أن أرسل سيرة ذاتية. وعليّ أن أكتبها بشكل جيد، ولا أرغب بإرسال سيرة ذاتية عادية. أريد شيئًا طازجًا. أريد أن أفاجئهم. فأنا أحب ذلك المكان كثيرًا كما أسلفت...

ماذا يقصد بسيرة ذاتية طازجة؟

- ...وسأكون ممتنًا لحضرتك إن ساعدتني بلطفك على إنجازها. لا بدّ أن أرسلها صباح غد. فغدًا ينتهي وقت التقديم. ولن آخذ من وقتك كثيرًا. وإن نجحت، أقسم إنني سأدعوك لزيارة البحر الأحمر.

لقد قال ما عنده والحمد لله. كان يستصعب كتابة السيرة الذاتية.

- كان بودي مساعدتك، لكنني مشغولة جدًا اليوم للأسف... لا أستطيع أبدًا.
- عفوًا يا آنستي. لا أقصد الإلحاح. ولكنني أحتاج مساعدتك وسأكون سعيدًا جدًا بتعاونك... —قال جراتزيانو ببراءة الأطفال حتى فلتت الابتسامة من فلورا. — آه. إنك تبتسمين. يا للروعة. ظننت أنك لا تعرفين فعل ذلك... لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق...

ظلّت فلورا صامتة. وماذا بوسعها أن تقول؟ كيف كانت سترفض مساعدته؟ عليه أن يرسل السيرة هذا اليوم، ومن الواضح أنه إن كتبها بمفرده ستبدو أقرب إلى قصيدة هجاء لنفسه.

ليس عليك أن تساعديه. إنه واحد من أولئك الذين كانوا يهزؤون بك. دوّى الصوت في رأسها.

لقد مضت أعوام كثيرة. أجابت نفسها. وربما تغيّر. لقد ذهب إلى المهجر... وما الذي سيكلّفني؟... ثم إنه لطيف.

- موافقة. سأساعدك. ولكنني لست متأكدة من قدرتي على كتابة السير.
- أشكرك. كلا بل أنت قادرة بالتأكيد. في أي ساعة نلتقي؟
- لا أعرف. حوالي السادسة والنصف. هل يناسبك؟
- جيد جدًا. هل آتي إلى بيتك؟
- إلى بيتي؟! – صدمت فلورا بالسؤال. لم يدخل بيتها أحد أبدًا (عدا الأطباء والممرضين).

ذات مرة جاءها الخوري ليوزع بركات عيد الميلاد. وبحجة نثر البخور تقصّى كل غرف المنزل فاستاءت فلورا مما فعل. «ألا تريدينني أن أدعو بالشفاء لوالدتك؟» سألها. «دع أمي جانبًا» أجابته بفتور وعنف فاجأها. لم تكن تؤمن بالأدعية، ويزعجها دخول الغرباء إلى البيت. بل يثير أعصابها.

- هذا أفضل. – اقترب جراتزيانو منها أكثر. –في بيتي توجد أمي كما تعلمين. وهي ثرثارة على مستوى الكوكب. لن تتركنا نعمل بسلام.
- حسنًا. موافقة.
- ممتاز.
- عليّ الذهاب إلى المدرسة حالًا. –قالت بعدما نظرت إلى ساعتها ورأت كم مضى من الوقت. أخذت من جيب السترة المال ومدت يدها صوب العاملة فأمسك جراتزيانو بها. فذعرت فلورا وارتدّت إلى الخلف كأنه أراد أن يعضّها.
- آه. أنا آسف. هل أخفتك؟ أردت فقط أن يكون فطورك اليوم على حسابي.

- شكرًا... — تمتمت فلورا واتجهت نحو الباب.
- إلى مساء اليوم إذن. —صاح جراتزيانو لكن الآنسة كانت قد اختفت.

52

نجحت الخطة.

ستؤتي فكرة السيرة الذاتية أُكلها. فالآنسة كانت خجولة جدًا وتخاف من الرجال. إنها شابة مبتدئة، انتفضت مترين إلى الخلف ما إن مسّ يدها. ستكون فريسة عنيدة لكنها مستحقة. لم يتوقع جراتزيانو مصاعب كبيرة تحول دون تنفيذه للمهمة.

دفع الحساب وخرج. كان الجوّ ماطرًا، وسيكون طقس اليوم تعيسًا كالأمس. فكّر أن يعود إلى البيت لينام قرير العين ويحضّر نفسه للموعد. رفع سحاب سترته وانطلق على قدميه.

الخال أرماندو

من كانت هذه المخلوقة الغريبة التي تدعى فلورا بالميري؟ وما الذي كانت تفعله في إيسكيانو سكالو؟

ولدت فلورا في نابولي منذ اثنين وثلاثين عامًا. وكانت البنت وحيدة أبويها العجوزين اللذين بذلا الغالي والنفيس ليحظيا بولد. وبعد جهد جهيد تكرّمت عليهما السماء بطفلة تزن ثلاثة كيلوجرامات ونصف، بيضاء كالسمندل المكسيكي وشعرها الأصهب في غاية العجب.

وكان آل بالميري متواضعين، يعيشون في شقة على مشارف نابولي. تعمل السيدة لوشيا مُعلّمةً في مدرسة ابتدائية ويعمل السيد ماريو في مكتب تأمينات في آخر المدينة قرب الميناء.

كبرت الطفلة فلورا وذهبت إلى الحضانة ثم الابتدائية في صف والدتها. وقد توفيّ السيد ماريو، على حين غرة، حين أتمّت فلورا عامها العاشر، بسرطان خبيث في الرئتين، تاركًا زوجته وابنته رهنًا للفجيعة والألم، والقليل من النقود.

وسرعان ما أخذت الحياة تظهر أقسى ما عندها. فكان راتب السيدة لوشيا وتقاعد السيد ماريو يكادان لا يكفيان للوصول إلى آخر الشهر إلاّ زحفًا. قاما بتخفيض المصروف وباعا السيارة وتوقفا عن قضاء الإجازة في الريف البحري، ورغم هذا كانا يعيشان أوضاعًا اقتصادية متردية.

كانت الطفلة فلورا تهوى المطالعة والدراسة. وعندما أنهت المرحلة المتوسطة، أرسلتها والدتها إلى الثانوية الأدبية رغم المصاعب الكبرى التي يتطلبها ذلك. كانت فتاة خجولة ومنزوية، لكنها متفوقة في المدرسة.

ذات مساء، كانت فلورا (وهي في الرابعة عشرة من عمرها) جالسة إلى المائدة لتنهي واجباتها عندما سمعت صرخة آتية من المطبخ. ركضت إلى هناك. فوجدت أمّها متصلبة في وسط المطبخ، والسكين على الأرض، وتحكّ يديها المتشنجتين كالمخالب. — لا شيء. لا شيء يا عزيزتي. وعكة آنية. لا تجزعي.

منذ مدة لا بأس بها والسيدة لوشيا تعاني من آلام في المفاصل، وخلال الليل تشعر أحيانًا بخدر في ساقيها للحظات معدودات. اتصلوا بالطبيب العام، فأكد أنه التهاب المفاصل. وقد تحسنت يدها على مر الأيام في الواقع، حتى لو كانت تؤلمها إذا أغلقتها. وهذا ما سبب لها بعض المشاكل في المدرسة، لكنها امرأة قوية واعتادت على مواجهة الألم دون شكوى. فراحت فلورا تتكفل بشراء الحاجيات والطبخ وتنظيف المنزل، وتنجح في إيجاد الوقت للدراسة رغم انشغالها.

ذات يوم استيقظت السيدة لوشيا على خدر في ذراعها بشكل كامل. فاستدعوا طبيبًا مختصًا هذه المرة وأسعفوها إلى كارداريللي. أجروا لها الفحوصات التي لا تنتهي، وجاؤوا بأطباء مشهورين في العصبية الفيزيائية، واستنتج هؤلاء أن السيدة لوشيا بالميري تعاني من توقّف ولادة الخلايا في الجهاز العصبي. وكانت الأدبيّات الطبيّة تتحدث عن هذه الحالة النادرة منذ مدة، وقد تمّ التعرف على حالات قليلة ولم يجدوا لها علاجًا حينها. ومن يدري. قد يكون الخبراء في الولايات المتحدة قادرين على فعل شيء، لكن ذلك يتطلب الكثير من المال. فما كان من السيدة لوشيا إلا أن تقضي شهرًا في المستشفى لتعود إلى المنزل وقد تخدر نصف جسدها الأيمن.

وحينذاك ظهر الخال أرماندو، شقيقها الأصغر. كان الرجل متعجرفًا وكريهًا، ومليئًا بالشعر الأسود الذي يخرج من ياقة قميصه وأنفه وأذنيه ليبدو أبشع من الغول. لديه محل أحذية في ريتيفيلو. كائن جشع لا يفكّر إلا بالمال، وزوجته فظة وبدينة.

أيقظ الخال أرماندو ضميره وبات يمرر معاشًا شهريًا شحيحًا لأخته وابنتها. وكانت فلورا ما تزال تذهب إلى المدرسة لأنّ زوجة الناطور الحنونة تعتني بأمها خلال الصباح والظهيرة.

ولم تتحسن الحالة مع مرور الأشهر. بل على العكس، إذ لم تعد السيدة لوشيا تستطيع تحريك أي طرف سوى يدها اليسرى وقدمها اليمنى وجزء من فمها. تتحدث بصعوبة بالغة ويستحيل أن تعتمد على نفسها لاسيّما في الاستحمام وتناول الطعام. وكان الخال أرماندو يزورها مرة في الشهر، يجلس قربها حوالي الساعة ممسكًا بيدها ثم يمضي في حال سبيله، بعد أن يعطي المعاش وعلبة الحلوى لفلورا.

ذات صباح، استيقظت فلورا (وهي في السادسة عشرة من عمرها) فحضّرت الفطور وذهبت إلى أمها. فوجدتها منكمشة على نفسها في

إحدى زوايا السرير كأن مفاصلها التي تحافظ على انسجام البدن، انخلعت فجأة أثناء الليل، فانكمشت على نفسها كأطراف عنكبوت يموت، ووجهها إلى الجدار.

- ماما... -وقفت فلورا قرب السرير. -ماما... - صوتها يرتجف. ولم تحصل على جواب.-ماما... ماما... هل تسمعينني يا ماما؟...-ظلت دون حراك لوقت طويل، تعض يدها وتبكي بصمت. ثم ركضت إلى أسفل السلالم وهي تصرخ. -أمّي ماتت. أمّي ماتت. ساعدوني!

وصلت زوجة الناطور. وصل الخال أرماندو. وصل الأطباء.

لم تمت أمها، لكنها لم تعد موجودة. لم تصعد الروح بل راح عقلها. انتقل إلى عالم بعيد، لا سكان فيه سوى الظلمات والصمت المدقع. راح عقلها مخلفًا وراءه جسدًا حيًا. وسوف تتضاءل الآمال بعودة عافيتها كما شرحوا لها.

تولّى الخال أرماندو إدارة الأزمة. باع البيت وأخذ أخته وابنتها ليعيشا عنده. وضعهما في غرفة صغيرة، فيها سريران وطاولة صغيرة لتدرس عليها الطفلة.

- وعدت أمك بأنك ستنهين الثانوية، فستنهينها إذن. وبعد ذلك ستعملين في أحد المحلات.

وهكذا بدأت حقبة بيت الخال أروماندو الطويلة. لم يعاملوها بسوء ولكن ليس على النحو المطلوب أيضًا. كانوا يتجاهلونها، وبالكاد تتوجه الخالة جوفانا إليها بكلمة. وكان البيت كبيرًا ومظلمًا ولم يكن فيه ما يدعو للتسلية.

ظلّت فلورا تذهب إلى المدرسة، وتعتني بأمها، وتدرس، وتنظف البيت. وأثناء ذلك كانت تكبر. صار عمرها سبعة عشر عامًا وراحت قامتها تطول ونهداها يثمران حتى ملأ أنوثتها بالخجل والحياء.

ذات يوم غادرت الخالة جوفانا لتزور أقاربها، ودخلت فلورا كي تستحمّ.

وفجأة يُفتح باب الحمّام و...

وهاهو... الخال أرماندو.

اعتادت فلورا أن تقفل الباب، لكن خالها يومئذ قال إنه ذاهب ليمتطي الخيل في إنيانو.

لكنه كان هناك، يرتدي خفّه ورداء الغرفة *(الحريري المخطط بالأحمر والأزرق الذي لم أره من قبل)*.

- عزيزتي فلورا. أود الاستحمام معك. هل تتضايقين؟ — سألها بعفوية كأنه يسأل الخبز أثناء الطعام على المائدة.

أرادت فلورا أن تصرخ وأن تطرده. لكن رؤية ذلك الرجل، وهي عارية، صدمتها وشلّت حركتها نهائيًا. كم تمنت أن تطرده صفعًا وركلًا، أو ترميه من النافذة ليطير ثلاث طوابق ويهوي لينشق رأسه في وسط الشارع قبل أن تمر فوقه دواليب الحافلة. لكنها تجمدت كحيوان محنط، ولم تستطع أن تصيح أو تخطو مترًا واحدًا لتتغطى بالمنشفة. لم تستطع فعل شيء سوى النظر إليه.

- هل لي أن أساعدك في وضع الصابون على جسدك؟ — اقترب منها دون أن ينتظر إجابة، وأخذ الصابون من أسفل الحوض. مرره بين يديه ليجعل منه رغوة ثخينة وبدأ يغسّلها بالصابون. والمسكينة واقفة دون حراك، تستر صدرها بذراعيها وتشبك ساقها بالأخرى.

- كم أنت جميلة يا فلورا... كم أنت جميلة... إنك مخلوقة على أحسن وجه. وهذا بياضك الناصع... دعيني أغسّلك بالصابون. أبعدي يديك. لا تخافي. — همس النذل بنبرته المبحوحة.

استسلمت فلورا. وبدأ يمرّر الصابون على صدرها. —إحساس

جميل، أليس كذلك؟ يا لضخامة نهديك يا فلورا...

سرحت فلورا تتذكر قصة ليلى والذئب بينما يداعب ذلك الوحش حلمتيها.

كلا. لم يكن الإحساس جميلًا على أي حال. بل إنه أكثر شيء مقزز في العالم. أكثر شيء يثير الاشمئزاز في الحياة. لا يوجد شيء أكثر قرفًا من هذا.

كانت فلورا متسمرة وعاجزة عن القيام بأي ردة فعل إزاء ذلك الوحش الفظيع. وفجأة، رأت شيئًا غير معقول جعلها تبتسم. نهض شيء طويل عريض وأسمر من رداء الخال أرماندو. بدا كأنه لعبة خشبية صغيرة. أظهر قضيب الخال أرماندو رأسه من خلف الستار. *أراد أن يرى ما الذي يحدث، أتفهم؟*

انتبه الخال أرماندو لابتسامتها فارتسمت بسمة الرضا على شفتيه اللاحمتين والرطبتين. — هل بوسعي أن أستحم معك؟

وقع رداؤه على الأرض وظهر بدنه المليء بالشعر المقرف. كان فخورًا بانعدام التناسب في ساقيه القصيرتين وذراعيه الطويلتين وذلك الخرطوم مستقيم كسارية السفينة. حمل الخال أرماندو ذلك الخرطوم بيده ودخل به إلى الحوض.

انكسر شيء ما داخل الفتاة ما إن حدث التواصل مع الوحش. وانفجرت تلك الكرة الزجاجية اللعينة التي كانت تحبسها فاستيقظت فلورا. دفعته فتزحلق بوزنه التسعين كيلوجرامًا إلى الخلف. وبينما يتزحلق تعلّق، كالقرد النطاط، بستار الحمّام وانهمرت خواتم الستار واحدًا تلو الآخر كالرصاص في زوايا الحمّام. قفزت فلورا خارج الحوض ولكن قدمها ارتطمت بالحافة فتزحلقت ووقعت أرضًا وتشبثت بالمغسلة. فنهضت ثانية وراحت تصرخ والخال أرماندو يصرخ وهو ينهض مجددًا ثم وقعت على ردائه المخطط ووجدت نفسها على الأرض

مرة ثانية. فنهضت وأمسكت بالمقبض. أدارته وفتحت الباب وخرجت إلى الممر.

ركضت في الممر مسرعة حتى وصلت إلى الغرفة. أقفلت على نفسها وتقوقعت بجوار أمها وبكت. وما زال ذلك المعتوه يناديها من الحمّام.

–فلورا! أين أنت؟ عودي إلى هنا. هل غضبت؟

- ماما أرجوك. ساعديني. ساعديني. افعلي شيئًا. أرجوك.

لكن أمها كانت سارحة بنظرها في السقف.

لم يكرر العجوز الخنزير فعلته. ومن يدري لماذا؟ ربما كان عائدًا إلى البيت بعد أن تعتعه السكر في ذلك اليوم فارتخت فرامله كليًا. أو ربّما اكتشفت الخالة جوفانا شيئًا ما: ستار الحمّام والرضوض الزرقاء على ذراعه. ربما لم تكن سوى هجمة شهوانية خارجة عن السيطرة وندم عليها (مع أنها فرضية غير واردة). ما يهمّ أنه لم يقم بإزعاجها بعدئذ وأصبح أكثر لطفًا من الحلوى.

لكن فلورا لم تعد تتحدث إليه بكل الأحوال، حتى عندما أنهت الثانوية وعملت عنده في محل الأحذية. كانت تدرس كالمجنونة في غرفة أمها الصغيرة. تسجّلت في كلية الآداب وتخرجت في أربعة أعوام. ثم خاضت مناظرة المعلّمين ونجحت فيها، ووافقت على أول وجهة عُرضت عليها. وكانت الوجهة إيسكيانو سكالو. استقلت سيارة إسعاف لتحمل بها أمها وتغادر نابولي من غير رجعة.

53

ما الذي حدث في المدرسة بعد أن هرب بييترو ورفاقه؟

رأت حليمة التي كانت تنتظر في السيارة، ثلاثة فتيان يخرجون كالعفاريت السود من إحدى نوافذ المدرسة. ثم اعتلوا البوابة واختفوا في الحديقة الصغيرة المجاورة.

بقيت مترددة. ماذا تفعل؟ تدخل أو تهرب؟ حتى قطعت الطلقة النارية سلسلة أفكارها، وخرج بعد أقل من دقيقة فتى آخر من النافذة نفسها، وتسلق البوابة أيضًا وابتعد راكضًا.

لابدّ أنّ إيتالو المجنون أطلق النار على أحدهم، أو أطلقوا عليه النار. وضعت حليمة الباروكة في جيب السترة، وخرجت من السيارة لتفعل شيئًا ما.

لم تكن حليمة بالغبية، فهي لا تحوز على إذن الإقامة، وإن أوقفوها في قصة من هذا النوع فسوف يرحّلونها إلى نيجيريا في غضون ثلاثة أيام.

ركضت حوالي الثلاثمائة متر تحت المطر، وهي تلعن إيتالو وإيطاليا وهذه المهنة القذرة التي أجبرت عليها، ثم عادت إلى الخلف. ترى هل أردوا إيتالو قتيلًا أم كان جريحًا في حالة حرجة؟ تسلقت حليمة من البوابة ودخلت إلى المحرس وقامت بأمر خطير جدًا يعاكس أخلاق الدعارة. اتصلت بالشرطة.

- هبّوا إلى المدرسة. الساردينيون أطلقوا النار على إيتالو. هيا. بسرعة.

بعد ربع ساعة، كان الشرطيان أنطونيو باتشي وبرونو ميلي يتدحرجان صوب المدرسة عندما انتبها إلى زنجية تختبئ خلف كومة من النباتات. خرج برونو بسرعة، فسارعت بالهرب. وجه إليها المسدس وأوقفها وقيّدها، ثم أدخلها في سيارة الشرطة.

- دعوني. لا شأن لي. أنا من اتصل بالشرطة. —كانت حليمة تبكي.

- اخرسي أيتها العاهرة. —أجابها برونو ميلي وانطلقت السيارة مع زمور الخطر العالي صوب المدرسة.

نزل «ستاركي وهاتش» من السيارة واستلا مسدسيهما. كان كل شيء من الخارج يبدو على ما يرام. لاحظ برونو أن المحرس مظلم

والمدرسة منيرة. -فلندخل. -قال بعد أن أعلمته حاسته السادسة أنّ شيئًا خطيرًا حدث في الداخل.

تسلقا البوابة وهما ينظران إلى الخلف. ثم وجهّا سلاحيهما إلى الأمام وباعدا ساقيهما ودخلا وثبًا إلى المدرسة.

قاما بعملية تمشيط لكل المبنى دون أن يعثرا على شيء ثم نزلا إلى البهو السفلي، والواحد منهما يتبع الآخر. كان أحد الأبواب مفتوحًا في نهاية الممر والضوء موقدًا. تمركزا على طرفي الباب.

- مستعد؟ - سأل أنطونيو.

- مستعد! - أجابه برونو ودخل إلى صالة الرياضة بقفزة موفقة.

ثم وقف على قدميه محركًا المسدس ذات اليمين وذات الشمال.

لم يجد أحدًا أول الأمر. ثم نظر إلى الأرض فوجد جسمًا ما. جثة؟! جثة تشبه والده...

- أبتي! أبتي! - صرخ برونو ميلي محبطًا وركض إلى أبيه (وبينما كان يركض لم يستطع ألاّ يفكّر في ذلك الفيلم العظيم حيث يجد الشرطي كيفن كوستنر جثة شين كونري، الذي كان بمثابة والده، ثم يحقق العدالة بمفرده ويُخرج رجال العصابات من أوكارهم. ما كان اسم هذا الفيلم اللعين؟) -هل قتلوك يا أبتي؟ أجبني! هل قتلك الساردينيون؟! -جثم على ركبتيه قرب جثة والده كأنه يمثل مشهدًا سينمائيًا. -لا تقلق، سأنتقم منهم. -ثم انتبه إلى أنّ الجثة كانت حيّة وتتأوّه أيضًا. -هل أنت جريح؟ -رأى المسدس. -هل أطلقوا النار عليك؟

كان الآذن يغمغم بكلمات غير مفهومة كالفقمة.

- من أصابك؟ هل هم الساردينيون؟ تكلّم! - قرّب برونو فمه من أذن أبيه.

- لا... لا... -هذا ما استطاع إيتالو أن يقوله.

- هل طردتهم؟
- أجل...
- أحسنت يا أبتي. - لمس جبينه وهو يكابر على حبس دموعه.

يا له من بطل! يا له من بطل! لن يجرُؤ أحد على اتهام أبيه بالجبان. فعندما جاء اللصوص منذ عامين، قال له الجميع إنّ والده اختبأ. أمّا الآن فسيمرّغون رؤوسهم بالتراب كالنعام. كم كان فخورًا بوالده المقدام.

- هل أطلقت النار عليهم؟

أجاب إيتالو مؤكدًا وهو يهزّ برأسه وعيناه مغمضتان.

- على من؟ - سأله حينها أنطونيو.
- على من؟ على الساردينيين؟ أليس كذلك يا أبي؟ - صرخ برونو.

ما هذه الأسئلة الغبية التي يطرحها زميله المغفّل؟

لكن إيتالو حرّك رأسه نافيًا.

- كيف لا يا أبتي؟! على من إذن؟

التقط إيتالو أنفاسه وغمغم: - ع..لى..الت..لا..م..ي..ذ..

- على التلاميذ؟! - صاح الشرطيان معًا.

وصل رجال الإنقاذ وسيارة الإسعاف بعد ساعة. وقصّوا القفل العنيد بضربة مقص ضخم. ولم ينتبه الشرطي أنطونيو باتشي إلى أنّ ذلك القفل هو نفسه الذي أهداه لابنه أندريا منذ بضعة أشهر. دخل الممرضان بحمالة إلى المدرسة وأسعفا الآذن. ثم تم الاتصال بمدير المدرسة.

54

وصلت فلورا بالميري إلى المدرسة عند الساعة السابعة وركنت سيارتها في الباحة. كانت سيارة المدير هناك أيضًا، وسيارة نائبة المدير و... *سيارة الشرطة أيضًا؟ يا للهول!*

دخلت المبنى فوجدت نائبة المدير جاتا والمدير كوزينتسا في زاوية المدخل يتهامسان كأعضاء جماعة سرية. وعندما رأتها نائبة المدير، اتجهت إليها.

- آه. وأخيرًا وصلت.
- لقد فعلت أقصى ما بوسعي للوصول في أقرب وقت... —اعتذرت فلورا —ولكن ما الذي حدث؟
- تعالي سيدتي تعالي وانظري ماذا فعلوا...
- ومن فعل ذلك؟
- لا ندري حتى الآن. —ثم التفتت إلى المدير. —فلنذهب إلى الأسفل يا جوفاني كي ترى الآنسة ماذا فعل تلاميذنا المهذبون.

مشت نائبة المدير وتبعها المدير وفلورا.

55

إذا رأيتَ المدير كوزينتسا ونائبته جاتا معًا فاعلمْ أنك أمام ثنائيّ ينحدر من العصر الجوراسي الأوسط مباشرة.

كانت ماريوتشا جاتا العزباء، والبالغة من العمر ستين عامًا، ذات الرأس الضخم كخزانة الأحذية والعينين المفلطحتين ككرات البلياردو والأنف المسطح، تعيد إلى الأذهان التيرانوصور، أكثر الديناصورات وحشية وسمعة سيئة.

أمّا جوفاني كوزينتسا، فمتزوج وأب لولدين، ذو ذقن حاد وصدغين ناتئين، يشبه الصربود (عظاءة زاحفة منقرضة) الذي يشبه القوارض وليس لوجوده مغزى. ورغم هذا، يعتبره بعض علماء الإحاثة أوّلَ حيوان ثديي ظهر على سطح الكوكب حين هيمنت عليه الزواحف. وكم كان أجدادنا (حتى نحن من الثدييات!) صغارًا وليس لهم قيمة، يعيشون بين منعرجات الأرض، ويتغذون على الحبوب والبذور، ويخرجون إلى

المكشوف بعد الغروب، عندما تنام الديناصورات، ليقوموا بتقلّبهم البطيء، ويفقسون بيضهم. وعندما حدثت الفوضى الكبرى (نيازك وزلازل وانزياح محور الأرض إلخ) تلاشت الحيوانات العملاقة تباعا ليعتلي الصربود عرش هذا الكوكب. وغالبًا ما يحدث أن يتفوق عليك أولئك الذين لا تشتريهم بنصف قرش، ويدهسون أنفك بأقدامهم في النهاية.

وبالفعل أصبح الصربود مديرًا للمدرسة التي كان التيرانوصور نائبًا له فيها. ولكن هذا لا يغيّر شيئًا، لأنّ جاتا بيدها زمام السلطة في المدرسة. فهي التي تحدد المواعيد والأدوار، وتصنّف الصفوف وباقي ما تبقّى. كان القرار يعود إليها دومًا فتقول كلمتها بلا تردد. كانت متعجرفة وينصاع المدير والأساتذة والتلاميذ لأمرها كأنهم في فرقة عسكرية.

أكثر ما يثير الانتباه من ملامح المدير جوفاني كوزينتسا، أسنانه البارزة وشاربه وعيناه اللتان تنظران إلى أي مكان عدا جهة الشخص الذي يخاطبه. بقيت فلورا مشتتة في المرة الأولى التي لاقته فيها، فقد كان يتحدث إليها ونظره مصوّب إلى أعلى، نحو نقطة ما في السقف كأنّ فيها خُفاشًا أو فتحة كبيرة. يتحرك على مراحل كأن حركاته ناتجة عن تقلص عصبي مفرد. ثم إنه كان هزيلًا وفاترًا وعديم المزايا عدا غرته الشائبة التي تسقط على وجهه الصغير. كان خجولًا كالإناث ويكثر من المجاملات كاليابانيين.

ولديه بدلتان رسميتان: الأولى صيفية والأخرى شتوية. أما الفصول النصفية فلا يعرفها ولم يسمع بها. عندما يكون الطقس باردًا، مثل ذلك اليوم، يرتدي البدلة ذات النسيج البني. وإذا كان الطقس حارًا، يرتدي البدلة القطنية ذات اللون السكري. ولكلتا البدلتين بنطال قصير وأكتاف محشوة جدًا.

ما إن رأت فلورا التلفاز والمسجّلة المحطّمين، وقرأت العبارة التي تخصّها، حتّى عرفته على الفور. *إنّه فيديريكو بييريني لا محالة*. وصلت الرسالة بوضوح يغشي الأبصار. *لقد أرغمتني على مشاهدة الفيلم عن العصور الوسطى وهذه هي النتيجة*.

منذ ذلك اليوم الذي عوقب فيديريكو على يديها، وهي تشعر بأنّ الضغينة الوحشية تستفحل في قلب ذلك الفتى. لم يعد يكمل واجباته، ويضع السماعات في أذنيه أثناء دروسها. إنه يكرهني. انتبهت إلى ذلك من نظراته الشريرة والمرعبة التي تتجه إليها فتملأ الصف بالحقد والكراهية. كانت فلورا تتجاهله لعجزها عن فعل شيء، وكانت ستتركه ينجح في آخر العام. ولم تتبين سبب كرهه لها، لكنها ربطته بوفاة والدته التي توفيت في اليوم الذي أجبرته على البقاء في المدرسة.

ومن يدري؟ إنّه يتّهمني بذنوب كبيرة. أوافق على أنني أخطأت، ولكنني لم أكن على علم بالأمر. لقد أغاظني حقًا. لا يدعني أعمل. وهو مزعج بالفطرة. يقول الأكاذيب دومًا. ولم أكن أعرف شيئًا عن أمه المريضة، قسمًا بالله. وقد ذهبت بنفسي لأعتذر منه.

نظر فيديريكو إليها مشمئزًا كأنها كومة براز، ثمّ بدأت مرحلة المقالب: رمي النافذة بالحصى، وثقب عجلات السيارة إلخ.

كان ذلك الصغير يزرع الرعب في قلبها، ولو كان أكبر سنًا لحاول أن يقتلها أو ارتكب في حقها أفعالًا شنيعة. وعندما كانت تراه، يخطر في بالها أن تقول له: «سامحني على أي شيء فعلته ضدك. سامحني أرجوك». لكنها كانت على يقين أنّها ستؤلبه عليها أكثر ما إن تعترف بضعفها أمامه.

لم يدخل إلى المدرسة وحده، والعبارات الأخرى على الجدران تفسّر هذا. لابدّ أنه اصطحب واحدًا من تابعيه الأذلاء. لكنها كانت لتراهن

على قطع يمينها على أنّه هو الذي حطّم التلفاز.

- انظري إلى هذه الكارثة. - تأفف المدير وهو يحمل فتات البلور.

كان هناك شرطيان يكتبان الضبط، في قاعة التربية التقنية، إلى جانب المدير ونائبته. أحدُهما والد أندريا باتشي الذي تعرفه فلورا لأنه جاء إلى المدرسة مرتين بخصوص ابنه. والثاني ابن الآذن إيتالو.

كادت فلورا أن تقهقه بأعلى صوتها عندما قرأت العبارات الأخرى. الصورة كوميدية بلا شك: المدير جاثم على ركبتيه ويرفع تنورة نائبته و... *ربما كان للسيدة جاتا عضو ذكريّ. من يدري! (كفى يا فلورا..)*. نظرت إلى اللؤم يغلي في عينيها كأنها تحاول قراءة أفكارها.

- هل قرأت ما كتبوا؟

- أجل... - تمتمت فلورا.

- إنّهم مخرّبون. ملاعين. كيف يجرؤون على هذا؟! - شدّت نائبة المدير قبضتيها ورفعتهما إلى السماء. -علينا أن نعاقبهم. علينا أن نعالج هذا البلاء قبل أن يتفشى كالوباء ويدمر مؤسستنا المسكينة.

لو كانت جاتا امرأة عادية لدفعتها تلك العبارات إلى التفكير جديًا برأي التلاميذ في طبيعتها الجنسية وعلاقتها مع المدير. لكنها كانت امرأة متعالية ولن تنجرّ إلى تفكير من هذا النوع. لا شيء يهزّ من عزيمتها أو يسبب لها الإعياء أو الحياء. أبدًا. لم تأت هذه المصيبة التي اقتحمت مدرستها بجديد سوى إيقاظ روحها القتالية. وعليه فإنّ الجنرال الألماني كان متأهبًا لخوض المعركة. أمّا المدير كوزينتسا، فقد اخضرّ واحمرّ من العبارة التي جرحت كبرياءه بشكل لا تُخطئه العين.

- هل تشكّان في أحد معيّن؟ - سألتهما فلورا.

- كلا، ولكننا سنكتشف الفاعل يا آنسة باميري. أراهن على راتبي أننا سنكتشفهم. - ثارت ثائرة جاتا وارتجفت شفتاها. لم ترها

فلورا غاضبة إلى هذا الحد منذ أن عرفتها. – هل قرأتِ ماذا كتبوا عنك؟

- أجل.

- يبدو أنها رسالة موجهة إليك. –قالت بنبرة بوليسية مثل هيركيول بوارو وظلت فلورا صامتة.–من قد يكون برأيك؟ ولماذا الشرائط وليس شيئًا آخر في دبـ... –لاحظت جاتا أنها ستقول كلامًا نابيًا فسكتت.

- لا أعرف... ليس لدي فكرة. – قالت فلورا مُطأطأة الرأس، مع أنّ الفرصة مناسبة للردّ على اعتداءات فيديريكو. *لا يسرني أن أؤذيه على كلّ حال.*

لقد كُتب على جبين ذلك الشاب أنّ القانون سيشدّ عنقه يومًا ما ولم تكن ترغب أن تكون هي المسبب لهذا المشهد المريع. وثمّتَ سبب أكثر بساطة وبراغماتية: كانت تخشى أن يجعلها فيديريكو تدفع الثمن غاليًا حين يعلم أنها اتهمته بكتابة تلك العبارة.

- اسمعيني يا آنسة بالميري. لقد طلبت من جوفاني أن يستدعيك إلى هنا قبل باقي الأساتذة لأنك جئت تشتكين من بعض التلاميذ الذين يقومون بإزعاجك منذ مدة قصيرة. وقد يكون أولئك التلاميذ أنفسهم من فعل كل هذا. هل تستوعبين؟ لا أرغب أن تأخذي كلامي على أنه هجوم، لكنك قلت لي إنك لا تستطيعين التواصل مع التلاميذ، وربما يظهر سوء الفهم هكذا أحيانًا. –ثم طلبت تأكيدًا من المدير. – أليس كذلك يا جوفاني؟

- أجل... – وافقها وهو ينحني ليجمع ما تبقّى من شظايا البلور.

- جوفاني! دع عنك هذا! ستجرح يديك. –صرخت جاتا فوقف المدير باستعداد على الفور. –هل من الممكن أن يكون الأمر كذلك يا آنسة؟

ولماذا كتبوا أنّ حضرتك تفعلين ما تفعلين مع المدير؟ كم رغبت في قول ما تفكّر فيه على مسامع تلك الخبيثة. لكنها تلعثمت:

- حسنًا... أنا لا أظن... ولكن لماذا كتبوا العبارات الأخرى؟—قالت ما أرادت بنبرة مترددة وضعيفة.
- وما شأن هذا؟! —نبحت جاتا كالكلب وهي تخفي نظراتها بين الدروج. – تذكّري أنني والمدير نمثل السلطة العليا في المدرسة ومن الطبيعي أن يكرهنا التلاميذ. لكنهم اختاروك من بين كل الأساتذة. لماذا لم يكتبوا ضد المعلمة روفي التي تستعمل الأشرطة هي أيضًا؟ أتمنى يا آنسة بالميري أن نستخدم العقل. من كتب تلك العبارة لديه مشكلة معك. ولا أستغرب أنك لا تعرفين من يكون، فأنت لا تتابعين تلاميذك على النحو المطلوب.

طأطأت فلورا رأسها.

- ماذا نفعل الآن؟ – تدخّل المدير محاولًا أن يُهدّئ من روع الديناصور.
- ماذا نفعل؟ سنعيد النظام مستتبًا. سنتحدث عن طريقة تدريس الآنسة في وقت لاحق. – قالت نائبة المدير وهي تفرك يديها.
- سيصل التلاميذ بعد قليل. لعلّه من الأفضل أن لا يدخلوا إلى المدرسة... نعيدهم إلى بيوتهم ونعقد اجتماعًا مع الأساتذة لندرس الرد المناسب على هذه المشكـ... – كان المدير يقترح.
- كلاّ. لا تبدو لي الفكرة جيدة. على التلاميذ أن يدخلوا المدرسة ويتابعوا الدروس كالمعتاد. سنقفل قاعة التربية التقنية وسيقوم الأستاذ ديكارو بإعطاء درسه في الطابق الأعلى. لا ينبغي أن يعرف التلاميذ شيئا. بل وحتى الأساتذة. اتصل بمارغريتا كي تنظّف المكان كأنّ شيئًا لم يكن، ثم اتصل بالدهان كي يطلي الجدران. ونحن الاثنان... —حدقت جاتا بفلورا. —بل نحن

الثلاثة، أنت يا آنسة ستأتين معنا كي تساعدينا في التحقيقات، سنذهب إلى أوربانو لنطمئن على إيتالو ونحاول أن نكتشف هؤلاء المجرمين.

توتّر المدير. ولو كان له ذيل لهزّه كالكلاب المنزلية. –صحيح. صحيح. حسنًا. حسنًا – نظر إلى الساعة. –التلاميذ في وصولهم. هل أفتح لهم البوابة؟

تكرمت عليه جاتا بابتسامة موافقة فخرج المدير من القاعة. ثم التفتت حينها إلى الشرطيين. – وأنتما، ماذا تفعلان هنا حتى الآن؟ إن كان عليكما أخذ الصور فعجّلا. علينا أن نقفل هذا الباب. هيا. الوقت يداهمنا.

57

إنّ الصوت الذي يصدره غضروف الحجاب الأنفي الممزق، عندما يتم إعادته إلى محله، يشبه صرير الأسنان عندما تعض المثلجات.

استروووك.

لا ينتج حرق الأعصاب وخفقان القلب وقشعريرة الأبدان من الألم، وإنّما من الحساسية التي يصدرها ذلك الصوت القميء.

مرّ إيتالو ميلي بهذه التجربة العصيبة حين كان عمره عشرين عامًا. كان قد اصطاد طائر الحجل ذات مرة، وجاءه أحد الصيادين ليسرقه منه. تشاجرا بقوة في حقل عباد الشمس، حتّى قام ذلك الصياد الملاكم الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، بتوجيه ضربة قاضية بقبضة يده إلى أنف إيتالو. وتكفّل والد إيتالو بإعادة أنف ابنه إلى محلّه في تلك المرة.

أمّا هذه المرة، في قسم الإسعاف من مستشفى أوربانو، فقد كان يصيح مطالبًا بأن لا يمسّ أحد أنفه، لاسيّما إذا كان الطبيب صبيًا ما زال يتبول في فراشه.

- اسمعني يا سيدي. لا يمكنك أن تبقى هكذا. افعل ما تشاء... لكن أنفك سيبقى مشوهًا. – غمغم الطبيب وشعر بالإهانة.

نهض إيتالو بصعوبة من السرير. حاولت إحدى الممرضات البدينات أن تحتجزه، لكنه أبعدها كما لو كانت بحجم بعوضة. واقترب من المرآة.

- يا إلهي... يا إلهي... – كان يتمتم. –يا للمصيبة!

كان أنفه بنفسجي اللون ومنتفخًا كحبة الباذنجان ومائلًا إلى اليمين. كان ملتهبًا ومشتعلًا كالمكواة. وعيناه تختبئان تحت كعكتين منفوختين بلونٍ يتمدد بين الأحمر الأرجواني والأزرق الفضي. وكان الجرح العريض على جبينه مخيطًا بتسع نقاط ومطليًا بصبغة اليود ويقسم جبينه إلى جزأين.

- سأعدّله بنفسي.

أمسك إبطه بيده اليسرى وأنفه باليمنى. سحب نفسًا عميقًا و... *استرووك*... أعاده إلى محله بحركة صارمة أبهرت الطبيب والممرضتين.

كبت صرخته الحيوانية فاضطربت معدته وكاد يتقيأ من الألم. لم تعد ساقاه قادرتين على حمله، فاضطر للاستناد إلى المغسلة كي لا يسقط أرضًا.

- ها قد انتهيت. –عاد وهو يعرج ليستلقي على النقالة. –والآن احملوني إلى السرير. إنني متعب حتى الموت. أريد أن أنام. –أغمض عينيه.

- علينا أن نوقف النزيف ونقوم ببعض العلاجات. – قال الطبيب المتباكي.

- افعل ما تريد...

كم كان متعبًا... ومنهكًا، ومحطمًا أكثر من أي كائن حي على الأرض. عليه أن ينام يومين على الأقل كي لا يشعر بالألم أو أي شيء

آخر. وعندما يستيقظ سيعود إلى المنزل ويقضي ثلاثة أسابيع نقاهة في دلال زوجته العجوز. سيطلب منها أن تحضّر له الفيتوشيني بصلصة الراغو، ويشاهد التلفاز طوال الوقت، ويضع أفضل الخطط كي يثأر لنفسه ممن أذاه في تلك الليلة المرعبة.

أجل. عليهم أن يدفعوا الثمن. الدولة. المدرسة. عائلات أولئك العفاريت. لا يهم. كان على أحد ما أن يدفع الثمن غاليًا حتى آخر ليرة.

المحامي. عليّ أن أعيّن محاميًا. محاميا ذا خبرة. محاميًا مُحنّكًا وله معارف واسعة.

وبينما كان الطبيب والممرضتان يُدخلون السدّادة في منخاريه، فكر بأنّ هذه هي الفرصة التي لطالما انتظرها. وقد وصلت في الوقت المناسب تمامًا، على بعد خطوة من التقاعد. لقد أسدى له أولئك الصبية المشاكسون معروفًا عظيمًا. إذ جعلوه يختم سيرته العملية كبطل قومي ذاد عن مدارس الشعب. ولابدّ أن تكون المكافأة مبلغًا طائلًا من المال يغطّي كسر الغضروف الأنفي وتبعات ذلك على الجهاز التنفسي، إضافة إلى الخدوش والرضوض وآلامًا أخرى ستظهر في المستقبل.

ستنال على الأقل... لست أدري... حوالي العشرين مليونًا. كلا إنه مبلغ قليل جدًا. أتمنى أن أصاب بضيق تنفس أبدي، ليرتفع المبلغ على الأقل إلى الخمسين مليونًا أو يزيد.

كان يضرب أخماسًا بأسداس. هذا واحد من طباعه: يحسب مُستحقّات الترميم دون أي شعور بالألم من سبب الترميم نفسه. كان سيشتري سيارة جديدة تحتوي على الراديو والهواء المكيف. سيغيّر التلفاز بآخر أكبر منه، وأدوات المطبخ الكهربائية، وحوائج أخرى في بيته المريع. بالمحصّلة كان ثمنُ كلّ هذه الأشياء أنفًا مكسورًا وجُرحًا عرضيًا. ورغم ذلك الألم الفظيع الذي يسببه أولئك الأطباء الحمير، فإنه شعر بحنان ومحبة صادقتين وعفويتين تجاه أولئك الصبية المنحرفين.

58

كانت السماء، خلف التلال السوداء، مغطاة بالسحب التي تتلبد وتلتوي بين البرق والرعد، كأنه الطوفان العظيم. وتحمل الريحُ الرمالَ ورائحة البحر المالحة وبعض الأعشاب. ولا تكترث الأبقار البيضاء، في المراعي، لذلك الوابل من المطر، بل تتابع اجترارها للعلف ببطء ومنهجية، وترفع رؤوسها بين الحين والآخر كي تشاهد دون اهتمام كيف تثور الطبيعة.

كان بييترو على الدرّاجة يكاد يطير إلى المدرسة رغم المطر الغزير. لم يكن ليتحمل البقاء في المنزل. انتصر فضوله ورغبته في معرفة ما سيحدث على تظاهره بالمرض. كان قد وضع مقياس الحرارة خلسة في الماء الساخن. وفي اللحظة التي أراد أن يخبر فيها والدته بحرارته المرتفعة أصابه الخرس وظلّ ساكتًا.

كيف يبقى أسير السرير طوال اليوم دون أن يعرف إن استطاعوا فكّ القفل، أو يرى ردات فعل التلاميذ والأساتذة؟ عندما أخذ قراره بالذهاب كان الوقت قد تأخر. لبس على عجل وازدرد قدح القهوة بالحليب في رشفة واحدة، والتهم قطعتي بسكويت، وارتدى الجزمة والسترة المطرية. وركب الدراجة ليصل بأسرع وقت.

الآن وقد بقي القليل عن المدرسة، كان القلق يصلي فؤاده مع كلّ ضربة على الدوّاسات.

59

عندما دخلت الآنسة بالميري إلى المهجع، تولّد لديها الانطباع بأنّها ليست في مستشفى إيطالي بل في مركز بيطري في فلوريدا الجنوبية. إذ وجدت خروف البحر مستلقيًا على السرير وسط تلك القاعة الكبيرة وتحت الأضواء البيضاء الضخمة.

لم تكن فلورا خبيرة بعالم الحيوان، لكنّها شاهدت فيلمًا وثائقيًا عن خروف البحر على شاشة الناشيونال جيوغرافيك قبل عدة أسابيع.

يصنّف هذا الحيوان في الفصيلة الخيلانية، وهو عبارة عن فقمة بدينة بحجم عملاق، ويعيش في بحيرة تشاد وعند مصبّات الأنهار الكبرى في أمريكا الجنوبية. وبما أنّه مخلوق بطيء وكسول، فغالبًا ما كان يلقى حتفه مهروسًا في لوالب دفع الزوارق. وكان الآذن، بكرشه الناتئ، يبدو كخروف البحر تمامًا.

كان مفلطحًا وفي غاية البشاعة، وأبيض كرجل الثلج. أما كرشه المترهّل فكان كبيضة عيد الفصح على وشك الانفجار، وينبت حرش كثيف من الشعر الأبيض في أعلاه متصلًا مع شعر الصدر. ساقاه قصيرتان وثخينان وملطاوان تكتظان بالشرايين الزرقاء. أما عضلة ساقه العرجاء ذات اللون البنفسجي فهي مستديرة مثل خبز الصمّون. ذراعاه كالزعانف وأصابعه ضخمة مثل السيجار الكوبي. أمّا رقبته فيبدو أنّ الطبيعة الظالمة لم تتحمّل عناء إبرازها، حتّى التصق رأسه العريض بعظام كتفيه مباشرة. ناهيك عن حالته في تلك اللحظة، فركبتاه مليئتان بالخدوش ويداه بالجروح وجبينه مقطوب وأنفه معطوب.

لم تكن فلورا تطيق كسله ولا عصبيته المبالغ فيها مع التلاميذ. وكان من المقرف أن يعرّيها بنظراته عندما تمر أمام غرفة الحراسة. وقد أخبرتها الآنسة شيريلّو بأنه مشهور بطبعه الشهواني، ويذهب في كل ليلة مع الزنجيات البائسات اللواتي يمارسن الدعارة على الأوريليا.

ولم تكن لديها أدنى رغبة في لعب دور المحقّق مع المدير الغبي ونائبته الماكرة، بل كانت ترغب في البقاء داخل المدرسة لتعطي الدروس.

- تقدّمي بسرعة. - قالت لها جاتا.

جلس الثلاثة قرب وسادة الآذن. أومأت النائبة بتحية من رأسها ثم

تحدثت بنبرة أكبر القلقين في العالم. - كيف حالك يا إيتالو؟

ورغم الشحوب والرضوض التي تجهّم بها وجهه، فإنّ التعبير عن التقزز والتكتم لاح في عينيه الغائرتين.

60

- لست بخير! لست بخيرا كيف حالي؟ لست بخير!

أبدع إيتالو في تكرار العبارة التي ما انفكّ يحفظها من قبل. عليه أن يثير شفقتهم إلى أبعد حدّ، وأن يبدو كأعرج فقير في حاجة إلى العناية بعد أن ضحّى بنفسه فداء للمدرسة والأساتذة في وجه انحراف القاصرين.

- حسنًا يا إيتالو. اشرح لنا بالضبط ما الذي حدث ليلة أمس في المدرسة لو سمحت. - قال المدير.

نظر إيتالو حوله وبدأ يقص حكايةً فيها من الحقيقة ما يعادل الستين بالمائة، وابتكر من وحي خياله حوالي الثلاثين بالمائة، والعشرة بالمائة المتبقية تحتوي على البهارات السرديّة كالمبالغات والإثارة والتشويق السينمائي والرومنسيات التي تستدرّ التعاطف وتحرّك المشاعر والأحاسيس (...ليس بوسعكم أن تتخيلوا كم كان الطقس باردًا في غرفة الحراسة حيث أعمل، وحيدًا، بعيدًا عن بيتي، عن زوجتي، عن ولدي فلذة كبدي...). وقد أغفل سلسلة من التفاصيل غير المفيدة التي كانت ستثقل القصة وتجعل الحبكة أكثر تعقيدًا. (كيف كسرت أنفي؟ لابدّ أنّ واحدًا من أولئك الفتية ضربني على وجهي بينما كنت أمشي في الظلام). ثم ختم الخرافة. - والآن أنا هنا. في هذه المستشفى. إنني محطم كما ترون. ولا أستطيع أن أحرك ساقي وربما كُسرت عظمة في صدري أيضًا. ولكن لا يهم. حسبي أنني حميت المدرسة من المخربين، أليس كذلك؟ أطلب منكم شيئًا واحدًا: هلا ساعدتموني بوصفكم

متعلمين؟! فما أنا إلا بالعجوز الجاهل المسكين. ساعدوني في الحصول على مستحقاتي بعد سنوات طويلة من العمل، وبعد هذا الحادث المروع الذي حرمني من عافيتي الضئيلة أصلاً. قد يكفيني تبرع بسيط من الأساتذة وأولياء التلاميذ. شكرًا جزيلًا.

وبعد هذا الإسهاب، راح يمحّص في تأثير كلامه على المستمعين. المدير منحن على الكرسي ويضع يديه على فمه وعيناهُ تحدقان في الأرض. فرأى أنّ هذه الوضعية تعبيرٌ عن الأسى العميق لوضعه المأساوي. *ممتاز*. ثم مرّ ليفحص بالميري. كانت تلك الصهباء تنظر إليه بلا تعابير، لكنه لم يكن ينتظر منها الكثير. وفي النهاية، أخذ يستقصي وجه نائبة المدير. كان وجهها حجريًا لا يتسرب منه العطف أبدًا، وتبدي ابتسامة متهكمة على شفتيها. ماذا يعني هذا؟ ماذا تعني هذه الابتسامة الماكرة؟ هل يعقل أنّ تلك العانس الخبيثة لا تصدّقه؟

أطبق إيتالو عينيه وشد عضلات وجهه محاولًا أن يعبّر عن أكبر كمية من الألم. وظلّ ينتظر أن يواسيه أحد أو يجامله أو يشدّ على يده.

كحّت نائبة المدير ثم أخرجت دفتر الملاحظات والنظارة الطبية من محفظتها الصغيرة الزرقاء.

- لم أفهم بعض الأشياء التي قلتها يا إيتالو، لأنّها لا تتوافق بما استطعنا معاينته في المدرسة مع الشرطة. أريد أن أطرح عليك سؤالين لو سمحت.

- حسنًا. فلنسرع قليلًا لأنني أشعر بالإعياء.

- لقد قلت إنك قضيت الليل وحدك. من هي حليمة غوابريه إذن؟ رشح عن التحقيقات أنّ هذه الفتاة النيجيرية، والتي لا تحمل إذن الإقامة أيضًا، هي التي اتصلت بالشرطة.

تصاعد ألم حاد في أمعاء الآذن واندفع إلى الأعلى حتى كوى حلقه. حاول إيتالو أن يكبت هذه الموجة من الغاز الحامض التي وصلت إلى

بلعومه، لكنه لم ينجح فتجشأ بأفظع ما يمكن. تظاهر الثلاثة بأنهم لم يسمعوا شيئًا.

- ماذا قلت يا سيدتي؟ – وضع إيتالو يدًا على فمه. –من حليمة؟ لا أعرف هذه الفتاة، ولم أسمع باسمها من قبل...

- ياللغرابة. على ما يبدو أنّ الفتاة تمارس الدعارة. قالت إنها تعرفك جيدًا، وإنك أخذتها معك إلى المدرسة ودعوتها لقضاء الليلة معك...

أخذ إيتالو يسعل بشدّة، وراح أنفه ينبض كمدفأة مُعطّلة.

انتظروا... انتظروا... هل هذه العاهرة الكبيرة تحقق معي؟ وأنا الذي حميت المدرسة وكانت على وشك أن يدمّرها الأشرار! ما الذي يحدث هنا؟... هل يطعنونني في ظهري؟ وأنا الذي كنت أنتظر العناق أو علبة من شوكولا الفيريرو روشيه أو باقة من الأزهار!

-لابدّ أنها مجنونة، ولفّقت كل شيء. من هي؟ ماذا تريد مني؟ لا أعرفها... – قال محركًا ذراعيه كأنه يصطاد سربًا من البعوض.

- الفتاة تقول إنكما تتعشيان معًا مرتين في الأسبوع على الأقل. وتحدثت عن مزحة أيضًا... –تنهدت وأبعدت دفتر الملاحظات عن وجهها. –لم أفهم جيدًا... قال رجال الشرطة إنّ حليمة كانت غاضبة منك... لأنك أسأت إليها بمزحة خلال العشاء...

- كيف تسمح لنفسها هذه العاهـ...؟ –استطاع إيتالو أن يلجم لسانه بمشقة.

أطلقت نائبة المدير نظرة خارقة كالصاروخ.

- وأنا أيضًا أرى أن القصة في منتهى الغرابة. إلا أنّ هنالك ما يؤكد رواية السيدة غوابريه: كانت سيارتك خارج البوابة وقد اعتدت ركنها داخل الباحة. ثم هنالك شهادة الخدم في ذلك المطعم أيضًا...

أخذ الآذن يرتجف كورق الشجر، وينظر إلى ذلك الوحش عديم الرحمة الذي يتسلى بتعذيبه، وقد تملّكته الرغبة في الانقضاض عليها وخنق رقبتها وتحطيم أنفها وصُنع طوقٍ من أسنانها...كانت كالشيطان بلا شفقة، قلبُها حجر وفرْجها ثلاّجة.

- ما يجعلني أصدّق أنك لم تكن في غرفة الحراسة، عندما دخل المخربون إلى المدرسة، أنني أتذكّر ما حدث لك منذ عامين عندما دخل اللصوص إلى بيتك ولم تكن موجودًا فيه...
- كلاّ. كلاّ! كنت موجودًا هذه المرة، لكنني كنت نائمًا! أقسم بالله. ليس خطئي إن كان نومي عميقًا! –ثم التفت إلى المدير –أرجوك يا سيدي المدير. ماذا تريد هذه مني؟ إنني لست بخير. لا أقوى على سماع هذه الإهانات: أذهب مع العاهرات، وأغفل عن واجباتي. وأنا الذي أفخر بثلاثين عامًا من عملي. قل شيئًا، أرجوك يا سيدي.
- وماذا بوسعي أن أقول؟ –نظر الرجل الهزيل إليه كأنه ينظر إلى حيوان مهدد بالانقراض.–حاول أن تكون صريحًا وأن تقول الحقيقة. لا أفضل من قول الحقيقة...
- اغربوا عن وجهي... هيا... –تمتم بعينين مغمضتين كرجل يحتضر ويريد أن يسلّم الروح بطمأنينة.
- بل عليك أن تشكر تلك المسكينة. –ردّت عليه نائبة المدير. –لولاها لبقيت حتى الساعة مضرجًا بدمائك. أنت ناكر للجميل... والآن ننتقل إلى الموضوع الذي أزعجني جدًا. المسدس.

شعر إيتالو بأنه سيموت. باغتته رؤية، لحسن الحظ، خففت عليه من آلامه وضغوطه: رأى أنه يولج عمود الإنارة المغطّس بالفُليفلة الحارّة في دُبر تلك العجوز الشمطاء العانس، وهي تتأوّه من العذاب كأهل النار.

- لقد استخدمت مُسدّسًا في أروقة المدرسة.

- ليس صحيحًا!
- كيف ذلك؟ لقد وُجد المسدس بقربك... ولايبدو أنه مرخّص، ولا يبدو أنّ لحضرتك الإذن بالصيد. وهذا يسمّى حيازة سلاح...
- ليس صحيحًا!
- هذه جريمة خطيرة جدًا، ولها عقوبة...
- ليس صحيحًا!

تبنّى إيتالو، لشدة يأسه، استراتيجية الدفاع الأخيرة: النفي. أن ينفي كل شيء وأي شيء. الشمس حارة؟ ليس صحيحًا! العصافير تطير؟ ليس صحيحًا!

- لقد أطلقت الرصاص. وحاولت أن تصيبهم. وحطّمت نافذة الصالة الريا...
- ليس صحيحًا!
- كفى، تقول ليس صحيحًا ليس صحيحًا –صرخت نائبة المدير لتبدد الهدوء الذي حافظت عليه حتى اللحظة وتحولت إلى تنين صيني مرعب، فانثقب إيتالو وتناثر كبرغوث البحر.
- أرجوك أن تهدئي يا ماريوتشا، اهدئي... –توسّل إليها المدير، والتفت جميع المرضى في المهجع، ونظرت الممرضة إليهم بلؤم. فأخفضت نائبة المدير من حدة نبرتها، وعضت على أسنانها، وتابعت.
- اسمع يا إيتالو. إنك في حالة يرثى لها. ويبدو أنك لم تفهم ذلك حتى الآن. إنك مهدد بتهم متعددة: حيازة سلاح غير مشروعة ومحاولة بالقتل واستغلال الدعارة ومبالغة في السكر...
- لا لا لا لا – كرّر إيتالو متألمًا وهو يحرك رأسه الضخم.
- إنك أغبى مخلوق على وجه الأرض. ماذا أردت؟ تعويضات؟ وبكل وقاحة تطلب التبرعات؟ أصغ إليّ جيدًا الآن، واستوعب ما

سأقول. – نهضت ماريوتشا جاتا على قدميها، وسرعان ما قدح الشرر بعينيها الباهتتين، واحتقنت وجنتاها. أمسكت بياقة ثوبه وكادت ترفعه من السرير. –أنا والمدير نقوم بفعل ما نقدر عليه لكي نساعدك، ونقوم بهذا فقط لأن ابنك الشرطي توسّل إلينا وقال إنّ أمه ستموت من الألم إذا عرفت بما حدث. لهذا السبب فقط لم نبلّغ عنك. سنقوم بما نستطيع لنساعدك كي لا تدخل السجن وتخسر عملك وراتب التقاعد وكل شيء. لذا عليك أن تخبرنا بأسماء أولئك المشاكسين.

تنفّس إيتالو كالأسماك عندما تبلع الطعم، ثم زفر من أنفه في السدادات المعلقة على منخاريه.

- لا أعرف. أقسم بأولادي أنني لا أعرف. – بدأ ينوح وهو يضرب نفسه في السرير. – كان المخزن مظلمًا عندما دخلت إليه، وضربوني بالكرات الثقيلة فوقعت. مروا فوقي. كانوا اثنين أو ثلاثة. حاولت أن أمسك بهم ولم أستطع. أبناء القحبة.
- وماذا بعد؟
- كان هنالك واحد آخر يختبئ بين أفرشة الوثب و...
- وماذا؟
- ...لست متأكدًا، لأنني كنت بعيدًا ولا أحمل النظارات. لكن ملامحه لفتى نحيل وقصير يبدو أنه... أنه.. أنه ابن الراعي... لم أعد أذكر اسمه.. ولكنني لست متأكدًا. من الصف الثاني ب.
- موروني؟

أومأ إيتالو برأسه مؤكدًا. – غير أنّ هذا غريب...

- وما الغريب في الأمر؟
- لأنّ الفتى طيب ولايجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل. ولكن قد يكون هو.

- جيد. سنحقق في ذلك. - تركت جاتا ياقة قميصه وبدت راضية.
- تابع علاجك الآن. وسوف نرى في ما بعد ما الذي يمكننا فعله لأجلك. - ثم التفتت إلى من معها. - فلنذهب. تأخر الوقت. إنهم ينتظروننا في المدرسة.

نهض جوفاني كوزينتسا وفلورا بالميري كأنهما أحسا بوخزة إبرة تحت مؤخرتيهما.

- شكرًا، شكرًا... سأفعل كل ما تريدون. عودوا لزيارتي.

خرج الثلاثة وتركوا الآذن يرتجف في سريره. لقد افترسته الخشية من إنهاء آخر سنين حياته في السجن، بلا ليرة واحدة ودون راتب التقاعد أيضًا.

61

كان يشهد حربًا في أعماقه بين الفضول لرؤية ما حدث والرغبة في العودة إلى المنزل. جفّ فم بييترو من شدة البرد كما لو تناول رشفة من الملح، ونفخت الريح سترته المطرية، ولسع المطر وجهه، فتجمد ولم يعد يشعر بشيء. لقد عبر البلدة كلها عمليًا، بين برك الماء، وكاد أن ينعطف إلى شارع المدرسة عندما ضرب على الفرامل.

ماذا يوجد خلف تلك الزاوية؟ كلاب. كلاب ألمانية مدربة. والرفاق يقفون باصطفاف، حفاة عراة، يرتجفون بردًا تحت الطوفان ويرفعون أياديهم على جدران المدرسة، ورجال ببزة زرقاء ولثام أسود على وجوههم وجزمات ثقيلة في أرجلهم. - إن لم تقولوا من الفاعل سنقوم بإعدامكم واحدًا تلو الآخر.

أنا من فعلها. ها هو بيترو يتقدم رفاقه.

سيكون هنالك الكثير من البشر تحت المظلات، يقفون أمام المقهى المزدحم، ورجال الإنقاذ يحاولون فكّ القفل. وفي غمرة البشر ثمّتَ

فيديريكو وستيفانو وأندريا يستمتعون بالمشهد. لم يكن لديه رغبة في لقاء هؤلاء الثلاثة، أو أن يتقاسم معهم ذلك السرّ الذي يكوي سريرته.

كم كان يود أن يكون شخصًا آخر، واحدًا من أولئك الذين في المقهى يشاهدون الحدث. كان سيعود إلى المنزل مُرتاح البال راميًا وراءه تلك الصخرة التي جثمت على صدره.

وما يزيد المشهد فظاعة لقاء جلوريا، التي ستقفز فرحًا في الهواء وتتمنى أن تعرف من كان صاحب فكرة القفل العبقرية.

وأنا ماذا سأفعل؟ ماذا أقول لها؟ هل أقص عليها كيف جرت الأحداث؟

(هيا، تحرّك. هل ستقضي النهار كله خلف هذه الزاوية؟).

انعطف إلى شارع المدرسة. لا يوجد أحد هناك، ولا قبالة المقهى. تقدّم أكثر فرأى البوابة مفتوحة كالعادة. لا أثر لرجال الإنقاذ. وكانت سيارات الأساتذة في الموقف، وسيارة إيتالو أيضًا، ونوافذ الصفوف مضاءة. المدرسة مفتوحة إذن. كان يدوس على مهل، كأنه يرى مبنى المدرسة لأول مرة في حياته.

اجتاز البوابة. وفتش في الأرض عن بقايا القفل. لا شيء. أسند الدراجة إلى الحائط ونظر إلى الساعة. حوالي العشرين دقيقة من التأخير وقد يتلقى ملاحظة على ذلك. لكنه صعد درجات السلم على مهل، مشدوهًا، كما تصعد الروح السلالم الطويلة نحو الفردوس الأعلى.

- ماذا تفعل؟ هيا بسرعة! لقد وصلت متأخرًا! -صاحت الآذنة وفتحت الباب وأشارت له بالدخول. -هل جننت؟ هل جئت بالدراجة؟ هل تريد أن تُصاب بالزكام؟- كانت توبّخه.

- ماذا؟ أجل... لا لا! - لم يكن بييترو يصغي إليها.

- ما الذي دهاك؟

- لا شيء. لا شيء. -توجه كالرجل الآلي إلى صفه.

- أين تذهب؟ ألا ترى أنك تبلل البلاط؟ اخلع عنك هذا الشيء وعلّقه على المسندة!

عاد بييترو إلى الخلف ونزع سترته المطرية. انتبه إلى أنّها آذنة القسم آ، إن لم يكن إيتالو في غرفة الحراسة، فأين هو يا ترى؟ لم يرغب في معرفة ذلك، فالأمور تجري على قدم وساق وهذا يكفي.

كانت أطراف بنطاله مبللة، لكنه سينشف بسرعة في تلك الحرارة الدافئة التي تغمر المكان. أسند يديه المجمدتين قليلًا إلى المدفأة، بينما كانت الآذنة جالسة وتتصفح مجلة ما. استغرب من ذلك الهدوء الذي يهيمن على المدرسة، عدا صوت المطر الذي يضرب الزجاج ويسيل في الأسفل عند الساقية.

كانت الدروس قد بدأت والجميع في صفوفهم. اتجه بييترو نحو صفه ووجد باب أمانة السر مفتوحًا والموظفة تتكلم عبر الهاتف. وباب مكتب الإدارة مغلق كالعادة، وصالة الأساتذة خاوية.

كل شيء طبيعي.

قبل أن يدخل إلى الصف كان عليه أن يذهب إلى الأسفل ليرى قاعة التربية التقنية. إن كانت الأمور طبيعية هناك أيضًا، بلا عبارات أو شظايا تلفاز، فقد حدث واحد من شيئين: إما أنه كان يحلم بكل ما حدث، ما يعني أنه كان مجنونًا؛ وإما أنّ الفضائيين الطيبين هبطوا إلى الأرض وأعادوا كل شيء كما كان. بكبسة زر تُمحى العبارات ويعود التلفاز والمسجلة إلى الحياة ويتلاشى إيتالو.

نزل السلّم. أدار المقبض، لكن الباب كان مقفلًا. وصالة الرياضة أيضًا.

ربما قرروا أن يعيدوا الأمور إلى نصابها ويتظاهروا بأنّ شيئًا لم يحدث.

(لماذا؟).

لأنهم لا يعرفون من الفاعل، فمن الأفضل أن يتظاهروا بأنّ شيئًا لم يحدث. أليس كذلك؟

اطمأنّ لهذه النتيجة وهرع إلى الصف. لكنّ قلبه أخذ يخفق كالثور ما إن أدار المقبض. ودخل بحيائه المعهود.

62

كانت فلورا جالسة في المقعد الخلفي من سيارة المدير التي تصعد تلة أوربانو ببطء. كان المطر ينهمر بشدة على سقف السيارة بوتيرة هستيرية، واللون الرمادي يطوّق المشهد والبرق يضرب فوق البحر في الأفق. وتحوّل الطريق الدولي إلى سيلٍ جارفٍ تمضي الشاحنات فيه مسرعة، وكأنها حيتان ستلتهم السيارة الصغيرة.

- لا أستطيع رؤية شيء. —التصق المدير بالمقود. —يا لسائقي الشاحنات كم هم طائشون.
- تجاوزْ هذه الشاحنة. ماذا تنتظر؟ —نائبة المدير تعطي التوجيهات. —ألا ترى أنه أفسح لك المجال؟ هيا يا جوفاني. تحرّك.

كانت فلورا تفكر في ما قاله الآذن وترى الأمر عبثًا في عبث. هل يعقل أن يدخل بييترو موروني المدرسة ويحطّم كل شيء؟ كلا. لم تقنعها الحكاية، ولم يكن بييترو ليتصرف هكذا. كانت تتوسل إليه جاثمة كي يقول كلمة واحدة. إنه فتى هادئ وطيب. أما تلك العبارة فقد كتبها فيديريكو بييريني، لا ريب في هذا. وما الذي قد يجمع بين موروني وبييريني؟ لاشيء.

منذ بضعة أسابيع، طلبت فلورا من الصف الثاني ب موضوع إنشاء تقليديًا: ما الذي تحب أن تفعله في المستقبل؟ فكتب بييترو موروني:

أنا أحب دراسة الحيوانات كثيرًا. عندما أكبر أريد أن أصبح بيولوجيًا وأذهب إلى إفريقيا لتصوير الأفلام التسجيلية عن الحيوانات. سأعمل كثيرًا

وسأسجل فيلمًا عن ضفادع الصحراء الكبرى. ربما لا يعلم أحد عن وجود الضفادع في الصحارى. إنها تعيش تحت الرمال وتظل في سبات لمدة أحد عشر شهرًا وثلاثة أسابيع (سنة إلا أسبوع) وتستيقظ بالضبط في الأسبوع الذي تمطر فيه السماء على الصحراء فتفيض. لديهم وقت قليل وعليهم أن يقوموا بالكثير من الأعمال، مثلًا أن يأكلوا (حشرات) وينجبوا (شرانق) ويحفروا حفرة أخرى. هذه هي حياتهم. إنني أرغب في الانتقال إلى الثانوية، لكن أبي يقول إنه عليّ أن أعمل في رعي الأغنام وأهتم بالحقول مثل أخي ميمو. حتى ميمو لا يحب هذا العمل، ويرغب في الذهاب إلى القطب الشمالي ليصطاد الأسماك العجيبة ولكنني لا أظن أنه سيذهب. إنني أود الانتقال من الثانوية إلى الجامعة أيضًا لدراسة الحيوانات لكن أبي يقول إنه عليّ دراسة الأغنام. لقد درست الأغنام ولكنني لا أحبها.

هذا ما كان عليه بييترو موروني. فتى سارح، يحب البحث عن الضفادع في الصحاري. مسالم وخجول كطائر الدوري. فما الذي حدث له فجأة؟ أيعقل أن يتحول من لا شيء إلى مخرّب وشريك لفيديريكو بييريني؟

كلا.

63

كان جميع التلاميذ في الصف حاضرين، ويرمقه الثلاثة بنظرات قلقة، وتبتسم له جلوريا من المقعد الأول. وقد خيّم الهدوء على الصف لأنّ المعلّمة روبي كانت تطرح الأسئلة.

– هل تعرف أنك متأخر يا موروني؟ ماذا تنتظر؟ هيا ادخل واجلس في مكانك. –أمرته روبي وهي تحدّق فيه بنظارتها الطبية الغليظة كقعر الزجاجة.

كانت ديانا روبي امرأة مُسنّة بدينة بوجه مفلطح، أشبه بالراكون.

ذهب بييترو إلى مقعده، قرب النافذة وأخذ يخرج الكتب من الحقيبة فيما تتابع المعلمة سؤالها لجانيني وبودو الواقفين إلى جانب المنضدة وهما بصدد تقديم بحثهما: الفراشات ودورتها الحيوية.

جلس بييترو ونكز التونة، زميله على المقعد، وهو يراجع بحثه عن الجراد. يدعى أنطونيو إراتشي، ويلقّبه الجميع بالتونة لأنه طويل وهزيل ورأسه بيضوي صغير. ورغم كونه لا يهدر وقته إلا في الدراسة، فإن بييترو لم يقِم معه صداقة نموذجية.

- هل حدث شيء غريب هذا اليوم يا تونة؟ —همس بييترو واضعًا يده على فمه.

- بأي معنى؟

- لا أعرف. شيء ما... هل رأيت نائبة المدير والمدير؟

- لا لم أرهما. — لم يزح أنطونيو عينيه عن الكتاب. — دعني أدرس أرجوك. سيحين دوري بعد قليل.

ثم حرّكت جلوريا ذراعيها محاولة إثارة انتباهه. — كنت أخشى أن لا تأتي.—همست له بصوت منخفض وهي تنثني إلى جانبه.—سيحين دورنا بعد قليل. هل أنت مستعد؟

أومأ بييترو برأسه مؤكدًا، وكان البحث آخر ما يفكر فيه حينذاك. وربما لو لم يحدث بالأمس ما حدث لانشغل باله كثيرًا بخصوص البحث.

رماه فيديريكو بقصاصة ورق. ففتحها وقرأ فيها: «ها يا رأس القضيب. ما الذي حدث؟ هل أحكمت القفل جيدًا؟ كان كل شيء طبيعيًا عندما وصلنا. ماذا فعلت أيها الأبله؟».

لقد أحكم القفل بالتأكيد، بل جرّب أن يفتحه وما انفتح. شق ورقة من الدفتر وكتب: «أجل. لقد قفلته جيدًا». رمى القصاصة إلى فيديريكو، لكنه أخطأ الجهة كليًا فانتهت على مقعد جانا لوريا، بنت بائعة الدخان، أغلظ الفتيات وأكثرهن إزعاجًا في الصف كله. أخذت

جانا القصاصة وأدخلتها في فمها وهي تبتسم بلؤم. وكادت أن تبتلعها لو لم يتدخل فيديريكو في الوقت المناسب ليضربها بدقة على أسفل رقبتها. فبصقت جانا القصاصة، وخطفها فيديريكو بسرعة البرق. ولم ينتبه أحد منهم أنّ روفي العجوز، من خلف عدستيها المضادتين للصواريخ، رأت كل شيء.

- موروني! هل أفقدك المطر رشدك؟ ما الذي يحدث؟ تصل متأخرًا، تثرثر، ترمي قصاصات الورق، ما بك؟ – قالت روفي دون غضب، بل بدت فضولية لفهم تصرفات ذاك الفتى المميز الذي تكاد لا تسمع صوته أغلب الوقت ولا تراه – هل قمت بالبحث يا موروني؟
- أجل آنستي...
- ومع من قمت به؟
- مع شيلاني.
- جيد جدًا. تعالا إلى هنا وقدّماه أمامي. – ثم التفتت إلى التلميذين اللذين كانا هناك. – بوسعكما الذهاب. أفسحا المجال لموروني وشيلاني. آمل أن يكونا قد قاما ببحث أفضل يستحق الكفاية على الأقل.

كانت المعلّمة روفي كناقلة نفط ضخمة وبطيئة تطوف بحر الحياة دون أن تكترث للريح والأعاصير. ثلاثون عامًا من العمل جعلتها عديمة الحساسية من الأمواج العالية. وتستطيع أن تجعل التلاميذ يعملون، وتنال احترامهم، دون جهد مضاعف.

وقف بييترو وجلوريا إلى جانب المنضدة. بدأت جلوريا الحديث عن عادات البعوض الحيوية ومرحلة التشكل المائية. وكانت تبحث عن عيني بييترو بينما تتحدث. *هل رأيت؟ لقد حفظته عن ظهر قلب.*

كانت مادة العلوم المادة المفضلة عند بييترو، وعليه أن يجبر جلوريا

على دراستها. ويعيد عليها الدرس، بصبر لا ينفد، بينما تسرح بأفكارها بعيدًا. لكن أمورنا الآن بخير، صح؟

كانت جلوريا جميلة تُشهِقُ الأنفاس. *لا شيء أفضل من أن تكون صديقتك المفضلة جميلة. هكذا بوسعك أن تنظر إليها قدرما تريد دون أن تظنّ بك سوءًا.*

عندما حان دوره في الحديث، انطلق بهدوء ودون تردد. تحدّث عن خواص البعوض النوعية. وكان يشعر بالغبطة والسعادة كأنه سكران. فالخطب انجلى والمدرسة بخير وها هو ذا يتحدث عن البعوض.

سمح لنفسه باستطراد طويل عن أفضل الطرق لطرد البعوض من المنزل. وفصّل القول في محاسن المبيدات التقليدية وأضرارها. ثم تحدث عن دهون كان يفكّر باختراعه من الريحان والشمّر البري يُدهن به الجسم، ما إن يشمّه البعوض حتى يهرب دون رجعة بل ويصبح نباتيًا أيضًا.

- حسنًا يا موروني. جيد. كنتما رائعين. كان البحث ممتازًا. -قاطعته المعلمة وهي راضية. —والآن عليّ أن أقرر العلامة التي سأعطي...

فُتح الباب. الآذنة.

- ما الأمر يا روزاريا؟
- على موروني التوجه إلى مكتب الإدارة.

التفتت إليه المعلمة.

- بييترو...؟ —اصفرّ وجهه وتشنّج، كأنّهم أخبروه بأنّ الكرسيّ الكهربائيّ جاهز. راح يضغط بيديه على حافة المنضدة. —ما بك يا موروني؟ هل أنت بخير؟

هزّ رأسه بنعم، وتوجه إلى الباب دون أن ينظر إلى أحد. نهض فيديريكو من مقعده وأمسك برقبة بييترو وهمس شيئًا ما في أذنه.

- من قال لك أن تنهض يا بييريني؟ عد إلى مكانك! -صرخت روفيو وهي تضرب السجل على المنضدة.

فاستدار فيديريكو إليها وابتسم لها بلا مبالاة. - عذرًا يا آنسة. سأعود حالًا إلى مكاني.

بحثت المعلمة عن بييترو لتقول له شيئًا لكنه كان قد مضى مع روزاريا.

لقد عرفني إيتالو.

كان بييترو قد فكر جديًا بأن يرمي نفسه من النافذة، عندما قالت الآذنة إنّ عليه الذهاب إلى المدير. ولكن كانت هنالك مشكلتان. الأولى، أنّ النافذة مغلقة *(بوسعي أن أحطمها برأسي على أي حال)*. والثانية، أنّ الصف في الطابق الأول، وحتى لو نجح في فتح النافذة وارتمى على ملعب الكرة الطائرة لكان سيكسر ساقه كحد أقصى. ولم يكن ليموت في النهاية.

لو كان الإله عادلًا لوضع صفه في الطابق الأخير من ناطحة سحاب. هكذا كانوا سيجدونه في الأسفل، مهروسًا كحبة طماطم فاسدة. وكانت الشرطة ستحقق وتكتشف أنّه لا شأن له بالأمر. وفي الجنازة سيقول الراهب إنه كان بريئًا وليس بمذنب.

كان يمشي نحو مكتب الإدارة وهو يشعر بالغثيان حقًا. «إن فكّرت، مجرد تفكير، بأن تقول اسمي، سأقتلك قسمًا بأمي» هذا ما همس به فيديريكو في أذنه، وقد توفيت أمه منذ مدة قصيرة.

كان يشعر بحاجته إلى التبول والتغوط والتقيؤ. نظر إلى ذلك السجّان الذي يحمله دون أي شعور بالشفقة ليضعه تحت قبضة السيّاف.

هل بوسعي أن أطلب منها الذهاب إلى الحمّام؟

(لا طبعًا).

عندما ينتظرك المدير لا يحق لك الذهاب إلى أي مكان، ثم إنها كانت ستظن أنه قد يحاول الفرار من النافذة.

(لم يكن عليك أن تأتي إلى المدرسة أصلًا. لماذا لم تبق في المنزل؟).

لأنني غبي. لأنني ولدت غبيًا. لأنهم خلقوني هكذا، غبيًا بكل المعايير.

شعر بييترو بالإحباط. إيتالو عرفه وقال للمدير.

لم يستدعه المدير ولا لمرة واحدة. جلوريا مثلًا، تم استدعاؤها مرتين. الأولى عندما خبأت دفاتر لوريا تحت مغسلة الحمّامات والثانية عندما تشاجرت مع ستيفانو رونكا في صالة الرياضة. وتلقت في المرتين تنبيهًا.

أمّا أنا فلم يستدعني ولا مرة. لماذا عرفني إيتالو وحدي؟

(لأنك اختبأت بين الأفرشة. لماذا اختبأت هناك؟ لو اختبأت معهم...).

لكنه كان بلا نظارات، والمسافة بيننا كانت بعيدة...

(عليك أن تتمالك أعصابك قبل أن تتغوط في ثيابك ويكشفون سرّك. لذا فاهدأ ولا تقل شيئًا. أنت لا تعرف شيئًا. أنت كنت في المنزل. أنت لا تعرف شيئًا).

- ادخل... – أشارت الآذنة إلى الباب المغلق.

يا ويلتاه كم كان يشعر بالخوف! اشتعلت أذناه وتصببت أنهار من العرق من رأسه. فتح الباب ببطء. كان المكتب عبارة عن قاعة كبيرة ومجردة. في السقف ثمّتَ ضوء النيون الطويل الذي يُغرق المكتب بالأصفر الشاحب فيجعله يشبه حجرة الموتى. وعلى اليسار هنالك منضدة خشبية مليئة بالأوراق ومكتبة معدنية فيها مصنفات خضراء. وعلى اليمين ديوان جلديّ زائف وأريكتان ببطانة مستهلكة وطاولة صغيرة من زجاج فوقها منفضة نحاسية ونبتة تكاد أن تقع من على أحد الجوانب. وبين النوافذ، على الجدار، ثمّتَ لوحة منمنمة لثلاثة رجال على الأحصنة يدفعون أمامهم قطيعًا من الأبقار.

كان المدير جالسًا إلى إحدى الأرائك ونائبته (المرأة الشريرة عالميًّا) إلى الأريكة الأخرى. والآنسة بالميري جالسة إلى كرسي.

- اقترب يا بنيَّ واجلس هنا. – قال المدير.

جر بييترو نفسه جرًا وهو يجتاز تلك القاعة الكبيرة وجلس إلى الديوان.

كانت الساعة التاسعة واثنتين وأربعين دقيقة.

64

انفصام الشخصية. هو الاسم العلمي للحالة التي يعاني منها بييترو موروني كما رأى الأساتذة. إذ يتعرض المصاب إلى مشاكل جدية في اندماجه مع المجموعة، ومصاعب في إقامة العلاقات مع الرفاق والتواصل مع المعلمين. ويُخفي ذو الشخصية المنفصمة عنفًا وانطوائية واضطرابًا في تركيبه النفسي. وغالبًا ما يأتي من أسرة تعيش أوضاعًا متوترة، ويكون أبوه مدمنًا على الكحول ولديه مشاكل مع القانون، وتخوض أمّه حالات اكتئاب وتخبّط ذهني، ويعجز إخوته عن النجاح في المدرسة.

ما إن رأته فلورا يدنو حتى ظنت أنّ الفتى يواجه أبشع لحظات حياته. كان الخوف واضحًا على وجهه الشاحب... *(ويبدو أنه مذنب... بل يبدو مذنبًا أكثر من يهوذا)*... يقطر العرق من كل مسامّه... *كان إيتالو على صواب إذن.*

65

في الساعة التاسعة وسبع وخمسين دقيقة اعترف بييترو باكيًا أنه دخل إلى المدرسة.

كان يبكي بصمت وهو جالس إلى الديوان ذي الجلد المزيف. ويستنشق بأنفه ويمسح دموعه براحة يده بين الفينة والأخرى.

استطاعت جاتا أن تجعله يتحدث، لكنه لم يكن ليقول شيئًا بعدئذ حتى لو قتلوه. واستطاع المدير الطيب ونائبته الشريرة أن يحاصراه ويخدعاه.

في البدء تعامل معه المدير بهدوء حتى باغتته جاتا بالحقيقة. — موروني، مساء البارحة رآك إيتالو في المدرسة.

حاول بييترو أن يناور لكن كلماته لم تقنعه هو نفسه في المقام الأول، فما بالك بهؤلاء. سألته النائبة: — أين كنت البارحة في التاسعة مساء؟ — فأجابها بييترو أنه كان في المنزل، ثم تشوش وأردف أنه كان عند جلوريا شيلاني. — جيد جدًا، الآن نتصل بالسيدة شيلاني ونستوضحها. — أخذت دليل الهواتف. لم يشأ بييترو أن تتصل النائبة بأم جلوريا وتخبرها بأنهم يشكّون في دخوله المدرسة وتخريبها. كان يخشى أن تأخذ عنه انطباعًا سيئًا. فاعترف.

- أجل. صحيح. دخلتُ إلى المدرسة. — ثم أجهش باكيًا.

- هل كان أحد ما برفقتك؟— لم تعبأ جاتا بدموعه

(إن فكّرت، مجرد تفكير، في نُطق اسمي، سأقتلك قسمًا بأمي).

هزّ رأسه بلا.

- هل تظنّ أنني سأصدّق أنك وضعت القفل ودخلت وحطمت التلفاز ثم كتبت العبارات وأذيت إيتالو لوحدك؟ موروني! عليك أن تقول الحقيقة وإلا جازفت بعامك الدراسي. أتفهم؟ أتريد أن تُفصل من كل مدارس إيطاليا؟ أتريد أن تذهب إلى السجن؟ من كان معك؟ إيتالو يقول إنكم ثلاثة وربما أكثر. هيا تكلّم وإلا تحمّلت وحدك القصاص!

66

هذا يكفي.

تحوّلت هذه القصة إلى شيء لا يطاق. هل تحسب هذه الخبيثة

نفسها محققًا جنائيًا؟ كان إيتالو أول ضحاياها، والآن هذا الصغير البائس. كانت فلورا تشعر بالأسى والتعاطف مع ذلك الطفل الذي يذرف الدموع خوفًا من تلك الشريرة.

بقيت فلورا جالسة دون أن تنبس ببنت شفة حتى اللحظة. *ولكن كفى!* نهضت، جلست، ثم نهضت مجددًا. اقتربت من جاتا التي كانت تطوف ذهابًا وإيابًا في القاعة وهي تدخن كمدخنة السفينة.

- هل أستطيع التحدث إليه؟ — سألتها بصوت منخفض.

- لماذا؟ — نفخت نائبة المدير غيمة من الدخان.

- لأنني أعرفه. وأعرف أنّ هذا الأسلوب لا يؤدي معه إلى نتيجة.

- آه. حضرتك تعرفين أسلوبًا أفضل؟ أرنا إياه. تفضلي...

- هل بوسعي أن أكلّمه على انفراد؟

- فلندع الآنسة بالميري تجرّب يا ماريوتشا. فلندعهما معا. ولنذهب إلى المقهى... — تدخّل المدير المسالم.

أطفأت جاتا السيجارة في المنفضة، وخرجت مع المدير بعد أن صفعت الباب. وبقيا بمفردهما أخيرًا.

جثمت فلورا على ركبتيها قبالة بييترو الذي ما زال يبكي ويغطّي وجهه بيديه. بقيت هكذا لبضع ثوان ثم مدت يدها وداعبت رأسه.

-بييترو. أرجوك. كف عن البكاء. لكلّ مشكلة حلّ. اطمئن. أصغ إليّ. عليك أن تقول لي من كان معك. نائبة المدير تريد أن تعرف ذلك، لن تترك الأمر يمر هكذا. ستجبرك على قوله. — جلست بقربه. — أنا أظن أنني أعرف لماذا لا تريد البوح. لأنك لا تريد أن يقال عنك إنك جاسوس، صحيح؟

رفع بييترو يديه عن وجهه. لم يعد يبكي لكنه كان مهدهدًا من الشهقات.

- كلا. أنا الفاعل... — تمتم وهو يمسح مخاطه بكُمّ الكنزة.

شدّت فلورا على يديه الساخنتين.

- إنه بييريني. صحيح؟

- لا أستطيع لا أستطيع... - كان يتوسل إليها.

- عليك أن تقول. وستحلّ المشكلة على الفور.

- قال لي إنه سيقتلني إن أخبرت عنه. -وانفجر مجددًا بالبكاء.

- إنه يكذب. لن يجرؤ على مسّك بسوء... - عانقته. - كفى بكاءً بالله عليك. قصّ لي كيف جرت الحادثة. بوسعك أن تثق بي.

- لا أستطيع... - ولكنه حين أغفى رأسه على صدرها، قصّ عليها باكياً أنّ بييريني وباتشي ورونكا أرغموه على الدخول إلى المدرسة والمشاركة في الكتابات المسيئة، وأنه اختبأ بين أفرشة الوثب وأطلق إيتالو عليه النار.

وبينما كان يتحدث، سرحت فلورا تفكّر في هذه الحياة الظالمة. لماذا حين يعترف أحد رجال المافيا ويتوب، يمنحه القضاة هوية جديدة وباقة من الضمانات وتخفيفًا في العقوبة، بينما لا يلقى هذا الطفل سوى التهديد والوعيد بعد اعترافه؟

لم يكن وضع بييترو يختلف عن المافيوزيين التائبين، ولم يكن تهديد فيديريكو أقل خطورة من توعّد زعماء المافيا.

عندما أنهى بييترو كلامه، رفع رأسه ونظر بعينين محمرّتين. - أنا لم أكن أريد الدخول إلى المدرسة. لقد أجبروني. ها قد قلت الحقيقة. لا أريد أن أرسب. إن رسبت، فلن يدعني أبي أكمل الدراسة أبدًا.

لفحت عاصفة من الحنان مشاعر فلورا، فضمته إليها بحرارة. كم رغبت أن تأخذه وتحمله بعيدًا. كم رغبت أن تتبناه. كانت ستدفع الغالي والنفيس ليصبح ابنها، وستعتني به وترسله إلى الثانوية في مكان يضمن له السعادة ويبعد ملايين الأميال عن هذه الغابة المتوحشة. - لا تقلق. لن ترسب. أقسم لك. لن يؤذيك أحد. انظر إلي يا بييترو. - رفع

بصره إليها. –سأقول إنني أنا من طرح عليك اسم فيديريكو ورفيقيه، وأنت اكتفيت بالتأكيد. لا شأن لك هكذا. فالكارثة لم تقم بها بمفردك. ربما تفصلك جاتا عن المدرسة لبضعة أيام وهذا أفضل. لن يتهمك أحد بأنك جاسوس. لا تقلق فأنت تلميذ مثابر ولن ترسب. فهمت؟ إنني أعدك بذلك.– هزّ بييترو برأسه. –والآن اذهب إلى الحمّام. اغسل وجهك وعد إلى الصف. سأهتم أنا بالحلّ.

67

مُني الأربعة بفصل من المدرسة لخمسة أيام. ويتحتم على أولياء أمورهم أن يأتوا بهم في اليوم السادس ليجتمعوا بالمدير والأساتذة.

هكذا قررت جاتا نائبة المدير (والمدير أيضًا). وجاء الدهان ليطلي جدران قاعة التربية التقنية على عجل، ورُميت بقايا التلفاز والمسجلة. وتوجهت الإدارة بطلب إلى مديرية التربية والتعليم للسماح للمدرسة بسحب بعض الأموال من الصندوق لشراء أجهزة إلكترونية جديدة.

بعد اعتراف بييترو موروني، تم استدعاء الآخرين واحدًا تلو الآخر. فاعترف أندريا باتشي وستيفانو رونكا، والزعيم فيديريكو بييريني أيضًا. بوسع جاتا أن تعتبر نفسها راضية، بعد أصبوحة مليئة بالاعترافات.

68

أما الآن فكان بييترو سيواجه مشكلة أخرى: كيف يخبر والده بالموضوع.

أمدّته جلوريا بنصيحة. «أخبرْ والدتك واطلب منها أن تجتمع بالمدير. وقل لها أن لا تطلع أباك على الأمر. وتظاهرْ بأنك تذهب إلى المدرسة بشكل نظامي خلال هذه الأيام الخمسة. وتعال إلى منزلي.

هكذا تقضي الوقت في غرفتي وتقرأ القصص المصورة. وإن جعت تأكل سندويشة وإن رغبت في مشاهدة فيلم تخرج شريطًا من الدرج. بسيطة».

كان هذا هو الفرق الكبير بينهما. جلوريا تستسهل أي شيء، عكس بييترو تمامًا. لو حدثت هذه القصة معها، كانت ستقعد في حضن والدتها التي سوف تدللها وتأخذها إلى أوربانو وتشتري لها الهدايا. ولم تكن والدته لتفعل شيئًا كهذا، بل كانت ستنشغل بالبكاء وتوجع رأسه بالأسئلة. (لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تقع دومًا في المصائب؟) ولم تكن لتسمع جوابًا، أو تعرف إن كان مذنبًا أم لا. بل كانت ستتوتّر لمجرد التفكير في الاجتماع مع الأساتذة (أنا لم أعد أحتمل شيئًا. أنت تعلم أنني مريضة، ولا ينبغي أن تطلب مني شيئًا كهذا يا بييترو). لم تكن لتفهم أن ابنها مفصول من المدرسة، وسوف تدخل الأسباب اللعينة من أذن وتخرج من أخرى. خلاصة القول إنها لم تكن لتفهم شيئًا. (عليك أن تكلّم والدك بمثل هذه الأمور. إنك تعلم أنني مريضة ولا أستطيع فعل شيء).

كان جرار والده قبالة النادي. ارتجل بييترو عن الدراجة وابتلع كمًا من الهواء ودخل. لم يكن ثمّتَ أحد سوى النادل جابريلي الذي كان مندمجًا بتصليح آلة القهوة.

كان أبوه جالسًا إلى طاولة صغيرة يقرأ الجريدة، يلمع شعره الأسود المدهون بالجِلّ تحت ضوء النيون. كان يضع نظاراتيه على أنفه، ويتابع خطوط الجريدة بسبابته ووجهه متجهم ويغمغم مع نفسه. يبدو أنّ الأخبار ليست بسارّة (لا تستطيع ذاكرة بييترو أن تمحي صورة والده الغاضب دومًا). دنا منه بصمت، وناداه عندما بات قريبًا.

- بابا...

التفت السيد موروني. رآه فابتسم.

- بييترو! ماذا تفعل هنا؟
- جئت لكي...
- اجلس. أتريد المثلجات؟
- لا شكرًا. – جلس بييترو.
- كيس الشيبس؟ ماذا تريد؟
- لا شيء. شكرًا.
- لقد انتهيت تقريبًا. سنذهب إلى المنزل بعد قليل. – وعاد لقراءة الجريدة.

كان مزاجه معتدلًا، وهذا ما يبعث على الراحة.

- بابا. عليّ أن أخبرك بشيء... – فتح الحقيبة، أخرج منها بطاقة وسلّمه إياها.
- ما هذا؟ – قرأها السيد موروني. – ما هذا؟– انخفض صوته.
- لقد فصلوني... وعليك أن تذهب لتتحدث مع نائبة المدير.
- ماذا فعلت؟
- لا شيء. ليلة البارحة حدثت كارثة... – وبثلاثين ثانية قص عليه الحكاية. مطابقة للحقيقة تقريبًا. اجتزأ منها مشهد العبارات، لكنه تكلّم عن التلفاز والمسجلة وكيف أجبره الثلاثة على الدخول.

وعندما أنهى حديثه نظر إلى والده. كانت ملامحه حياديةً، ليس غاضبًا لكنه ما انفكّ ينظر إلى البطاقة كأنها مكتوبة بالهيروغليفية الفرعونية. وظلّ بييترو صامتًا يشدّ أصابعه بعصبية وهو ينتظر الإجابة. ثم تحدث والده أخيرًا. – وما المطلوب مني الآن؟

- ينبغي أن تذهب إلى المدرسة لتتكلم مع نائبة المدير. هذا ضروري... –حاول بييترو أن يُبدي الأمر كأنه عملٌ ينتهي في دقيقة واحدة.

- وماذا تريد مني نائبة المدير؟
- لا شيء... ربما ستقول لك إنني... لا أعرف... إنني أخطأت. إنني قمت بشيء ليس عليّ القيام به. شيء من هذا القبيل.
- وما شأني أنا؟
- آآآآ... *(ما شأنك!!)*... حسنًا... أنت والدي.
- أجل، ولكنني لم أدخل أنا إلى المدرسة. لم أكن أنا الذي أطعت أوامر حثالة أغبياء. أنا في مساء الأمس قمت بعملي وعدت إلى البيت لأنام. – عاد لقراءة تلك الجريدة. وأقفل على الموضوع.
- هل هذا يعني أنك لن تذهب؟ – جدّد بييترو المحاولة.
- نعم. –رفع السيد موروني نظره عن الجريدة. –بالتأكيد لن أذهب. أنا لا أذهب لأقدم اعتذارًا عن السخافات التي تقوم بها أنت. تدبّر أمورك فأنت ناضج بما فيه الكفاية. هل تفعل المشاكل وتطلب مني حلّها؟
- ولكن يا أبتي لست أنا من يريدك أن تذهب إلى المدرسة. إنها نائبة المدير التي تريد التحدث إليك. إن لم تأت معي قد تفكّر أنّ...
- ماذا سوف تفكر؟ فلنستمع! – غمز السيد موروني، ويبدو أنّ هدوءه الظاهري آخذ بالتقلّب.

...أنّ أبي لا يهتم لأمري أبدًا. هذا ما ستفكر فيه: أن والدي مجنون سكّير ولديه مشاكل مع القانون. (قالت له تلك الحقيرة جانا لوريا ذات يوم حين تشاجرا من أجل المقعد في الباص: أبوك سكّير مجنون ذميم). *أنني لست كالآخرين الذين لديهم آباء طبيعيون يتولون أمورهم المدرسية.*

- لا أعرف. ولكنني سوف أرسب العام إن لم تذهب. عندما يتم الفصل، على الآباء أن يذهبوا إلى المدرسة. هذا إجباري. ربما تعدهم بأنني...

- ليس عليّ الذهاب إلى أي مكان. من العدل أن ترسب وتعيد السنة مثل أخيك الأحمق. وهكذا نكف عن قصة المدرسة والمرحلة الثانوية. والآن كفى. أنا متعب من الحديث. اذهب. أريد أن أقرأ الجريدة.

- لن تذهب؟ – سأل بييترو مجددًا.

- كلا.

- متأكد؟

- اغرب عن وجهي.

منجنيق السيد موروني

ولماذا كان يقال في البلدة إنّ ماريو موروني مجنون؟ وما هي مشاكله مع القانون؟

علينا أن نعرف أنّ السيد موروني، عندما لا يكدّ في الحقول أو لا يشمّع كبده بالكحول، كانت لديه هواية: النجارة. عادةً ما يصنع أطرًا وخزائن ومكتبات صغيرة. ذات مرة قام بصناعة ما يشبه العربة أيضًا، مستخدمًا عجلات دراجة نارية، وعلّقها خلف دراجة ميمو، لاستعمالها في حمل التبن إلى الأغنام. ولديه في المستودع منشرة صغيرة وأزاميل وباقي العدة الضرورية لمزاولة هذا النشاط.

ذات مساء كان السيد موروني يشاهد على التلفاز فيلمًا عن الرومان القدماء. مرّ مشهد عظيم، فيه آلاف من الكومبارس: الكتائب تحاصر حصنًا بآلات حربية وأقواس وسواتر متحركة، ومجانيق يضربون بها الحجارة الضخمة والكرات المشتعلة ضد أسوار العدو.

أبهره المشهد. وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى مكتبة إيسكيانو العامة حيث وجد مخططاتٍ للمجانيق في موسوعة المعرفة المصورة،

بمساعدة الموظفة. فنسخها وحملها إلى البيت. وظلّ يدرسها بعناية. ثم نادى ابنيه وأخبرهما عن نيته صناعة منجنيق.

لم يجرُؤ أحد منهما أن يسأله عن السبب. ومن الأفضل ألا تُطرح أسئلة كهذه على السيد موروني. ما يأمر به ينفّذ على الفور، دون أسئلة سخيفة. وهذه عادة جيدة في بيت التين.

تحمّس بييترو للفكرة حالًا، إذ لا أحد من أولئك الذين يعرفهم لديه منجنيق في حديقة منزله. ولو كانوا يملكون أداة من هذا النوع لرموه بها وهدموا جدران بيته. أمّا ميمو فقد رأى الأمر في منتهى السخافة. كان عليهم أن يحطّموا ظهورهم في أيام العطل القادمة لصناعة شيء لا يغني ولا يسمن من جوع.

بدأ العمل صباح الأحد التالي. وتلذذ الجميع بالجهد بعد مرور ساعات قليلة، رغم المتاعب والإرهاق والعرق المتصبب. وبدا أنّ صناعة شيء لا جدوى منه تحمل قيمة أعظم وأسمى من بناء حظيرة الأغنام الجديدة مثلًا.

كان العمال أربعة: السيد موروني، بييترو، ميمو وبوبي.

كان الحمار أوغسطو، الملقّب ببوبي، عجوزًا سلخ الزمان جلده وأرداه في أبشع هيئة. ظلّ يكدّ لأعوام طويلة حتى اشترى السيد موروني الجرار، وأحال بوبي إلى التقاعد ليقضي بقية أيامه وهو يجترّ الحشائش خلف البيت. من طباعه السيئة أنه لا يسمح لأحد بمسّه عدا السيد موروني. وإذا تجرّأ أحد الحمقى على ذلك فقد كان بوبي يعضّه (وعضة الحمار مؤلمة حقًا). كانت هذه طريقته في وضع المسافات بينه وبين باقي أفراد العائلة.

بدأت المرحلة الأولى بقطع شجرة صنوبر عملاقة تنمو في أطراف الغابة. جرّوها حتى البيت بمساعدة بوبي، وحوّلوها إلى سارية طويلة بوساطة المنشار الكهربائي والفأس والمنجر.

وفي نهايات الأسابيع التالية، بنوا المنجنيق حول هذه السارية. وكان السيد موروني يغضب من ولديه بين الحين والآخر على خطأ ما أو لاستعجالهما في القيام بشيء معين. وفي أحيان أخرى، عندما يرى أنهما قاما بالشيء كما ينبغي، يقول لهما: «أحسنتما، عمل رائع»، وترتسم ابتسامة عابرة، ونادرة كيوم مشمس في فبراير، على وجهه. ثم تصل السيدة موروني لتمدهم بسندويشات اللحم المقدد والجبن المعتّق، فيأكلونها جالسين قرب المنجنيق ويكملون النقاش في العمل. كان مزاج الأب يعتدل، وهذا ما يغمر ميمو وبييترو بالسعادة.

بعد حوالي الشهرين، تربّع المنجنيق خلف بيت التين. كانت آلة غريبة، قبيحة بعض الشيء، تشبه المجانيق الرومانية إلى حدّ ما. كان يشبه رافعة ضخمة عمليًا. تثبّتت نقطة الارتكاز على مفصل فولاذي (طلب تصميمه من صديقه الحدّاد خصّيصًا) بأخشاب متباعدة تتقاطع على عربة بأربع عجلات. وعلى الجانب القصير من الذراع، ثمّتَ ما يشبه السلال الصغيرة التي تحتوي على الرمل (600 كيلوجرام!). وينتهي القسم الطويل بما يشبه الملعقة التي ستوضع عليها الحجارة الكبيرة المخصصة للرمي حيث تصعد سلال الرمل إلى الأعلى وتهبط الملعقة إلى الأسفل وتُربط على الأرض بحبل ثخين. وكان السيد موروني قد أسس لهذه الحركة مجموعة من البكرات والحبال تدور حول الرافعة التي سيديرها بوبي المسكين. وعندما كان الحمار يتعثر وينهق يقترب منه السيد موروني، يحنو عليه ببعض اللمسات، ويقول له شيئًا ما في أذنه فيعاود الحمار الدوران.

نظّمت العائلة مناسبة للاحتفال بالمنجنيق (وكانت الحفلة الوحيدة التي أقيمت في بيت التين). حضّرت السيدة بيليا ثلاثة أطباق من اللازانيا في الفرن. وارتدى بييترو السترة الأنيقة، ودعا ميمو حبيبته باتي، وحلق السيد موروني لحيته. ووصل العم جوفاني مع زوجته

الحامل وأولاده أيضًا. وجاء ندماء الكأس، وأوقدت النار وشويت اللحوم والنقانق.

وبعد أن أنهكهم الأكل والشرب، بدأ العرض. فتح العم جوفاني زجاجة نبيذ على إحدى عجلات المنجنيق، ووصل السيد موروني وهو يصفّر على الجرار ويجرّ عربة تحتوي على الصخور العملاقة وجدها في طريق جازينا. حمل أربعة رجال صخرة واحدة بمشقة ووضعوها في ملعقة المنجنيق.

كان بييترو متأجج الحماس، وميمو أيضًا يتابع عن كثب مع أنّه لم يشأ إظهار حماسه.

ابتعد الجميع وعمّ السكون. ضرب السيد موروني الفأس على الحبل بدقة. فأصدر قرقعة حادة وارتفع الذراع ونزلت سلال الرمل إلى الأسفل وقُذفت الصخرة إلى الأعلى. ظلّت تطير في السماء حتى انعطفت وهبطت على بعد مائتي مترًا في الغابة. سمعوا صوت الأغصان تتكسر ورأوا سرب عصافير يطير من أطراف الشجر.

صفق الجمهور بحرارة وكان السيد موروني راضيًا. أمسك بعنق ميمو. —هل سمعت صوت الانفجار؟ كم وددت سماع هذا الصوت. عمل رائع وعظيم يا ميمو. — ثم حمل بييترو بذراعه وقبّله. — اركض وانظر أين حطّت الصخرة.

ركض بييترو وأولاد عمومته إلى الغابة، ووجدوا الصخرة غارقة في الأرض بجانب سنديانة ضخمة تهشّمت أغصانها.

ثم حانت لحظة بوبي أخيرًا. زيّنوه بسراج جديد وأقاصيص ملونة ليغدو كالبغل الصقلي. ودار الحمار بصعوبة حول الرافعة فضحك الجميع وقالوا إنه كان سيفقد حياته.

لكنّ السيد موروني يشفق على هؤلاء الكفرة، وكان متأكدًا أنّ بوبي سينجح. فهو حمار عنيد وأفضل نائب عن فصيلته. عندما كان بوبي

شابًا، كان يشحن على ظهره الباطون وسطول الإسمنت لبناء الطابق الثاني في بيت التين. وكان حينها يدور برافعة المنجنيق، دون هوادة أو عثرة أو وصلة نهيق. *بوبي يعي أنّ عليه أن يترك انطباعًا جيدًا*، قال السيد موروني لنفسه متأثرًا. كان فخورًا بحماره جدًا.

أطلقوا الصخرة الثانية فصفّق الجمهور بفتور هذه المرة واندفعوا لتناول الحلويات. ردة فعل منطقية، فرؤية منجنيق يرمي الصخور على الغابة ليست بالأمر المسلّي.

وجده السيد موروني ميتًا على الأرض. كان المجرم قد قتله بعيار ناري في رأسه. تيبّس ذيل بوبي المسكين، وانكمشت حوافره، بجانب السور الذي يحد أرض موروني بأرض كونتاريلّو.

- سأقتلك يا ابن العاهرة يا كونتاريلّو. هذه المرة سأقتلك حقًا.

– كان السيد موروني يغلي وهو جاثم قرب جثة بوبي. ولو لم يكن جهازه الدمعي أكثر جفافًا من صحراء الكالهاري لَبَكى.

اندلعت الحرب بين كونتاريلّو وموروني منذ زمن بعيد، بسبب قصة لا يستطيع أي أحد في العالم أن يفهمها. بدأت بسبب ثلاثة أمتار من المرعى الذي يدّعي كلاهما أحقيّته بها. ثم تتابعت بإهانات وإزعاجات ومشادات، وتهديد بالموت. لم يخطر ببال أيّ منهما أن ينظر في أوراق السجل العقاري.

أخذ السيد موروني يضرب الطين بقدميه والشجر بقبضتيه.

- لقد أخطأت هذه المرة يا كونتاريلّو... ما ذنب بوبي؟! آآآآآه...

– رمى صرخة في السماء. أمسك بأطراف الحمار وحمل الجثة على كتفيه بإرادة غاضبة. كان بوبي يزن زهاء المائة والخمسين كيلوجرامًا، لكن ذلك الرجل القصير والنحيل الذي يمتصّ

الحانات كالإسفنج، راح يتقدم به في المرج، بساقين متباعدتين، مترنحًا يمينًا وشمالًا. تحوّل وجهه إلى مجار للسيول من شدة التعب. —سأريك الآن يا كونتاريلّو. —قال وهو يضغط على أسنانه.

بلغ البيت ورمى الحمار أرضًا. ثم وصل حبلًا على الجرار وأدار المنجنيق. كان يعرف الإحداثيات جيدًا، ويعرف أين يقع بيت كونتاريلّو.

يحكى في البلدة أنّ كونتاريلّو وعائلته كانوا في الصالون يشاهدون الحلقة الأخيرة من مسلسل درامي. استطاعت كارا أن تنجب توأمًا وهي تذرف الدموع لرؤية الوليدين يتعانقان ويبكيان. وهذا ما أبكى عائلة كونتاريلّو تأثرًا بالمشهد. ولكن، وعلى حين غرة، انفجر شيء ما فوق رؤوسهم وأخذت أساسات البيت تهتزّ وانطفأ التلفاز والأضواء.

- يا إلهي، ما الذي حدث؟ — صرخت الجدة أوكتافيا وهي تضم حفيدتها.

- صاعقة! —صاح كونتاريلّو. —أصابتنا الصاعقة المشؤومة. اللعنة.

عاد النور. نظروا إلى بعضهم خائفين ثم رفعوا رؤوسهم. تشرخت دعامة الخشب في السقف ووقعت بعض القطع من الجص. فصعدوا السلالم مذعورين.

كان كل شيء يبدو طبيعيًا في الأعلى. فتح كونتاريلّو باب غرفة النوم وخرّ على ركبتيه ويداه على فمه.

لا يوجد سقف في الغرفة. الجدران حمراء. البلاط أحمر. المطرزات التي صممتها الجدة اوكتافيا حمراء. كل شيء أحمر.

كانت أشلاء بوبي (أحشاؤه وعظامه وروثه وجلده) متناثرة في الغرفة مع قشر الحائط والقرميد.

لم يكن ثمّتَ أحد في الشارع عندما رمى السيد موروني جثة حماره بالمنجنيق. ولو كان هنالك أحد لتسلّى كثيرًا برؤية حمار يحلّق في

السماء، ويدور حول نفسه لولبيًا، ويجتاز أدمة الفلين والنهر الصغير والكروم، ثم ينقض كصاروخ سكود على سطح بيت كونتاريلّو.

كلّف هذا الثأر صاحبه غاليًا. تم التبليغ عن السيد ماريو موروني، وتسجّل الضبط بحقه، وأجبر على دفع الأضرار. ولو كان ذا سوابق لانتهى في السجن بمحاولة قتل متعمد. وهكذا تلوث سجلّه الجزائي.

آه، كدت أنسى... وأرغم على تفكيك المنجنيق أيضًا.

69

من الصعب جدا ألاّ تفكّر في شيء. وهذا هو أول درس يواجهك عندما تبدأ بممارسة اليوغا. تحاول، تشد عظام كتفيك، وتفكر بأنه ليس عليك أن تفكر في شيء. وها قد وقعت في الفخ، فهذه فكرة بحدّ ذاتها.

ليس الأمر سهلًا، لكنّ جراتزيانو بيليا يفعل كل شيء بعفوية.

تربّع في وضعية اللوتو، وسط الغرفة، وغرق ذهنه في الفراغ لمدة نصف ساعة. ثم استحمّ بمياه دافئة، ارتدى ثيابه واتصل بصديقه روشو ليؤكد له الذهاب إلى ساتورنيا، ولكنه لم يكن لديه وقت للعشاء معهم. كانوا سيلتقون مباشرة عند الشلالات بين العاشرة والنصف والحادية عشرة ليلًا.

لم يكن يتوقع أن يمرّ اليوم الأول على عزوبيته على نحوٍ جيد. قضى النهار في البيت، وشاهد مباراة التنس في التلفاز وأكل على السرير. كان الإحباط يئز حوله كالذباب القارص الذي يتحين الفرصة لغرس حده في صدره. لكن جراتزيانو كان خبيرًا، فنام وأكل وشاهد المباراة بلا مبالاة روحية كالأبقار.

والآن كان مستعدًا للذهاب عند الآنسة. دقق في نفسه للمرة الأخيرة على المرآة. قرر أن يتخلى عن شكل الجنتلمان الريفي. لم يكن يليق

به، وقد اتسخ القميص والمعطف بالقَيْء أيضًا. اختار زيًا شبابيًا وأنيقًا في آن واحد، كأزياء فرقة السبانداو باليه: قميص حريري أسود بياقة مضمومة، وجيليه أحمر، وسترة مخملية بثلاثة أزرار سوداء، وبنطال الجينز، وجزمة أمريكية، وشال أصفر، وقوس أسود. آه، وسروال السباحة البنفسجي تحت البنطال.

وبينما يرتدي المعطف ظهرت والدته من المطبخ وهي تخور. فأجابها قبل أن يفهم ما تريد قوله: – كلا يا أماه، لن أتعشى في المنزل وسأعود متأخرًا.

فتح الباب وخرج.

70

كان الاستحمام عملية معقدة كالعادة حيث تشعر فلورا أنّ أمها تكرهه أيضًا وترى ذلك في عينيها. (يا عزيزتي فلورا لا أريد أن أستحمّ).

– أعرف يا أمي أنه يتعبك ولكن لابدّ منه.

وكانت العملية دقيقة، فقد يسقط رأس الأم في الماء وتختنق في حال شردت فلورا قليلًا. وكان عليها أن تشعل المدفأة قبل ساعة على الأقل، كي لا تصاب المريضة بالزكام وتضيق أنفاسها وتدخل في مشكلة أخرى.

– سوف ننتهي تقريبًا... –فلورا تنظّف ركبتي أمها وترش الماء على جسدها الهزيل والمتشنج والقابع في زاوية الحوض. –بعد لحظات أرجعك إلى السرير...

قال لها طبيب العصبية إنّ دماغ والدتها مثل الكمبيوتر المنطفئ. يكفي أن نضغط على زر في لوحة المفاتيح كي تضاء الشاشة ويشتغل القُرص الصلب. لكن المشكلة أن أمها لم تكن موصولة بأيّ لوحة مفاتيح ولا توجد أي طريقة لإعادة تشغيلها. «لا تستطيع أن تسمعك ولا بأي

شكل. أمك ليست موجودة. عليك أن تتذكري هذا. إنها مسطحة إلكترومقياسيًا» قال الطبيب بحساسية كي يميّز الفصيلة.

وترى فلورا أنّ هذا الطبيب لا يفقه شيئًا. فأمها موجودة، وكل ما في الأمر أنّ هنالك ستارًا يفصلها عن العالم، لكنها تستطيع إرسال الكلمات من فوق الستار. كانت على يقين من هذا لعدة أسباب من الصعب أن يفهمها أي شخص غريب أو طبيب يعتمد على القياس الإلكتروني للدماغ وشعوذات علمية أخرى. ولكنها واضحة جدًا بالنسبة إلى فلورا. تكفي حركة من الحاجب أو ضغطة صغيرة على الشفتين أو نظرة أكثر ثباتًا من المعتاد أو ارتجاف إلخ. هكذا كان أسلوبها المجرد في التعبير. وفلورا متأكدة أنّ كلماتها هي التي تُبقي أمّها على قيد الحياة.

ذات مرة تدهورت صحة والدتها كثيرًا، وكانت في حاجة إلى علاج مستمر ليلَ نهار. وهذا ما أرهق فلورا فطلبت ممرضة تعتني بوالدتها، بنصيحة من الطبيب. لكن الممرضة كانت جامدة، لا تكلّم المريضة ولا تحنو عليها بلمسة. وبدل أن تتحسن صحة الوالدة تدهورت بشكل مضاعف، حتى سرّحت فلورا الممرضة وعادت لتعتني بأمها بمفردها، وسرعان ما تحسنت صحتها.

وثمّتَ شيء آخر: فلورا تحسّ أنّ أمها تتواصل معها ذهنيًا. وبين حين وآخر تسمع صوتها يتغلغل في أفكارها. لم تكن مجنونة أو مصابة بالسكيزوفرينيا، بل كانت فقط على قناعة بأنّ أمها، ككل الأمهات، تريد أن تنصح ابنتها بهذا القرار أو ذاك وتناقشها بما يزعجها ويعجبها.

- ها قد انتهينا. -رفعتها عن كرسي الحمّام وحملتها إلى الغرفة حيث حضّرت المنشفة. كانت تمسّدها بنعومة وترش عليها المنظّفات عندما رنّ الجرس.-ومن هناك الآن؟ يا إلهي...!

الموعد!... الموعد الذي أعطته هذا الصباح في الستايشن بار لابن الخياطة.

- يا إلهي يا أماه، لقد نسيت بالكامل. يا لرأسي! لقد طلب مني رجل ما أن أساعده بكتابة سيرته. —رأت أمها تشدّ شفتيها.—لاتقلقي. سأنهي ذلك بأقل من ساعة. إنه أمر ممل، أعرف ذلك، لكنه قد وصل. —وضعتها تحت الغطاء. ورنّ الجرس مجددًا. —ها أنذا! سأفتح. لحظة. —خرجت من الغرفة، نزعت عنها المنشفة التي تستخدمها عندما تغسّل والدتها وخطفت نظرة سريعة إلى المرآة...

ولماذا تنظرين إلى نفسك؟

71

كانت الآنسة تنتظره عند الباب. ولم تغيّر ثيابها. *هل هذا يعني أنها ليست مهتمة بلقائي؟* سأل جراتزيانو نفسه وهو يعطيها زجاجة ويسكي.

- أحضرت لك هدية صغيرة.
- شكرًا. — أمسكت فلورا بالزجاجة.— لم يكن من داعٍ.
- لا شكر يا آنسة. هذا أقلّ ما عليّ فعله.
- تفضّل.

رافقته إلى الصالة.

- هل بوسعك أن تنتظر للحظة يا سيد بيليا...؟ سأعود حالًا. استرح الآن. — قالت فلورا مضطربة واختفت في الممر المظلم.

بقي جراتزيانو بمفرده. نظر إلى نفسه على زجاج النافذة. رتّب ياقة القميص. وطاف في الصالة كي يعاين المكان، بخُطًى بطيئة ومدروسة، ويداه خلف ظهره.

كانت الصالة مربعة، نافذتاها تشرفان على الحقول، ومن بعيد يتراءى سراب البحر في المدى. ثمّة مدفأة تشتعل فيها النيران الكسولة، وديوان صغير مبطّن بإسفنج أزرق ومطرّز بأزاهير حمراء،

وأريكة جلدية قديمة وكرسي خشبي ومكتبة صغيرة ومليئة بالكتب. وعلى الأرض سجادة فارسية تحمل طاولة مستديرة عليها أوراق وكتب مرتبة. وفي الزاوية تلفاز صغير على طاولة صغيرة. ولوحتان مائيتان على الجدران: واحدة لبحرٍ عاصف، والثانية لمنظر ساحلي فيه أشجار ضخمة يبدو كأنه ساحل كاستروني. كانت اللوحتان بسيطتين وليستا على قدر من الأهمية، لكن الألوان الباهتة تولّد إحساسًا بالحنين إلى شيء ما. وهنالك صور بالأبيض والأسود قرب المدفأة لفلورا وهي صغيرة تجلس في حضن امرأة تشبهها وخلفهما خليج مارجيلينا، وصورة أخرى لزوجين إبان خروجهما من الكنيسة، وذكريات عائلية أخرى.

هذه هي مغارتها. هنا تقضّي سهرات عزلتها... لذلك الصالون طقس مميز. ربما بسبب الأضواء الخافتة والدافئة. إنها امرأة ذات ذوق رفيع حتمًا...

72

وكانت المرأة ذات الذوق الرفيع تثرثر في غرفة أمها.

- لا تعلمين كم تغيّر زيّه منذ الصباح حتّى الآن يا أمّاه. بذلك القميص... وذلك البنطال الضيّق... يا لي من غبيّة. لم يكن عليّ أن أدعوه. - رتّبت الأغطية فوق أمّها. - حسنًا. هذا يكفي. سأذهب الآن وأنهي الأمر.

أخذت أوراقًا بيضاء من الخزانة في الممر. سحبت نفسًا عميقًا وتقدّمت نحو الصالة.

- فلنكتب نسخة مسوّدة ثم تهتمّ أنت بتبييضها. فلنجلس هنا.

-أزاحت الأوراق عن الطاولة الكبيرة ووضعت كرسيّين مُتقابلين.

- هل هاتان من صنع يديك يا سيدتي؟ -قال مُشيرا إلى اللوحتين.

- أجل... - غمغمت فلورا.

- رائعتان حقًا... اللوحتان، ويداك أيضًا.
- شكرًا. – أجابت وهي تحمرّ من الخجل.

73

لم تكن الآنسة جميلة جدًا، لكنها بدت له كذلك في الصباح. لو نظرتَ إلى كل جزء من وجهها على حدة، الأنف المقوس والفم العريض والذقن الحاد والعينين الخاليتين من التعبير، لكان الوضع كارثيًا. ولكن إذا جمعت كل تلك الأشياء معا، فسينتج عنها شيءٌ مغناطيسيّ وجذّاب بجمال فريد من نوعه رغم افتقاره إلى الانسجام. أجل. بعد التشريح السريع أدرك أنّ الآنسة بالميري تعجبه.

- سيد بيليا. هل تسمعني؟
- بالتأكيد... – كان السيد شاردًا.
- كنت أقول إنني لم أكتب سيرة ذاتية من قبل، ولكنني اطلعت على بعضها وأعتقد أننا يجب أن نبدأ منذ البداية تحديدًا: متى وُلدت وأين؟ ثم نتقدّم تدريجيًا ونحن نجمع المعلومات التي قد تثير اهتمام أصحاب ذلك العمل.
- حسنًا، فلنبدأ إذن... ولدت في إيسكيانو عام...

وانطلق جراتزيانو. أول كذبة ابتدعها كانت تاريخ ميلاده إذ قضم منه أربع سنوات. *لقد كانت فكرة السيرة الذاتية عظيمة.* كان بوسعه أن يقصّ عليها مغامرات حياته، ويدهشها برحلاته المثيرة حول العالم ولقاءاته المميزة، ويشرح لها شغفه بالموسيقى وكلّ شيء.

74

نظرت فلورا إلى الساعة. مرت أكثر من نصف ساعة عندما بدأ هذا الرجل بالكلام ولم تستطع أن تكتب شيئًا حتى اللحظة. أغرقها

بكمية هائلة من الكلمات التي أصابتها بالدوار.

كان ذلك الرجل منطادًا منفوخًا وواثقًا من نفسه حتى الانفجار، ويفخر بإنجازات فارغة. تُرى ماذا سيفعل لو كان رينولد ميسنر أو أول إنسان تطأ قدماه سطح القمر مثلًا؟

والشيء الذي لا يطاق أنه كان يبهّر ويحشو ويستعرض: لقد عمل دي جي في مرقص في نيويورك، وشارك العزف مع فرقة بيروفية تجول في الأرجنتين، وكان مساعد سائق في رالي في موريتانيا، وملاحًا على يخت عبَر المحيط الأطلسي العاصف، ومتطوعًا في إحدى المصحات، وضيفًا في دير تبتي. كان الرجل عبارة عن خلطة نيو آج مع مبادئ بوذية سطحية وثقافة الشوارع الهابطة وبعض من أصداء بييت جينيريشن وبطاقات معايدة وفلسفة المراقص الشبابية. في النهاية، إذا أزلنا مغامراته البطولية، لا يهمّ هذا الرجل إلا البقاء وحيدًا على شاطئ استوائي ليعزف تلك الموسيقى الإسبانية الزاهدة تحت ضوء القمر، وباقي ما تبقّى لا يفيد لتصميم سيرة ذاتية.

قد يظلّ هكذا حتى الصباح إن لم أقاطعه، أرادت فلورا أن تنتهي وترسله بعيدًا. فكان وجود ذلك الدجال في بيتها يثير أعصابها، وهو يرمقها بنظرة استفزازية. اجتاحتها موجة عاتية من الاشمئزاز. وكانت متعبة لأنّها قضت يومًا جهنميًا مع جاتا. ثم شعرت أنّ أمها تحتاج إليها.

- حسنًا. أنا أرى أن ندع إعادة تأهيل الأيائل في ساردينيا جانبًا ونحاول التركيز في نشاطات تناسب طبيعة العمل. كنت تتحدث عن ذلك الرجل، باكو دي لوثيا. بوسعنا أن نقول إنك عزفت معه. هل هو فنان مهم؟

- باكو دي لوثيا مهم؟ – قفز جراتزيانو عن الكرسي. –إنه عبقري! إنه مبدع! لقد عرّف العالم كله على الفلامنكو. إنه يوازي رافي

شانكر بالنسبة للموسيقى الهندية... رجاءً يا آنسة بالميري، رجاءً...

- جيد جدًا يا سيد بيليا. بوسعنا أن نضيف تجربتك معه...

-حاولت أن تكتب، لكنه أمسك بذراعها، فتصلبت فلورا.

- آنستي، هل بوسعي أن أطلب منك معروفًا.

- تفضّل.

- لا تنادني بالسيد بيليا. أدعى جراتزيانو وكفى. وأرجوك أن نرفع الكلفة.

- موافقة يا جراتزيانو. – نظرت إليه حانقة. – إذن باكو دي...

- وأنت ما اسمك؟ هل بوسعي أن أعرف اسمك؟

- فلورا. – همست بعد تردد قصير.

- فلورا... – أغمض عينيه كأنه يستقبل الوحي. – يا له من اسم بديع... لو كان لديّ طفلة لأسعدني تسميتها بهذا الاسم.

75

كانت المرأة عصية على الصيد فعلًا. لم يتوقع جراتزيانو أنه بصدد التعرف إلى الجنرال باتون شخصيًا. لم تلق القصص التي رواها أي إعجاب، مع أنه قدّم أفضل ما عنده وكان مبدعًا وخياليًا. لو قال نصف ما قال لأي فتاة في ريتشوني لسجدت وقبّلت قدميه. وحين تيقّن أن العرض المعتاد لم يعد كافيًا، راح يختلق كمًا من الأكاذيب لو أنه عاش نصفها فقط لبقي سعيدًا حتى آخر يوم في عمره. ولكن هيهات، فالآنسة تعيش في برج مشيّد.

نظر إلى الساعة. كان الوقت يمرّ،وفرصة اصطحابها إلى ساتورينا تتضاءل. لم ينجح في خلق الطقس المناسب، وفلورا أخذت مسألة السيرة في غاية الجدّية. *وربما تفترسني لو طلبت منها الآن أن تأتي*

معي للاستحمام في ساتورنيا...

ماذا عليه أن يفعل؟ هل يجب أن يستخدم تقنية زونين-لينتشي (اثنان من أصدقائه في ريتشوني)، أم أن ينقض عليها مباشرة دون الدخول في محادثات طويلة لا فائدة منها؟

تقترب منها، وتُفاجئها بإدخال لسانك في فمها بسرعة الكوبرا. ربما يكون هذا الحلّ مناسبًا، لكن تقنية زونين-لينتشي لا تنصح بذلك. على الفريسة أن تكون حيوانًا أليفًا، ومستعدة أساسًا للعب دور المازوخية، وإلاّ عرّضت نفسك لتهمة محاولة الاغتصاب. ثم إنّ هذه التقنية تصلح للمرأة التي تؤمن بمقولة «عليّ وعلى أعدائي». *سحقًا. الحل الوحيد أن أصبح أكثر وضوحًا دون إخافتها.*

- فلورا. أودّ أن أدعوك لتذوّق الويسكي الذي أتيت به. إنه مميّز وجاءني من اسكوتلندا مباشرة. —حرّك الكرسي ببطء ليقترب بطريقة ماكرة من منطقة الجنرال باتون.

76

هذه هي مشكلة فلورا. لم تكن تستطيع أن تفرض نفسها، وتقول كلمتها، وتعزز من قيمتها. لو كانت صارمة، مثل معظم الجنس البشري، لقالت له: «عذرًا يا جراتزيانو (وهاقد رفعنا الكلفة كما أردت) تأخر الوقت وعليك أن تذهب».

لكنها ذهبت إلى المطبخ وعادت بالمشروب وكأسين زجاجيين. وقد نهض جراتزيانو في غيابها وجلس إلى الديوان.

- ها هو. عفوًا سأعود حالًا. صبّ لي القليل فأنا لا أحب المشروبات الكحولية كثيرًا. أشرب الليمونشيل من وقت إلى آخر. -تركت الويسكي على الطاولة أمام الديوان وركضت لتأخذ فاصلًا مع أمها.

لم يعد ثمّتَ متسع من الوقت لتطبيق المناهج الحساسة.

إنني مضطر لتطبيق تقنية تريليا. قال جراتزيانو لنفسه وهو يحرّك رأسه مترددًا. لم تكن التقنية تعجبه لكنه لم يتذكّر أية وسيلة أخرى.

كان تريليا واحدًا من أصدقائه، ومدمن كحول من شيتا دي كاستيلو. ويلقّبونه هكذا نظرًا إلى الشبه بينه وبين السمكة ذات الشوارب. فلكليهما عينان مدورتان وكبيرتان مثل حبة الكرز.

شرح له تريليا ذات مرة، في هجمة مفاجئة للهذر: «انظر، الأمر بسيط. تخيّل أنك تريد أن تنكح إحدى الفتيات في حفلة ما. وهي تشرب جين تونيك أو أي مشروب كحولي آخر. تتموضع بقربها، وما إن تلتفت أو يخرج الكأس عن المراقبة حتى ترمي فيه الحبة. وحينها game over. ففي غضون نصف ساعة تتهدهد الفتاة وتكون جاهزة للمطارحة».

ما من شك أنّ تقنية تريليا خالية من الرياضة، وقد استخدمها جراتزيانو في حالات نادرة وطارئة. وكانت الحبة ممنوعة في المسابقات، وإن عثروا على واحدة منها معك يطرودنك على الفور. ولكن، كما يقال، للأمراض الخطيرة أدوية أخطر.

أخرج محفظته من السترة. تعال لنرى ماذا عندنا هنا... فتحها وأخرج منها ثلاث حبات زرقاء.

- سبايدرمان... — تمتم راضيًا كأنه كيميائي مخضرم يعثر على حجر الفلاسفة.

لا يوحي ظاهر حبة السبايدرمان بشيء، وقد يُظنّ أنها لصداع الرأس أو حموضة المعدة بسبب لونها الأزرق الباهت والنقش في المنتصف، لكنها ليست كذلك. إذ تزن ستين مليّغرامًا فقط وتحتوي على ذرات منشطة أكثر من صيدلية مركزية. صنعت في غوا أوائل

التسعينات من قِبل مجموعة من أطباء العصبية البيولوجية الشباب في كاليفورنيا، الذين طرُدوا من المخبر بسبب إخلالهم بالأخلاق الطبية، بالتعاون مع مجموعة من الوسطاء الروحانيين من شبه جزيرة يوكاتان وفريق من أطباء ألمانيين مختصين في العلاج النفسي السلوكي.

كان باستطاعة الفئران، بعد ربع ساعة من إجراء التجربة عليهم، أن يتشقلبوا بطريقة لولبية عجيبة مثل راقصي البريك دانس، ناهيك عن الوقوف على قدم واحدة لمدة طويلة.

وجاءت التسمية، سبايدرمان، لأنّ واحدًا من بين تأثيراتها الكثيرة أنه يوهمك بالمشي على الجدران. ومن التأثيرات الأخرى مثلًا: بعد أن تبتلع الحبة، يأخذونك إلى مديرية النفوس ويضعونك في طابور لا ينتهي ويقولون لك: «اذهب واسحب شهادة ميلاد كارليو» فتقوم بذلك بسعادة غامرة وأنت لا تملك أدنى فكرة عن كارليو هذا، وعندما تفكر في الأمر بعد سنوات تبقى على اقتناع تامّ بأنّها كانت أكثر تجربة مسلّية مررت بها في حياتك.

وهاهو جراتزيانو يذوّب الحبة في كأس الآنسة بالميري. وليطمئنّ أكثر وضع في الكأس حبة أخرى. ثم مصّ حبة في فمه وازدردها برشفة ويسكي. – سوف نرى الآن كيف تستسلمين. – فك زرًا أو اثنين من قميصه، وهذّب تسريحة شعره بيديه منتظرًا وصول الفريسة.

78

أخذت فلورا الكأس الذي قدمّه إليها جراتزيانو. أغمضت عينيها وتجرّعته. ولم تنتبه إلى ذلك الطعم المر المقزز في آخر الكأس لأنها قلّما تشرب هذه الأشياء.

- إنّه لذيذ حقًا. شكرًا جزيلًا. –شدت على أسنانها وجلست مجددًا إلى الطاولة. وضعت النظارات وقرأت ما كتبته.

قضت الدقائق العشر اللاحقة وهي ترتّب كل تلك الثرثرات، والترّهات التي لا رأس لها ولا ذيل، محاولة أن تجتزئ منها الأمور الجوهرية: لغات، دراسات، استخدام الحاسوب، خبرات في العمل، إلخ إلخ.

- أرى أنّ هذا قد يكفي لفوزك بفرصة العمل... سيوظفونك بالتأكيد.
- آمل ذلك. – بقي جراتزيانو جالسًا إلى الديوان. – هنالك شيء آخر قد يذهل القائمين على القرية. إنهم يهتمون بتسلية السياح كما تعلمين... وتهيئة أفضل الظروف لهم... ليقيموا العلاقات فيما بينهم...
- ماذا تقصد؟ – سألت فلورا وهي تنزع نظارتيها.
- حسنًا. أنا... – استخدم نبرة خجولة. وكان يهتز على الديوان كأنّ الأشواك نبتت فيه فجأة ووخزته. نهض وجلس إلى الطاولة.
  – حسنًا أنا فزت بكأس.

وماذا سيخبرني الآن؟ فاز بسباق إيطاليا؟ استاءت فلورا قليلًا.

- أين؟ وماذا كانت المنافسة؟
- في ريتشوني. كأس الدرومبادور.
- ماذا؟
- فلنقل إنني حطمت الرقم القياسي في الشحن الصيفي.
- كيف؟
- الشحن.. والليالي.. والشواطئ..! – كان كلامه بالنسبة إليه أكثر الأشياء بديهية في العالم.

أمّا فلورا فلم تفهم شيئًا. ماذا كان يحاول أن يقول لها؟ شحن ماذا؟ هل كان يعمل في ورشة تصليح أم سائق شاحنة؟

- الشحن؟ ماذا كنت تشحن؟

- أشحن النساء. – قال جراتزيانو بنبرة مذنب وبريء في الوقت نفسه.

وأخيرًا فهمت فلورا. *ليس معقولا! هذا الرجل غول.*

كان يتسابق على من ينام مع أكبر عدد من النساء. كان يوجد مكان في هذا العالم يتسابق فيه الذكور على من يشحن النساء إلى السرير أكثر من الآخر. *صحيح أنه علينا ألّا نستغرب شيئًا في الحياة.*

- هل توجد مسابقة لهذا أو بطولة؟ مثل بطولة كرة القدم مثلًا؟ – سألته وأحست أن صوتها ينخفض بشكل غريب.

- طبعًا. وقد أصبحت المسابقة رسمية، يشارك فيها أناس يأتون من كل بقاع الأرض. كنا قلة في البداية. مجموعة صغيرة من الأصدقاء نلتقي في محل أورورا. ثم ذاع صيتها مع الزمن، والآن يوجد لجنة تحكيم ونقاط، وفي نهاية الصيف يتم التتويج في الديسكو خلال سهرة رائعة جدًا. –شرح جراتزيانو بجدية.

- وكم... كم... كم امرأة شحنت إلى السرير؟ هل يقال هكذا؟ –لم تكن تصدّق. هذا الرجل الذي أمامها فاز بجائزة الفحولة.

- ثلاثمائة. ثلاثمائة وثلاث نساء للدقة. ولكن الحكّام الأوغاد لم يسجلّوا إلا ثلاثمائة، واعتبروا أن الثلاث الأخريات كنّ في مدينة أخرى. – أجاب جراتزيانو وهو يبتسم.

- ثلاثمائة؟ –استغربت فلورا. –مستحيل! ثلاثمائة؟ احلف!

- أقسم بالله. –هزّ رأسه مؤكدًا. –وقد وضعتُ الكأسَ في منزلي.

قهقهت فلورا ولم تعد تستطيع التوقف عن الضحك. *ماذا جرى لي بحق السماء؟* ظلت تضحك مثل البلهاء. هل سكرت من كأس الويسكي؟ كانت تعرف أنها لا تتحمل الكحول، لكنها شربت مقدارًا قليلًا. لقد سكرت مرتين فقط في حياتها: الأولى بقنينة من شراب الكرز الروحي الذي أهدته إياها والدة أحد التلاميذ، والأخرى عندما ذهبت لتأكل

البيتزا مع الصف وشربت ما لا يتعدى البيرة الواحدة وعادت إلى البيت سعيدة جدًّا، لكنّها حينذاك كانت سكرانة بشكل لم يحدث معها من قبل.

كانت قصة الشحن ممتعة بالطبع. خطر في بالها أن تسأله سؤالًا سوقيًا بعض الشيء، *لا يجوز، ولكنه مهم*، قالت لنفسها، *سأطرح عليه السؤال.*

- وكيف تسجّل النقاط؟

- حسنًا. – ابتسم مجددًا. – ينبغي أن يقوم الرجل بعلاقة جنسية كاملة.

- وأن يفعل كل شيء؟

- بالضبط.

- كل شيء كل شيء؟

- كل شيء كل شيء.

(هل جننت؟)، دوّى الصوت في رأسها. وعرفت فلورا أنه صوت والدتها.

(ما المضحك في الموضوع؟ ألا ترين نفسك؟ أنت سكرانة كلّيًا).

كلاّ، لا أرى نفسي. ماذا أفعل؟

(تقومين بدور العاهرة. هذا ما تفعلين).

اسكتي، أرجوك. اسكتي، من فضلك. لا تناديني هكذا. لا أحب أن تسميني هكذا. والآن، دعيني وشأني من فضلك، عليّ أن أقوم بحساب. إذن... هذا الرجل حصل على ثلاثمائة نقطة، صحيح؟ أو فلنقل إنّه أدخل عضوه الذكري في ثلاثمائة جهاز تناسلي أنثوي. وإذا سلّمنا بأنّه أولجه وأخرجه قرابة المائتي مرة مع كل امرأة، فهذا يعني أنّه بشكل عام مارس أكثر من... لا أعرف... ستمائة، ليس ستمائة، ثلاثمائة. 300×200 = 600.. لا ليس كذلك. بل أكثر... آه أنا ضائعة..

لم أعد أفهم شيئًا...

هبت عليها رياح من الصور والأضواء والأفكار المشتتة والأرقام والكلمات التي لا معنى لها، ولكنها كانت تشعر بالسعادة والمرح.

- تبًا لهذا الويسكي الذي جئت به يا رجل. – قالت وهي تضرب الطاولة بجمع يدها. حدّقت فيه لوهلة، وانتابتها رغبة خيالية فجأة. *(هل جننت؟ لا يمكنك أن تقولين له! كلا، لا يمكن...)*. بل سأقول له.

رغبت أن تعترف له بأمر، بأمر سري، سري جدًا، أمر لم تخبر به أحدًا ولم تكن تنوي أساسًا أن تقوله لأحد أبدًا أبدًا. شعرت فلورا بثقل ذلك السر في صدرها وأرادت أن تقذف به خارجًا، أمام ذلك الشخص المجهول، زير النساء الذي فرّغ الفحولة من مضمونها وفاز بكأس الترومبادور.

ومن يدري أيّ انطباع سيأخذه عني؟ وكيف كان ليتلقى السر؟ هل سيضحك؟ هل سيقول إنّه لا يصدّق ذلك؟

أتريد أن تعرف شيئًا يا عزيزي الساحر؟ أتريد أن تعرف كم نقطة حصلت عليها أنا في حياتي؟ صفر! صفر مربّع! صدّق ما أقول، إنه كذلك. لم أظفر ولو بجُزء صغير من أجزاء النقطة. ذات مرة، منذ زمن بعيد، حاول خالي، القذر الغدار، أن يخطف مني نقطة ولكنه لم ينجح.

وأنت، على كم نقطة حصلت في حياتك؟ عشرة آلاف؟ أنا لم أحصل على نصف نقطة. لقد بلغت الثانية والثلاثين دون أية نقطة. قد ترى الأمر مستحيلًا، ولكنها الحقيقة.

لعلّ القصة كانت ستأخذ منحًى آخر لو أنّ فلورا أباحت بسرّها إلى جراتزيانو. ربّما كان جراتزيانو سيتخلّى عن غوايتها ويحمل سيرته الذاتية ويمضي كأيّ رجل محترم، رغم حبّة السبايدرمان وتلك

الصلابة البدائية التي ترغمه على تحقيق أهدافه. ومن يدري! لكن فلورا، المحافظة بطبعها المضاد للآلام والأوجاع، كانت تقاوم، كجندي في خندق، انفجار تلك الذرات الحقيرة والقادرة على قلب نفسيتك ودفعك إلى الاعتراف رغمًا عن أنفك. ضحكت ثانية وهي تقرّ.

- اللعنة، كم أنا سكرانة. -انتبهت إلى أنّ جراتزيانو صار بقربها.

-ماذا تفعل؟ هل تقترب مني؟ - نزعت نظارتيها وحدّقت فيه للحظة وهي ترتجف على الكرسي. -هل بوسعي أن أقول لك شيئًا؟ ولكن احلف أنك لن تشعر بالإساءة.

- لن أشعر بالإساءة. أقسم أنني لن أشعر بالإساءة. -وضع يده على قلبه ثم قبّل سبابتيه.

- شعرك لا يليق بك. إنه بشع، اعذرني. وفي السابق لم يكن أفضل أيضًا. كيف كان لونه؟ أسود؟ قصيرًا في الأعلى وطويلاً على الجانبين؟ لم يكن يليق بك. لو كنت مكانَك، أتعلم ما كنت سأفعل؟ - بقيت لوهلة بلا كلمات، ثم أضافت. - كنت سأقصه بشكل طبيعي.

- ماذا تقصدين بالطبيعي؟ - كان مهتمًا بالأمر، عندما يناقشه أحد عن مظهره يهتم بالأمر كثيرًا.

- بشكل طبيعي. كنت سأقصه ولا أصبغه ولا أدعه يطول هكذا.

- أتعلمين ما المشكلة يا فلورا؟ لقد بدأ رأسي يشتعل بالشيب. - شرح جراتزيانو بنبرة من يبوح بكل أسراره دفعة واحدة.

- وأين المشكلة؟ - مطّت فلورا ذراعيها.

- هل ترين أنني لا يجب أن لا أكترث لذلك؟

- لو كنت في محلك لما اكترثت للشيب.

- هل أتركه على طريقة جورج كلوني: مزيج من التبن والقش؟

لم تحتمل فلورا، فانثنت على الطاولة وراحت تضحك بأعلى صوتها.

- هل أبدو قبيحًا؟ - ابتسم جراتزيانو لكنه امتعض قليلًا.
- ليس كالتبن والقش! بل كالملح والفلفل. -أسندت جبينها إلى الطاولة ونشفت دموعها بأصابعها.
- معك حقّ. كالملح والفلفل تمامًا.

79

يا لحبوب السبايدرمان كم هي وبائية. كان جراتزيانو منهكًا كحبة بطاطا مسلوقة. لم يكن يحسب أنّ الحبّة قوية إلى هذه الدرجة.

لعنة الله عليك يا تريليا، لعنة الله عليك.

(فكّر بتلك المسكينة. لعلّك بالغت في إعطائها حبّتين).

كانت الآنسة في الواقع تحني رأسها على الطاولة ولا تتوقف عن الضحك، وقد حان موعد الغزو. نظر إلى الساعة. *التاسعة والنصف!*

- تأخّر الوقت. - نهض وابتلع نفسًا عميقًا آملًا أن يوضح أفكاره.
- هل ستذهب؟ - سألته فلورا وهي ترفع رأسها قليلًا. - فكرة جيدة. أنا لا أستطيع الوقوف على قدميّ. إنني قلقة لأنني أستمر في الضحك. أفكر في شيء جدّي ثم أضحك. لو كنت محلك لانشغلت بكتابة السيرة ثانية ولأضفت قصة تأهيل الأيائل في سردينيا. - وأعادت رأسها إلى الأسفل وتابعت الضحك.

يا لمفعول هذه الحبّة، فكّر جراتزيانو.

- لم لا نذهب ونأكل شيئًا ما في مطعم قريب من هنا يا فلورا؟ ما رأيك؟
- لا شكرًا. - هزّت فلورا برأسها. - لا أستطيع حقًا.
- لماذا؟
- لأنني لا أقوى على النهوض. ثم إنني لا أستطيع.
- لماذا؟

- لأنني لا أخرج في المساء.

- ستعودين باكرًا. هيا.

80

- مستحيل. اذهب أنت إلى المطعم إن أردت. أنا لست جائعة، سأخلد للنوم، هذا أفضل. – فلورا تحاول أن تكون جادة، لكنها تنفجر من الضحك.

- هيا. فلنذهب أرجوك! – توسّل إليها جراتزيانو.

كانت فكرة الخروج تغويها قليلًا، إذ شعرت بالهيجان المريع يفيض في أعماقها ولديها رغبة في الركض، والرقص. كان يسعدها الخروج، لكن الرجل خطير جدًا، لا يجب أن ننسى أنه فاز بالبطولة. وكان سيحاول أن يأخذ نقطة منها بلا شك.

لا، لا، لا. ولكن ما الذي سيحدث إن ذهبا إلى المطعم؟ ثم إنّ استنشاق القليل من الهواء المنعش شيء جيد ويبعث على السكينة ووضوح الأفكار.

أمي استحمت وأكلت، وهي على ما يرام. وغدًا ليس عليّ الذهاب إلى المدرسة. وأنا لا أخرج أبدًا. ما الذي سيحدث إن خرجت لسهرة واحدة؟ هذا الطرزان يدعوني للعشاء في مطعم، وسأكون جانيت لسهرة واحدة على ظهر يقطينة تجرها الأحصنة، بل الأيائل، الأيائل الساردينية، وسيضيع حذائي وعلى الأقزام أن يبحثوا عنه.

كانت تنتظر نصيحة من أمها، لكنها لم تصل.

- هل نعود باكرًا؟

- باكرًا جدًا.

- احلف.

- أقسم بالله. ثقي بي.

هيا يا فلورا، مشوار قصير. سيأخذك إلى المطعم وستعودين إلى البيت بعدها بقليل.

- أجل، فلنذهب. هيا. – حاولت النهوض وكادت أن تقع أرضًا.
- هل أساعدك؟ – أمسك جزاتزيانو بذراعها. – هل تستطيعين النهوض؟
- لا أعتقد...
- سأساعدك إذن.
- شكرًا.

81

ركبت في السيارة. وضعت حزام الأمان. وأمسكت بمقبض اليد. ثمّتَ هواء ساخن يُدفّئ قدميها. ولم تكن الموسيقى الإسبانية سيئة، عليها أن تعترف بذلك.

كانت فلورا تحاول أن تغمض عينيها بين حين وآخر، ولكنها سرعان ما تفتحهما حتّى لا يُصيبها الدوار، كان ينتابها الإحساس بأنّها ستغط في نوم عميق على ذلك المقعد المريح.

كانت السماء تمطر بشدة، فتمتزج القطرات التي تضرب سقف السيارة بصوت الموسيقى وصوت النشّافات بطريقة مذهلة. وكانت السيارة تلتهم الطريق المظلم والمليء بالمنعطفات. والأضواء تجعل الإسفلت لامعًا حيث ينهمر المطر. وتبدو أغصان الأشجار الطويلة والسوداء كأنها تريد الإمساك بهما. تنفتح الطريق بين الفينة والأخرى، ثم تعود الأشجار على الجانبين.

كانت فلورا تشعر بالثقة، وهذا غريب جدًا. لا شيء قادر على إيقافهما، حتى ولو كان بقرة تعبر الشارع، سيدهسانها ويتركانها جثة هامدة ويمضيان إلى الأمام. اعتادت فلورا أن تشعر بالخوف عندما

يقود الآخرون السيارة، لكن جراتزيانو يبدو ماهرًا في القيادة حقًا.

هذا يؤكد أنه شارك في الرالي... لم أعد أذكر أين!

ورغم السرعة التي يمضي بها فإنّ السيارة ثابتة في وسط الشارع.

ومن يدري إلى أين يأخذني.

كم مضى منذ ركبا السيارة؟ لم تعد تذكر أو تركّز. الدقائق العشر تبدو كأنها ساعة كاملة.

- كل شيء على ما يرام؟ – سألها جراتزيانو فجأة.
- أجل. – التفتت إليه. – متى نصل؟
- بعد قليل. هل تعجبك الموسيقى؟
- جدًا.
- إنها فرقة جيبسي كينغز. هذا أفضل ألبوم لهم. أتريدين؟ -أخرَج علبة سجائر Camel.
- لا.
- هل يزعجك إذا دخنّت؟
- لا لا... – وجدت فلورا صعوبة في بناء حوار، وليس من التهذيب أن تبقى صامتة. لكن الصمت يبدو مريحًا وهي تراقب الطريق بعينيها. كانت لتبقى هكذا إلى الأبد، في تلك السيارة، بينما تثور عناصر الطبيعة في الخارج. واستغربت أنها لا تشعر بالقلق، برفقة مجهول لا تعلم إلى أن يأخذها. بدت كأنها تستعيد ألقها ونشوة السكر في أفول.

نظرت إلى جراتزيانو وهو يدخّن ويركّز في القيادة. كان وسيمًا بوجهه اليوناني ذي الملامح الدقيقة وأنفه الكبير المتناسق كليًا مع باقي الوجه. لو أنه قصّ شعره وارتدى ثيابًا عادية لبدا أكثر وسامة، وإثارة. سيكسي.

سيكسي؟ ما هذه الكلمة البذيئة... ولكن لابدّ أنه يمتلك شيئًا

ضخمًا كي يطارح ثلاثمائة امرأة في صيف واحد... أليس كذلك؟
(كفّي عن هذا أيتها الحمقاء).

أبطأت السيارة فجأة وانعطفت إلى اليمين وتوقفت في ساحة ممهدة ومظلمة أمام كوخ ما. على الباب يوجد علامة خضراء: *بار ومطعم*.

- هل وصلنا؟

- هل أنت جائعة؟ - نظر إليها بوميض عينيه.

- لست جائعة في الحقيقة. - فكّرت أنّ معدتها سترتبك ما إن تمضغ أي شيء بين أسنانها.

- ولا أنا. بوسعنا أن نشرب شيئًا ما.

- أنا لا أقوى على الخروج. اذهب أنت. سأنتظرك في السيارة.

لن تفارق تلك السيارة أبدًا. كان مجرد التفكير في دخول ذلك المكان، حيث يوجد الصخب والأضواء، يصيبها بإعتلال رهيب.

- متأكدة؟

- أجل. - ستحظى بإغفاءة سريعة بينما يشرب شيئًا في البار.

- حسنًا. لن أستغرق إلا لحظة واحدة. - فتح الباب وخرج.

نظرت إليه وهو يبتعد، وأعجبت بأسلوب مشيته.

82

دخل جراتزيانو إلى البار، أخرج جواله وحاول الاتصال بإريكا. أجابه المجيب الآلي. فأغلق الخط.

جاش يأسه أثناء الرحلة، وعزاه إلى حبة السبايدرمان اللعينة. كان يكره المخدرات الطبية. راح يتذكر آخر ليلة قضاها مع إريكا وكيف لعقت قضيبه، فأصيب بالدوار والألم. وانتابته رغبة عمياء في الحديث معها. كان يعلم أنّ الرغبة سخيفة، لكنه لا يستطيع مقاومتها. كان في حاجة ماسة إلى الحديث معها ليفهم السبب الذي دفعها للزواج به ثم

الذهاب مع مانتوفاني. لو أعطته سببًا منطقيًا وبسيطًا لاستوعب الأمر وانتشل روحه من ذلك العذاب.

المجيب الآلي اللعين هنا وتلك العنيدة في السيارة. اللعنة.

ازداد المشهد ويلًا. لم يكن يشمئزّ منها، لكن شحوبها وتواضعها ينفثان الغيظ في نفسه. والحقيقة أنه تأسّف على غدرها بالسبايدرمان ليأخذها معه. وهذه ليست من شيمه. ثم هنالك المطر الغزير والطقس البارد وهذا المحل التعيس والفارغ. *اللعنة...*

طلب كأس ويسكي من الفتى القاصر الذي يعمل في البار. كان يشاهد التلفاز. نهض على مضض من الكرسي حيث كان جالسًا.

- أعطني زجاجة كاملة. هيا. –أخذ جراتزيانو الزجاجة وكان سيدفع ثمنها حين تذكّر.– هل لديك الليمونشيل؟

قرّب القاصر الكرسي إليه، وصعد عليه. نظر إلى رفّ الكحوليات فوق الثلاجة وأخرج زجاجة طويلة صفراء. نظفها على عجل وأعطاه إيّاها. فدفع جراتزيانو ثمنها وفتحها. – كفاني تفكيرًا بإريكا! – خرج من المحل، وارتشف من المشروب فانقبض وجهه اشمئزازًا. –يا لك من مشروب مقرف! – لكنّ الزجاجة قد تكون نافعة.

83

كانت دببة الكوالا الرمادية تقلّم أظفارها بالمقصات الصغيرة. انزعجت الدببة فجأة، بينما تحاول فلورا أن تُهدّئ من روعهم. «على رسلكم يا شباب. على رسلكم وإلا أذيتمونـ.. انتبه! انظر ماذا فعلت!». قطعت إحدى الدببة إبهامها، ورأت فلورا نزيف الدماء من الإصبع المبتور. لكنها لم تكن تتألم...

- فلورا! فلورا! استيقظي.

فتحت عينيها على وسعيهما، فأخذ العالم يترنح يمينًا شمالًا. كل

شيء يرقص وفلورا تشعر بالغثيان، فيما المطر ينهمر على السقف والطقس يزداد برودة. أين كانت؟ رأت جراتزيانو جالسًا بقربها.

- لقد غفوت... هل شربت؟ هل نعود إلى المنزل؟

- انظري ماذا اشتريت. —أظهر لها زجاجة الليمونشيل، ضمّها إليه ثم مرّرها إليها. —اشتريتها خصيصًا لأجلك. قلت إنّك تحبين هذا المشروب.

نظرت فلورا إلى الزجاجة. هل كان عليها أن تشرب وهي سكرانة أصلاً؟

- هل تشعرين بالبرد؟

- قليلًا. — كانت ترتجف في الواقع.

- اشربي إذن. هذا المشروب يمنح الدفء.

شربت فلورا من فم القنينة. *مذاقه حلو جدًا.*

- كيف تشعرين الآن؟

- أفضل. — جال الليمونشيل في جدران بطنها ليعيد إليها قليلًا من الحرارة.

- انتظري. —رفع جراتزيانو مستوى التدفئة، وأخذ معطفه من المقعد الخلفي وأعطاها إياه.

أرادت فلورا أن تقول إنها ليست في حاجة... عندما اقترب منها وبدأ يغطّيها بالمعطف فحبست أنفاسها واقترب منها أكثر وابتعدت عنه والتصقت بالباب آملة أن ينفتح فمدّ ذراعه على رقبتها وجذبها إليه لتشتمّ رائحة الليمونشيل والدخان والعطر والنعناع فأغمضت عينيها، وفجأة... فمها على فم جراتزيانو.

يا إلهي. إنه يقبّلني...

كان يقبّلها. كان يقبّلها. كان يقبّلها...

فتحت عينيها فرأت عينيه المغمضتين في وجهه الجميل على بعد

ثلاثة سنتمترات منها. حاولت أن تبتعد ولكن هيهات، كان كالأخطبوط يشبك شفتيها.

إنه يقبّلك! لقد احتال عليك.

أغمضت عينيها ثانية. كانت شفتاه طريتين بشكل لا يوصف، وطعم فمه بنكهة تلك الرائحة الزكية من الليمونشيل والدخان والنعناع قد انتقلت إلى فمها. حاول لسانه الولوج في فمها فتغلقه قليلًا كي يتسرب إليها ذلك الشيء اللزج. لسانه يلامس لسانها فتدبّ في ظهرها القشعريرة. كان الإحساس جميلًا، جميلًا حتى دخل لسانه يستكشف فمها ويداعب لسانها. التقطت فلورا أنفاسها فضمّها إلى صدره واشتد العناق فراحت يدها لا إراديًا تتوغل في شعر جراتزيانو، وتخرّب تسريحته.

أجل.. أجل.. هكذا.. هكذا ينبغي.. أن نفعل.. هكذا ينبغي أن نعيش الحياة.. بالقبلات.. آآآه.. ما أجمل الحياة.. آآه ما أطيب القبلات.. إنه الشيء الأسهل في الحياة.. لأنّ القبلة أشهى ما في الحياة.. لأننا.. في الحياة.. علينا.. أن نقبّل أحدًا ما.. وأنا أحب.. القبلات.. وليس صحيحًا أنه لا ينبغي علينا ممارسة الحبّ.. بل ينبغي أن لا نفعل شيئًا سواه.. لأنه جميل.. لأنه أجمل شيء في العالم.. وعلينا أن نفعله.

شعرت فلورا بساقيها تذوبان وبقدميها تغليان وبأيديها تنمّلان وبأنفاسها تنقطع من هول الهوى. كانت تشعر بالموت حتى هوت كدمية على صدر جراتزيانو ذي الرائحة الشهية.

84

يتغير الجوّ قبل بضعة أميال من الوصول إلى أحواض ساتورنيا. ويبقى المسافر مشتت الذهن، وهو يمر بتلك الطريق، ويجهل وجود نبعة كبريتية.

يختفي المنحدر والمنحنيات فجأة، وتتلاشى غابة البلوط، ويصبح الطريق سهلًا وتمتد الحقول الخضراء، على وسع النظر، ببهاءٍ يشبه الحقول الإيرلندية بكل التفاوت والتدرجات. ربما تنتج نضارة العشب بهذا الشكل من تلك الحرارة الحميدة وغزارة المياه واختلاط العناصر الكيميائية في أعماق الأرض. وإن لم يكتفِ المسافر المشتت بكل هذا كي يبقى مذهولًا، فإنّ الضباب الذي يرتفع من قنوات الريّ الموازية سوف يحفّز فضوله بالتأكيد. وبين حين وآخر ترتفع هذه الغازات من القنوات لتشكّل مقاعد عالية تقارب النصف مترًا وتجتاز الطريق كي تقتحم الحقول كبحر من القشدة، تشبه الغيوم في الأعلى. ومن بين هذا البياض تظهر شجرة فواكه، وحدود الأراضي وبعض الأغنام. ويبدو أنّ أحدهم شغّل تلك الآلات التي تولّد الضباب في تصوير المشاهد السينمائية.

وإن لم يكتفِ المسافر بكل هذا فهنالك الرائحة التي سيشتمها رغمًا عن أنفه. «ما هذه الرائحة الكريهة؟». سينظر إلى زوجته ويتهمها. «كم مرة قلت لك أن لا تأكلي حساء الكراث لأنك لا تستطيعين هضمه». لكنها ستبادله النظرة والتهمة أيضًا. «لست أنا!». فينظر الاثنان إلى الكلب القابع في المقعد الخلفي. «زيوس يا للقرف! ماذا يوجد في بطنك؟». ولو استطاع زيوس الكلام لدافع عن نفسه وردّ عنه التهمة، ولكن ربنا الحكيم قضى أن لا تمتلك الحيوانات هذه الخاصية (عدا الببغاء والشحرور الهندي اللّذين يكرران ما يسمعان دون أن يفهما المعنى). سيهزّ زيوس المسكين بذيله سعيدًا لهذا الاهتمام غير المتوقع من صاحبيه.

وفجأة ينقشع الضباب ويتكثف في إحدى زوايا الغابة حيث يوجد كوخ صخري قديم. ستقول الزوجة حينها: «لابدّ أنّ هذا مصنعٌ للسماد أو أنّ أحدهم أحرق موادًا كيميائية». ولكن في النهاية سيفهمان اللغز

عندما تنبثق أمام أعينهم شارة كبيرة: «أهلًا بكم في حمّة ساتورينا».
سيتابعان الرحلة حينها بمزاج أكثر صفاءً.

85

يجعل البخار الكبريتي الليل أكثر وحشة وغموضًا من أراضي باسكرفيل المقفرة. وإذا كانت الليلة كتلك، حيث الرياح الغاضبة وعواء الذئاب ووميض البرق وغزارة الأمطار، فسوف تشعر كأنك وصلت إلى عتبات الجحيم.

أبطأ جراتزيانو السرعة، وأطفأ المسجلة. ثم توغل في الطريق الفرعي من الأرض الموحلة، فهذا الدرب يؤدي إلى الوادي حيث توجد الشلالات، بينما تكمل فلورا غفوتها على المقعد.

كان الدرب موحلًا جدًا ومليئًا بالحصى والمستنقعات، ما جعل جراتزيانو يتقدم بروية. إذ لا يوجد أسوأ من درب كهذه بالنسبة إلى العجلات. كان يشدّ على المكابح كي تتابع السيارة نزولها البطيء والعنيد في الطين. هنالك منعطف وعر، لكن موقف السيارات قرب الشلال سيكون في انتظاره. كانت السيارة تتقدم مع أنّ جراتزيانو يحاول لجم الفرامل بكل قوته *(لا أريد أن أفكر كيف سنعود)*. وأخيرًا توقفت السيارة تمامًا عند حاجب الطريق. عاد إلى الوراء قليلًا فوجد نفسه، دون أن يعرف السبب، على بُعد مسافة قصيرة من الموقف.

هناك في الأسفل، يتلون الضباب بالأحمر والأزرق والأخضر، وتتراءى أطياف غامقة تتحرك في الضباب الخفيف بين الحين والآخر. كان الوادي كمرقص تم بناؤه في الغابة.

يوجد الكثير من الناس. ظلّ ينزل متمهلًا لأنّ الموقف مليء بالسيارات المركونة بشكل فوضوي واحدة حذو أخرى. ويوجد صخب كبير من الزمامير والموسيقى. وعلى ذلك الجانب ثمّتَ حافلتان

سياحيتان كبيرتان.

ما الذي يحدث هنا؟ هل ثمّتَ حفلة ما؟

لم يأت جراتزيانو إلى هنا منذ مدة بعيدة، وبالتالي لم يكن على علم بأنّ هذا المكان صار يجذب الناس من كل البلد بوصفه من أروع الأماكن السياحية. ركن السيارة بأفضل ما استطاع خلف حافلة توسكانية. ثم نزع ثيابه وبقي في سرواله. كان عليه حينها أن يوقظ فلورا. ناداها أكثر من مرة دون نتيجة تذكر. تبدو كأنها ميتة. ظلّ ينكزها حتى استطاعت أن تتمتم بعض الكلمات.

- لقد أتيت بك إلى مكان في غاية الجمال يا فلورا. مفاجأة. انظري.

- قال جراتزيانو متحمسًا.

رفعت فلورا رأسها بصعوبة ونظرت لوهلة إلى ذلك الوميض الملون وسقطت مرة أخرى. - جميل.. أين.. نحن؟

- في ساتورنيا. سوف نستحم.

- لا.. لا.. أنا أشعر بالبرد.

- المياه ساخنة...

- ليس عندي لباس. اذهب أنت. أنا سأبقى في السيارة. - ثم أمسكت يده، واقتربت من فمه وأعطته قبلة غشيمة وسقطت في اللاوعي مجددًا.

- هيا. تعالي. سيعجبك المكان كثيرًا. ستشعرين بأفضل حال إن خرجت.

لا شيء.

حسنًا لقد فهمت.

أشعل الضوء الصغير وبدأ ينزع ثيابها. نزع عنها المعطف والحذاء كأنه يتعامل مع طفل عنيد لا يتعاون مع أمه عندما تلبسه ثياب النوم. وبعد قليل من التردد، نزع التنورة والكلسات. كانت ترتدي سروالا

بسيطًا من قطن أبيض، وكانت ساقاها الطويلتان رشيقتين وجميلتين حقًا. إنّهما ساقان مناسبتان لكعب مرتفع.

بدأت القصة تعجبه وأخذت أنفاسه تتقطع. نزع كنزتها. كانت ترتدي قميصًا حريريًا بلون الأجاص ومغلقًا حتى آخر زر.

هيا... بدأ يفتح الأزرار واحدًا واحد، من الأسفل إلى الأعلى. غمغمت فلورا بشيء ما تمنعًا، لكن رأسها سقط ثانية على عنقها. كانت بطنها مسطحة لا تجاعيد فيها وبيضاء كالحليب. عندما وصل إلى صدرها، رفرف قلبه حتى نبض في أذنيه، التقط أنفاسه وفك الزر الأخير فانفتح القميص.

انصعق أمام نهديها الكبيرين بشكل جنوني والمضغوطين رغمًا عنهما بحمالة الصدر. كانا كقطعتي جبن كبيرتين ومستديرتين. خطر بباله أن يخرجهما لكي يرى كل جمالهما ويداعبهما ويمصّ حلمتيهما، لكنه امتنع عن ذلك. كان امتناعه غريبًا، فجراتزيانو يُخبّئ في مكان ما من دواخله رجلًا خلوقًا (بأخلاقه الخاصة) ويظهر من حين إلى حين.

وفي النهاية فكّ شعرها الذي تناثر كموجة حمراء كما توقّع. نظر إليها كيف تغفو بحمالة الصدر والسروال. كانت جميلة إلى حدّ لا يصّدق. *وربما فلورا أكثر جمالًا من إريكا.*

كانت كباقة من زهر النسرين الذي ينبت عفويًا بين الأحجار وينمو دون أن يعتني به أحد، أو يسقيه عامل الحدائق ويلقّحه بمضاد الطفيليات.

لم تكن هي نفسها على دراية بقيمة جسدها، ولو كانت على دراية لألحقت به كمًّا هائلًا من الذنوب.

أمّا جسد إريكا، على العكس، فكان مصممًا ليناسب مقاييس الجمال الرائجة حينها (خصر ضيق، صدر كبير، مؤخرة كبطن الماندولين). ولو ولدت في بداية القرن لما اكترث لها أحد. لكن الذوق المعاصر بحاجة

إلى جسد يتغذى على الصالة الرياضية والمستحضرات والتدليك وتتم مراقبته على الدوام إذا ما قسناه بأجساد النساء الأخريات. جسد إريكا راية ترفرف دائمًا وفي كل مكان.

لكن فلورا كانت جميلة جدًا وجراتزيانو كان سعيدًا بها.

86

لم يكن الطقس باردًا وحسب بل كان باردًا جدًا. وكان المشي شديد الصعوبة بسبب تلك الصخور الحادة التي تنتأ تحت قدميها. وكانت تمطر بغزارة يقشعرّ لها بدن فلورا وتصطلك أسنانها. وهنالك رائحة الكبريت الكريهة أيضًا.

من حسن حظّها أن جراتزيانو يمسك بيدها، فيتغلغل الأمان في صدرها. أين كان يأخذها؟ إلى الجحيم؟

جيد جدًا. فلنذهب إلى الجحيم. كيف يقال؟ أجل... سأتبعك حتى لو كان الجحيم وجهتك.

في تلك اللحظة لم تعد تهتم إن كانت ذاهبة إلى الجحيم أم لا. انتبهت إلى أنها عارية (لست بعارية، عليك السروال وحمالة الصدر). وسواء أحسّت بالعريّ أم لا، فالأمور تمشي بأفضل ما يمكن.

كانت تتقدم بعينين مغمضتين وتبحث في فمها عن نكهة القبلة. *أذكر أننا تبادلنا القبل في السيارة.* واربت عينيها ونظرت حولها. أين كانت؟ في وسط الضباب. وكانت رائحة الكبريت، كأنها لبيض نافق، قد اشتمتها ذات مرة في الصف عندما كسر أحد المشاكسين قنينة تصدر الروائح الكريهة. وهنالك الكثير من السيارات أيضًا، بعضها مظلمة وبعضها منيرة ولكن بنوافذ تحجب ما في الداخل. وثمّتَ ستريو يضرب أنغامًا منخفضة. وفجأة رأت بعض الشباب بلباس السباحة يركضون ويصرخون ويتدافعون بين السيارات.

كان جراتزيانو يأخذها، وكانت تفعل ما بوسعها لتبقى خلفه حتى لو أنّ ساقيها تجمدتا من البرد. صدّها طيف رجل بملابس الاستحمام ينظر إليها وهي تمشي. كان ثمّتَ بيت ريفي قديم ومهجور وهابط السقف، على اليسار فوق التلة. وثمّتَ عبارات مكتوبة على جدرانه. ويتراءى وميض نار وأطياف سوداء حولها، من خلال نافذة بلا زجاج. موسيقى أخرى. إيطالية هذه المرة. وبكاء طفل محبط. ومجموعة من الناس تلوذ تحت مظلات السواحل.

وثبت فلورا مذعورة من هزيم الرعد في الليل. فاقترب منها جراتزيانو وأحاط بخصرها. – لقد وصلنا تقريبًا.

كانت تود أن تسأله إلى أين، لكن أسنانها تصطك وتمنعها عن الكلام. تقدّما عبر خيام هاوية وسلال مهملات وفضلات رحلات بريّة يشرذمها المطر. وفجأة شعرت بشيء جميل جدًا أراح خاطرها. الماء! كان الماء تحت قدميها فاترًا، وكلما تقدمت عليه ارتفعت سخونته وصعد ذلك الدفء المحبب حتى ساقيها. –يا له من جميل! – تمتمت.

علا صوت الشلالات بقوة حينها وكان هنالك الكثير من الناس، يرتدي بعضهم سترًا مطرية وآخرون عراة. كان جراتزيانو يفسح لها المجال بين تلك الأجساد. تراهم ينظرون إليها، وتسمعهم يهمسون خلفها، ولكنها لم تكترث لهم. فالشيء الأهمّ أن تبقى قريبة من جراتزيانو. *هكذا لا أضيع*...

أصبحت المياه التي تنساب تحت قدميها ساخنة فعلًا، كالماء في حمّام بيتها تمامًا. عبرا آخر حاجز بشري، يبدو من حديثهم أنهم ألمان.

ووجدا نفسيهما أمام شلال صغير، وتحته سلسلة أحواض، يتفاوت كبرها ومستوياتها كلما كانت في الأسفل حيث تتسع في بحيرة مظلمة. هنالك ضوء بإنارة عالية ومرفوع على جدران الشلال، يصبغ البخار

باللون الأصفر. كان انطباع فلورا في البداية أنه لا يوجد أحد في الأحواض، ولكنها كلما نظرت بتركيز ميّزت بحرًا من الرؤوس تبرز من الماء.

- حذار أن تنزلقي. —كانت الصخور مغطاة ببساط من الطحالب الناعمة.—الآن تبدأ الفقرة الأروع... — صرخ جراتزيانو ليعلو صوته خرير الشلال.

أدخلت فلورا قدمها في الحوض الأول ثم أتبعت الأخرى. كان إحساسًا جميلًا. حاولت أن تهبط في ذلك الحوض الطبيعي، لكن جراتزيانو جرّها. — فلنذهب إلى الأمام. يوجد أحواض أعمق من هذه وبعيدة عن هذا الصخب.

أرادت فلورا أن تقول له إنّ ذلك الحوض جيد جدًا لكنها تبعته دون اعتراض. دخلا في حوض أكبر، ومليء بالبشر الذين يقهقهون ويدهنون وجوههم وشعرهم بالوحل وبعض العشّاق يتعانقون. كانت تحسّ بأقدام وبطون وأيادي تلمس بدنها. دخلا في حوض عميق كفاية وصالح للسباحة، ولكنه مليء بالبشر (رجال) وهم يغنون: - نحب الفراريج والخرفان لأنّ ليس فيها حسكًا كالأسماك.

- هذا الحوض مليء باللوطيين... — قال جراتزيانو مشمئزًا.

آه يوجد اللوطيون أيضًا...

في الهواء ثمّتَ غبطة غريبة من نوعها، تحوم ضمن البخار والكبريت. وثمّتَ شعور بالفجور والشهوانية أيضًا، وفلورا أحست به وخافت منه من جهة لكنها شعرت بالهيجان من جهة أخرى. كانت مثل كلبة منزلية وجدت نفسها بين مجموعة من كلاب الصيد.

في حوض ما، رأت نساءً شقراوات، ربما ألمانيات، ينهضن ويرمين بأنفسهن في الماء وهنّ عاريات كما وُلدن. وفي كل مرة تظهر أصوات التشجيع والتصفيق مثلما يحدث في الملاعب من جانب فرقة من

الشبان بملابس سباحة كاملة.

- لا تتوقفي. تعالي من هنا.

بدآ يصعدان أحد جوانب الشلال ببطء وحذر شديدين. فقد كانت الصخور المنتشرة في المكان ضخمة ولزجة وغير آمنة، وهو ما أرغم فلورا على استخدام يديها كي تتسلق. كان صوت المياه عاليًا حتى الصمم، ورأسُ فلورا يدور مع كلّ خطوة من خطواتها الرهيبة. وها هي ثانيةً أمام صعدة ملساء تنساب عليها المياه، فكيف تستطيع أن تتحمّل.

لماذا يريد جراتزيانو الذهاب هناك إلى الأعلى؟

(أنت تعلمين لماذا).

استيقظ جزء من دماغها ليوضّح لها الأمر. كان مُعطّلًا حتى اللحظة لكنه استعاد ألقه ونشاطه وصار قادرًا على فك ألغاز الكون وحياتها.

لأنه يريد أن ينكحك. ليست السيرة الذاتية إلاّ حجة.

وكانت قد أدركت مراده منذ أن رأته يصل حاملًا زجاجة الويسكي بيده.

حقًا؟! فلنمارس الجنس إذن... كان الأمر يضحكها. لم تكن تتخيل يومًا أنّها ستقوم بشيء كهذا، في أقذر مكان، ومع رجل مثله.

كانت تدرك دومًا أنها خطوة لابدّ من القيام بها وبأسرع ما يمكن، قبل أن تدخل في عذارة مزمنة تقودها إلى عنوسة قاتلة، وقبل أن تصاب بالرهاب من الآخرين، وقبل أن يقنعها عقلها بأشياء لا تخطر في البال. لكنها حلمت بأمير نبيل مختلف كليًا، ورجل حساس ورومانسي (مثل هاريسون فورد) يسحرها ويقول لها كلمات جميلة ويقسم لها بحبٌ لا يفنى.

فانظر من كان بقربها، أيقونة السكس على الشواطئ، الحائز على كأس الترومبادور، بأقراطه وشعره المؤكسج.

وكانت تعرف أنها لا تعني شيئًا بالنسبة إلى جراتزيانو. اسم جديد يضاف إلى قائمته الطويلة. وجبة صغيرة للاستهلاك السريع ثم يرمي فضلاتها على قارعة الطريق.

ولكن لا يهم. *سأعزّه دائمًا لما فعله.* أضافها إلى القائمة مثل الكثير من الأخريات (جميلات قبيحات غبيات ذكيات) اللواتي قبلن بقضاء الليلة معه. وقبلن أن يدخل عضو هذا الرجل في أجسادهن. إنهن يمارسن الجنس كما يأكلن وينظفّن أسنانهن. إنهن نساء عاديات، يصلن إلى الذروة الجنسية.

لأن الجنس أمر طبيعي.

(ولست خائفة؟).

بلى. إنني خائفة بالطبع. ساقاي ترتجفان ولم أعد قادرة على الصعود.

ولكنها كانت مقتنعة بأن تلك الخطوة ستغيّر حياتها. ستغدو مختلفة عمّا كانت عليه.

(وماذا أنت الآن؟).

إنني شيء ما مُعطّل.

شيء ما يشبه الأخريات. وإذا كان الجنس بلا حب، فلا بأس. أفضل من لا شيء.

أجل عليّ أن أصعد.

أمدّت نفسها بالشجاعة، ووضعت قدمًا على حجرة وارتفعت. فصفعت موجة مياه ساخنة وجهها وفقدت توازنها للحظة وكادت تتزحلق (ويااللهول لو وقعت). لكن جراتزيانو كان متيقظًا، أمسك بمعصمها ورفعها إلى الأعلى، مثل دمية، فوق الشلال.

وجدت نفسها بما يشبه البركة الساخنة تظللها أوراق الأشجار التي يتسلل من بينها ضوء المنارة.

لم يكن ثمّتَ أحد. وكانت البركة عميقة كفاية وفيها تيار سريع، ولكنها مطوقة بالصخور التي استطاعت فلورا أن تتشبث بإحداها.

- كنت أعلم أننا سنكون في مأمن هنا... –قال جراتزيانو مسرورًا، وحملها بين ذراعيه حتى أسندها إلى ضفّة صغيرة موحلة تهدأ عندها المياه.– هل يعجبك؟

- جدًا. – ابتلع خرير الشلال أصوات الناس.

استطاعت فلورا أخيرًا أن تغمر نفسها في الماء وتتلذ بالسخونة. اقترب منها جراتزيانو وأحاطها من خصرها وأخذ يقبل عنقها. فاهتزت رعشات النشوة على رقبتها، وأمسكت بذراعيه ولاحظت وجود وشم يلّون عضلة مرفقه الأيمن. رسم هندسي ما. كان قويًا وعضلاته مفتولة. ويبدو إنسانًا وحشيًا خرج من أدغال غينيا الجديدة، بشعره الطويل والمبلل والملتصق على رأسه المغطى بالطين.

يا له من وسيم...

ضمّته إليها، وصفعته على خديه، وغرست أظفارها في جلده. وبحثت عن فمه فغزّت أسنانها بشفتيه، ووجد لسانها لسانه، فراحت تلعقه حتى ارتخت مستعدة على الضفة.

87

وجراتزيانو؟

وجراتزانو أيضًا كان مستعدًا. ما هذا السؤال؟!

كان قد بحث عن أصدقائه في الأحواض السفلى، ولكنه لم يجدهم بسبب الضجة والزحمة، وربما لم يأتوا أساسًا.

في الحقيقة لا يهمّني إن أتوا أو لم يأتوا. بل هكذا أفضل. كانوا سيدمرون كل شيء.

ومازال يكرّر أنّه أخطأ عندما أعطاها السبايدرمان. لو لم يعطها

الحبة لكان الوضع أجمل وحقيقيًا أكثر. فكان سينجح في اصطحابها حتى هناك من دون الحبة أيضًا. فلورا تبعته عبر الأحواض دون أن تتكلم، دون أن تعترض، دون أن تمتنع، مثل كلب صغير يتبع صاحبه.

ضمّها ووضع فمه على أذنها وأخذ ينزع حمالة الصدر ويداعب نهديها بينما كان يغنّي بهدوء:

O minha maconha, o minha torcida, o minha copeira, o minha maloka, o minha belezza, o minha vagabunda, o minha galera, o minha capoeira, o minha cachoeira, o minha menina.[1]

بدأ يلحس نهديها ويعضّ حلمتيها، ثمّ أغرق وجهه وسطهما ليشتم رائحة الطين المعشّق بالكبريت. نزع لباسه وقادها حيث المياه أكثر عمقًا. جلسا على صخرة ناتئة. أمسك يدها ووضعها على قضيبه.

88

حملته بيديها. كان صلبًا وكبيرًا وبجلد أملس. أعجبها لمسه، كأنها تحمل سمكة بين أصابعها. داعبته فانخفض الجلد ليكشف الرأس.

ماذا تفعلين...؟ لكنها لم تناقش نفسها. وظلّت تداعبه حتى وصلت إلى الخصيتين. داعبتهما قليلًا ثم قررت أن هذا يكفي. حانت اللحظة التي لطالما رغبت بها. ينبغي أن تفعل ذلك.

نزعت سروالها ورمته على إحدى الصخور. شدته إليها بقوة حتى أحست بضغط مؤلم على بطنها. – جراتزيانو أرجوك. على مهلك. لم أمارس من قبل.

---

(1) الأبيات مقتطعة من أغنية (Minha Galera) لمانو شاو. وتقول:
أنت حشيشتي المفضّلة، أنت كلّ جمهوري، أنت رقصتي الشعبية،
أنت حبيبتي، حبيبتي الجميلة، أنت هذياني، أنت كل أصدقائي،
أنت رقصتي الشعبية، أنت شلالي، أنت حبيبتي الغالية.

89

كان ذلك بديهيًا. كيف فاتته هذه؟

يا له من غبي! كانت فلورا عذراء ولم يفهم ذلك. وهو الذي نكح من النساء أكثر مما تناول البيتزا. كان عليه أن يدرك الأمر حين قبّلته بولع وقلة خبرة. ظنّ أنها بفعل السبايدرمان، ولكنها كانت تقبّل رجلًا للمرة الأولى في حياتها.

اهتاج كالقرد. مرر ذراعه تحت صدرها وحملها إلى الضفة. جعلها تستلقي. كانت العملية حساسة وعليه أن يقوم بها على أكمل وجه.

نظر إلى عينيها فرأى فيهما سرورًا وخوفًا لم يره في كل أعين العاهرات اللواتي يمارسن الدعارة على الشاطئ الرومانيولي.

هذا هو الجنس... هذا ما كنت أبحث عنه... —اطمئنّي، اطمئنّي...

— كانت كلماته مرتبكة. رمى نفسه إلى الوراء وجثم على ركبتيه أمامها.

— لن أؤذيك.

وسّع ما بين ساقيها (كانت ترتجف) وأمسك قضيبه بيده اليمنى وبحث عن فرجها باليسرى. أغلق فمها (كان لزجًا). وبنقلة سريعة ومحكمة أدخل قضيبه فيها.

90

ملص قضيبه في أحشائها. شهقت فلورا وحبست أنفاسها. غرست يديها في الطين، ولم تستطع أن تكبت الألم الخيالي الفظيع الممزق.

لكنها لم تشعر بالألم. بل كانت تنتظر بفم مفتوح ولا تتنفس، بينما يواصل العضو التقدم في فرجها.

- سأتابع... أخبريني إن أتعبتك.

فتحت فلورا فمها وكان صدرها يرتفع وينخفض مثل المنفاخ. كانت تتنفس بمشقة تنتظر الألم الذي لم يصل. شعرت بأنها ممتلئة، وبأن

ذلك العمود من اللحم يملأها من الداخل ولكن لا يُشعرها بالألم.

كانت تبحث عن الألم حتّى وضعت اللذّة جانبًا. رأت اللذة في عيني جراتزيانو الذي كان يشهق كأنه ممسوس، يتقدّم ويتراجع بسرعة متزايدة وبقوة متضاعفة، وهو ماسكٌ بردفيها. كان جاثمًا عليها وهي تحته وهذا الشيء في داخلها. أغمضت عينيها. ضغطت ظهرها كقرد صغير ورفعت ساقيها لتسمح له بولوج أفضل. فتوغل فيها حتى العمق.

شعرت فلورا بذرّات اللذة تدخل شريانها وتنمّل رقبتها. ثمّ تومض من جديد. وكلما تناستها شعرت بها أكثر، وأصبحت عنصرًا يشعّ من اللذّة في أحشائها وفي ساقيها ويرقص في قفصها الصدري وينتهي في حلقها.

- هل.. أنت.. سعـ...يدة؟ – سألها جراتزيانو وهو يدخل يديه في شعرها، ويضغط على عنقها.

- أجل.. أجل..

- ألا تتألمين؟

- كلا.. كلا.. كلا..

استدار على ردفه فصارت فوقه ومازال القضيب في فرجها. حان دورها في التكفّل بالأمر، لكنها لم تكن على ثقة من قدرتها على ذلك. كان عضوه ضخمًا جدًا وقد غار كله فيها. شعرت به يدخل بطنها. وضع جراتزيانو يديه على نهديها، وشدّهما بقوة. فانتابها إحساس جديد باللذة ضيّق أنفاسها.

أراد أن تبقى هكذا، في تلك الوضعية الفظيعة، لكنها ارتمت وعانقته وقبّلته على رقبته وعضّت أذنه. كانت تحس بأنفاسه تعلو وتعلو وتعلو... *لا يمكن أن يقذف في الداخل*. كان عليها أن تخبره بذلك، لكنها لم ترغب في إطفاء جموحه الثائر. – جراتزيانو.. حذار.. أنا...

فالتف ثانية. وعندما كان يبحث عن وضعية جديدة حاولت فلورا

مساعدته عبثًا. فجعلها تجثم على ركبتيها ويداها في الطين. ووجهها في الطين. ونهداها في الطين. والمطر يجلد ظهرها. *أشعر بأنّني كلبة...*

كان يمسك ردفها بيد وبالأخرى يحاول أن يمسك نهدها، فيملص من يده. ثم أولجه قاصدًا أن يصله حتى بلعومها و... *لن يفلت الآن أبدًا.*

ربما كان ستصل الذروة حين ظنت أنها ماتت. جرّبت أن تتنفس، ولكن موجة البخار الساخنة غزت وجهها وتمددت حتى إبطيها فأذنيها فرأسها. – يا إلهي.

كان يلمس بظرها. فأدركت أنّ ما سبق كان لا شيء أمام تلك اللحظة. فقد كان إصبعه، وهو في تلك النقطة، كفيلا بجعلها مجنونة دون أن تفهم شيئا.

ثمّ وسّع ساقيها كي يدخله ثانية.

91

وهنا أخطأ جراتزيانو.

كما اخطأ مع إريكا عندما طلب منها الزواج، كما أخطأ عندما قال ذلك لجميع أصدقائه، كما أخطأ عندما دسّ السبايدرمان في كأس فلورا، كما أخطأ بكلّ أيام عمره الأربعة والأربعين عمليًا. وليس صحيحًا أنك تتعلم عندما تخطئ مثلما يقولون، ليس صحيحًا بتاتًا. يوجد أشخاص لا يتعلمون شيئًا إذا أخطؤوا، بل على العكس، يكرّرون الخطأ مقتنعين بأنّه الصواب (أو لا يعون حقيقة ما يفعلون). وحياتهم خاطئة، مثلهم أيضًا. ولكن هذا لا يعني شيئًا، فهؤلاء الأشخاص يعيشون على أخطائهم ويكبرون ويعشقون وينجبون للحياة كائنات بشرية جديدة ويهرمون ويظلّون يُخطئون.

هذا هو القدر الأحمق. وهذا هو قدر بطلنا التعيس. ومن يدري ما

الذي راود رأسه، أو بأيّ شيء كان يفكر وكيف نظّم تلك الفكرة السيئة في دماغه.

كان جراتزيانو يريد أكثر. يريد أن يغلق الدائرة، يريد العنب ورأس الناطور، يريد القمر في البئر، يريد الجمل بما حمل، يريد أن يفضّ بكارتها من الأمام والخلف.

في الخلاصة، كان يريد دبر فلورا بالميري. وسّع ردفيها وبصق. ثم أولج القضيب في تلك النجمة المتشنجة.

92

هبط عليها الألم دون إنذار، كالصخرة التي تقع على رأسك من حيث لا تدري.

وصلها الألم مشتعلًا مثل ضربة كهربائية أو شظية زجاجية. ولم يكن هناك حيث كان يجب أن يكون، بل كان...

كلاا! إنه ينك...!

انثنت نحو اليمين ومدّت ساقها اليسرى لتضرب عنق جراتزيانو بكعبها.

93

طار جراتزيانو إلى الخلف، بذراعين منفرجتين وفم مفتوح، لمدة لا تنقضي. ثم غرق في ذلك الحساء الساخن. وضرب رأسه بصخرة وعاد إلى السطح مشلولاً.

كان يرى عباءة سوداء تحيط به، وتتسرب منها شحنات ضوئية فجائية.

لماذا ضربتني؟!

حمله التيار إلى وسط البركة، وكان يتزحلق فوق الصخور المطلية

بالطحالب، ويحك كعبيه في القاع الرغامي.

لابد أنها ضربته على نقطة حسّاسة تُحوّل الرجال إلى دمية، ولا يعرف سرّها سوى معلمو التايكواندو اليابانيون.

يا للغرابة...

كان يستطيع التفكير ولكنه لا يقوى على الحركة. فيشعر بالمطر البارد على وجهه مثلًا ويدرك أنّ التيار الساخن يسحبه نحو الشلال.

94

جلست فلورا قرب صخرة ورأت الخال أرماندو يطفو في وسط البركة. مستحيل، فالخال أرماندو يعيش في نابولي. هذا جراتزيانو. لكنها مازالت ترى كرش الخال أرماندو يطفو كجزيرة بين دخان الكبريت وأنفه يبرز فوق الماء كزعانف السمك. وكان التيار حينها يحمل معه الخال أرماندو أو أيًا كان.

رفع الخال أرماندو/جراتزيانو ذراعه بصعوبة. – فلورا.. فلورا.. ساعديني..

كلا لن أساعدك.. لن أساعدك..

(إنه ليس الخال أرماندو يا فلورا). وأخيرًا تحدثت أمّها من جديد.

إنّه مقرف. حاوَل أن...

– لا أقوى على الحركة يا فلورا...

(سوف يقع في الشلال...).

– النجدة. النجدة.

(تحركي. هيا. كفّي عن أداء دور البلهاء. هيا).

دخلت فلورا في المياه على أربعة أرجل، ممسكة بأغصان الشجر كي لا يسحبها التيار. ولكن أحد الأغصان بقي في يدها فوجدت نفسها في المياه العالية وأخذت تشهق وتبصق والتيار يحملها. حاولت أن تعود

ولكن عبثًا. استدارت ورأت جسد جراتزيانو يطفو على بعد مترين من حافة الشلال. علق بين صخرتين، لكن التيار، عاجلًا أم آجلًا، سيحمله ويأخذه معه إلى الهاوية.

- فلورا؟ فلورا؟ أين أنت؟ –صاح جراتزيانو بنبرة ضرير ضلّ الطريق، كان متوترًا وليس خائفًا.

- سوف أصل... –ابتلعت لترين من تلك المياه المقرفة. سعلت ورمت بنفسها مجددًا نحو المنتصف، تحرك ذراعيها، حتى تشبثت بصخرة.

كان جراتزيانو على بعد متر منها، وعلى بعد مترين من الشلال. مدت فلورا ذراعها بما تستطيع، وتقلصت المسافة إلى عشرة سنتمترات ملعونة تعيقها على الإمساك بإبهام قدمه الذي ينتأ من المياه.

لا يمكنني أن أفقده...

- جراتزيانو! مدّ قدمك يا جراتزيانو. سأمسك بك. –صرخت كي يعلو صوتها خرير المياه.

لا يجيبها. *(هل مات؟! لا يعقل أن يموت)*. ولكنه صاح.

- فلورا؟!

- أجل! أنا هنا! كيف حالك؟

- لا بأس. لابد أنني تلقيت ضربة على رأسي.

- اعذرني. أنا آسفة. لم أكن أريد إصابتك! أنا أعتذر حقًا.

- لا يا فلورا. اعذريني أنت، فأنا أخطأت.

كان هذان الاثنان على حافة الشلال، داخل تيار لا يعطي مجالًا لأخذ النفس، ويتبادلان المعذرة كعجوزين نسيا تبادل التهنئة بأعياد الميلاد.

- جراتزيانو! مدّ قدمك.

- سأحاول.

مدّ جراتزيانو قدمه، وفلورا ذراعها. – أمسكت بك! لقد أمسكت بك! أمسكت بك يا جراتزيانو! – صرخت مسرورة، وتملّكتها الرغبة في الضحك. لقد أمسكت بإبهام قدمه ولم تكن لتتركه. استندت إلى الصخرة أكثر وبدأت تجرّه وتحمله معها لتنزعه من براثن التيار. وعندما وصلا إلى الضفة أخيرًا، تعانقا بشدة.

ثم تبادلا القبلات.

11 ديسمبر

95

تحسّن الطقس في أولى ساعات الحادي عشر من ديسمبر.

كان المنخفض السيبيري قد حلّ على حوض المتوسط، وانهال بالبرد والريح والأمطار على شبه جزيرتنا، وعلى إيسكيانو سكالو؛ حتى تصدّى له الضغط المرتفع القادم من إفريقيا، وطرده بعيدًا لينظّف أرجاء السماء، ويجعلها جاهزة لاستضافة الشمس مجددًا بعد أن طال غيابها.

96

في الثامنة والربع صباحًا خرج إيتالو ميلي من المستشفى. كان أنفه منفوخًا وعيناه ملتهبتين كأنه ملاكم مخضرم سقط على أرض الحلبة بعد أن قدّم أفضل ما لديه. جاء ابنه وزوجته ليُخرجاه، شحنوه في سيارته وأخذوه إلى البيت.

97

في نفس الساعة تقريبًا كانت حليمة في قاعة كبيرة من مطار روما بصحبة مائة نيجيري تقريبًا. كانت تجلس إلى مقعد وتشبك ذراعيها وتحاول أن تغفو.

لم يكن لديها أدنى فكرة عن موعد المغادرة. إذ لا أحد يتكفل

بإعلام المهاجرين غير الشرعيين عن وقت ترحيلهم إلى بلادهم. من المؤكد أنها ستركب على متن طائرة ما.

كانت ترغب في احتساء الحليب الساخن. ولكن ثمّتَ طابور طويل أمام الموزع الآلي.

كانت ستعود إلى القرية وتلتقي بأولادها الثلاثة مجددًا. هذا الأمر الوحيد الذي يخفف عنها. وماذا بعد؟ لم تكن تريد أن تفكّر في ذلك.

98

ما تزال السيدة لوشيا بالميري حية ترزق في سريرها.

تنهدت فلورا بانتعاش. — كيف حالك يا أماه؟

في تلك الليلة حلمت بالكوالا الرمادية، تحمل جثة أمها على طول الأوريليا الخاوية. وعلى الجوانب صخور مغبّرة وصبّار وذئاب وثعابين.

استيقظت فلورا على يقين من وفاة أمها. وقفزت من السرير إلى الأرض خائفة، وهرعت إلى الغرفة الصغيرة. أنارت الغرفة وإذ...

- أمّاه... اعذريني. أعرف أن الوقت متأخر... أنت جائعة، أليس كذلك؟ سأجلب لك الطعام على الفور...

لعلّ تلك هي الليلة الأولى التي لم تحظ فيها لوشيا باهتمام ابنتها المعتاد. حضّرت الرضاعة وأدخلتها في فم والدتها. ثم أفرغت السطول ومشّطت شعرها وقبّلتها، وبعد ذلك راحت تستحمّ.

كانت رائحة الكبريت تفوح من شعرها وجلدها، وذلك ما جعلها تغتسل مرارًا كي تختفي تلك الرائحة الكريهة. بعد الاستحمام أخذت تحدّق إلى نفسها في المرآة. كان الإنهاك واضحًا على وجهها، لكن عينيها تبرقان بحيوية لم تعرفها من قبل. لم تكن تشعر بالتعب رغم أنها نامت أقل من ساعتين. وانجلت نشوة السكر دون تداعيات مزعجة. دهنت بدنها بالمستحضرات المعطرة ولاحظت بعض الخدوش المؤلمة على

ساقيها وظهرها. ربما كانت بسبب اندفاع التيار على صخور الشلال. احمرّت حلمتا نهديها بما لا يوصف، وتشنجت عضلات مرفقها.

جلست على الكرسي الخشبي. فرجت ساقيها وراقبت. كل شيء على ما كان عليه، سوى تحسس طفيف على الجلد. بقيت طويلًا، تحت بخار الحمّام، تنظر إلى المرآة الذي اكتساها الضباب.

ما زال عقلها يفكّر في الفيلم الإباحي: الجنس في الأحواض الكبريتية. السخونة. جراتزيانو. البركة. البرد. الناس. الموسيقى. الجنس. الرائحة. الجنس. النهر. الجنس. الرفسة. الخوف. الشلال. الجنس. السخونة. القبلات.

تضاربت الذكريات وتداخلت المشاعر حتى اقشعر جسمها من التركيز على مشاهد معيّنة.

ما الذي دهاني؟

لكن جسدها تفاعل بشكل جيد. لم يتفتت ولم يتشظ ولم يتحول إلى شرنقة بعوضة. تلمست نهديها وساقيها وبطنها. رغم الآلام من الخدوش، كان جسمها يبدو قويًا وحيويًا وصالحًا لخوض أعتى المعارك. كان جسدًا قادرًا على ممارسة الجنس.

كم تساءلت في الأعوام الأخيرة، إن كانت قادرة على امتلاك علاقة جنسية، وإن لم يكن قد فاتها قطار الحب ولم يعد بوسعها لثم شفاه رجل والخضوع لرحمة فحولته.

لقد نجحت وكانت راضية عن أدائها.

في عالم موازٍ لعالمها، كانت فلورا بالميري، بجسد وعقل مُختلفين، تمارس الحب للمرة الأولى في سنّ الثالثة عشرة، وتعيش حياة جنسية متوازنة في ظلّ رغبات حسية مضطربة، وتثير انتباه الرجال، وقد تمتهن الدعارة وتعرض صدرها على أغلفة المجلات وتصبح نجمة إباحية مشهورة، ومن يدري.

كانت مستعدة أن تدفع كل ما عندها لتعيش مجددًا فيلم الجنس مع جراتزيانو، وترى نفسها في تلك الوضعيات وتدقق في تغيير ملامح وجهها...

كفّى. توقفي عن ذلك.

استيقظت من تلك الذكرى. نظّفت أسنانها ونشّفت شعرها وارتدت بنطال الجينز (ذلك الذي كانت ترتديه للتنزه على الشاطئ) والحذاء الرياضي وكنزة قطنية بيضاء وسترة خفيفة سوداء. وحينما كانت تضع الملاقط على شعرها فكرت أن تترك شعرها حرًّا ومنثورًا.

ذهبت إلى المطبخ. رفعت الأباجور فدخل شعاع من الشمس وأدفأ عنقها وكتفيها. كان يومًا جميلًا وباردًا. السماء أكثر زرقة من قبل والنسائم الخفيفة تلاعب أوراق شجر الكينا. واجتمع سرب من النوارس كالدجاج عند قطعة حمراء من الحقل المحروث خلف الشارع. وزقزقة العصافير تملأ المكان.

حضّرت القهوة وسخّنت الحليب، ودخلت، على رؤوس أقدامها، إلى الصالون المظلم، تحمل الفطور بيديها. كان جراتزيانو نائمًا على الديوان منكمشًا على نفسه، وملتحفًا بغطاء مخطط بالأبيض والأسود. أما ثيابه وجزمته فكانت مبعثرة في إحدى الزوايا هنا وهناك.

جلست فلورا إلى الأريكة.

99

فاوستو كوبي أفضل درّاج في العالم. إنه الأسرع. والأكثر جلَدًا. إنه عظيم. لم يكن يتعب أبدًا. لا يستسلم. لا يتهاون. أبدًا. وأنت مثل فاوستو كوبي.

وبييترو كان يضرب ويضرب ويضرب على الدواسات، فمُه مفتوح على أقصاه، وجهُه شاحب من التعب، وقلبه يبث النار في رئتيه، والذباب

الصغير يحوم حول عينيه.

سيمسكان بي.

استولى عليه الأزيز الصادر من مضخة الدخان. هل كانا يقتربان منه؟

أجل. أجل. بالتأكيد.

أراد أن يلتفت ليرى المسافة بينه وبينهما، لكنه لم يفعل. فالتوازن أهم شيء بالنسبة إلى الدرّاج، والوضعية السليمة هي السرّ في توفير الجهد. لو التفت حينها لفقد التوازن وتباطأ واقتربت نهايته. لكنه كان يضرب الدوسات آملًا ألاّ يقع بين أيديهما.

(لا تكترث للأمر. عليك أن تسرع فقط. أنت تسرع الآن كي تحطم الرقم القياسي البشري. أنت لا تسرع أمامهم. أنت تسرع عكس الريح. أنت الأرنب الخشبي الذي تطارده الكلاب السلوقية. فائدة هذين الاثنين أنهما يجعلانك تسرع. أنت الفتى الأسرع في العالم). هذا ما كان يقوله له فاوستو كوبي العظيم.

100

- ألا ترى أنّ دراجتك النارية بالية؟ أسرع! أسرع! اللعنة! — صرخ فيديريكو بييريني غاضبًا وهو يشدّ على ظهر فياما.

- أكاد أتجاوز الحدّ الأقصى! —صرخ فياما غاضبًا، وهو يشد بدوره على مقود دراجته النارية —سأنال منه الآن. ما إن يخفف السرعة قليلًا حتى يقع بين يديّ.

كان فياما على صواب. أين كان رأس القضيب سيذهب آخر الأمر؟ فهذه الطريق مستقيمة أكثر من خمسة أميال.

- لو كنت أعرف لاستعرت دراجة الفيسبا من ابن عمي. كم كنا سنستمتع حينها. — تأسف فياما.

- والمسدس؟ هل جئت بالمسدس؟
- لا، ليس معي.
- يالك من غبي. كنا سنطلق عليه الآن. هل تتخيل أنني أطلق النار؟
- انفجر فيديريكو من الضحك.

101

كانا يقتربان منه. وبدأ الإرهاق ينال من بييترو. كان يحاول أن يحافظ على التركيز والتنفس المستمر، وأن يضرب على الدواسات بإيقاع منضبط كأنه يتحول إلى محرك بشري يتّحد مع الدراجة الهوائية، أو كائن مصنوع من العضلات والأنابيب والعجلات. كان يحاول أن لا يفكر في شيء، ويهيم في ذلك الفراغ داخل رأسه، كي تنصهر الإرادة بالقوة. ولكن ساقيه اللعينتين تتجمدان فتخطر في باله أقبح الصور.

أنت فاوستو كوبي. لا يمكن أن تخسر أبدًا.

أسرع أكثر وبات صوت المحرك وراءه أكثر ضعفًا.

كان السباق بلا معنى. على طريق لا ينتهي أبدًا. وسط حقول محروثة. ضد دراجة نارية. عندما يمسكان به في النهاية لن يقوى حتى على النهوض.

(ربّما عليّ أن أتوقف...)

يخسر العدّاؤون لأنّهم يضعون النصر صوب أعينهم. وهذا خطأ كبير. فالهدف ليس في النصر، بل في السرعة ذاتها. كان فاوستو كوبي يشدّ من عزيمته. السرعة حتى الموت. بينما يعلو صوت الدراجة النارية مجددًا.

102

قادت فلورا السيارة في رحلة العودة من ساتورنيا. إذ كان جرانزيانو منهكًا، وتؤلمه الضربة على الرأس كثيرًا. كان يضع يده على فخذها

ويغطّ في نوم عميق.

أمّا فلورا فقد جلست على مقعد القيادة، بشعرها المبتلّ وثيابها المتسخة، وظلت تتسلق ذلك الدرب الطينيّ الصغير وتتزلق عليه، حتى وصلت إلى إيسكيانو سكالو.

كانت الرحلة طويلة ومكتظة بالأفكار والصمت المطلق.

ما الذي سيحدث بعد كل هذا؟

كان هذا السؤال، بألف إشارة استفهام، يناقش عقلها بينما تغيّر السرعة، وتفرمل وتجتاز التلال وتقطع المراعي وتعبر الغابات والبلدات النائمة.

ما الذي يمكن أن يحدث بعد كل هذا؟

وكانت الأجوبة كثيرة، كسلسلة طويلة تتراوح بين الخطيرة والسخيفة (رحلات. جزر بعيدة. بيوت ريفية. كنائس. أطفا...). ولكي تحظى بإجابة منطقية، فكّرت فلورا بأن تقيّم جراتزيانو، وتقيّم نفسها أيضًا.

هكذا قررت في الثالثة ليلًا حينما شعرت بأنها واضحة ومنطقية. نظرت إليه وقد أرخى رأسه على النافذة كي ينام.

كلاّ.

كانا على درجة من الاختلاف لا تسمح لهما بتقاسم مستقبل واحد. سيسافر جراتزيانو بعد مدة وجيزة للعمل في القرية السياحية، ثم ينطلق إلى بلد ما بعيد جدًا ويقوم بألف مغامرة أخرى وينساها. أما هي، فكانت ستتابع حياتها المعتادة وتذهب إلى المدرسة وتعتني بأمها وفي المساء تشاهد التلفاز وتنام باكرًا.

هذا هو الواقع و *(انسي أن يتغير هذا الرجل لأجلك...)*

من الواضح إذن أنّ القصة لن تستمرّ.

إنّها مجرّد مغامرة ليلية. افهميها هكذا. مغامرة جنسية لا أكثر.

انتابتها رغبة في الضحك رغم كل شيء. كانت الفكرة مؤلمة، لكنها هكذا. تذكرت أنها، عندما كانت منهكة من تسلق الصخور، كانت تفكر (لست إلا رقمًا أضيفه إلى لائحتي الطويلة... وعليك أن تكوني ممتنة لي أيضًا). لذا لم تجرُؤ على التفكير بما تفكّر فيه الفتيات في أولى مغامراتهن.

لكنها كانت مغامرتي الأولى أيضًا.

كان من الخطير أن تستلم للخيال. إذ أنّ شوكتها قست كي تقاوم ضغط الحياة. لكنها كانت ترى ضعفها ببعض الأطراف. وكان جراتزيانو مفيدًا ليجعلها امرأة وكفى.

عليّ أن أكون قوية. كما كنت دائمًا.

(عليك ألا تلتقي به بعد اليوم)

أعلم.

(أبدًا، أبدًا)

ورغم ذلك، عندما وصلا إلى إيسكيانو سكالو، مع بزوغ الفجر، ركنت فلورا السيارة أمام المخيطة. وكادت توقظه وتقول له إنها ستعود إلى البيت سيرًا، لكنها لم تكن لتستطيع أن تفعل ذلك.

جلست في السيارة لربع ساعة ومدّت يدها نحوه ثم سحبتها. شغّلت المحرك وحملته معها إلى البيت. وتركته ينام على الديوان. ربّما احتاج إلى مساعدتها إذا شعر بالإعياء.

كلا. لا يمكن أن تنتهي بهذه البشاعة. عليها أن تتحدّث إليه للمرة الأخيرة، وتشرح له أهمية تلك الليلة بالنسبة إليها. ثم تتركه يذهب مع الريح.

كما يحدث في الأفلام.

إنّ الفصل من المدرسة شيء غريب حقًا. يعدّ من أقسى العقوبات، ولكن بدل أن يحبسوك في المدرسة ليل نهار، يطلقون سراحك لإجازة تستمرّ أسبوعًا كاملًا. ليست بالإجازة العظيمة طبعًا، لاسيّما إن كان والدك لا ينوي الذهاب لمناقشة وضعك.

انغمس بييترو في ظلام الليلة كلها وهو يبحث عن حلّ. لا جدوى من التحدث مع والدته. كان زاغور سيتفهم مشكلته أكثر من أمه. وما الذي يحدث إن لم يذهب أحد؟

كانت نائبة المدير ستتّصل بالبيت، وإن ردّ عليها الوالد صباحًا ومزاجه مكدّر... من الأفضل أن ينسى الأمر. إن أجابت الوالدة كانت ستتمتم بنعم ونعم وبلا ولا. كانت ستحلف برأس ولديها أنها ستذهب في اليوم التالي ثم تنقض وعدها.

وسوف يعود الشخصان، الشبحان، في سيارة بيجو 205 خضراء بعلامة روما. إنهما من عملاء التأمينات الاجتماعية (قد لا يعني هذا شيئًا لأحد، لكن بييترو يرتعد منهما أكثر من بياع الحشيش أو الساحرة الشريرة).

هذان الشخصان. رجل طويل ونحيف، يرتدي السترة الطويلة والحذاء المخمليّ، ولحيته ناعمة ورمادية، وشعره ملصق بدهن على جبينه، وعلى شفتيه الناعمتين آثار المرطّب الدهني. وامرأة قصيرة القامة، ترتدي الجوارب المطرزة والحذاء الملمع والنظارتين الغليظتين، وشعرها ناعم مثل شباك العنكبوت ومصبوغ بالأشقر ومرفوع عند صدغيها لدرجة أنّ جلد جبينها سيتشقق كفرش الأرائك المستهلكة.

ظهر الشخصان إبان حادثة المنجنيق وجثة بوبي وسقف بيت كونتاريلّو والمحكمة. وظهرا ثانية بعد حادثة المدرسة، واستدعياه إلى قاعة الأساتذة بينما كان رفاقه يمثّلون الجريمة. وضعاه على كرسي

وأعطياه علكة يكرهها ورسوم ميكي ماوس المصورة. كانا يطرحان الكثير من الأسئلة، بابتسامة صفراء لا تنقشع.

هل تشعر بالسعادة في صفك؟ هل تحب الدراسة؟ هل تستمتع بوقتك؟ هل لديك أصدقاء؟ ماذا تفعل بعد المدرسة؟ هل يلاعبك والدك؟ ووالدتك؟ هل والدتك كئيبة؟ وكيف الحال مع أخيك؟ هل يغضب منك والدك؟ هل يناقش والدتك؟ هل يحبها؟ هل يقبّلك قبل النوم؟ هل يشرب الخمر؟ هل يساعدك في نزع الثياب؟ هل يقوم بأشياء غريبة؟ هل ينام أخوك معك في نفس الغرفة؟ هل تستمعان سويّة؟

كانت غايتهما أن يأخذاه إلى سجن القواصر. وكان بييترو يعلم ذلك، إذ شرح له ميمو الأمر. —*حذار أن يأخذوك ويحملوك إلى سجن القواصر مع المختلين وأبناء المدمنين.*— أجاب بييترو بأنّ عائلته هي الأفضل في العالم، وفي المساء يلعبون الورق معًا، ويشاهدون الأفلام في التلفاز، ويقضون عطلة الأحد في نزهة إلى الغابة، وثمّتَ زاغور العزيز أيضًا، ووالدته طيبة ووالده لا يشرب شيئًا، وأخوه يأخذه دومًا في رحلات على دراجته النارية، وهو يعتمد على نفسه في نزع الثياب وأشياء أخرى. *(ما هذه الأسئلة العجيبة؟)* لا أسهل من الإجابة عنها. وبينما كان يتحدث، كان يفكر في البيت على المرج.

اتصلت جلوريا في الثامنة صباحًا وقالت له إنها لن تذهب إلى المدرسة طالما هو مفصول عنها. وقفة تضامنية.

غادر والداها. وهكذا يقضي الصديقان الصباح معًا ويفكران في طريقة يقنعان بها السيد موروني بالذهاب إلى المدرسة.

استقلّ بييترو الدراجة وانطلق صوب بيت شيلاني. لحق به زاغور عدة أمتار ثم عاد إلى المنزل. دخل بييترو إلى شارع البلدة العام. كانت الشمس طالعة والجو دافئا. ومن السرور أن تتنزه على الدراجة في يوم مشمس بعد ليلة ماطرة.

ولكن، فجأة، ودون أيّ مقدمات أو تحذير، ظهرت خلفه دراجة نارية بائدة. فأسرع بييترو بالفرار.

104

كانت فلورا تنظر إلى جراتزيانو النائم، وهي جالسة على الأريكة في الصالون. شفتاه مواربتان وخيط اللعاب يسقط من زاوية فمه. يشخر بهدوء وقد طبعت المخدة خطوطًا حمراء على جبينه.

يا له من شيء غريب. انقلبت علاقتها معه خلال أقل من 24 ساعة. عندما التقت به في الستايشن بار، في اليوم السابق، واقترب منها، كانت تراه رجلًا سوقيًا وبلا معنى. أما الآن، وكلما نظرت إليه، رأته أكثر وسامة وجاذبية من كل رجال الأرض.

فتح جراتزيانو عينيه وابتسم لها، فردّت الابتسامة بدورها.

- كيف حالك؟

- بخيرعلى ما أظن. لست متأكدًا. —مسّد جراتزيانو رقبته. —انتفخ رأسي قليلًا. ماذا تفعلين هناك في الظلام؟

- لقد حضّرت لك الفطور. لكنه صار فاترًا.

- تعالي إلى هنا. —مدّ يده نحوها، فوضعت فلورا الإناء على الأرض واقتربت بحياء. —اجلسي هنا. —وسّع لها بقربه على الديوان فجلست بما اتسع من ضيق. أمسك بيدها. — والآن؟

ابتسمت فلورا. *(قولي له. هيّا)*

- والآن؟ — كرّر جراتزيانو.

- والآن ماذا؟ — غمغمت فلورا وهي تشدّ على يده.

- هل أنت سعيدة؟

- أجل... —*(قولي له. هيّا هيّا)*.

- كم هو جميل شعرك المنثور.. لماذا لا تسرّحينه هكذا دومًا؟

- لا أعلم... -*جراتزيانو، علي أن أخبرك*...

- ما بك تتصرفين بغرابة؟

- لا شيء... -*لا يمكننا أن نلتقي بعد اليوم يا جراتزيانو. أنا آسفة*.- هل أنت جائع؟

- أجل قليلًا. البارحة لم نأكل شيئًا.

نهضت فلورا، وحملت الإناء واتجهت إلى المطبخ.

- إلى أين؟

- سأسخّن لك الفطور.

- لا عليك. سأتناوله كما هو. - نهض وجلس يمطّ أطرافه.

صبّت فلورا القهوة والحليب، ونظرت إليه بينما يشرب ويغطّس البسكويت. أدركت أنّها تكنّ له مودّة فائضة. تلك الليلة، وعلى غفلة منها، انهدم أعتى السدود في داخلها. وانكبّ الحنان، المكبوت لفترة طويلة في كينونتها الغامضة، إلى الخارج وأغرق قلبها وعقلها.

ضاقت أنفاسها وفشى القلق شيئًا فشيئًا حتى تمكّن من عنقها، بينما ينهي جراتزيانو فطوره. - شكرًا. - نظر إلى ساعته. - يا إلهي عليّ أن أذهب. لابدّ أنّ الجنون أصاب أميّ. - قال بنبرة يائسة، وارتدى ثيابه على عجل وانتعل جزمته.

كانت فلورا تراقبه بصمت على الديوان. جراتزيانو يهذّب تسريحته بسرعة وهو ينظر إلى المرآة، ولم يكن راضيًا. - كم أنا مقرف، عليّ أن أستحمّ حالًا. - ارتدى المعطف. إنه يذهب.

كانت على حقّ في كلّ الأشياء التي فكرت فيها خلال العودة. ما من كلام يقال، وما من شيء يستدعي التوضيح، لأنه كان يرحل حينها. وهذا منطقي وصائب: لقد نال ما كان يريد. ما من شيء يستحق النقاش ولا الإضافة، وشكرًا جزيلًا وإلى اللقاء. كلا، كلا، هذا فظيع. لابدّ أن تنتهي القصة.

اذهب بعيدًا. اذهب بعيدًا فهكذا أفضل.

105

كان رأس القضيب يسير بسرعة السهم. على الزعيم بييريني أن يعترف بقوة أنفاس ذلك الحقير. لكنّ أنفاسه لن تفيده بشيء، فسوف يرتمي أرضًا عاجلًا أم آجلًا.

إلى أين تفكّر في الذهاب؟

رأس القضيب جاسوس ولا بدّ أن ينال عقوبته. لقد حذّره فيديريكو، لكنه لم يسمع الكلمة فوَشى به. والآن عليه أن يتحمّل عواقب أفعاله الوخيمة.

وفي الواقع لم يكن فيديريكو متأكدًا من أنّ ابن موروني جاسوس أم لا. فمن الممكن جدًّا أن تكون الساقطة بالميري هي من وجّهت التهمة إليه. ولكن لا يهمّ. فقد يكون الدرس مفيدًا لبييترو كي يتجنب الأخطاء في المستقبل. لابد أن يعي أنّ كلام فيديريكو بييريني لا يؤخذ إلاّ، إلاّ، إلاّ على محمل الجدّ. أمّا بخصوص تلك الساقطة فسوف يفكّر في القصاص منها فيما بعد.

عزيزتي الآنسة، سيارتك لم تعد تصلح إلا للرمي في النفايات.

- إنّه يُبطئ... لم يعد يتحمل. إنّه مُنهك. – صرخ فياما متحمّسًا.

- اقترب منه أكثر. هكذا أركله بقدمي فيرتمي.

106

كانت فلورا باردة جدًا كأنها ابتلعت قطعة ثلج عملاقة قبيل الفطور. تبدو امرأة أخرى. وجراتزيانو يشعر أنها لا تريده في المنزل، وأنّ القصة لابدّ أن تنتهي.

ليلة أمس قمت بالكثير من الأشياء الغبية.

عليه أن يرحل إذن. ولكنه ظل يطوف في الصالون.

كفى، الآن سأسألها. ستقول لا في أسوأ الحالات. ولن أخسر شيئًا إذا جرّبت.

جلس بقربها. نظر إليها وقبّل ثغرها.

- أنا سأذهب الآن.

- حسنًا.

- وداعًا إذن.

- وداعًا.

وبدل أن يفتح الباب ويختفي، أشعل سيجارة بعصبية وعاد يطوف مضطربًا كوالد ينتظر ولادة ابنه. توقف فجأة في وسط الصالة، أمدّ نفسه بالشجاعة وقال: – ولكن ما رأيك أن نلتقي هذا المساء؟

107

لم أعد أحتمل.

رآهما بييترو بطرف عينه يقتربان منه. كانا على بعد عشرة أمتار.

سأتوقف الآن، وأستدير وأنطلق مجددًا.

كانت الفكرة غبية ولكنه لم يستطع أن يأتي بأفضل منها. فما زال قلبه يحترق في صدره، وينهش الحريق حلقه وبلعومه.

لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل.

- اقترب يا رأس القضيب! – صرخ فيديريكو.

هاهما على بعد ثلاثة أمتار من الجهة اليسرى. فكّر بييترو أن يقطع الحقول، لكنها فكرة خاطئة أيضًا. إذ كان هامش الطريق مليء بالحفر العميقة، وكان سيقع فيها حتى لو كان يمتطي دراجة عجيبة.

تراءى له طيف فاوستو كوبي وهو يدوس على دراجته محبطًا.

ما بك؟

(لستَ على مايرام. اسمعني. أنت أسرع من تلك الدراجة المهترئة. سوف يمسكان بك في حال خففت من سرعتك فقط. أما إذا أسرعت ووضعت عشرة أمتار بينك وبينهما فلن يستطيعا النيل منك أبدًا)

- بييترو... توقّف قليلًا. أريد أن أشرح لك أمرًا واحدًا. لن أؤذيك وحقّ السماء!

رأى فياما القبيح يعضّ على شفتيه بابتسامة ماكرة.

سأتوقف.

(إن توقفت فهذه نهايتك)

مدّ فياما ساقه الطويلة قاصدًا أن يرفس بييترو بجزمته العسكرية.

مازال فاوستو كوبي يأرجح رأسه بإحباط. *(مشكلتك أنّ تفكر بعقلية الخاسرين. لو كنتُ قد فكرت مثلك لما استطعت أن أصبح أعظم درّاج في العالم، ومن المحتمل أنني كنت سأموت. عندما كنتُ في سنّك كنت أعمل كغلام في ملحمة البلدة حيث كان الجميع يهزأ مني لأنني أحدب ولاسيّما حين أركب الدراجة. ولكن في يوم من أيام الحرب، كنت أحمل الطعام للمناضلين الجائعين الذين يختبئون في كوخ ريفي معزول...)*

تلقّى بييترو رفسة من فياما، لكنه وضع كلّ عزمه على الجهة اليمنى واستعاد التوازن واندفع مسرعًا كالمكوك.

(...وحينها تبعني جنديان نازيان على عربة عسكرية أسرع من دراجة هذا المجنون الذي يطاردك الآن. فرحت أدوس بكل ما أوتيت من بأس، وأسرع كي أحافظ على المسافة بيني وبينهما).

108

لم يصدّق فيديريكو ما رأى. –ما زال يتابع... انظر، مازال يمضي... انظر، اللعنة عليك وعلى دراجتك المنيوكة يا فياما!

لقد توحّد بييترو مع دراجته وصار كالوحش الذي علّقوا على

مؤخرته صاروخًا فضائيًا.

أخذ فيديريكو يضرب فياما على خصره ويصرخ في أذنه: – توقف! توقف، اللعنة! توقّف!

خفف فياما السرعة حتى توقّف كليًا، وأصدر المحرك صريرا حادًا. وثب فيديريكو.– انزل! هيا! – نظر إليه فياما بارتباك.

- لن نستطيع الإمساك به ونحن اثنان على هذه الدراجة. انزل بسرعة!

- ولكن... –حاول أن يعترض، ثمّ فضّل أن يطيع الأوامر بعد أن رأى الغضب يلتهم وجه صديقه.

امتطى فيديريكو الدراجة. أدار المُسرّع بيده وانطلق ثانية برأس منخفض وهو يصرخ. – انتظرني هنا. سأقتله وأعود.

109

كانت الأوريليا على بعد مائتي متر من دراجة بييترو، وكانت كسيل لا ينقطع من السيارات والشاحنات التي تمضي بسرعة في الاتجاهين. ومازال بييترو يدوس ويلتفت إلى الخلف بأنفاس ملتهبة. لقد ابتعد عنهما قليلًا. لابدّ أنهما توقفا لكنهما سيصلان.

ماذا بوسعه أن يفعل؟

لمعت في رأسه فكرة عظيمة وبطولية. لم تكن مناسبة ولم يكن لينصحه بها أحد، لا جلوريا ولا ميمو ولا فاوستو كوبي (الذي اختفى من مخيلته تمامًا)، لكنها بدت حينها الإمكانية الوحيدة للنجاة وإلا..

لن أفكر في العواقب.

وهكذا فعل. دون أن يخفف سرعته، غطس كالغضب الأعمى في الأوريليا.

110

يا إلهي... إنه مجنون. قرر أن ينتحر.

قرار صائب. أعجب فيديريكو بما فعل بييترو. لقد اتخذ هذا القرار لأنه أدرك أنّ حياته بلا معنى وعليه أن يعاقب نفسه بنفسه. توقف فيديريكو وصفّق. – جيد! أحسنت! أحسنت! سيجمعون أشلاءك بملعقة الفنجان. رأس هنا وساق هناك. هيا. اقض على نفسك! هكذا تعجبني!

كانت سعادة فيديريكو لا توصف. فمن الجميل أن ينتحر أحدهم لا لشيء إلاّ خوفًا من بطشك.

111

لم يتباطأ بييترو، بل شدّ حاجبيه وعضّ على شفتيه. لو مات على الأوريليا فهذا يعني أن نهايته قد حانت؛ وإن لم يمت فهذا يعني أنّه سيمرّ بسلام بين السيارات وكانت حياته ستستمرّ. إمّا الموت أو النجاة! إمّا الأبيض أو الأسود!

لم يخطر في باله اللون الرمادي أبدًا: الشلل، الغيبوبة، الألم المزمن، الكرسي المتحرك، والندم (إن كان ثمّتَ متسع للندم) طيلة حياته.

لم يكن يفكّر في العواقب، ولم يخش تلك العبارة، قبل عشرة أمتار من التقاطع: «خفف السرعة. تقاطع خطر». لم يكبح الفرامل، ولم ينظر إلى اليمين أو الشمال، كأنّ الطريق خاوية من كل شيء.

وكان فابيو باسكوالي، الملقب برامبو، سائق الشاحنة المسكين قد رآه يظهر أمامه مثل الكابوس المباغت. ضغط على الزمور وكبح الفرامل. وفي ومضة واحدة أدرك أن حياته ستتغير نحو الأسوأ، وأنه سيشعر بالذنب حتى آخر يوم في عمره (العداد يشير إلى 120 كم والسرعة القصوى في ذلك المكان 90 كم). سوف ينتهي في حرب لا تنتهي ضد

القانون والمحامين والقضاة؛ وزوجته التي لطالما نصحته بالكف عن ممارسة هذا العمل الشاق والمحفوف بالمخاطر وأن يشارك أخاها في محل الحلويات. لكنه تنفس الصعداء عندما اختفت دراجة ذاك الفتى كما ظهرت، دون عظام تتهشم أو حديد يتطاير. فهم أنه لم يدهس ذلك الصغير، فشكر الله وراح يبكي ويضحك معًا.

وبعد أن اجتاز بييترو تلك الشاحنة، وجد نفسه في المنتصف. وعلى الجهة الأخرى، هنالك روفر حمراء تتقدم بزمور هستيري. لو خفّف سرعته مات تحتها، ولو أسرع مات تحتها أيضًا. لكنّ سيارة الروفر انعطفت بمعجزة نحو اليسار ومرت خلفه على بعد سنتمترين. فثار الهواء ليدفعه نحو اليمين حتى وصل مترنحًا إلى الجانب الآخر من العقدة المؤدية إلى إيسكيانو سكالو. توقف عند فسحة الحصى المنثور هناك، فانزلق على ساقه ويده... مازال حيًا.

112

خرج جراتزيانو بيليا من بناية فلورا بالميري. مشى في الفناء ثم توقف مسحورًا من جمال ذلك النهار. السماء زرقاء وصافية، والهواء نقيّ ينعش أشجار الصنوبر التي تطوق الشارع، وقمم الجبال تبرز في الأفق.

أغمض عينيه، واستدار صوب الشمس الدافئة مثل عجوز الإغوانا. ملأ صدره بالهواء وانسلّت في منخاريه رائحة روث الحصان الآتية من مكان قريب.

- هذا عطر ممتاز. —غمغم بسرور. حملته هذه الرائحة إلى الماضي، عندما عمل في إسطبل السيد بيرسيكيتي في سنّ السادسة عشرة. —هذا ما عليّ فعله...

كيف لم تخطر في باله هذه الفكرة من قبل؟

سوف يشتري حصانًا رائعًا. وهكذا بوسعه أن يمتطي الخيل في الأيام المشمسة حالما يستقر نهائيًا في إيسكيانو *(في أقرب وقت)*. سيقوم بنزهات طويلة في غابة إكواسبارتا، وسوف يتسنى له صيد الخنازير البرية على الحصان. ولكن ليس بالبندقية، فالأسلحة النارية تفتقر إلى الحسّ الرياضي، ولا تستهويه. سيشتري قوسًا حديديًا كالأقواس التي تستخدم في كندا لصيد الدببة. سيكون سعره مرتفعًا بلا شك، لكنه سلاح ضروريّ.

أثنى ركبتيه ثلاث مرات وبرم عنقه مرتين ليريح عظامه. لابدّ أنّ جسده تهشّم بسبب السباحة ليلة أمس، والضربة على الرأس، والنوم على الديوان. كان يشعر كما لو أنّ أحدهم أخرج عظامه واحدة واحدة، وسلقها في طنجرة. ولكن مزاجه كان معتدلاً. والفضل يعود إلى فلورا بالمييري حتمًا. إنها امرأة عظيمة مسحت من قلبه اسم إريكا.

فلورا أنقذت حياته. أجل، فلولاها لهوى بالتأكيد في أسفل الشلال وكان سيتشظى على الصخور ويتغمده الله برحمته على الفور. سيكون ممتنًا لها ما بقي حيًّا. وكما يقول الرهبان الصينيون: من ينقذ حياتك عليه أن يعتني بك حتى آخر يوم في عمره. باتا مرتبطين إلى الأبد لا محالة.

صحيح أنه قام بتصرف غبي عندما حاول أن يلج دبرها. ما الذي أصابه حينها؟ ما سرّ تلك الشهوانية المفرطة؟

(وما ذنبي إن كانت مؤخرتها عظيمة...)

كفّ عن هذا. لقد قالت لك إنها عذراء، وأوصتك أن تنكحها على مهل، ورغم هذا حاولت أن تفض بكارة دبرها. ألا تستحي من نفسك؟

شعر بالذنب يضيق على الحجاب الحاجز.

113

كان فيديريكو ينتظر أن تفرغ الطريق حين وصل فياما. -أين تذهب؟ -سأله وأنفاسه تنقطع بعد الركض الطويل.

- اركب هيا. إنه في الجانب الآخر. لقد سقط.

وثب فياما خلف الزعيم دون أن ينبس ببنت شفة.

عبرا التقاطع بعد خلوّه. كان رأس القضيب يرقد على حافة الطريق يمسّد فخذه. اقتربا منه، وأسند فيديريكو كوعيه على المقود. - كدت أن تموت بحادث مروّع. وها أنت هنا. ودراجتك معطلة. وستنال ما تستحق من العذاب. إنه يومك التعيس يا عزيزي.

114

كان جراتزيانو يقود سيارته على الأوريليا وهو يدلّك رقبته. عليه أن يعتذر من فلورا فورًا، وأن يثبت لها أنه ليس شاذًا جنسيًا إنّما معجبٌ بجمالها ولم يقوَ على كبح جماحه أمام جاذبيتها.

- الحلّ الوحيد أن أقدّم لها هدية رائعة تذهلها. -في السيارة غالبًا ما يُحدّث جراتزيانو نفسَه. -ولكن أيّة هدية؟ خاتم؟ لاااا. لم يحن وقته بعد. كتاب لهرمان هسه؟ لاااا. هذا قليل جدًا. لم لا أهديها... حصانًا...؟

كانت فكرة مذهلة، وهدية فريدة من نوعها ومهمّة في الوقت نفسه. هكذا يوضّح لها استثنائية تلك الليلة.

- أجل، فرسٌ أصيل الدماء. - صرخ وهو يضرب على الزمور.

أشعر بأنّني أحبّها.

كان من المبكّر التأكّد من ذلك، ولكن ما الذي بوسع المرء أن يفعل حيال شعوره ببعض الأشياء؟

فلورا امرأة متكاملة. جميلة، ذكية، راقية، مثقفة، ترسم، تقرأ.

امرأة ناضجة، تعجبها النزهة على حصان، والإصغاء إلى فلامنكو الفجر أو قضاء سهرة هادئة بقراءة كتاب ما أمام مدفأة الحطب.

أين منها تلك الأمية المختلة إريكا تريتيل! شتّان بين صبية مراهقة أنانية ومغرورة، وبين امرأة حساسة كريمة وواعية. لا شكّ بأنّ الآنسة بالمييري هي الرفيقة المثالية لجراتزيانو بيليا الجديد.

وربما تجيد الطبخ...

كان سيحقق كل مشاريعه معها. سيفتتح محل الألبسة، ومكتبة أيضًا. وسيشتري كوخًا بالقرب من الغابة ويحوّله إلى إسطبل. ستمدّه ابتسامتها بالعَوْن وسينجبان أولادًا. *(ولم لا؟)* . كان مستعدًا لمسؤولية الأبوة في ظلّ عائلة سعيدة.

أين ذهب عقله عندما كان يفكر في قضاء العمر مع عاهرة عصابية ومدللة تعرض جسمها مثل إريكا تريتيل؟ كانت فلورا بالمييري نصف روحه وهو في حاجة إليها.

الشيء الوحيد الذي لم يجد له جوابًا أنّ امرأة جميلة مثلها ظلت عذراء طيلة هذه المدة. ما الذي جعلها بعيدة عن الذكور؟ كانت لديها مشاكل مع الجنس بلا شك، وعليه أن يكتشف ما نوع تلك المشاكل بدقة. ولكن حتى هذا العيب لم يكن ليقف في وجه طموحاته، بل سوف يسر بأن يصبح أستاذها ويشرح لها ما الذي عليها معرفته. وسيجعلها أفضل عشيقاته.

شعر بأن روحه تستعيد توازنها وتضعه في سلام مع الكون بأسره. تبخر القلق وتلاشت المخاوف. هذه نتائج الإحساس الغريب، المسمى بالحب، إذا انتاب روحًا حساسة!

عليّ أن أرى أمّي فورًا.

كان سيخبرها بأن قصته مع إريكا انتهت ثم يحدثها عن حبيبته الجديدة. لعلّه استطاع أن يضع حدًا للنذر، مع أنّه كان يود أن يحافظ

على النسخة الخرساء من والدته. ثم كان سيذهب ليبحث عن مرعى خيول وقد يمرّ على محل صيد ليسأل عن سعر القوس الحديدي.

– وهذا المساء عشاء رومانسي مع الآنسة. – أنهى المونولوج وشغّل المسجلة.

وبينما كان ينحني في اتجاه إيسكيانو، على وقع الموسيقى الفجرية، رأى مراهقين مجنونين ينهالان بالضرب على طفل صغير تكور على نفسه كالقنفذ ليحتمي من تلك الركلات الموجعة.

– ما الذي يحدث هنا...؟

ربما لم يكن جراتزيانو ليهتم بما رأى لو كان في ظرف آخر. كان سيكمل طريقه مؤكدًا لنفسه ألاّ يحشر أنفه في شؤون الآخرين. ولكنه في ذلك الصباح كان يشعر بالخفة وبالرغبة في فعل أشياء كثيرة كأن ينصر الضعفاء ضد الأشرار. توقف، اقترب بالسيارة وصرخ.

– ها! أنتما! أنتما!

التفت الاثنان ونظرا إليه بقلق. ماذا يريد هذا الحشري الآن؟

– اتركا الصبي!

– العق قضيبي وامض بشأنك!– أجابه الضخم منهما.

بقي جراتزيانو مشدوهًا لما سمع، ثم انفعل.

– ماذا قلت يا ابن الكلب؟ كيف تسمح لنفسك بالإساءة أيها الجاهل المتخلّف؟ لن تبقى حيًا إذا ما كررتها، أتفهم؟ –هدد وهو يلوح بيده من خارج النافذة.

ابتسم الآخر بخبث لعين، وكان خشن الملامح، والغرة البيضاء تهتز فوق رأسه، وقال: – إذا كان لا يستطيع أن يشتمك، فسوف أشتمك بنفسي. العق قضيبي وامض بشأنك!

طأطأ جراتزيانو رأسه متأسفًا. لم يفهم هذان شيئًا من الحياة. لم يفهما في يد من وقعا. لم يفهما أنّ جراتزيانو بيليا كان الصديق

المفضل لطوني سناك شيكيريني، بطل إيطاليا في الكابويرا، فن القتال البرازيلي. وكان سناكي قد علّمه بعض الضربات القاضية. وكان سيجرّبها عليهما إن لم يتوقفا مباشرة عن إيذاء ذلك المسكين ويطلبا الرحمة. – اعتذرا مني الآن. هيا!

- ارحل من هنا أيها البغل. –صرفه الهزيل والتفّ ليركل الطفل كي تصل الرسالة بشكل أوضح.

- سنرى الآن. – فتح جراتزيانو باب السيارة وخرج.

قُرعت طبول الحرب، وما استطاع جراتزيانو بيليا إلاّ أن يكون سعيدًا باندلاعها. فإن لم يمزق جسديهما إربًا إربًا، فهذا يعني أنّ الوقت حان لدخوله مأوى العجزة. وصل إليهما بملامح إنسان الغاب ودفع فيديريكو حتى وقعت مؤخرته على الأرض. ثم عدل تسريحة شعره. – اعتذر أيها الوقح!

نهض الشرير غاضبًا، وأطلق نظرة حاقدة هزّت معنويات جراتزيانو.

- من تحسبان نفسيكما حتى تستقويان على طفـ... –لم يستطع فارسنا أن ينهي جملته حتى سمع صرخة مجنونة من الخلف. ولم يتسن له الوقت ليلتفت ويرى ذلك المتخلف يخنق رقبته. حاول جراتزيانو عبثًا أن يتخلص من براثن ذلك الحنش. تمركز الهزيل أمامه وضربه بقبضة يده على بطنه، دون أن ينظر في وجهه.

كاد جراتزيانو أن يختنق، وراح يسعل ويبصق. تشوشت الرؤية وانفجرت الألوان أمام عينيه. وكاد أن يقع أرضًا كدمية فلتت منها الحبال.

ما الذي يحدث؟

ذات مرة، منذ حوالي سبعة أعوام على هذه القصة، كان جراتزيانو

في ريو دي جانييرو لإحياء حفل مع راديو بنغالا، الفرقة التي تعزف موسيقى الكرة الأرضية بأسرها. كان أعضاء الفرقة جميعهم في حافلة صغيرة محملة بالآلات والسماعات ومضخّمات الصوت، يتوجهون إلى شمال المدينة، ليعزفوا في مطعم الجاز، حين ضلوا الطريق في التاسعة مساء. قلّبوا الخريطة مرارًا ولم يفهموا أين كانوا. فتلك المدينة الضخمة والملعونة أكبر من لوس انجلس وأقذر من كالكتا.

كانوا قد خرجوا من الطريق العام ودخلوا إلى فافيلا (أحياء عشوائية) بدت غير مأهولة. لا شيء سوى صناديق الصفيح والمجاري النتنة والروائح الكريهة في ذلك الدرب المتهالك. إضافة إلى تلال من النفايات الكربونية المقرفة.

كان بوليفار رام، عازف الفلوت الهندي، يتشاجر مع حسن شيميراني، ضابط الإيقاع الإيراني، عندما خرج من بيوت الصفيح قرابة العشرين طفلًا عُراةً حفاة. أصغرهم في سنّ التاسعة وأكبرهم في الثالثة عشرة. أخفض جراتزيانو النافذة ليسألهم عن مخرج من ذلك المكان، ثم رفعه فورًا.

كان الأطفال كالأموات الذين ينهضون من القبور. عيون بلا تعابير محددة، وجوه مشوهة، عظام ناتئة، شفاه لزجة ومتشققة كأنّهم كهولٌ. يحملون سكاكين صدئة بيد، وبالأخرى أنصاف برتقال مبللة بسائل ما. يضعونها بلا هوادة تحت أنوفهم ويستنشقونها. ويغمضون أعينهم بالطريقة نفسها، ثم يوشكون على الإغماء، ولكنهم يستعيدون التوازن ويتقدمون ببطء رهيب.

«فلنذهب من هنا حالًا. هؤلاء لا يعجبونني أبدًا» قال إيفان لودوو، عازف الأورغ الفرنسي الذي كان يقود الحافلة. ثم انحنى بصعوبة ليعود من حيث أتى. «هيا بسرعة، بسرعة!» ألح جراتزيانو متوترًا. «لا أستطيع، اللعنة! – صرخ الفرنسي حين تمركز ثلاثة منهم أمام

الحافلة وتسلقوا على المسّاحتين وسلك الراديو. – إن تقدّمت دهستهم». «عد إلى الخلف إذن». تفحّص إيفان في المرآة العاكسة. «لقد وقفوا في الخلف أيضًا. لا أعلم ماذا أفعل». صرخت روزلينا جاسباريان، المطربة الأرمنية، فتاة صغيرة الحجم والعمر، ورأسها مليء باللفافات الملونة، واحتضنت بجراتزيانو. وبدأ الأطفال يضربون بأيديهم على الصفيح والنوافذ، كأنهم يعزفون على طبل كبير.

وقعت فرقة راديو بنغالا أسيرة الرعب. وانفجرت نافذة السائق بصخرة عملاقة، وتطايرت ملايين الشظايا على الفرنسي وخدشت وجهه. ثم دخلت عشرات الأذرع كي تمسك به، وهو يصرخ كالمجنون محاولًا أن يخلّص نفسه. راح جراتزيانو يضرب على الأيادي بمقبض الميكروفون، ولكن كلّما انسحبت ذراع أزهرت أخرى، حتى استطاعت ذراع طويلة أن تسرق المفاتيح.

انطفأ المحرك. واختفوا. لم يعد هنالك أحد. تشابك الموسيقيون بعضهم على بعض في انتظار شيء ما. لقد جرّبوا مرارًا، خلال الحفلات، أن يثبتوا اتحاد الإثنيات المختلفة، دون أن ينجحوا أبدًا. وهاهم ينصهرون حينها ببوتقة واحدة.

ثم سمعوا صوتًا ما. ينخفض مقبض الباب الجانبي. ينزلق الباب ببطء على السكة. وكلما اتسع الفراغ ظهرت أجساد أطفال هزيلة مصبوغة بلون البدر، ونظراتهم حادة ومصممة على الحصول على ما تريد. عندما فتح الباب بالكامل، كان أمامهم مجموعة من الأولاد مدججين بالسكاكين ويراقبون بصمت. أشار أحدهم إلى المجموعة بالنزول، وكان أصغرهم، تسعة أعوام أو عشرة كحد أقصى. لابدّ أنّ تلك البضاعة القذرة التي يشتمّها جعلت منه مومياء فرعونية.

نزل الموسيقيون بأيد مرفوعة. وساعد جراتزيانو إيفان الذي كان يمسّح جراحه بكمّ الكنزة. أشار لهم الطفل إلى الطريق، فسلكته

الفرقة دون التفاتة إلى الخلف، في ليلة برازيلية أصيلة.

وفي اليوم التالي، حسدهم رجال الشرطة على حسن حظّهم.

115

لكن جراتزيانو حينها لم يكن في ريو دي جانييرو. إنني في إيسكيانو سكالو، سحقًا. كان في بلدته، التي يسكنها أناس طيبون يخافون الله، حيث يذهب الفتيان إلى المدرسة، ويلعبون بالكرة في ساحة 25 أبريل. كان مقتنعًا بذلك حتى تلك اللحظة على الأقل. أمّا وقد رأى الضغينة تدوّي في عيني ذلك الفتى، فقد تيقّن بأنّه سيراجع حساباته في وقت لاحق.

- والآن كفى. – رفع ساقه، وضربه بكعب جزمته تمامًا تحت عظمة الصدر. فارتفع المنحرف الصغير في الهواء ووقع على ظهره فوق العشب المبلل. بقي فاغرًا فاه لوهلة، ثم جثم على ركبتيه وأمسك بطنه بيديه وتقيأ شيئًا أحمر.

تبًا! دماء! نزيف! ارتبك جراتزيانو، وفي الوقت نفسه كان فخورًا بقوته الكاسرة. *من أنا؟ من أنا؟ ما شاء الله! لم يحتمل لمسة من كعبي الجبار.*

حمدًا لله أنّ الفتى تقيّأ الطماطم وليس الدماء، إضافة إلى قطع من البيتزا التي لم يتسن له هضمها. كان قد أكل البيتزا إذن قبل أن يستعرض قواه.

- سأقتلك! سأقتلك! – صرخ المتخلف عقليًا في طبلة أذنه اليسرى، متعلقًا بكتفيه وحاول، في الوقت نفسه، أن يخنقه ويوقعه أرضًا.

رائحة فمه كريهة. بصل وسمك.

أمّا هذا فلا بد أنه قد التهم البيتزا بالبصل والسمك.

أمدّته تلك الرائحة النتنة بضرورة الإفلات من مصدرها. ولذا

انثنى جراتزيانو، وأمسك بشعره ورماه أمامه كأنه حقيبة ثقيلة. فتشقلب الحيوان في الهواء ليجد نفسه على الأرض. لم يعطه البطل الوقت ليتحرك، وركله على جانب صدره.

–خذ. قل لي إنها لا توجعك. –الحيوان يتأوه. –أليس إحساسًا مقيتًا؟ اغربا عن وجهي، هيا.

هرب الاثنان، بأقدام تعرج، مثل الضباع التي تخاف زئير الأسد.

شغّل المتخلف محرك الدراجة وصعد الثاني خلفه وهو يتوعد جراتزيانو. –لا تغترّ بنفسك. وكن دائم الحذر لأنني لن أتركك بسلام. – ثم التفت إلى الصغير. – أما أنت فلم ينته قصاصك بعد. لقد حالفك الحظ في هذه المرة، فاستعد للمرة القادمة.

116

لقد ظهر من العدم؛ مثل أبطال السينما الأمريكية. فتح باب السيارة السوداء وترجل منها صاحب العدالة، بثيابه الأنيقة ونظارته الشمسية ومعطفه النفيس وقمصيه الحريري، ليكسر شوكة الأشرار. لم تكلفه العملية إلا حركة كاراتيه محكمة. وكان بييترو يعرف من يكون. إنه السيد بيليا. الرجل الذي ارتبط مع الممثلة الشهيرة وظهر في العديد من البرامج التلفزيونية. *ومن المحتمل أنه كان متوجهًا إلى أحد الاستديوهات ريثما توقّف لينقذني.*

اقترب، وهو يعرج، من البطل الذي كان واقفًا وسط المرج ينظف جزمته التي غرقت في الوحل.

- شكرًا يا سيدي. – مدّ بييترو يده.

- لا شكر على واجب. لقد اتسخت جزمتي وحسب. –قال السيد بيليا وهو يصافح الصغير. – هل أوجعوك؟

- قليلًا. ولكنني كُنت أتألم من قبل، عندما وقعت من الدراجة.

وفي الحقيقة كان يتوجع كثيرًا من ركلاتهم، ويشعر بأنّ حالته ستتدهور في الساعات القادمة.

- لماذا اعتديا عليك؟

فتح بييترو فمه، وحاول أن يجد إجابة تذهل المخلّص. ولكن لم يخطر شيء في باله، فأرغم على الإقرار: – لأنني جاسوس.

- ماذا؟ كيف؟

- أجل... في المدرسة. أجبرتني نائبة المدير على الإفشاء عنهم، وإلا كنت سأرسب. لقد ارتكبت خطأ، ولكنني لم أكن أقصد ذلك.

- فهمت. – كان جراتزيانو بيليا يتفحص معطفه.

وفي الواقع لم يكن قد فهم كثيرًا، ولم يكن متعطشًا لمعرفة المزيد. وهذا ما رفع من معنويات الصغير، فالقصة طويلة جدًا، وسخيفة أيضًا.

قرفص جراتزيانو ليستوي بالطفل. – اسمعني. من الأفضل أن تخسر صداقة هذين الاثنين إلى الأبد. إن قُدّر لك يومًا أن تسافر حول العالم، كما فعلت أنا، فسوف تصادف منهما الكثير، بل وأكثر منهما حقدًا وأذىً. ابتعد عنهما، لأنهما لا يريدان لك الخير حتى لو أصبحت واحدًا منهم. وأنت تبدو أفضل منهم بألف مرة، وعليك أن تكرر هذا على مسامعك دومًا. وبالأخص عندما يضربك أحد ما، لا ينبغي أن تقع على الأرض مثل كيس الخضروات، فهكذا تعرّض نفسك للأذى. وهذا ليس من شيم الرجال. يجب أن تظلّ واقفًا على قدميك وأن تصارع وجهًا لوجه. – وضع يديه على كتفه. – عليك أن تنظر في عيون أعدائك. ولا تظنّن أنهم لا يخافون منك، إنهم يمتازون عنك بإخفاء مخاوفهم. طالما كنت واثقًا من نفسك فلن ينالوا منك أبدًا. واعذرني، إنك نحيف جدًا، ألا تأكل بما فيه الكفاية؟

هزّ الطفل رأسه نافيًا.

- سجّل في رأسك القاعدة الأولى واتبعها: عامِلْ جسدك على أنه معبد. فهمت؟
- أجل يا سيدي.
- هل بوسعك العودة إلى المنزل؟
- أجل.
- دراجتك معطلة. ألا تريدني أن أصطحبك؟
- لا تقلق يا سيدي... شكرًا. بوسعي العودة. شكرًا مرة أخرى.
- اذهب إذن. هيا. — ربت على كتفه بمودة.

اقترب بييترو من الدراجة. رفعها على كتفيه ومضى.

لقد نجا بفضل السيد بيليا. لم يفهم مسألة الجسد والمعبد جيدًا، ولكن لا يهم. فعندما يكبر سوف يرغب أن يكون مثله. لا يخطئ أبدًا، يحدّق في عيون الأشرار ويشبعهم ضربًا. سوف يساعد الفتيان الضعفاء، مثله تمامًا. فهذا واجب الأبطال.

117

بقي جراتزيانو ينظر إلى الفتى وهو يبتعد بالدراجة على كتفيه. *لم أسأله حتى ما اسمه.* انطفأت شعلة المزاج المعتدل التي أضاءت ذهنه في الصباح، لتتركه رهينة الحزن والإحباط.

تكدر مزاجه بعدما رأى القهر والذلّ في عيني ذلك الطفل. *كان يبدو عجوزًا ما بيديه حيلة بعد أن خسر المعركة وتبددت جهوده سدىً. لماذا تعيش هكذا وما تزال حياتك كلها أمامك؟*

قال أحدهم إنّ المرء يصنع قدره بنفسه. وكان جراتزيانو يوافقه على ذلك.

أنا صنعت قدري بنفسي... تركت الحظ العاثر خلفي، وهجرت مطبخ أمي، ورحت أطوف العالم وأتعرف إلى أشخاص خياليين: رهبان

التيبت، زلاجي الأمواج الأستراليين، والحشاشين في جامايكا. تناولت حساء الياك والزبدة، وبيض خلد الماء المشوي. وعليّ أن أخبرك، يا أمي الغالية، ولا تغضبي مني، أنه أطيب بألف مرة مما تحضّرين في مطبخك ليل نهار. إنني هنا في إيسكيانو لأنني أريد ذلك. لأنني أريد ترسيخ جذوري في أرضي. لم يرغمني أحد. ولو كان هذا الفتى ابني، لن تناله المذلة أبدًا، لأنني كنت سأعلّمه كيف يدافع عن نفسه، وكنت سأساعده على النشوء، وكنت وكنت وكنت...

تملّكه إحساسٌ غامضٌ طفَا فجأةً من أعماق ضميره إلى السطح. شعورٌ بدائيّ بالذنب متعلّق بحياتنا الفردانية، وليست له أيّ أعراض مباشرة (أوضاع اقتصادية صعبة، أو علاقة عاطفية معقّدة، إلخ إلخ). ولكنّه انفجر في شكل مسلّمات صينية وإيمان بقوة الفلامنكو المتجدّدة ورغبة في شراء حصان وقوس حديدي. خليط من الصور اجتاحه فجأة من أجل أن يطرح على نفسه سؤالًا بسيطًا واحدًا: *ما الذي قدّمت في حياتك عمليًا؟*

ومن المؤلم الاعتراف بغياب أيّة إجابة مقنعة على ذلك. اتجه جراتزيانو إلى سيارته مُطأطَأ الرأس. لا شكّ أنه فعل الكثير من الأشياء في حياته، ولكنه فعل ما فعل لأنه كان متقد الحيوية، ومولعًا بالبحث عن السعادة. لم يكن ثمّتَ مشروع أو هدف محدد. ركب السيارة وأطفأ المسجلة.

وفي الحقيقة فإنّه لم يقم، أثناء أعوامه الأربعة والأربعين، إلاّ بحشو دماغه بالترّهات والأفلام والدعايات والمسارح الصغيرة حيث أخذ دور بدويّ الطوارق وإريكا تريتيل المهرة الإسبانية صعبة الترويض على ضفاف إحدى الواحات التونسية.

منذ متى كنت أصلح لأصير رجلًا هادئًا ومسؤولًا عن زوجة صالحة وأولاد، وأحصنة ومحل ألبسة؟ عليّ أن أفكر في العائلة. صحيح أنني

قادر على نكح ثلاثمائة امرأة في صيف واحد، لكنني لست قادرًا على بناء علاقة حب مع أحد. إنني قذر.

تمدّد ألم حادّ في بطنه حتّى جعله يلتقط أنفاسه بمشقّة. شعر بالوهن والعجز والإفلاس الروحي والمادي. باختصار شعر بأنّه.. فاشل.

(ماذا ستفعل فلورا برجل مثلي؟)

لا شيء إطلاقًا.

ولحسن حظه، عبرت هذه التساؤلات السوداوية الوجودية في عقله كالجسيمات الإلكترونية التي لا وزن لها ولا طاقة. فجراتزيانو بيليا، كما قلنا مسبقًا، كان محصنًا ضد الاكتئاب. وهذه الرؤى التشاؤمية كانت آنية وضعيفة، وسرعان ما يعود للغيّ وعمى البصيرة، لأنه كان على ثقة أنّ السلام اللعين سيطرق بابه عاجلًا أم آجلًا.

أخذ الجيتار من المقعد الخلفي، وبدأ يدندن لحنًا تافهًا حتى راح يغنّي: –سترى، سترى، سترى أنّ الحياة ستتغيّر، ربما ليس غدًا، ولكن يومًا ما ستتغيّر، لا أعرف كيف ومتى، ولكنها حتمًا ستتغيّر.

118

كانت جلوريا شيلاني وحدها في البيت، بعد أن ذهب والداها إلى معرض المقتنيات البحرية. فرانشسكو، عامل الحديقة العجوز، يعتني بالبستان. وجلوريا تشاهد فيلمها المفضل «صمت الحملان» على التلفاز الصغير في غرفتها. كانت مستلقية على السرير، وبقربها إناء فيه بقايا الفطور من المعجنات والقهوة بالحليب. وجدها بييترو تلوذ بالغطاء عندما دخل إليها.

– يا إلهي، يا للخوف! لا أستطيع أن أراه. تعال واجلس بقربي. –ضربت على الفراش بيديها. –لقد تأخرت. ظننت أنك لن تأتي بعد...

كم مرة شاهدت هذا الفيلم؟ تساءل بييترو. *مائة مرة على الأقل،*

وما تزال تشعر بالخوف كأنها تشاهده للمرة الأولى.

نزع معطفه وأسنده إلى الأريكة المنسوجة بالأصفر والأزرق، كألوان جدار الغرفة تمامًا. لقد صممت الغرفة (والبيت كله) أشهر مهندسة ديكور في روما. وكادت الذبحة القلبية أن تجهز على السيدة شيلاني، عندما رأت صورًا لبيتها في أشهر مجلات الديكور والتأثيث المنزلي في إيطاليا. كانت الغرفة شبيهة بعلبة سكاكر ملونة، بفضل تعدد الألوان على الأثاث والجدران والستائر الحريرية.

كانت جلوريا تكره غرفتها. ولو عاد الأمر إليها لأشعلت فيها النيران. أما بييترو فكان متسامحًا كالعادة، ويرى أنّ التصميم جيد كفاية. لاشكّ أنّ الستائر ليست بالمثالية، لكنه معجب بالموكيت الناعم والمتلبد مثل زغب الراكون.

جلس إلى السرير بحذر كي لا يضغط على الجرح. رمقته جلوريا بطرف عينها ورأته مستاء.

- ما بك؟

- لا شيء، لقد وقعت.

- كيف؟

- من على الدرّاجة.

هل يروي لها ما حدث؟ أجل، بالطبع عليه أن يخبرها. فمن كان ليسمع مآسيه لو لم تكن جلوريا أصدق أصدقائه؟ حدّثها عن المطاردة، والسرعة، والأوريليا، والمشاجرة، وتدخّل السيد بيليا المباغت.

- السيد بيليا؟ ذاك الذي كان مرتبطًا بالممثلة...؟ ما اسمها؟ — ارتعشت جلوريا من سماع اسمه. — وهل ضرب أولئك الأوغاد؟

- بل أشبعهما ضربًا. انقضا عليه، لكنه كان لهما بالمرصاد. حركة كاراتيه واحدة كانت كافية ليرتعدا ويهربا. — انتعش بييترو.

- إنني أعشق جراتزيانو بيليا. إنه عظيم! أقسم بأنّني سوف أقبّله

إذا ما صادفته، ولا يهمّني شيء. كنت سأدفع كل ما عندي لأشاهد تلك المشاجرة. – وقفت على السرير، وقامت بحركات شيطانية تشبه الكاراتيه وهي تصيح بكلمات صينية.

كانت تلبس ثوبًا بنفسجيًا قطنيًا يكشف عن بطنها وسرّتها. وإن نظرتَ إلى الأسفل... رأيتَ سروالًا أبيض ناعمًا بحواف مطرزة. كم كانت الصبية شهية بساقيها الطويلتين ومؤخرتها المشوقة ونهديها الصغيرين اللذين يتدافعان خلف البنفسج. وشعرها الأشقر القصير والهائج. كانت جذابة بكل ما فيها.

بل كانت أجمل ما رآه بييترو في حياته. متأكد من ذلك. ثنى نظراته عنها لأنه خشي أن تقرأ ما يجول في رأسه. ثم جلست متربعة بقربه، وسألته بقلق فجائيّ. –هل أوجعاك؟

– لا بأس. ليس كثيرًا. –كذب بييترو ليقوم بدور البطل الذي لا يقهر.

– ليس صحيحًا. أعرفك جيدًا. أرني. – أمسكت بحزامه.

اندفع بييترو إلى الخلف. – هيا. مجرّد خدوش سطحية. لا شيء.

– هل تخجل مني أيها الأحمق؟! وماذا ستفعل على الشاطئ إذن؟

هنالك فرق بين الحالتين. كانا وحيدين في البيت، وعلى السرير... لا مجال للمقارنة.

– لا أخجل ولكن...

– أرني إذن. –شدّت الحزام.

عندما تنوي جلوريا شيئًا ما فما عليك إلا أن تطيعها. أجبرته على خفض البنطال رغمًا عنه.

– يا إلهي. انظر ما الذي جرى لك... علينا أن نعقّم الجرح حالًا. انزع بنطالك. – قالت بنبرة جدية، كأنها أمّ له.

كان الجرح في حاجة إلى المعقم فعلًا. فجلد الساق اليمنى مسحوق

ومغطىً ببقع الدم المخثر. ناهيك عن الرضوض في عضلة الساق واليدين والردف.

ولكنه كان سعيدًا رغم كل شيء، دون أن يعرف السبب. ربما لأن جلوريا حينها كانت تعتني به، وربما لأنّ عقاب الآلهة نزل في آنه على الوغدين، بل ربما لأنه كان في غرفة تغصّ بالألعاب وروائح الثياب الزكيّة.

ذهبت جلوريا إلى المطبخ لتأتي بالقطن والمعقم. كم كانت تهوى القيام بدور الممرضة! كانت سادية في علاجها، وبييترو يتأوه ألمًا بعد أن تسكب أكثر مما ينبغي من المعقم. مسحت جراحه بالقطن، وأعطته بيجاما نظيفة. ثم أغلقت الأباجور وملصت إلى السرير وشغّلت الفيديو من جديد. – الآن نشاهد نهاية الفيلم، ثم تغفو قليلًا ونأكل فيما بعد. هل تحب التورتيلّيني مع القشدة المطبوخة؟

- أجل. – قال بييترو آملًا أن تكون الجنة شيئًا كهذا بالضبط. وسرعان ما غفا وهو يفكر في ذلك السرير الدافئ، والفيديو، وأجمل بنت في الدنيا، والتورتيلّيني بالقشدة.

119

إذا ما نظرنا إلى ميمو موروني وهو عند تلك الربوة الخضراء في آخر المدى، جالسًا تحت أغصان السنديانة الشمّاء، وقربه يرعى قطيع الغنم، وخلفه يلوّن الغروب الوردي تلك السماء الزرقاء، لحسبنا أننا أمام إحدى لوحات الفنان خوان أورتيغا دا فوينتي. ولكن إذا أمعنّا النظر، لوجدنا أنّ ثياب الراعي الصغير من فرقة ميتاليكا، ويبكي وهو يقرمش قطع البسكويت.

- ما بك؟ – سأله بييترو وهو يتقدم نحوه.

- لا شيء... إنني مكتئب.

- هل تشاجرت مع باتي؟
- كلا. لقد... ترك... تني.. – شهق ميمو وابتلع بسكويتة أخرى بلبٍّ ناعم غنيّ ومغطىً بالعجين الحلو.
- من جديد؟ – تأفف بييترو.
- أجل. ولكنها جادّة هذه المرة.

كانت باتريزيا تنفصل عنه مرتين في الشهر على أقل تقدير.

- ولماذا؟
- هذه هي المشكلة. لا أعلم! ليس عندي أدنى فكرة. اتصلت بي هذا الصباح وهجرتني دون توضيح. من المحتمل أنها لم تعد تحبني أو ربما وجدت شابًا آخر. لا أعلم... – تنفس بأنفه والتهم بسكويتة أخرى.

ثمّةَ سبب. وليس لأنها لم تعد تحبه أو أنّها وجدت شابًا آخر. ولكن غالبًا ما يحدث أن نقتنع بأسباب كهذه عندما يهجرنا الحبيب: لم تعد تحبني. وجدت من هو أفضل منّي إلخ. فلو تمعّن ميمو في لقاء اليوم السابق لعرف السبب، والله أعلم.

120

كان ميمو قد خرج من البيت حوالي الخامسة عصرًا على دراجته النارية، واتجه ليلتقي بباتي. عليه أن يصطحبها إلى أوربانو لشراء ما يلزمها من دهون وزيوت تقاوم البثور الجلدية. وما إن رأته يتقدم بالدراجة حتى تعكّر مزاجها وجدّفت بالآلهة.

كيف يعقل أنها الوحيدة المرتبطة بشاب ليس لديه سيارة، من بين كل صديقاتها؟ كان لديه سيارة، لكن والده القذر لا يعيره إياها.

وكانت تمطر أيضًا. لكن ميمو كان في قمة الهدوء، لأنه ذهب إلى سوق البلد في الصباح الباكر واشترى سترةً مطريةً عسكرية، وأكد لها

أنّ السترة تتحدى البلل. ارتدت باتريزيا الخوذة على مضض، وركبت على تلك الخردة المهترئة ذات الرائحة الكريهة والتي تصدر الدخان والضجيج. وهل ثمّتَ أخطر من درّاجة ناريّة بمدخنة مثقوبة؟ كلاّ. لا يوجد.

وكان من الممكن أن يصلا إلى أوربانو دون قطرة مطر واحدة، فالسترة أبدعت في أداء مهمّتها. غير أنّ المشكلة كانت في ميمو الذي لم يترك بركة مليئة بالماء إلا ومرّ عليها. وهكذا نزلا من على الدراجة مبللين كالصيصان، وتكّدر مزاج الفتاة نهائيًا. تنزّها في الشارع العام حتى تسمّر ميمو أمام محلّ يبيع أدوات الصيد. رأى خلف الزجاج قوسًا حديديًا رائعًا. ودخل، رغم احتجاج حبيبته، ليستعلم عن السعر. كان أغلى من العين البشرية. فراح يبحث بين البنادق والسنارات عن سعر مناسب، إذ لم يكن ليخرج من هناك، من حيث المبدأ، دون أن يشتري شيئًا. وجد مسدسًا يعمل بضغط الهواء، تشمله التنزيلات. استغرق الأمر نصف ساعة ليفحصه، ونصف ساعة أخرى ليقرر إن كان سيشتريه أم لا، بينما تغلق المحلات الأخرى أبوابها، ويحتقن غضب باتي.

وبما أنّها لم تشتر شيئًا (رغم أنّ ميمو اشترى المسدس في النهاية)، فقد قرّرا تناول البيتزا الشهية ثم الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم «ميليسا الشجاعة» المرأة الاسكندنافية التي نفيت في قرى الأقزام الإفريقية.

جلسا إلى طاولة في المطعم، ورفع ميمو ساقيه وركّز النظر في جزمته. كان راضيًا جدًا عمّا اشترى. أخذ يشرح لباتي أنّ جزمته منيعة جدًا، ينتعلها الجنود الأمريكيون لقدرتها على مقاومة الألغام. وبينما كانت تتصفح لائحة الطعام بضجر فتّاك، أخرج المسدس ليثبت أنّ كلامه ليس هراءً. وأدخل فيه رصاصة صغيرة وأطلقها على قدمه. فصاح كالمعتوهين. لقد ثقبت الرصاصة جزمة المقاومة والممانعة،

وعلقت في قدمه، لتثبت الفرق الهائل بين النظرية والتطبيق.

كان عليه أن يركض (أو يعرج) إلى أقرب نقطة إسعاف. وأخيرا أخرج الممرض تلك الرصاصة وقطب الجرح.

لم يتناولا البيتزا. وصلا إلى السينما في اللحظة الأخيرة، وجلسا على مقعدين في الصف الأول، على بعد سنتمتر من الشاشة.

لم تنبس الفتاة بأيّة كلمة. بدأ الفيلم واتّبع ميمو وسيلة مطروقة: أن يلمس يدها أثناء المشاهدة. لكنها دفعته عنها كأنه أجرب. حاول أن يتابع الفيلم لكنه ممل حتى الموت. وكان جائعًا، فراح يأكل الفوشار محدثًا ضجة رهيبة. فانتزعت باتريزيا الكيس منه. فأخرج العلكة من جيبه وراح يمضغها ويشكّل الفقاعات. نظرت إليه باتي بحقد ضغين حتى بصق تلك العلكة الأمريكية.

انتهى الفيلم. ركبا على الدراجة (تحت الطوفان) وعادا إلى إيسكيانو. نزلت باتي ودخلت إلى بيتها دون أن تعطيه قبلة الليلة السعيدة.

وفي صباح اليوم التالي اتصلت به وأعلمته، دون مخاتلة، بأنه بات أعزب وأغلقت السمّاعة.

ولعلّ ما حدث يكفي أية فتاة لتنفصل عن شاب كهذا، ولكن الأمر مختلف بالنسبة إلى باتي. فهي متيّمة بميمو، وكان الليل سيخمد غضبها بلا شكّ. غير أنّ العلكة التي بصقها ذلك المقرف وقعت في خوذتها. وعندما ارتدتها المسكينة تمدّدت العلكة على شعرها الطويل. وهذا ما أجبر الحلاق على قصّ شعرها بتسريحة ذكورية ملطّفة.

وحتى في هذه المرة كانت باتي، كعادتها، ستصفح عن ميمو المسكين بعد مرور أقل من أسبوع.

كانت باتريزيا شارنو محل ثقة بكل معنى الكلمة. إذا اختارت شريكًا لا تهجره بسهولة. وهذا لأنها مرّت بتجربة عاطفية سيئة، في طفولتها، لم تشفَ منها بعد.

كانت البنت قد نضجت منذ ربيعها الخامس عشر، وقد أفرزت غدتها التناسلية وطباعها الجنسية كل ما عندها. فتحولت المسكينة إلى نهدين بارزين وفخذين رشيقين ومؤخرة محترمة وقدّ ميّاس وبُثور جلدية بالجملة. وكانت مرتبطة مع الشرطي برونو ميلي، البالغ خمسًا وعشرين سنة آنذاك. لم يكن برونو ينوي الالتحاق بسلك الشرطة في تلك الآونة، إنما الانضمام إلى كتيبة القدّيس ماركو في الوحدات الخاصة.

كانت باتريزيا تعشقه لثقته بنفسه، ولكن ثمّتَ مشكلة: إذ أنّ برونو يأتي ليأخذها بسيارته المتواضعة إلى غابة إكواسبارتا، وهناك ينكحها؛ وما إن ينتهي يعيدها إلى بيتها، وشكرًا إلى اللقاء.

ذات يوم، بلغ السيل الزبى وانتفضت باتريزيا. -لماذا تذهب صديقاتي مع عشاقهنّ كل عصر سبت إلى روما للتسوق، وأنت لا تأخذني إلاّ إلى الغابة؟ هذا لا يعجبني.

كان برونو مرهف الحس في تلك الأوقات، لذا عرض عليها شرطًا: -حسنًا. فليكن كذلك. سوف آخذك يوم السبت إلى شيفيتافيكيا، وأنت بالمقابل، عندما نمارس الحب، تلبسين هذا. - فتح خزانة السيارة وأخرج منها قناع غوريلاّ بلاستيكيًا يصلح للكرنفالات.

قلّبت باتريزيا القناع بين يديها ثم سألته عن السبب وهي في أقصى حالات التشتت الذهني.

وكيف سيشرح لها ذلك العبد الفقير أنّ قضيبه ينتصب كساق الطاولة إذا ما رأى جسدها الفتّان كالممثلات الإباحيات، ولكنه يرتخي كدود الأرض إذا ما نظر سهوًا إلى وجهها المليء بحبّ الشباب؟

- لأنه... لأنه... -ثم تجرّأ -لأنه يثيرني جنسيًا. لم أقل لك من قبل. إنني سادي ومازوخي في آن واحد.
- وماذا يعني هذا؟
- لديّ طباع جنسية قذرة. هنالك كثير من الرجال يحبّون أن تلسعهم النساء بالسوط و...
- أتريد أن أجلدك بالسوط؟
- كلا! يثيرني أن تضعي هذا القناع.
- هل تودّ ممارسة الجنس مع القردة؟ -سألته بفضول.
- كلا! أجل! لا لا! ضعي هذا القناع ولا تكثري من الأسئلة! -فقد برونو صبره.

فكرت باتريزيا في الأمر. هي لا تهوى الانحرافات الجنسية بشكل عام، ولكنها تذكرت ما روته لها ابنة عمها باميلا عن عشيقها إيمانويلي زامباكوستا. يلقّبونه مانو، ويعمل محاسبًا في السوبرماركت. كان لا يبلغ الشهوة إلا إذا تبوّلت عليه، ورغم هذا فإنّ علاقتهما وثيقة وكانا سيتزوجان في مارس. ثم استنتجت أنّ انحراف برونو كان بريئًا نسبيًا، وأنّها ستحظى بنزهة أسبوعية في شيفيتافيكيا. وبالمحصلة، كانت متيمة به، ومن أجل الحب نفعل كل شيء.

وافقت على الشرط. وباتت ترتدي قناع الغوريلاّ كلما مارسا الجنس في الغابة. (وذات مرة كان الضباب كثيفًا. وكان روسانو كوارانتا البالغ من العمر ستةً وستين عامًا، وهو متقاعد وصيّاد ومُهرّب، يتجول في الغابة. فوجد سيّارة مختبئة بين أشجار السنديان، فاقترب منها بحذر شديد ورأى شيئًا مرعبًا. رأى شابًا وقردًا داخل السيارة، فرفع

البندقية ليطلق النار. لكنه أخفضها عندما انتبه إلى أنّ ذلك الخنزير ينكح الغوريلاّ. فانسحب بعيدًا وهو يستغرب السفالة التي وصل إليها بعض الناس). لكن برونو ميلي سرعان ما نقض الاتفاقية، ولم يأخذها إلاّ مرة واحدة إلى شيفيتافيكيا، ثم بدأ يخترع الأعذار. وأخذها معه لتشجعه وهو يلعب الكرة متظاهرًا بأنه لا يعرفها.

وصل الإحباط بالبائسة إلى كتابةِ رسالة طويلة وأليمة إلى الطبيبة إلاريا روسي بارنجي، الطبيبة النفسية في أسبوعية «أسرار غرامية». قصّت عليها كيف تزداد الأمور سوءًا مع حبيبها (أغفلت حكاية القناع) قائلة إنها تعشقه حتى الموت رغم كل شيء، لكنها تشعر بأنه يعاملها كعاهرة ليس إلا.

وكانت المفاجأة أنّ الطبيبة إلاريا ردّت عليها.

عزيزتي باتي. ها نحن نواجه مجددًا بعض المشاكل التي لطالما واجهتها أمهاتنا وجداتنا. ومادمنا اليوم قد حصلنا على قدر لا بأس به من معرفة نفسنا البشرية، فبوسعنا أن نأمل في التغيير. الحب شيء بديع ومن الرائع أن تكون العلاقة على درجة عالية من الصدق والمصارحة والمساواة. نحن النساء لدينا حساسية أكبر بالتأكيد، ومن المحتمل أنّ عشيقك لا يعرف كيف يعبّر عن مشاعره حتى الآن. لكن هذا لن يمنعك من أن تطلبي منه القيام بما ترينه مناسبًا. ردّي اعتبارك، ولا تعجزي عن منازلة أهوائه الأنانية. أنت مازلت شابة، ولذا لا يجدر بك أن تستسلمي له دومًا. وإذا كان يحبّك حقًا، فلابدّ أن يقدّر مشاعرك. إنه يستطيع التحكم بك لأنك أنت من تسمحين له بذلك. في الحب ينتصر المغلوب يا عزيزتي! حافظي على الفضيلة وسوف ترين كيف يحملك حبيبك على كفّيه. تهانينا!

طبّقت باتريزيا نصائح الطبيبة حرفيًا. وطلبت من برونو أن يغيّر من سلوكه، وأن يهديها الأزهار الحمراء ويأخذها للعشاء في مطعم

رومانسي، ثم إلى السينما لمشاهدة فيلم «دموع وشموع». وصرّحت بأنها لن تلبس ذلك القناع عند ممارسة الحب أبدًا.

فتح برونو باب السيارة، وأمرها بالنزول وهو يصرخ. – اغربي عن وجهي أيتها الحيوانة. أنا أذهب لمشاهدة «دموع وشموع»؟ هل تحسبينني لوطيًا؟ اغربي عن وجهي، هيّا.

وهكذا تعلّمت باتريزيا، من هذه التجربة السيئة ومن نصائح الطبيبة، أن تحافظ على العلاقة العاطفية مع ميمو حتّى لا يتحطّم قلبها من الهجران.

121

كان بييترو يبحث عن أخيه لسبب دقيق، أي ليطلب منه الذهاب معه إلى المدرسة. كانت فكرة جلوريا طبعًا. حاولت في البداية أن تقنعه بأمها، فالسيدة شيلاني تحب بييترو كثيرًا وتقول إنه أفضل فتى في العالم. ولكن لو اصطحبته والدة جلوريا كان سيثبت أنّ والديه لا يكترثان لأمره، وأن عائلته كانت عائلة مجانين.

توصلا إلى أنّ الحل الوحيد هو ميمو، فقد كان راشدًا بما فيه الكفاية، وسيخبر الأساتذة أنه ناب والديه المشغولين في شؤون كثيرة.

لكن بييترو شكك في صواب الفكرة عندما رأى أخاه يبكي كالصبيان تحت الشجرة. سيقترح عليه الحل بأي حال، فما باليد حيلة أخرى. قال له إنه فُصل لخمسة أيام، وعلى فرد من العائلة أن يتحدث في الأمر مع المدير.

– أبي رفض الذهاب، وقال إنّ الأمر لا يعنيه. لم يبق إلاك يا ميمو. اذهب معي واخبرهم بأنني مجتهد ومؤدب وأنني لن أفعل مثلها ثانية. وقل إنك مستاء. هي أقوال بسيطة ومعتادة.

– لم لا تذهب أمي؟ – قال ميمو وهو يرمي بحصوة إلى الأسفل.

- أمي...؟ – كرر بييترو بسخرية.

- وما الذي سيحدث إن لم يذهب أحد معك؟

- لا شيء. سوف أرسب فقط.

- وما الضير في هذا؟ – أمسك بحصوة أخرى ورماها.

- لا أريد أن أرسب.

- أنا رسبت ثلاث مرات...

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنه لا مشكلة... مجرّد سنة، تنقص أو تزيد...

- هل ستذهب أم لا؟ – تأفف بييترو، فأخوه يناور كالعادة.

- لا أعلم... أنا أكره المدرسة... لا أقوى على دخولها. تثير اشمئزازي حقًا.

- يعني لن تذهب؟ – عزّ عليه أن يسأله مرة أخرى. وكان ميمو مخطئًا بالظنّ أنّ بييترو سيتوسل إليه.

- لا أعلم. الآن لدي مشكلة جدية. حبيبتي هجرتني.

- عليك اللعنة يا ميمو! – استدار بييترو واتجه إلى أسفل الربوة.

- لا تغضب مني يا بييترو. سوف نرى في الغد. إن تحسنت حالتي سأذهب معك. أقسم إنني إذا تصالحت مع باتي سآتي معك.

–كان ميمو يصرخ بنبرته الحقيرة.

- *عليك اللعنة! لا أقول إلا هذا.*

122

قضت فلورا الظهيرة وهي تفكر في الأطباق التي يمكن إعدادها للعشاء. تصفحت عدة مجلات للطبخ دون أن ترسو على بر. تُرى ما الذي قد يعجب جراتزيانو؟ لم تكن لديها أدنى فكرة عن ذوقه، لكنها متأكدة أنّ المكرونة محبوبة الجميع. باستا بالكوسا والأقحوان؟ إنه

طبق لذيذ وصالح لكل الفصول. أو الباستا بالبيستو. كلا، إنها تحتوي على الثوم... السباغيتي بصلصة الباذنجان المشوي إذن... إنّ عدم القدرة على اتخاذ القرار مصيبة كبرى.

قررت في النهاية أن تحضّر له الدجاج بالكاري، والرز بالبيض المسلوق. لقد طبختها أكثر من مرة بالاستعانة بوصفة طباخة شهيرة. إنه طبق لذيذ ومختلف وسيحصل بالتأكيد على إعجاب رحالة طاف العالم مثل جراتزيانو.

كانت حينها تجر العربة في أروقة السوبرماركت بحثًا عن الكاري. لقد نفد من مطبخها ولسوء الحظ يبدو أنه قد نفد من السوبرماركت أيضًا. كفى، *سأحضّر طبقًا كلاسيكيًا من الدجاج المشوي مع البطاطا والسلطة.*

مرّت أمام قسم النبيذ وأخذت زجاجة كيانتي أحمر.

كانت فكرة ذلك العشاء الحميم تعجبها وتخيفها معًا. نظّفت لأجله المنزل وأخرجت أجود المناديل وأرقى الصحون. وبينما كانت مشغولة بهذه التحضيرات، حاولت أن تسكت صوتًا وقحًا يكرّر على مسامعها أنها أخطأت في كل شيء، وأنها لن تجني الخير من هذه القصة، وأنها ستعيش على الآمال الواهمة حتى تموت، وأنها اتخذت قرارًا بعد العودة من ساتورنيا والآن تفعل نقيضه، وأن أمها كانت ستتألم...

لكن الجزء الآخر من ذهنها ظهر بقوة ورمى ذلك الصوت الوقح في بئر عميق. *إنني لم أدع رجلًا إلى بيتي أبدًا، والآن أريد أن أفعل ما يروق لي. سنأكل الفروج، وندردش، ونشاهد التلفاز، ونشرب النبيذ، هذا كل ما في الأمر. لن نقوم بالقذارات، لن نتدحرج مثل الخنازير على سجادة الصالون، لن نرتكب أفعالًا شنيعة. وإن كانت المرة الأخيرة التي أراه، فصبرًا. سأعاني، لا يهم... أنا أعرف أنّ قراري صائب، ولو كان لأمي القدرة لنصحتني بالمضيّ قدمًا.*

ولكي تهدأ، فكرت بميكيلا جوفانيني آنسة التربية الرياضية في المدرسة. كانت شابة نحيلة وسمراء من جيلها. وقد أعجبت بها فلورا على الفور منذ أن قدمت إلى المدرسة حتى تركتها منذ حوالي سنة. وكانت عفويتها أثناء الاجتماعات محط اهتمام الجميع الذين لا يسعهم الرد عليها بكلمة واحدة. اصطفت ميكيلا دومًا إلى جانب التلاميذ. وذات مرة تصادمت بشدة مع نائبة المدير على مسألة التوقيت وأخبرتها عن رأيها بالطريقة الفاشية التي تتبعها الإدارة. لم تحصل على ما تريد، لكنها استطاعت أن تقول رأيها وجهًا لوجه. الأمر الذي لم تفلح فيه فلورا يومًا.

وكما يحدث غالبًا، توطدت صداقتهما عن طريق الصدفة. إذ سألتها فلورا من أين يمكن أن تشتري حذاء رياضيًا للتنزه على الشاطئ. وفي اليوم التالي جاءت ميكيلا بحذاء أديداس رائع. «إنه ليس من مقاسي. أتوني به من فرنسا ولكنهم أخطؤوا المقاس. جرّبيه. قد يكون مناسبًا لك» قالت وهي تضع الحذاء بين يديها. ترددت فلورا «لا، شكرًا، اعذريني لا أستطيع قبول الهدية». لكن ميكيلا ألحّت «لن أستطيع ارتداءه. هل أتركه يتلف في الخزانة؟». وهكذا جرّبت فلورا الحذاء وكان مناسبًا.

وصارا يتنزهان كل صباح أحد. كانتا تعبران الحقول خلف سكة الحديد وتتوجهان إلى الشاطئ. ثم استطاعت ميكيلا أن تقنع صديقتها بالهرولة قليلًا. وكانتا تدردشان في بعض الأمور. عن المدرسة والعائلة. روت فلورا عن أمها ومرضها، وميكيلا عن خطيبها.

كان فولفيو شابًا يعمل في البناء بدوام نصفي، وقد ارتبط بميكيلا منذ بضعة أعوام. كان عمرُه اثنين وعشرين عامًا، ويصغر ميكيلا بثلاث سنوات، ويعيشان معًا في شقة صغيرة. وكانت ميكيلا تقول إنها مغرمة به (ولم تسأل فلورا أبدًا عن أوضاعها العاطفية حرصًا على مشاعرها).

وذات صباح وصلت ميكيلا إلى الشاطئ وأمسكت بيد صديقتها، ونظرت حولها وقالت: «لقد قررت أن أتزوجه يا فلورا». «هل بوسعكما الزواج ولم تدخرا شيئًا بعد؟». «سوف نتدبر الأمر بطريقة أو بأخرى... ما يهمّ أنّ واحدنا يعشق الآخر، أليس كذلك؟». ارتدت فلورا الابتسامة التي تُخرجها أثناء التهاني «طبعًا». ثم عانقت صديقتها بشدة وكانت سعيدة لأجلها. لكنها في الوقت نفسه شعرت بحرقة تصلي فؤادها.

وأنا؟ لا شيء؟ إلى متى؟

لم تستطع أن تحبس دموعها وظنت ميكيلا أنها علامة على فرط السعادة. لكنها في الحقيقة كانت تضمر حسدًا شنيعًا ندمت عليه حين عادت إلى البيت.

وراحت ميكيلا تمطرها بالمكالمات. أرادت أن تقدّم لها فولفيو وتدعوها إلى المنزل الصغير. وكانت فلورا، في كل مرة، تجد أعذارًا غير منطقية كي لا تذهب. لعلّها تتجنب المزيد من الحسد. ولكنها وافقت على دعوة إلى العشاء بعد إلحاح عنيد.

كان البيت جحرًا صغيرًا، وفلوفيو مجرّد مراهق. لكن الجو العام حميم والمدفأة موقدة والشاب يطبخ سمكة كبيرة اصطادها في الصباح. وكان العشاء لذيذًا جدًا، وعانق فلوفيو خطيبته ألف مرة. ثم جلسوا لمشاهدة فيلم «لورنس العرب» وتناول الحلوى المغطسة بالنبيذ المحلّى. وعادت فلورا سعيدة إلى بيتها في منتصف الليل. لم تكن سعيدة، بل مسالمة.

هذا ما كان يلزمها لعشاء تلك السهرة. تمنّت أن يكون مشابهًا لعشاء ميكيلا وفولفيو؛ على أنّ الرجل هذه المرة سيكون لها وحدها.

مرّت أمام الثلاجة الطويلة وأخذت علبة بوظة. وكانت تتجه إلى الصندوق عندما رأت بييترو موروني يظهر أمامها. كان يعرج قليلًا ويبتسم للقائها.

- بييترو! ماذا حدث؟

123

- كنت أودّ التحدث إليك يا آنستي... - تنفّس الصعداء.

وجدها أخيرًا. كان قد مرّ تحت منزلها ولم يجد سيارتها. فذهب إلى البلدة وهو يتحرك كالجواسيس كي لا يقع مجددًا في أيدي فيديريكو. ولكن لا شيء. وعندما كان عائدًا إلى المنزل، رأى سيارتها أمام السوبرماركت. فدخل وهاهي أمامه.

- لماذا تعرج؟ هل تأذيت؟ - سألته بقلق.

- وقعت من الدراجة، ولكن لا بأس. - قلل من أهمية الوضع.

- ما الذي حدث؟

كان من الضروري أن يخبرها كي تجد له حلًا، فهو يثق فيها. نظر إليها ولاحظ أنها تغيّرت، رغم تشتت ذهنه. انتبه إلى شعرها المنثور! وبنطال الجينز الجديد، فلطالما رآها بتلك التنورة السوداء الطويلة. ثمّتَ شيء يجهله غيّر من ملامح وجهها...

- وماذا أردت أن تخبرني؟

سرح في النظر إليها. - لن يأتي والداي إلى المدرسة للتحدث مع نائبة المدير، ولا حتى أخي.

- آه. ولماذا؟

ارتبك بييترو قليلًا. - أمي مريضة ولا تستطيع الخروج من المنزل. وأبي... أبي... -*هيا قل لها الحقيقة.*-وأبي قال إن هذا ليس من شأنه، لأنني أنا من فعلت المشكلة وليس هو، فلن يأتي. وأخي... أخي مغفل. -اقترب منها وسألها وقلبه ينبض بقوة. -هل سأرسب يا آنستي؟

- كلا. ليس إلى هذا الحد -قرفصت فلورا لتقترب منه. -بالتأكيد لن ترسب. أنت مجتهد، سبق وقلت لك ذلك. ولماذا سيرسّبونك؟

- ولكن... إن لم يأت أحد من أسرتي... فإنّ نائبة المدير...
- اطمئن. سأتحدث أنا معها.
- هل هذا أكيد؟
- ثق بي. – قبّلت يديه. – أقسم لك.
- ولن يأتيَ الشخصان؟
- من الشخصان؟
- اللذان يعملان في التأمينات الاجتماعية.
- كلا. لن يأتيا. كن مطمئنًا.
- شكرًا. – تنهّد بييترو كأنه رمى عن كتفيه صخرة ثقيلة.
- تعال إلى هنا.

اقترب أكثر وعانقته الآنسة بشدة. لفّ ذراعيه على رقبتها ففاض قلبها بالعطف والشقاء. *يا إلهي... كأنّ هذا الطفل ولدي...*

كان عليها أن تنهض قبل أن تشهق بالبكاء. أخرجت البوظة من الثلاجة. – أتريد يا بييترو؟

- لا شكرًا. عليّ الذهاب إلى المنزل. تأخّر الوقت.
- فعلًا. نلتقي في المدرسة يوم الاثنين.
- حسنًا. – أدار ظهره.
- بييترو. قل لي، من أحسن تربيتك هكذا؟ – سألته.
- والداي. – أجابها واختفى.

بعد ستة أشهر...

18 يونيو

124

كانت جلوريا تحاول أن ترفع بييترو، لكنه لم يكن متعاونًا. كان جاثمًا على ركبتيه وسط باحة المدرسة. – لقد رسّبوني. – كان يكرر.

– لقد رسّبوني. لقد أقسمت لي بأنهم لن يرسّبوني. لماذا؟ لماذا؟

– هوّن عليك يا بييترو. فلنخرج.

– دعيني وشأني. –أبعدها عنه بحركة عنيفة، ثم نهض ومسح دموعه بيديه.

كان الرفاق يراقبونه بصمت. وجد بييترو في أعينهم جرعة ضئيلة من التضامن. اقترب منه أحدهم، أكثرهم شجاعة، وربت على كتفه. فانساق خلفه الآخرون كالقطيع وهم يرددون:

– لا عليك. لا تغضب. إنهم أوغاد. هذا ظلم...

هزّ بييترو رأسه متألمًا وتمخّط بأنفه. وحينها راودته رؤية ما. رأى رجلًا يرتدي ثيابًا كثياب أبيه، يدخل إلى قن الدجاج، وبدل أن يختار الدجاجة الكبيرة، أمسك بواحدة دون تعيين ووضعها في الكيس، وقال مسرورًا: «سوف نذبح هذه اليوم». وكان جميع الديكة والدجاجات حزانى لمصير رفيقتهم، وكأنهم يفكرون أن المصير ذاته سينالهم عاجلًا أم آجلًا.

وقعت القنبلة من السماء على رأس بييترو موروني فقط، وتطايرت أشلاؤه دون سواه. وقال في قرارة نفسه: *حسنًا. اليوم دوري. ولكن*

دوركم آتٍ لا محالة.

- هلاّ ذهبنا؟ – توسلت إليه جلوريا.

اتجه بييترو نحو المخرج. – أجل. فالطقس حار جدًا هنا في الداخل.

كان إيتالو قرب الباب، يرتدي قميصًا أزرق قصيرًا وضيقًا. ويكاد كرشه يفتق العروة، وعلى إبطيه بقعتان كبيرتان من العرق. كان رأسه المستدير يتأرجح كالمهابيل. – لقد حدث خطأ ما يا ولدي. فليس من المعقول أن ترسب وحدك دون سواك. هذا قرار في غاية القذارة. – قال له بنبرة جنائزية ومأساوية.

لم ينظر إليه بييترو، وخرج تتبعه جلوريا وهي تدفع أولئك المزعجين كأنها مرافقة شخصية. كانت تعزّه كثيرًا وتتمنى له الخير.

وأثناء ذلك، كانت الشمس، البعيدة ملايين الأميال عن مصائب الأطفال، تشوي الباحة والشارع وطاولات المقهى والبقيّة الباقية.

نزل بييترو السلالم، وخرج من البوابة وركب على دراجته ومضى.

125

- أين اختفى؟ – ذهبت جلوريا لتأخذ حقيبتها، وعندما التفتت لم تجده.

فركبت على دراجتها وذهبت إلى بيت التين. لكنه لم يكن هناك. كان ميمو، بصدر عار، يصلّح دراجته النارية. سألته جلوريا عن أخيه، فأجابها بأنه لم يره وواصل فكّ البراغي.

أين اختفى إذن؟

ذهبت إلى الفيلا آملة أن تجده هناك. لا أحد. فعادت إلى البلدة.

كان الجوّ جافًا، دون نسمة هواء، والحرارة تضيّق الأنفاس. لا يوجد أحد. ولولا زقزقة العصافير وأزيز الجنادب لَبدت إيسكيانو مدينةَ أشباح في صحراء تكساس. كانت الدراجات النارية، على اختلاف

حجمها، مركونة على الجدران. والإسفلت يكاد يذوب كالزبدة. مصاريع المحلات مغلقة، وزجاج السيارات ملفوف بالأغطية. الناس محشورون في بيوتهم. ومن لديه الهواء المكيف لا يكترث لهذا الطقس.

نزلت جلوريا أمام الستايشن بار. لم تجد دراجة بييترو بين الأخريات. كانت الفتاة متعبة حتى الموت. ارتفعت حرارتها، وكاد الظمأ يصيبها بالدوار. دخلت إلى البار المكيف الذي جمّد العرق على جسمها. اشترت زجاجة كوكا كولا وراحت تشربها تحت المظلة الكبيرة في الخارج.

كانت حائرة جدًا. فهذه المرة الأولى التي لا ينتظرها بييترو. لابد أنه ليس بخير ليفعل شيئًا كهذا. وفي تلك الحالة قد يرتكب أفعالًا خطيرة.

قد يقتل نفسه. لم لا؟

قرأت في الجريدة ذات مرة عن تلميذ في ميلانو رمى بنفسه من الطابق الخامس بعد الإحباط من الرسوب. وبما أنه لم يمت، جرجر نفسه حتى المصعد مخلّفًا وراءه الدماء، وصعد حتى الطابق السادس ورمى نفسه مجددًا، ومات لحسن الحظ هذه المرة.

هل كان بييترو قادرًا على الانتحار؟

أجل.

ولكن لماذا كان النجاح اللعين مُهمًّا إلى هذه الدرجة في نظره؟ لو رسبَت لتألّمت بالطبع لكنّها لم تكن لتنتحر. أما بييترو فكان يحب المدرسة، وإحباط من هذا النوع قد يودي به إلى الجنون.

أين قد يكون؟ آآآآه... يالي من غبية. كيف لم أفكّر في ذلك المكان.

أنهت الكوكاكولا برشفة واحدة، وصعدت على الدراجة ثانية.

كانت دراجة بييترو مخبّأة بين الأدغال، قرب الشبكة التي تفصل البحيرة عن الخط الساحلي.

-وجدتك! -هتفت جلوريا وخبّأت دراجتها قرب دراجته. مشت خلف السنديانة الضخمة ورفعت حافة الشباك السفلية لتدخل من تحتها. وعندما صارت في الجانب الآخر، أرجعت الحافة إلى محلّها.

وإن أوقفتكِ الشرطة فتلك هي المصيبة.

نظرت حولها ثم دخلت بين النباتات الكثيفة. كانت المائتي متر التي مشتها في ذلك الدرب الضيق، والمتنوع بين الأسل والقصب الطويل، سهلة المداس. ولكن كلما توغلت في المستنقع، أصبح التقدم صعبًا وغرق حذاؤها في ذلك الرغام الأخضر الكثيف. وهنالك رائحة مرة وحلوة تفوح من تلك المياه الراكدة. وأسراب الذباب والبعوض تحوم حولها وتمتص من دمها. ثم سمعت أصواتًا لا تُطمئِن البال: نقيق الضفادع الهائجة وأزيز النحل ورفيف غامض وحكّ مستمر وخفق يلهب الشكوك وغطسة في الماء وأصداء البلشون الكئيبة. إنه مكان جهنمي، *يهواه بييترو المجنون.*

وصلت المياه فوق ركبتيها. وكانت تجهد نفسها في التقدم، والنباتات تشبك ساقيها فتسبب الشعور باللزوجة، والأغصان الخشنة تخِدش ذراعيها العاريتين. والمياه مليئة بالأسماك الصغيرة التي تضعها الأمّات الآتيات من بحار الجنوب الآسيوي.

ولم تنته المغامرة بعد. فكي تصل إلى المكان، عليها أن تسبح قليلًا في البحيرة، لأن القارب (عبارة عن قطع خشبية متهالكة تحملها أربعة مسامير صدئة) قد استقله بييترو بالتأكيد.

وكان هكذا فعلًا. وصلت إلى هوامش القصب وقد ملأت الخدوش ولسعات الحشرات بدنها الرقيق. ولم تجد القارب في محلّه المعتاد.

عليك اللعنة يا بييترو! عليك اللعنة! لم أعد صديقتك المفضّلة.

لكنها تشجعت وغطست في المياه الفاترة كأميرة تخشى أن تتسخ ثيابها.

يتسع المستنقع هناك ليصبح بحيرة حقيقية، تطير الفراشات ويطوف البط على سطحها. ظلّت جلوريا تسبح ببطء كالضفادع كي لا تحرك شيئًا تحتها، واتجهت إلى الضفة الأخرى برأس مرفوع لأنها لا تحبذ أن تصل تلك المياه المقرفة إلى فمها. لم يكن عليها أن تفكر في العالم السفلي حيث تعيش الأسماك والسلمندر والحشرات والحيوانات المقرفة والجرذان والأفاعي والأشباح والتماسيح... *كلّا للتماسيح أرجوك، كلّا للتماسيح أرجوك...*

وعلى بعد عشرة أمتار من الضفة، رأت مؤخرة القارب تنتأ بين أعواد القصب. وبينما كانت تنظر إلى اليابسة الحنونة، أحست بشيء يلسع ساقيها. فصرخت وراحت تجدّف بعشوائية صوب الضفة. غرق رأسها وشربت من ذلك الحساء المقرف، ثم بصقت وصاحت. باتت على مقربة من القارب، فقفزت إليه كالدلفين. وراحت تتنفس بعمق وتنزع عنها الأوراق والطحالب وهي تكرر: —يا للقرف يا للقرف؛ يا إلهي ما هذا القرف! اللعنة على هذا القرف! —انتظرت قليلًا، ثم نظرت حولها. كانت على جزيرة صغيرة محاطة بالقصب ومياه المستنقع البنية. لا يوجد فوقها شيء سوى شجرة ضخمة بأغصان معوجة تظلل مساحة كبيرة، وزريبة صغيرة كان الصيادون يستخدمونها قبل أن تصبح المنطقة محمية طبيعية.

هذا هو «المكان». وهكذا يسمّيه بييترو.

كان بييترو يأتي إلى «المكان» حينما يبدأ فصل الربيع، وأحيانًا في الفصول الأخرى أيضًا، ويقضي فيه من الوقت أكثر ممّا يقضيه في البيت. وقد نظّم المكان جيدًا، فهنالك مضجع معلّق على الأغصان المنخفضة. وفي الزريبة ثمّتَ حقيبة حافظة يضع فيها السندويشات وزجاجة الماء. وقد وضع فيها بعض القصص المصورة ومنظارًا قديمًا ومصباح غاز وراديو صغيرًا (يسمعه بصوت منخفض جدًا).

لكن بييترو لم يكن هناك. دارت جلوريا في الجزيرة الصغيرة دون أن تجد له أثرًا. ولكنها وجدت كنزته في الزريبة، الكنزة نفسها التي كان يرتديها صباحًا.

وبينما تخرج من الزريبة، رأته يخرج من الماء بلباس السباحة واضعًا قناعًا على وجهه ليبدو كوحش البحيرة الهادئة والأشنيات على ذراعيه.

- يا للقرف! ارم تلك الأفعى! -صرخت جلوريا مثل معلّمات المدرسة.

- ليست مقرفة. ثم إنها ليست بأفعى. هذا ثعبان المياه العذبة ولم أصطد مثله يومًا. -قال بييترو بنبرة جدّية. كان الثعبان المسكين يلتفّ على ساعده محاولًا الهرب ولكن هيهات.

- وماذا تنوي أن تفعل به؟

- لا شيء. أدرسه قليلًا ثمّ أحرّره. - ركض إلى الزريبة، أخذ شبكة صيد ووضعه فيها. - وأنت ماذا تفعلين هنا؟ -سألها وأشار إلى كنزتها مبتسمًا.

نظرت جلوريا إلى نفسها. كانت الكنزة مبلّلة بالكامل، وصدرها ظاهرًا للعيان. - يالك من وغد يا بييترو. أعطني كنزتك حالًا.

أعطاها الكنزة وذهبت خلف الشجرة تغيّر ثيابها وتنشر كنزتها. وجثم بييترو على ركبتيه قرب الثعبان ينظر إليه بحيادية مفرطة.

- والآن؟ - سألته جلوريا وهي تجلس إلى المضجع.

- والآن ماذا؟

- لماذا لم تنتظرني في المدرسة؟

- كنت أريد البقاء وحيدًا.

- أتريدني أن أذهب؟ هل يزعجك وجودي؟ - قالت بنبرة متهكّمة.

ظلّ بييترو صامتًا للحظة، وهو يمعن النظر في الحيوان، ثم قال

بجدية. – كلاّ. بوسعك البقاء...

- شكرًا. كم أنت لطيف هذا اليوم.

- لا شكر.

- لم يعد الرسوب يهمّك؟

- كلاّ. لم يعد يهمّني شيء.– أخذ غصنًا صغيرًا ونكز به الثعبان.

- لكنك، منذ ساعتين، كنت تبكي محبطًا.

- كان لابدّ لي من ذلك. ولكن لا شيء سيتغيّر إذا عانيت وبكيت.

- ولماذا كان لابدّ من ذلك؟

- لأن هذا يرضي الجميع. –نظر إليها. –لأن أبي سيجعلني أترك المدرسة وأباشر العمل. وميمو سيكون سعيدًا لأنه لم يرسب بمفرده. وأمّي... فلننس أمرها، إنها لا تعرف في أيّ صفّ أدرس...هذا سيرضي نائبة المدير والمدير وفيديريكو والآنسة باليبيري... سيرضي الدنيا بأسرها.

- لكنني لا أفهم شيئًا. – جلوريا تتأرجح على المضجع، والأغصان تئنّ. – ألم تعدك باليبيري بأنهم لن يرسّبوك؟

- بلى. –انشرخ صوته ليغيّر من نبرته الضعيفة.

- فلماذا رسّبوك إذن؟

- لا أعلم. –تنهّد. –هذا لا يهمّني. كفى.

- ليس صحيحًا. باليبيري حقيرة. لم تحفظ عهدها.

- إنها حقيرة. مثل الآخرين. كذبت عليّ. –وضع يده على وجهه كي لا يبكي.

- وربما لم تذهب لتقدير الدرجات أيضًا.

- لا أعلم. لا أريد التحدث في الموضوع.

تغيّبت الآنسة باليبيري عن المدرسة في الأشهر الأخيرة بحجّة أنّها كانت مريضة. وخلفتها آنسة أخرى حتّى آخر السنة.

- إنني متيقنة من أنها لم تشارك في تقدير الدرجات. إنها لا تكترث للأمر. وما يشاع عن أنها مريضة كلّه كذب في كذب. بل إنها في أحسن حال، وقد رأيتها في البلدة مؤخرًا أكثر من مرة. وأنت، ألم تصادفها أبدًا؟

- مرة واحدة.

- وماذا حدث؟

لماذا كانت جلوريا تعذّب صديقها؟

—ذهبت إليها. أردت أن أطمئنّ عليها. لكنها لم تردّ تحيتي، فظننت أنها مشغولة بشيء يخصّها.

وثبت جلوريا. —إنها أحقر امرأة عرفتها في حياتي. لقد رسّبتك. هذا ليس عدلًا. عليها أن تدفع الثمن. —جثمت بقربه. —عليها أن تدفع الثمن غاليًا.

كان بييترو سارحًا بنظره صوب طيور الغاق في الأفق.

- ما رأيك؟ ألا نجعلها تدفع الثمن؟ —كررت.

- لم يعد يهمني شيء... — قال غاضبًا.

- أنت كالمعتاد... لا ينبغي أن تقبل دائمًا كل شيء. عليك أن ترد. عليك أن تفعل شيئًا يا بييترو. —جلوريا تتوحش. أرادت أن تقول له إنّه سبّب رسوبه بنفسه، لأنه جبان. ولو لم يكن جبانًا لما أرغمه المهابيل على دخول المدرسة أساسًا. لكنها ضبطت نفسها بمعجزة.

- وكيف نجعلها تدفع الثمن؟ — نظر إليها. —هات ما عندك.

- لا أعلم. —جلوريا تدور حوله وتحاول أن تأتي بفكرة. —وجدتها. علينا أن ندبّ الرعب في قلبها حتى تتغوط ذعرًا. — تسمرت فجأة ورفعت عينيها إلى السماء كأنها تنتظر علامة إلهية. —إنني عبقرية! إنني عبقرية! —أمسكت بالشبكة ورفعتها في الهواء.

-نضع هذا الحيوان الأليف في سريرها. وهكذا، عندما تخلد إلى النوم، تصيبها الجلطة. ما رأيك، ألست بعبقرية؟

- هذا حرام يا جلوريا. - تأسف بييترو.

- حرام؟! إنها حقيرة. لقد رسّبتك و...

- كلا. أقصد أنّ الثعبان سيموت.

- وما المشكلة؟ هذا المستنقع المقرف مليء بالثعابين المقرفة. إن مات واحد لا يحدث شيء البتة. أتعلم كم يموت منها على الطريق تحت السيارات؟ ثم إنه قد لا يموت. لن يحدث شيء أبدًا.

وقالت كثيرًا وبررت كثيرًا، حتى أومأ بييترو برأسه موافقًا.

126

الخطة بسيطة، وتتكون من ثلاث نقاط، درساها بعناية فائقة على الجزيرة.

1. إن لم تكن سيارة الآنسة موجودة، فهذا يعني أنها ليست في المنزل. وحينها يتم القفز إلى النقطة رقم ثلاثة مباشرة.
2. إذا كانت السيارة موجودة، فهذا يعني أن الآنسة في المنزل. لا شيء. سيكرران المحاولة مرة أخرى.
3. إن لم تكن السيارة موجودة، فسوف يتسلقان إلى التراس، ومنه يدخلان إلى المنزل. يضعان الثعبان الصغير في الفراش، ويلوذان بالفرار حالًا.

هذا كل شيء. لم تكن السيارة موجودة.

كانت الشمس تغرب ببطء، وتمنح المدى أجمل ألوانها، والحرارة تنخفض قليلًا. لم يكن ذلك القيظ اللعين ليدفع الناس إلى ارتكاب أفعال شنيعة، وهذا ما يُخفض من إنتاج صحافة الجرائم صيفًا. هبّت نسمة هواء لتحرّك الأجواء، لكن الليل كان يعلن عن ليلة مضيئة يصعب

النوم فيها من هول الحرارة القادمة.

اختبأ الصديقان خلف سور الفار الذي يحيط ببناية الآنسة بالميري.

- لماذا لا ننسى الأمر؟ – كرر بييترو مرارًا.

حاولت جلوريا أن تسحب علبة البلاستيك التي تحتوي على الثعبان، والتي كان بييترو يعلّقها على خصره. – فهمت. أنت تتغوط من الخوف! سأذهب بمفردي، انتظرني هنا...

لماذا كان الأصدقاء والأعداء يتهمونه بالتغوّط خوفًا، على حدّ سواء؟ ما الذي يجعل الشجاعة مهمة في الحياة؟ ولماذا عليك أن تقوم بأكثر شيء تكرهه كي يصفك الآخون بالبطولة؟ لماذا؟

- حسنًا، فلنذهب... –اجتاز بييترو السور وتبعته جلوريا.

كانت البناية على زاوية شارع ثانوي ضيق ينطلق من إيسكيانو ويقطع الحقول ويعبر سكة القطار ويصب عند الساحل. كانت الحركة فيه نادرة. وعلى بعد خمسمائة متر، باتجاه إيسكيانو، ثمّتَ ورشات لتصليح السيارات. أما البناية الصغيرة فكانت على شكل مكعب رمادي قبيح بسطح مستوٍ، وشادر بلاستيكي أخضر وشرفتين مليئتيْن بالنباتات. النوافذ في الطابق الأرضي مغلقة. والآنسة تعيش في الطابق الأول.

اختارا الناحية المشرفة على الحقول، حيث لا يمكن لأحد أن يمرّ ويراهما. ومن سيمرّ؟ فالطريق إلى السكة مغلقة في ذلك الوقت من السنة. ويوجد الميزاب في واجهة البناية على بعد متر من الشرفة. لم يكن عاليا جدًا لكن الصعوبة في مدّ الذراع حتى السياج.

- من يذهب أولًا؟ – همست جلوريا. كانا ملتصقين بالجدار مثل السحالي.

حرّك بييترو الأنبوب ليختبر مقاومته، فبدا منيعًا كفاية. –من

الأفضل أن أذهب أنا. هكذا أساعدك في الصعود إلى التراس. –كان لديه حدس بغيض، لكنه حاول ألا يفكر فيه.

- حسنًا. – تنحّت جلوريا جانبًا.

أمسك بييترو بالأنبوب بكلتا يديه، وأسند قدميه إلى الجدار. لم يكن الصندل مناسبًا للتسلق، لكنه آثر الصعود. وكان يدخل حيث لا يجب عليه أن يدخل، مرة أخرى. ولكنه على صواب في هذه المرة، كما أخبرته جلوريا.

(وأنت ما رأيك؟)

أنا أرى أنه ليس عليّ الدخول ولكنني أعتقد أيضًا أن بالميري حقيرة وتستحق مقلبًا من هذا النوع.

كان التسلق يجري بسلاسة، وحافة الشرفة على بعد متر. وعلى حين غرة ينفصل الأنبوب عن الجدار. ومن يدري لماذا، هل كان معدًا بطريقة خاطئة؟ هل صدأ فجأة؟ المهمّ أنه انفصل عن الجدار. وبات وزن الصغير يسحبه إلى الفراغ ولو لم يحافظ على توازنه لسقط على ظهره. وجد نفسه معلّقًا في الجوّ.

- اللعنة اللعنة... –كان يغمغم محبطًا.شرع يمطّ قدميه كي يصل إلى السياج ولكن عبثًا.

اهدأ. لا تنفعل. ألا تذكر كم تعلقت على أغصان الشجر؟ أنت قادر على المقاومة لأكثر من نصف ساعة بهذه الوضعية.

ليس صحيحًا. لم يكن ليتحمل أكثر من عشر دقائق. فكّر في أن يرمي بنفسه لأنه لم يكن مرتفعًا للغاية. من الممكن أن لا يلقى أضرارًا جسيمة، لكن المشكلة أنّه سيقع على الإسمنت المشهور بقساوته، كما يعلم الجميع.

ولكن إذا ارتميتُ بشكل جيد فلَن أصاب بأذى.

(الجملة التي تبدأ بـ لكن خاطئة من أساسها) . سمع صوت أبيه.

كانت جلوريا في الأسفل تنظر إليه ويداها على شعرها.

– ماذا أفعل؟ – سألها بأدنى طبقة صوتية.

– ارم بنفسك. سأتلقاك أنا.

وهذه أسخف فكرة على الإطلاق، فهكذا يتأذيان معًا. أغمض عينيه وكان على وشك أن يرتمي، عندما تخيل نفسه بساق مكسورة ومجبّرة في ذلك الصيف الحار. – لا والله لن أرمي بنفسي! – تمسّك بالأنبوب جيدًا، ومدّ ساقه بصعوبة حتى أسند كعبه على هامش التراس، ثم وصل باليد الأخرى، وتسلق السياج.

والآن؟

كانت النافذة الكبيرة مغلقة. حاول أن يدفعها لكنها مقفلة. لم يتوقعا شيئًا كهذا في الخطة. ومن كان سيغلق النوافذ في الصيف؟ راح ينظر من خلف الزجاج. لا أحد في الصالون، على ما يبدو. فكّر في كسر القفل أو تحطيم الزجاج ثم الهرب من التراس. لم يكن هذا ضمن الخطة أيضًا ولكن ماذا عليه أن يفعل؟

– ادخل! – كانت تناديه وتحرّك يديها.

– مغلقة! النافذة مغلقة.

– افعل على عجل. قد تعود الحقيرة بين لحظة وأخرى.

ما أسهل ما تقولين وأنت في الأسفل. وما أجمل أن تراني الآنسة على ترّاس منزلها.

نظر من الطرف الآخر. ثمّتَ نافذة صغيرة، ومفتوحة على قدر يسمح لجسمه الصغير بالدخول... هاهو درب الهروب...

127

كان الطقس حارًا جدًا، لكن المياه بدأت تبرد ولم تعد تشعر بساقيها ومؤخرتها.

منذ متى كانت هنا في الداخل؟ لم تعد تذكر. غفت منذ نصف ساعة؟ ساعة؟ ساعتين؟ ستخرج بعد قليل. ولكن ليس الآن. كانت تود أن تسمع أغنيتها المفضلة.

- يا لغرابة الرجل الذي أحببته، عيناه جميلتان إلى حدّ لا يوصف، جعلتاني أقول إنه ملكي، وكنت أرفرف حين يغفو على صدري... وعادت إليّ الذكريات القديمة، عندما كنت بريئة ولون شعري كضوء المرجان الأحمر، عندما كنت أكثر البنات طموحًا، أتّخذ القمر مرآة لأجبره على القول: أنتِ جميلة... أنتِ جميلة... أنت جميييلة! [1]

هذه الأغنية مكتوبة بحبر الحقيقة. إذ تحتوي على الحقيقة أكثر من كل الكتب والأشعار السخيفة التي تتحدث عن الحب. ولم تكن فلورا تعرف ما اسم المطربة، وقد وجدت الشريط عن طريق الصدفة. وتمنّت أن تعلّمها للتلاميذ.

أنت جميييلة! أنت جميييلة!... كانت فلورا تغنّي مع المطربة.

128

- أنت جميلة.

فتحت عينيها. ووجدت شفاهه تقبّل ثغرها. ثم تقبّل عنقها بنعومة، وأذنيها، وكتفيها. أدخلت يدها بين شعره الذي قصّه لأجلها (ما رأيك؟ هل يعجبك شعري هكذا؟).

- ماذا قلت؟ — سألته وهي تتمايل. كان الغبار في الهواء يرقص عند شعاع الشمس.

- قلت أنت جميلة. — وعاد يقبّلها على عنقها ونهدها الأيمن.

- أعد ما قلت!

(1) المقطع من أغنية «أنت جميلة» «Sei bellissima» لـ«لوريدانا بيرتيه» «Loredana Berté».

- أنت جميلة. - وصل بلسانه إلى حلمتها اليمنى.

- مجددًا.

- أنت جميلة. - قبّل حلمتها اليسرى.

- احلف!

- أقسم لك. - كان يقبّل بطنها وسرّتها. - أنت أجمل شيء عرفته. والآن دعيني أكمل طريقي لو سمحت. - واستمرّ يقبّل جسمها.

129

أدخل بييترو رأسه من تحت النافذة. وظلّ يتلوّى حتى وصل إلى المرحاض. كان في الحمّام. وثمّتَ موسيقى أيضًا.

- ...وكنت أخرج بحثًا عنك، في الشوارع، بين الناس، وكلما التفتّ وجدتك تناديني: أنت جميييلة.[1]

كانت الأغنية للوريدانا بيرتيه. وبييترو يعرفها جيدًا، لأنّ ميمو كان لديه القرص. وقف على قدميه في الظلام، يقطر عرقًا في ظل الحرارة المرتفعة.

هنالك رائحة كريهة. أصابه العمى لعدة ثوان، ثم تراءى له ضوء ما مغطىً بقطعة قماش والظلام يهيمن على ما تبقّى من الحمّام. ضغط على عينيه فاستطاع أن يرى... الآنسة بالميري مستلقية في الحوض. تمسك بين يديها مسجلة قديمة سوداء، تخرج منها أنغام تلك الأغنية. والشريط الكهربائي على الأرض وينتهي في إبريز قرب الباب. وثيابها متراكمة في الزاوية، والمغسلة ملأى بالخرق المبلّلة، والمرآة متّسخة بأحمر الشفاه.

أطفأت فلورا المسجلة ونظرت إليه بفتور كما لو كان من أكثر الأشياء طبيعية أن يدخل أحد التلاميذ إلى بيتها من نافذة الحمّام.

(1) المقطع من الأغنية نفسها.

لكنها لم تكن طبيعية على الإطلاق. كان وجهها هزيلًا وشاحبًا جدًا (كوجوه اليهود في مراكز التجميع النازيّة). وعلى سطح الماء في الحوض، تطفو قطع من الخبز وقشر الموز ومجلة ما.

سألته الآنسة بنبرة باهتة: —ماذا تفعل هنا؟

فأخفض بييترو رأسه.

- لا تقلق. لم أعد أخجل. بوسعك النظر إليّ. ماذا تريد؟... ما بك؟ هل أثير اشمئزازك؟

- لا، لا... — تلعثم بحياء.

- فانظر إليّ إذن.

أرغمته على النظر إليها. كانت بيضاء ومائلة للصفرة كجثة أو كتمثال شمع. ونهداها الضخمان كالجبن المجفف، وعظام صدرها ناتئة وبطنها منفوخة. والزغب الأصهب على ذراعيها وساقيها. كانت تسبب الهلع.

رفعت فلورا رأسها ونظرت إلى السقف وصرخت: —أمّاه! لدينا ضيوف! جاء بييترو لزيارتنا. —أدارت رأسها، كأنّ أحدًا يردّ عليها، لكنّ البيت كالتابوت. — لا، لا تقلقي، ليس نفسه الذي جاءنا منذ مدة.

لقد جُنّت. قال بييترو لنفسه.

130

- نحن بخير، صحيح؟ — ابتسمت فلورا. — ما بك، لم لا تُجيبين؟ هل نحن بخير معًا أم لا؟ — كان يلحّ عليها.

- أجل. نحن بخير.

كانا متعانقين على الرمال قرب الشاطئ. وفي السلة بعض السندويشات وزجاجة نبيذ أحمر. الريح تحرّك البحر الرمادي بلون السماء. والهواء نقيّ عليل. أخرج الغيتار وبدأ يجرّب معزوفة ما. — إنها صعبة. لقد ألّفتها بنفسي. — توقف عن العزف وتصنّع الاستياء.

- ثمّتَ شيء يضايقني. - أدخل يده في جيب البنطال وأخرج علبة جلدية زرقاء. - آآآه.. هذا هو. انظري ماذا وجدت في جيبي.
- ما هذا؟ - رفعت فلورا رأسها. فوضع العلبة في يدها.
- هل جننت؟
- افتحيها أولًا.
- لماذا؟
- إن لم تفتحيها، فسوف أرميها إلى السمك ليأكلها، وقد تكون من نصيب غطاس محظوظ.

فتحت فلورا العلبة. فوجدت خاتمًا رائعًا من الذهب الأبيض وحجر الكوارتز الكريم. -ما هذا؟ -سألت وهي تضعه في إصبعها.

- هذا طلب رسميّ للخطوبة.
- هل جننت؟
- أجل جننت. بوسعنا استبدال الخاتم إن لم يعجبك، فالصائغ صديقي.
- لا لا. إنه جميل جدًا، ويعجبني.

131

- والآن. ماذا جئت تفعل هنا؟
- أنا... -جئت لأمزح معك، ولكن نظرًا إلى الحالة التي أنت فيها فلا أظن أنني...-ارتبك بييترو.
- صحيح إذن أنك تدخل كاللصوص. هل أردت أن تحطم تلفازي؟ إنه في الصالون. حطّمه، لا مشكلة. لا أشاهده منذ أمد. ولكنني لا أعتقد أنّ أحدًا أجبرك على الدخول هذه المرة. أليس كذلك؟

في الحقيقة يوجد شخص في الأسفل أقنعني بذلك... لم لا أهرب؟ إنّ الباب قريب.

- لا تفكّر في الهرب. لن تذهب حتى آمرك بذلك. لم يزرنا الضيوف في الآونة الأخيرة. -ثم نظرت إلى السقف. -أليس كذلك يا أماه؟ - أشارت بإصبعها إلى العلبة المعلقة على خصره. -ماذا لديك هناك؟ ثمّتَ شيء يتحرك...

- لا شيء. - قلل بييترو من أهمية ما يحمل. - لا شيء.

- أرني.

اقترب منها وهو يتصبب عرقًا من خلف ركبتيه أيضًا. نزع الغطاء وأمسك الثعبان بيده. - أتيت بثعبان المياه العذبة.

- هل أردت أن تلدغني به؟ - سألته باهتمام.

- كلاّ إنها حيّة صغيرة ولا تلدغ. -برّر بييترو دون أن تكون له القدرة على الإقناع.

كان يشعر بغيمة سامة تلتفّ عليه لتعديه بجنونها. لم تكن تلك الآنسة بالميري الطيبة التي تحدث إليها في ذلك المساء من الشتاء في السوبرماركت. إنّها شخصٌ آخر ومجنونة بالكامل.

أريد أن أذهب.

وضعت الآنسة المسجلة على حافة الحوض وأخذت العلبة. فتحتها فإذ بالثعبان الصغير يقفز إلى الحوض ويسبح بين ساقيها. ظلت فلورا جامدة، ولم يفهم بييترو إن كانت خائفة أم لا. ثم اجتاز الثعبان الحافة وزحف ليخرج من باب الحمّام. فقهقهت فلورا بضحكة مصطنعة لممثلة فاشلة. - له الحق في الزحف في منزلي، فأنا لم أقتن أي حيوان من قبل. وهذا الثعبان يناسبني.

- هل بوسعي الذهاب؟- توسل إليها بييترو.

- ليس الآن. -مدّت فلورا قدمها خارج الحوض. -عن أيّ شيء كنّا نتحدث؟ حسنًا، بوسعي أن أقول لك إن أموري في الأشهر الأخيرة لم تكن على ما يرام...

132

انتهت من تحضير العشاء، وكل شيء جاهز. الفروج المشوي في الفرن، والتالياتيلي المبهرة تبرد على الطاولة. لماذا تأخر؟ ربما لايزال مع المصمم الميلاني. سيصل. فلورا كانت اشترت فيلم «ذهب مع الريح» بعد أن أهداها هو مسجل الفيديو.

وهاهو يصل أخيرًا. لكنه كان غريب الأطوار ومستعجلًا. يتملص منها وبالكاد يقبّلها. قال إنه في مشكلة بخصوص محل الألبسة، وإنه لا يستطيع أن يبقى للعشاء. لم تسأله عن المشاكل. لكنه أخبرها أنه سيتصل بها صباح الغد، وفي المساء يشاهدان الفيلم. قبّلها على خدّها (وليس على فمها) وخرج. وبقيت فلورا وحيدة تتناول التالياتيلي الباردة وتشاهد فيلم «ذهب مع الريح».

133

- لم أره بعد تلك السهرة. كأنه ذهب مع الريح. — افتعلت الآنسة الضحكة نفسها. — ولم أسمع صوته حتى.

أية سهرة؟ ومن هذا؟ عمّ تتحدث هذه المجنونة؟ بييترو لم يفهم ولم يكن يحبّذ أن يفهم شيئًا. *(دعها تتحدث)*.

- علينا أن نضحك الآن. ولكنك لا تعرف كيف جرت الأمور... فلننس الأمر. في اليوم التالي لم يتصل. ولا حتى في المساء. ولم يكن ينتهي ذلك اليوم أبدًا. وأنا كنت أعرف كل شيء. حاولت الاتصال به على هاتفه الجوال ولكن المجيب الآلي كان بالمرصاد. تركت له الرسائل. وانتظرت ثلاثة أيام ثم اتصلت بمنزله. وقالت لي أمه إنه ليس موجودًا، ولم يترك لي أية رسالة. ثم زل لسانها وقالت إنّ ابنها قد سافر. كيف؟ وإلى أين؟ لم تقل لي شيئًا. هل فهمت؟ لم يترك لي ولا حتى رسالة واحدة. — بدأت الآنسة تئن

من البكاء الخافت، ثم رمت الماء على وجهها وابتسمت. – يكفي دموعًا. لقد بكيت كثيرًا. والبكاء لا ينفع بشيء، أليس كذلك؟

أومأ بييترو برأسه.

لماذا أتيت إلى هنا؟ اللعنة عليّ... اللعنة.. آه لو رأتها جلوريا. لكن من كان حبيبها؟

– لقد سافر. ومضى في دربه دون أن يقول لي شيئًا، ودون أن يودّعني. كنت أعرف أنّ ذلك الرجل بلا قيمة. إنه محتال، وأمي قالت لي ذلك حينئذ. كنت أعرفه جيدًا. وهذا ما يضايقني في الأمر. لكنه سحرني بكلماته، بموسيقاه، بمشاريعه الواعدة، وبذلك الخاتم. لم يكن يتركني بسلام. كان يعذّبني. كان يجعلني أصدّقه. هل تعلم يا سيدي الفتى أنك أول من أقص عليه حكايتي هذه؟ عليك أن تفخر بذلك فصديقنا ترك لنا ذكرى صغيرة. – تشبثت بالحافة ورفعت ظهرها. – إنني حامل يا بييترو. إنني أنتظر مولودًا.– وعاودت القهقهة.

134

وضعت فلورا الظرف الذي حمل لها الحقيقة في جيب معطفها. وهكذا عرفت سرّ التعب الذي كان يصيبها ويسحق قلبها. ركبت السيارة وذهبت إلى مخيطة بيليا. أطفأت المحرك. ثم شغلته ثانية. ثم أطفأته من جديد. خرجت من السيارة ودخلت إلى المحل.

كانت السيدة جينا بيليا خلف الطاولة تدردش مع زبونتين. عندما رأت فلورا، جحظت عيناها وارتبكت ملامح وجهها. تنحّت الزبونتان جانبًا كي تنظرا إلى درج الأزرار وآذانهن على الخياطة وتلك المرأة.

– أين ذهب؟ – تنفست فلورا بصوت مهشم. – عليّ أن أعرف. لن أذهب من هنا قبل أن تقولي لي.

- لا أعلم. - ترددت جينا بيليا. - أنا آسفة لا أعلم.

جلست فلورا إلى الكرسي الخشبي، غطت وجهها بيديها وأخذت ترتجف وتشهق.

- اعذراني. - دفعت السيدة بيليا الزبونتين خارج المحل، ثم أقفلت الباب. واقتربت من فلورا. - لا تفعلي هكذا، أرجوك. حبًا بالله لا تبكي.

- أين ذهب؟ - أمسكت فلورا بيدها وشدّت عليها.

- حسنًا سأخبرك. سأخبرك بكل ما أعرف شرط أن تتوقفي عن البكاء وتهدئي. لقد ذهب إلى جامايكا.

- إلى جامايكا؟ لماذا؟

أخفضت جينا بيليا عينيها. - كي يتزوج.

- ...كنت أعرف ذلك، كنت أعرف ذلك، كنت أعرف... - كررت فلورا، ثم أخرجت من جيبها الظرف وفيه فحص الحمل وأعطته إلى جينا.

135

- والآن اغرب عن وجهي. لا أريد أن أراك بعد اليوم. إنني متعبة.

- جمعت فلورا قطع الخبز الطافية وراحت تعجنها بيديها.

التفّ بييترو لينصرف. لكنه توقّف وسألها رغمًا عنه.

- لماذا رسّبوني؟

- ألهذا جئت إليّ؟ فهمت الآن. - أخذت مشطًا لتسرح شعرها، ثم تركته يسقط في الماء. - أتريد أن تعرف السبب حقًا؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

لم يكن يريد معرفة السبب، لكنه سألها ثانية بكل الأحوال: - لماذا؟

- لأنك لا تفهم شيئًا. لأنك غبي.

(لا تصغ إليها. إنها شريرة. مجنونة. اذهب بعيدًا. لا تصغ إليها).

- لكنك قلت إنني مجتهد. ووعدتني...
- أترى أنك غبي؟ ألا تعلم أنّ الوعود تُطلق كي لا تصان؟

كانت تشبه الساحرات بِتَيْنِكَ العينين الرماديتين وذلك الأنف المقوّس وذلك الشعر الوحشي.

- ليس صحيحًا.
- بل إنه صحيح. — قالت وهي ترمي قشر الموز على الأرض.
- إنك تقولين ذلك لشعورك بألم ما، لأنّ أحدًا ما قد هجرك. أنت لا تقصدين إهانتي وأنا متأكد من هذا.

136

كانت فلورا مستلقية على السرير. لم تغضب منه، بل كانت ستسامحه إن عاد. لأنها لن تحتمل البقاء وحيدة. والدة جراتزيانو قالت تلك الأشياء لتشعرها بالألم، لأنها امرأة شريرة. ليس صحيحًا ما تفوهت به. ليس صحيحًا أنّ جراتزيانو تزوج. كان سيعود باكرًا. وهي تعلم ذلك. وستعود إليه. لأنها لا تستطيع فعل شيء دونه، ولا معنى لأي شيء من دونه. الاستيقاظ في الصباح. العمل. العناية بالوالدة. النوم. الحياة. لا معنى لكل هذا. باتت تناديه كل ليلة. بإمكانها أن تفعل ذلك. إنها تستطيع التواصل ذهنيًا مع والدتها التي تعيش في عالم آخر. فكيف به وهو في الجانب الآخر من المحيط. جراتزيانو، عد إليّ يا جراتزيانو.

137

فتحت فلورا فمها لتظهر أسنانها الصفراء. — اخرس! أتعلم لماذا نجحّوا بييريني؟ لأنه من الأفضل أن يزاح عن وجههم بأسرع وقت. لا يريدون أن يروه بعد الآن. لم يكن في وسعهم ترسيبه، لأنه قادر على

هدّ المدرسة فوق رؤوسهم. وحسنًا يفعل. إنهم يهابونه. أتعلم ماذا فعل بي؟ أضرم النيران في سيارتي كهديّة لأنني وشيت باسمه. وأنت تريد أن تعرف لماذا رسّبوك. سأشرح لك. لأنك طفل وغير ناضج. انتظر... ماذا قالت نائبة المدير؟ فتى مصاب بفصام الشخصية، ولديه مشاكل عائلية جدية، ومصاعب بالاندماج مع رفاق المدرسة. بمعنى آخر، لأنك لا ترد. لأنك خجول. لا تندمج. لا تستطيع أن تكون كالآخرين. لأن والدك كحولي عنيف ووالدتك مريضة ومصابة بالاكتئاب وأخوك مغفل رسب ثلاث مرات. ستصبح مثلهم. وأضيف، فلتنس أمر الثانوية والجامعة. كلما سارعت في فهم نفسيتك كان ذلك أفضل. شوكتك ناعمة. لقد رسّبوك لأنك تسمح للآخرين بأن يجبروك على القيام بما لا تريد. -*(وقد أجبرتني جلوريا على المجيء إلى هنا...)*. -لم تكن تريد الدخول إلى المدرسة، كم كررت هذه الجملة في مكتب الإدارة؟ وفي كل مرة ترتكب الخطأ نفسه لأنك ضعيف وبلا شخصية.-تنهدت ثم نظرت إليه بازدراء وأضافت. - أنت تشبهني. لا قيمة لك. لا أستطيع مساعدتك. ولا أريد. فلم يساعدني أحد. أنت لا تردّ على من يضربك أو يحتال عليك...

وحانت تلك اللحظة. تلك اللحظة الملعونة التي تغيّر حياتك، مثلما يحدث لك عندما تنحني لتلتقط السجائر في سيارتك، وحين تعود إلى المقود تجد نفسك ستصطدم بمؤخرة شاحنة لا ترحم. تلك اللحظة الملعونة التي لا تعود إلى الوراء. تلك اللحظة التي قرر فيها بييترو أن يردّ، فدعس الشريط الكهربائي بقدمه وسحبه لتسقط المسجلة في الماء.

138

انقطعت الكهرباء عن الحمّام. فنهضت فلورا وهي تصرخ هلعًا، ربما لظنها أنها انصعقت. وقفت لوهلة على قدم واحدة تتأرجح،

وانتبهت في الوهلة الأخرى أنها تتزحلق، وتزحلقت إلى الخلف في الوهلة الثالثة.

شعرت بضربة قوية على رقبتها رجت دماغها.

إنها الحافة اللعينة. لو خطر في بالها أن تشتري ذلك البساط الرخيص (لكنه قبيح) الذي رأته في سوق أوربانو لما حدث الذي حدث. ومن المحتمل أنه لم يكن لينقذها.

تحسست رقبتها بيدها. لم تكن تستوعب شيئًا. تشعر بشيء لزج يدبّق على شعرها. وشعرت بالتهاب الجرح وعمقه جراء الضربة العنيفة. لم تكن تتألم، وقالت لنفسها إنّ الأشياء القبيحة لا تؤلم في البداية. حاولت أن تنهض ولكن هيهات. لماذا كانت تشعر بالإعياء؟ في الحقيقة، كانت تشعر بأنها تغرق في الماء رويدًا رويدًا.

ربما كانت أمي تجرب شيئًا كهذا. لا أظن. إنني أغرق ببطء وطعم الماء معدني كأنه دم قانٍ.

وصلت المياه إلى فمها.

كلا. لن أموت ببساطة. ممنوع. من سيعتني بك يا أمي، وابنتك اللطيفة تغادر الحياة؟ أماه! أماه! إنني أموت يا أماه!

139

بعد الصرخة الصمّاء، غطّى بييترو عينيه والتقط نفسًا عميقًا. ولم يصرخ بل قفز يبحث عن الباب ومر أمامه دون أن يراه. كان الظلام ظالمًا. وصل إلى المطبخ ووجد بابًا تفوح من خلفه رائحة براز كريهة. دخل فيه وتحرك خطوتين. أعاقه حاجز حديدي. تلمّسه فأدرك أنه جسد هزيل يشهق ويزفر. راح يتخبط كالمصروع متجهًا نحو الباب، فوقع على الهاتف والدرج. مرّ في الصالون ورأى باب الدار أخيرًا. أدار المقبض وطار عبر السلالم.

ظلّ أنفها فوق سطح الماء المُرّ الذي سخُنَ بدمائها. وعيناها مفتوحتين. دارت حولها لولبيات لا تحصى ودوائر عريضة ما فتئت تتمدد، أصوات متشابكة تحتدم في أذنيها. صوت طيارة تنطلق من جامايكا صعد على متنها جراتزيانو ليعود ملبيًا نداءها. *وها أنذا أرى تلة مرتفعة، وأبي وأمي وبييترو، لأنني فلورا بالمييري، ولدت في نابولي، وثمّتَ طفل صغير بشعر أصهب، وجراتزيانو يعزف الفرح، وها هي دببة الكوالا الرمادية تدفعني، ولا أسهل من اللحاق بها خلف تلك التلة.*

تشنجت من تلك الرؤى وابتسمت. وعندما استسلمت في النهاية توقفت الدوامة عن الدوران.

19 يونيو

141

كان بييترو يشاهد النجوم بعينين هائمتين، ويداه متشابكتان خلف رقبته. كان يبحث عن النجمة القطبية، نجمة البحارة الأكثر لمعانًا بين النجوم الأخرى التي كانت تشعّ جميعا بالمقدار ذاته.

سكن قلبه، وكفّت بطنه عن التخبّط، وصفى ذهنه، كان يريد أن يسترخي قرب جلوريا على الشاطئ. كانا هناك منذ أكثر من ست ساعات. وقد أعاد على مسامعها ما حدث أكثر من مائة مرة، وأطبق الإحباط حصاره عليه، وتاه بين الاحتمالات حتى غلبه التعب. كان حينها منهكًا حتى الموت جسدًا وروحًا.

أحبّ أن يقضي حياته كلها مستلقيًا على تلك الرمال الدافئة ومفتونًا بجمال السماء. ولكن النفساني الصغير، الذي يقبع في داخله، استيقظ فجأة وسأله: *ما هو الشعور الذي ينتاب التلميذ بعد أن يقتل معلّمة اللغة الإيطالية؟*

لم يستطع الردّ، لكنه فكّر أنّ الإنسان، بعد أن يقتل إنسانًا آخر، يظلّ حيًا جسدًا وروحًا، ولكن ليس كما كان قبل ارتكابه الذنب. أجل، فتلك اللحظة تصبح فاصلة في حياته كلها، مثل ميلاد السيد المسيح بالنسبة إلى البشرية، وهكذا فإنّ حالته لم تعد بعد مقتل الآنسة كما كانت عليه من قبل. نظر إلى ساعته، كانت الثانية وعشرين دقيقة في التاسع عشر من شهر يونيو، في اليوم الأول ب. م.

لماذا قتلها؟ لم يكن هنالك سبب. وإن كان موجودًا فبييترو لا ينوي أن يبحث عنه في أعماق سريرته المتهاوية، والتي حوّلته إلى غول ومجرم مجنون.

لماذا قتلتها؟ (لأنها أساءت لك ولعائلتك). كلا، ليس لأجل هذا.

لعلّه أراد أن يفرّغ أطنانًا من القهر القابل للانفجار. فضغطت الآنسة على الزر الصحيح وحدث ما حدث.

كالثور الذي يخور بآهاته وسط الحلبة، أمام المصارع اللعين. يغرس في ظهره تلك الرماح التي تسبب جنون ذلك الحيوان. وفي لحظة معينة، يضغط المصارع برمحه أكثر من اللازم، فيجد نفسه يحلّق في الهواء وقرن الثور ينبش أحشاءه، ودماؤه تلطّخ الحلبة. ويسعدك المشهد رغم يقينك بأنّ هذه اللعبة الإسبانية أسوأ رياضة على وجه الأرض.

من الممكن أن يكون هذا هو السبب، لكنه ليس كافيا لتبرير ما اقترفت يداه. *أنا مجرم. مجرم. بييترو موروني مجرم. بييترو موروني مجرم.* لهذه الجملة وقع جميل على كل حال.

كانوا سيكتشفون أمره ويدخل السجن المؤبد لا محالة. وكلّ أمله أن يضعوه في زنزانة فردية. كان سيقرأ الكتب (توجد المكتبات في السجون)، ويشاهد التلفاز (ستهديه جلوريا تلفازها). وسيبقى هناك في الداخل، يأكل وينام. هذا كل ما يحتاج إليه: الطمأنينة الخالدة.

عليّ أن أسلّم نفسي للشرطة، وأعترف. مدّ ذراعه إلى جلوريا. — هل أنت نائمة؟

- كلاّ. —التفتت إليه، فانعكس بريق النجوم في عينيها. —كنت أفكر.

- بم؟

- بحبيب الآنسة. ترى من يكون؟

- لا أعرف. لم تقل لي اسمه.

- كانت تحبه إلى درجة أنها جنّت...

- كانت في حال يرثى لها. مريضة حقًا، وليست مثل ميمو عندما تهجره باتي.

استغرب أنه لم يفكر أبدًا في حياة الآنسة بعد المدرسة. ترى هل كانت تفضّل الأفلام على النزهة؟ أو القطط على الكلاب؟ لعلّها لا تحب الحيوانات، وتخاف من العناكب. لم يكن يتخيل أبدًا كيف تعيش في بيتها. تراءى له ذلك البيت المريع والحمّام المعتم والممر المخيف والغرفة المقرفة. كان يفكر للمرة الأولى أنّ الأساتذة بشر مثله، لهم حياتهم ويعيشون في بيوت، وليسوا مجسمات كرتونية فارغة. لكن فلورا بالميري ماتت، ولم يعد لكل هذا أهمية.

جلس بييترو متربعًا. — اسمعي يا جلوريا. كنت أفكر أن أسلّم نفسي للشرطة. عليّ أن أعترف بكل شيء. الاعتراف بالذنب فضيلة، هكذا يقولون في الأفلام. والمذنب الذي يعترف يحظى على الأقل بمعاملة طيبة.

تنهدت جلوريا دون أن تتحرك. — كفى، بالله عليك! كفّ عن هذا. لقد تكلّمنا في الموضوع لأكثر من ساعتين. لم يرك أحد، ولا يعرف أحد أنك كنت هناك. نحن الاثنان لم نذهب أبدًا إلى هناك، هل فهمت؟ كنا عند البحيرة. بالميري فقدت رشدها. أوقعت المسجلة في الماء تزحلقت فانشق رأسها. انتهت الحكاية. سيظن الجميع أنه حادث. والآن كفى. لقد قلت ذلك أنت أيضًا. هل غيّرت رأيك؟

- أعلم، ولكنني لا أستطيع الكف عن التفكير. لا أستطيع. لا أستطيييع. —أدخل يديه في الرمال.

نهضت جلوريا ووضعت ذراعها حول رقبته. —أتراهن أنني سأجعلك تكفّ عن التفكير بالأمر؟

- وكيف؟ — ابتسم بييترو.

- ما رأيك أن نسبح قليلًا؟ — أمسكت يده.
- نسبح؟! كلا. ليس لديّ رغبة في شيء.
- هيّا. المياه دافئة. — شدت ذراعه، فنهض على قدميه وجرّته حتى البحر.

كان الهلال يضيء الليل كلّه، والنجوم تعوم على سطح المياه. لم يكن ثمّتَ صوت عدا نغمة الأمواج، ورقصة بعض النباتات من خلفهم.

- سوف أرمي بنفسي في الماء، وإن لم تتبعني فأنت ملعون. — نزعت جلوريا كنزتها أمامه. كان نهداها أكثر نصاعة من جسدها البرونزي. ابتسمت كامرأة لعوب ثم استدارت لتنزع بنطالها القصير وسروالها، وصرخت وهي تغطس في الماء.

لقد نزعت ثيابها أمامي.

- إن المياه رائعة! دافئة جدًا! هيا تعال! هل أتوسل إليك؟ —جثمت جلوريا على ركبتيها وأطبقت يديها وقالت بنبرة تثير المشاعر.
—بييترو العزيز، أرجوك، تعال واسبح معي.

هل أنت أحمق؟ هيا، اذهب! ماذا تنتظر؟

نزع بييترو كنزته وبنطاله القصير، ورمى بنفسه في الماء. كان البحر دافئًا فعلًا، ولكن القشعريرة أصابته فتخيّل أنه يطّهر نفسه من ذنوبها. التقط نفسًا عميقًا وغطس في الماء وبدأ يسبح كضفدع على ارتفاع عشرة سنتمترات عن العمق. كان عليه أن يغوص تحت الماء حتى يفقد الأنفاس في ذلك الظلام البارد. فتح عينيه وأحسّ بحاجته للتنفس، لكنه واصل متحديًا نفسه والألم الذي أحاط بجسمه، وابتعد قليلًا عن الشاطئ. رفع رأسه ليرى رأسها الأشقر يلتفت يمينًا وشمالًا. أراد أن يناديها لكنه أرادها أن تبحث عنه.كانت تقفز مرتبكة. —بييترو؟ أين أنت؟ لا تفعلها أيها الأحمق، أرجوك. أين أنت؟

عادت إلى ذهنه تلك الأغنية التي كانت الآنسة تسمعها عندما دخل

إلى حمّامها. *أنت جميلة! أنت جميلة! جلوريا أنت جميلة*. كم تمنى أن تدفعه الشجاعة ليقول لها ما أحسّ به. لكن هذه الأشياء لا تقال. فغطس ثانية وسبح باتجاهها. –بييترو! أنت تخيفني! أين أنت؟ – كانت قلقة حقًا. صار خلف ظهرها. أمسك بخصرها، فقفزت من الذعر والتفتت إليه. –أيها الحقير! عليك اللعنة! كنت سأموت خوفًا عليك! ظننت أنّك...

- أنّني ماذا؟

- لا شيء. ظننت أنّك أحمق. –أخذت ترش عليه الماء، ثم صعدت على كتفيه، واستمتعا بتبادل اللكمات اللطيفة. صدرها على ظهره، مؤخرتها، فخذاها. دفعته إلى الأسفل وحطت قدميها على بطنه.

- اطلب الرحمة أيها الملعون!

- الرحمة! – ضحك بيترو. – كنت أمزح.

- مزحة ثقيلة! فلنخرج. إنني أتجمد.

ركضا على الشاطئ وارتميا، واحدًا بجانب الآخر، على الرمال الدافئة. دنت جلوريا بفمها إلى أذنه وهمست. – قل لي شيئًا؟

- ماذا؟

- هل أنت تودني؟

- ...أجل. – أجابها وقلبه ينبض كالطبل في صدره.

- كم؟

- كثيرًا.

- لا. أقصد أنك... – ارتبكت أنفاسها. – هل أنت تحبني؟

- أجل. – أجاب بعد صمت طويل.

- حقًا؟ – سألته بعد صمت أطول.

- أعتقد ذلك.

- مثل بالميري؟ أي هل تقتل نفسك لأجلي؟
- طبعًا، إن كنت في خطر...
- إذن فلنفعل...
- نفعل ماذا؟
- الحب. فلنمارس الحب.
- متى؟
- بعد غد. كم أنت أحمق! الآن. في هذه الساعة. أنا لم أمارسه من قبل، وأنت... وأنت أيضًا... – تنهّدت. – لا تقل لي إنّك مارست الحب مع ماريزا الشمطاء.
- مع ماريزا؟ هل جننت؟ – اعترض بييترو.
- أجل جننت، وأريد أن أمارس الحب الآن. هل الأمر صعب؟
- لا أعلم. ولكن كيف...؟
- ماذا تقصد بكيف؟
- كيف نبدأ؟

رفعت جلوريا عينيها إلى اللّيل ثم قالت بحيرة. –حسنًا، بوسعك أن تقبّلني مثلًا. إنني عارية كما ترى.

كانت الممارسة مأساوية ومن الأفضل ألاّ نغوص في تفاصيلها. كانت عملية سريعة ومعقدة وغير مكتملة، أصابتهما بداء التساؤل والقلق والهيام. تعانقا من دون كلام لمدة طويلة.

لكنها قطعت الصمت. –عليك أن تعدني بشيء يا بييترو. فلتقسمْ بحبّنا أنّك لن تروي شيئًا ممّا حدث لأحد، كائنًا من كان. – ظلّ بييترو ساكتًا.

- أقسِمْ!
- أقسم لكِ بذلك.
- وسوف أقسم بذلك أنا أيضًا. لن أقول ما حدث لأحد ولو بعد

عشرة أعوام.

- وأنت عليك أن تقسمي بشيء، أن تبقى صداقتنا وأن لا يتخلى واحدنا عن الآخر أبدًا، حتى لو بقيت في الصف الثاني وأنت في الثالث.

- أقسم لك.

142

كان زاغور يعوي بهمجية، كأن أحدهم قفز من البوابة ودخل إلى فناء الدار. نهض بييترو من السرير وانتعل خفّه. حرك ستار النافذة ونظر في الظلام. ما من أحد، سوى ذلك الكلب الأحمق الذي يلهث ويعوي بلا سبب.

كان ميمو نائمًا. خرج بييترو من الغرفة وفتح باب غرفة والديه. كانا نائمين ورأساهما ناتئَين من تحت الأغطية.

كيف لا يستيقظون بكل هذا الصخب؟ كان يفكّر بينما توقف زاغور عن العواء. وحلّ الصمت. ورفرفت الرياح في الغابة حتى قرقعت دعامات السقف مع دقات المنبه وأنين الثلاجة في المطبخ.

حبس بييترو أنفاسه وبقي ينتظر شيئًا ما. ثم سمع أصوات خطىً خلف باب البيت. أحدهم يصعد الدرج. أحدهم يطرق الباب. تسمّر الصغير وغرق في عرقه. هل مازالت حيّة؟

ترك الدرّاجة خلف سور الغار واقترب من البناية بحذر. لا يبدو أنّ شيئًا قد تغيّر منذ اليوم السابق. كان الشارع خاويًا والوقت ما يزال مبكّرًا وأطرافُ السماء مصبوغةً بالسماوي الفاتح والهواءُ منعشًا.

نظر إلى الأعلى فوجد نافذة الحمّام مفتوحة، ومدخل البناية مغلقًا. كل شيء على حاله. ولكن كيف سيدخل الآن؟ هل بوسعه أن يخلع

باب المدخل؟ كلا، كانوا سيلحظون ذلك. هل يتسلق ثانية؟ كلا، كلا.

فكرة: تتسلق إلى حيث تستطيع، ثم تقع، تؤذي نفسك (تكسر ساقك)، ثم تذهب إلى الشرطة وتقول إنّ الآنسة اتصلت بك لأنها لم تكن على ما يرام فقرعت الجرس لكنها لم تجب فحاولت التسلق على الحافة ووقعت. وتقول لهم بأن يفتشوا إن أرادوا.

ليست فكرة جيدة. أولاً، لأن الآنسة لم تتصل بك وإن استجوبوا والديك يكتشفون أمرك؛ وثانيًا، لأنها إذا كانت على قيد الحياة فسوف تشتكي بك وترميك في السجن.

لابد من إيجاد طريقة أخرى للدخول. دار حول البناية ليبحث عن منور أو أي ثقب يدخل منه. وجد سلمًا معدنيًا خلف أنابيب التسخين مغطىً بأوراق الشجر وشِباك العنكوب. فأخرجه.

كان يقوم بأمر خطِير جدًا. فلو رأى أحدُهم سلّمًا على نافذة... لكن الصخرة القابعة على ضميره أثقلت عليه الهواجس. لابدّ أن يصعد ليكتشف إن كانت حية أم لا. *وإن كانت حية سوف أعتذر منها وأتصل بالإسعاف.*

حمل السلّم ووضعه على الحائط بصعوبة. ثم صعد بسرعة. وأخذ نفسًا عميقًا ليدخل إلى بيت الآنسة بالميري من جديد.

143

كانت طائرة الجومبو بريتش ايرويز، التي انطلقت من كينغستون (في جامايكا) وحوّلت في لندن، تهبط كديك رومي عملاق في مطار ليوناردو دافنشي في روما. خففت سرعتها ثم توقفت وأطفأت محركاتها.

فتح مساعدو الطيار الباب ونزل المسافرون على السلم. وكان صاحبنا، جراتزيانو بيليا، من أوائل الخارجين، بقميص الصحاري وبنطال برمودا الأزرق والحذاء الجبلي وقبعة مكسيكية وحقيبة كبيرة

على ظهره. أمسك بيده الجوال وابتسم عندما ظهرت إشارات التغطية بعد افتتاحية النوكيا.

هذا يعني أنك في وطنك.

اتصل برقم فلورا على الحال. *مشغول*. حاول خمس مرات بينما كان في الحافلة، ولكن بلا نتيجة. *لا يهم، سوف تكون مفاجأة سارة.*

عجّل في التفاصيل الجمركية، وأخذ حقيبته من البساط الدائري ومنحوتة خشبية ضخمة لراقصة زنجية. لعن الآلهة غاضبًا، إذ أضاعت الراقصة رأسها، رغم الحفظ، أثناء الطيران. كانت هدية لفلورا وقد كلّفته ثمنًا غاليًا. أراد أن يشتكي، لكنه كان مستعجلًا.

خرج من بهو المطار نحو مكتب تأجير السيارات، لأنه كان ينوي الوصول إلى إيسكيانو سكالو في أقرب وقت ممكن، ولن يفكّر في انتظار القطار. استأجر سيارة فورد بنفسجية اللون دون مسجّلة. إنها السيارة الخرائية المعتادة. لكنه، ولأول مرة في حياته، لم يجادل وينتقي أخرى على مذاقه. كان عليه أن يسرع إلى إيسكيانو ليقوم بأهم شيء في حياته.

144

كانت ميتة، بل في غاية الموت. صارت عبارة عن جثة هامدة داخل الحوض. لم تعد تلك الآنسة بالميري، إنما غدت شيئا لزجًا ومنفوخا له فم أزرق وشعر كأشنيات البحر الطويلة وعينان جاحظتان. كانت المياه داكنة، وفي العمق ثمّة ما يشبه البساط القرمزي اللامع. وطرف المسجلة السوداء ينتأ من سطح الحوض كسفينة التايتانك.

كان كل ذلك من صنع يديه، بل بسبب حركة بسيطة من قدمه. تراجع إلى أن ارتطم ظهره بالجدار. كان قد قتلها حقًا. لم يكن يصدّق حتى اللحظة. كيف استطاع أن يقتل كائنًا بشريًا؟ لكنه فعلها وماتت، ولم يعد باليد حيلة.

أجل. أنا من فعل ذلك. ارتمى على المرحاض وتقيأ. ثم ظل هناك يتنفس. *عليّ أن أمضي حالًا. بعيدًا. بعيدًا. بعيدًا.*

وخرج من الحمّام ليدخل في ظلام البيت. أعاد الهاتف على الدرج في الممر. وأراد أن يدخل إلى المطبخ كي يطمئن، حتى استوقفته رائحة البراز الثاقبة. *ماذا يفعل ذلك الكائن في الغرفة؟* امتزج الفضول بالضرورة ليفتح ذلك الباب. ثم دخل تلك الغرفة المظلمة.

فاحت الرائحة المقزّزة. مرر يده على الجدار ليبحث عن القاطع. اشتعل النيون وانطفأ ثم اشتعل كليًا وأنار الغرفة. ثمّتَ سرير حديدي وعليه كائن ميت، من الصعب تحديد جنسه. كأنه مومياء.

أراد بييترو أن يخرج لكنه لم يستطع أن يزيح عينيه عنها. ترى ما الذي جرى لها؟ لم تكن عجوزًا وحسب بل كانت مشوهة بشكل مريع. ما الذي فعل بها هكذا؟

ثم تذكر أنه ترك السلّم في الخارج. أطفأ النور، وأغلق الباب، ونزل الدرج.

ساحل إدوارد بيتش الصخري

- تعال وانظر من جاء لزيارتك. - قالت جينا بيليا بابتسامة تتسع حتى أذنيها.

- من هناك؟ - سألها جراتزيانو، ودخل إلى الصالة.

إريكا. كانت جالسة إلى الديوان، وتحتسي القهوة.

- هذه هي إريكا الشهيرة إذن. - قالت جينا. وهزّ جراتزيانو رأسه ببطء. -ما بك؟ ألا تقبّلها؟ ألست باللبق المحترم؟...

- ألا تقبّلني يا جراتزي؟ - سألته إريكا وهي تفتح ذراعيها وتنير الصالة بابتسامتها البهيجة.

لو كان أحد علماء الجنس مُختبئًا في مكان ما من تلك الصالة، لفسّر لنا كيف وضعت إريكا تريتيل استراتيجياتها الناجحة كي تستعيد قلب شريكها الجريح أو لتثبت أنها أكثر الإناث إثارة على هذا الكوكب.

كانت ترتدي تنورة خضراء وضيقة جدًا وقصيرة حتى تكوّرت مؤخرتها كحبة الفلافل. وذلك المعطف الصوفي الصغير من لون التنورة، له زرّ واحد يشدّ خصرها النحيل. وذلك القميص الحريري الأخضر أيضًا، ولكن بدرجة منخفضة، كان مفتوحًا حتى الزر الثالث لتظهر من تحته الكنزة السوداء الضيقة على نهديها المدببين. والغاية نبيلة طبعًا: نشر الفرح عند الذكور، والحسد عند الإناث. أمّا الرهفال الأسود فكان يلتحم بساقيها الطويلتين. والحذاء الأسود على كعب بارتفاع اثني عشر سنتمترًا.

هذا ما يتعلق باللباس. أما المظهر: الشعر القصير بصبغة شقراء تميل إلى البلاتيني، بتسريحة متموجة ناعمة تنهمر على كتفيها بعفوية قلّ نظيرها في إعلانات الشامبو.

وبالنسبة إلى الماكياج، فالشفتان (المنفوختان قليلًا) مغطستان بأحمر غامق لمّاع. والحاجبان كقوسين يتوجان عينيها الخضراوتين والمكحلتين بخفة فتانة.

الانطباع الأوّلي يوحي بأنها شابة خبيرة، واثقة من هرموناتها الأنثوية، ومندمجة في المجتمع، ومستعدة لأكل العالم كلّه في لقمة واحدة. باختصار، كانت تصلح لغلاف على مجلة البلاي بوي.

لنا أن نسأل ما الذي كانت إريكا تفعله في إيسكيانو. وفي بيت ذلك الرجل الذي قالت له ذات مرة: «إنني أحتقرك وأحتقر كلّ مبادئك: أسلوب حياتك وثيابك والترّهات التي تتفوه بها بنبرة متعجرفة تسبّب الإسهال. أضعتَ عمرك سدًى دون أن تفهم شيئًا أيها المخبول. لستَ إلاّ

قردًا كهلًا يبيع المخدرات. اخرج من حياتي. وإن حاولت الاتصال بي مجددًا، أقسم بالله إنّني سأدفع المال لأحدهم كي يفلق رأسك كالبطيخة».

وسنحاول أن نشرح السبب الآن.

التلفزيون اللعين يتحمّل المسؤولية الكاملة عمّا حدث.

أحدث البرنامج الشهير، بعد أن ظهرت فيه إريكا، جدلًا واسعًا في المحطة الرسميّة راي أونو. وفشل فشلًا مدمرًا، إذ تدّعي الألسنة الشريرة في أروقة القناة أنّ نسبة المتصلين انخفضت إلى درجة غير مسبوقة. (اتصال واحد بعد نصف ساعة من بداية البرنامج. أي أنّ لا أحد في إيطاليا كلها كان يتابع قناة الراي أونو لمدة نصف ساعة! مستحيل!). وبعد ثلاث حلقات تمّ الاستغناء عن البرنامج والمخرجين ومساعديهم والمصورين والممثلين. استطاع المسؤول عن برامج الترفيه استغلال معارفه ليقاوم قليلًا، لكنّ التيار أخذه وحمله بعيدًا هو أيضًا.

أمّا مانتوفاني المقدّم الشهير، فقد انتهى به المطاف للعمل في الدعايات المتلفزة عن الفطر المستورد من البحر الميت في قناة لا يتابعها أحد. وأقيم جدار فصل عنصري ضد كل طاقم ذلك البرنامج المشؤوم: المهرجين والموسيقيين والراقصات والعارضات، بما فيهن إريكا تريتيل. وبعد أن فصلوها من محطة الراي، ظلت إريكا لشهرين في بيت مانتوفاني على أمل أن يتصلوا بها لعروض أخرى، ولكن هيهات.

وفي هذه الأثناء كانت سفينة الحب تغرق. مانتوفاني يعود إلى البيت مساء ويظل في السروال والخفين، يزدرد الكحول غاضبًا وهو يكرر: «لماذا؟ لماذا أنا بالذات؟». ثم وجدته إريكا ذات مساء في الحمّام، جالسًا إلى المرحاض، يحاول الانتحار بوضع علبة الفطر كلها في حلقه. فأدركت أنها راهنت على الحصان الخاسر مرة أخرى.

ارتدت ثيابها المثيرة، وتزيّنت مثل باميلا أندرسون، ووضّبت حقائبها، وذهبت إلى المحطة تجرّ أذيال الخيبة والهزيمة والندم.

واستقلت أول قطار يحملها إلى إيسكيانو.

وها قد شرحنا لماذا كانت هناك.

بعد يومين، استعادت إريكا الغرام مع جراتزيانو وانطلقا إلى جامايكا. تزوجا على الحال، في ليلة قمراء، على ساحل إدوارد بيتش ذي الصخور البيضاء الساحرة. وباشرا حياتهما على مزاج ابن بيليا، القطرس الذي يحمله التيار الإيجابي. يقضيان الوقت على الساحل صباح مساء، بين صواريخ الحشيش والسباحة وصيد الأسماك. وللحصول على النقود، بات جراتزيانو يعزف الجيتار، مرتين في الأسبوع، في محلّ للسياح الأمريكيين، وترقص إريكا بقربه وهي ترتدي البكيني لتنشر السعادة.

ورغم هذا لم يكن البغل سعيدًا. أليست هي الحياة التي حلم بها دومًا؟ ألم تعد إريكا إلى أحضانه، لتعترف بحبها وتطلب الغفران عن أخطائها، وتصرّح بتوبتها عن التلفزيون، واستعدادها للزواج، بل وحتى انصياعها الكامل للعيش في إيسكيانو وافتتاح محل الجينز؟ ما الذي كان يريد فوق كل ذلك؟

المشكلة أن جراتزيانو لم يعد ينام. يقضي الليالي في السهاد وهو يدخّن، بينما تنام إريكا قريرة العين.

وكان يتساءل: لماذا شعر أنه لم يحقق حلمه بالزواج من إريكا فتاة أحلامه؟

كانت ذاته تتألم في أعماقها. شعور يقضي على صاحبه ببطء، يذيقه كؤوس الأسى رشفةً رشفة. ولا يستطيع المرء النقاش فيه، فلو قلت كلمة واحدة تهاوت حياتك كلها.

لقد هجر فلورا دون أن يقول لها شيئًا كلصّ قذر. تلاعب بقلبها وهرب مع أخرى. تركها دون وداع. وكلما تذكر تصريحاته جلده عذاب

الضمير... *طلبتُ منها الزواج بي. تشجّعتُ وطلبتُ يدها للزواج. إنّني كائن حقير، إنّني وغد.*

جرّب ذات ليلة أن يكتب لها رسالة. ثم شقّ الورقة بعد أول جملتين. ما الذي كان سيكتبه؟ عزيزتي *فلورا، أنا آسف جدًا. لقد خلقني الله غجريًا كما تعلمين. أنا...*

(أنا وغد وكفى. ما إن وصلت إريكا حتى.. فلننس الأمر...).

وعندما كان يتسنى له النوم، كان يحلم دومًا بالمنام نفسه. يحلم أن فلورا تناديه. *جراتزيانو عد إليّ يا جراتزيانو.* وهو على بعد مترين منها، يصرخ أنه بقربها، لكنها لا تراه ولا تسمعه. وكلما أمسك بها تحولت إلى دمية جامدة.

راح يقضي وقته في الجلوس إلى الشاطئ، يقلّب بين الذكريات. وجبات العشاء والأفلام. نهاية الأسبوع في سيينا حيث ظلا يمارسان الحب ليوم كامل. مشروع محل الملابس. التنزه على شاطئ كاسترونى. مازال يتذكر عندما أعطاها الخاتم وكيف احمرت خجلًا. كان مشتاقًا لها حتى الموت. *يا لي من بهيم. لقد خدعت نفسي وخسرت المرأة الوحيدة التي لم أعشق مثلها في حياتي.*

ذات مرة، وصلت إريكا إلى الشاطئ في غاية السعادة. – لقد تعرفت للتوّ إلى منتج أمريكي. سيأخذني معه إلى لوس انجلس لتصوير فيلم. قال إنني الشخص الذي يحتاج إليه. سيدفع لنا البطاقات، ويعطينا بيتًا في ماليبو. نجحنا. هذه المرة نجحنا حقًا.

في الواقع، كانت إريكا امرأة قوية. لقد حافظت، لمدة شهرين اثنين، على القرار بعدم العودة إلى عالم العرض نهائيًا.

– حقًا؟ – قال جراتزيانو وهو يرفع رأسه عن السرير الصغير.

– أجل. سأقدّمه لك هذا المساء. حدثته عنك أيضًا. يقول إنه لديه

الكثير من المعارف في عالم الموسيقى. إنه رجل واصل.

أغمض جراتزيانو عينيه ورأى المستقبل القريب: لوس انجلس، في واحدة من تلك الشقق الخرائية ذات الجدران الكرتونية على جانب الطريق الدولي؛ بلا نقود، بلا إذن عمل، يقضي الوقت وهو يشاهد التلفاز فارغ اليدين. نفس الحياة الكئيبة في روما، وربما أسوأ.

ها قد حانت الفرصة لطيّ صفحة الآلام!

- لا شكرًا. اذهبي لوحدك. أنا سأعود إلى بيتي. إنها لحظتك السحرية، وأنا متأكد من ذلك. — قال وهو يشعر بالسعادة بعد فقدان الأمل. كم *أنت عظيم أيها المنتج الأمريكي، أنت قديس، حماك الله وسدّد خطاك!*— لا تقلقي بشأن الزواج، ليس له أية قيمة إن لم نعترف به في إيطاليا. بإمكانك أن تعتبري نفسك حرة... يو آر فري، كما يقول الأمريكان.

- جراتزيانو. هل أنت غاضب؟ — سألته إريكا مذهولة.

- بل على العكس. أقسم برأس أمّي إنني سعيد جدًا. — قال وهو يضع يدًا على قلبه. — عليك أن تذهبي إلى لوس انجلوس، وإلا ستندمين إلى الأبد. أتمنى لك حظًا موفقًا. وأنا سوف أغادر.— قبّلها وهرع إلى أقرب وكالة سفر.

وعندما كان في الجو على ارتفاع عشرة آلاف متر عن المحيط الأطلسي، غفا وحلم بفلورا مجددًا. كان يرافقها فوق تلة مع أشخاص آخرين ودببة فضية، يتبادلان القبلات وثمّتَ طفل صغير بشعر أصهب يحبو على الأرض.

145

دخل بييترو مقطوع الأنفاس إلى غرفة جلوريا.

- أهلًا! — قالت جلوريا. وكانت واقفة على الطاولة وتحاول أن

تأخذ كتابًا من الرف الأعلى في المكتبة – ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟

انتبه بييترو إلى الحقيبة الكبيرة المرميّة على السرير والمليئة بالثياب. – إلى أين تذهبين؟

التفتت وبقيت حائرة لوهلة كأنها لم تفهم السؤال، ثم شرحت. –في هذا الصباح فاجأني والداي بهديّة نجاحي... سأنطلق إلى إنكلترا صباح الغد. سألتحق بدورة لركوب الخيل في بلدة قريبة من ليفربول. ثلاثة أسابيع فقط، لحسن الحظ.

- آه... – ارتمى على الأريكة.

- أعود في نصف أغسطس كي نكمل بقية العطلة معًا. ثلاثة أسابيع فقط.

- حسنًا. – قال بييترو مستاءً.

أمسكت جلوريا بالكتاب وقفزت من الطاولة إلى الأسفل. –لم أكن أرغب بالذهاب حتى أنني تشاجرت مع والدي. لكنه أرغمني على الانطلاق لأنه دفع كل شيء. سأعود بسرعة، اطمئن.

- أجل. – أخذ بييترو لعبة اليويو من على الطاولة.

- سوف تنتظرني. أليس كذلك؟ – جلست إلى مسند الأريكة.

- طبعًا. – بييترو يلعب باليويو.

- لا يؤسفك سفري. صح؟

- لا.

- حقًا؟

- لا تقلقي. ستعودين باكرًا، وأنا سأقوم بأشياء كثيرة في «المكان»... الأسماك والشباك كما تعلمين. بل سأذهب الآن، لأنني نسيت أن أطعمهم في الأمس.

- أتريدني أن أرافقك؟ بوسعي توظيب الحقيبة عصر اليوم...

ابتسم بييترو. – لا. أفضّل أن لا تأتي. البارحة قمنا بأشياء فظيعة وقد تنتبه إلينا الشرطة. من الأفضل أن أذهب وحدي. استمتعي في إنكلترا ولا تركبي الحصان كثيرًا كي لا تتقوّس ساقاك.

- ثق بذلك. ولكن... ألا نلتقي عصر اليوم أيضًا؟ – قالت بنبرة حزينة.

- عصر اليوم لا أستطيع. عليّ أن أساعد والدي في ترميم كوخ زاغور.

- آه، فهمت. هذا آخر لقاء لنا إذن؟

- ستمر الأسابيع الثلاثة كطرفة العين. هذا ما قلته أنت أيضًا.

هزت برأسها مؤكدة. – حسنًا، إلى اللقاء إذن.

- رافقتك السلامة. – قال وهو ينهض.

- أما من قبلة وداع؟

وضع شفتيه على شفتيها. كانت القبلة جافة.

146

عبر جراتزيانو شارع إيسكيانو العام ودخل في الطريق التي تفضي إلى بناية فلورا. كان يتعرق كالشلال. *الحرارة والعواطف... آه...*

سيتوسّل إليها جاثيًا على ركبتيه. وإذا امتنعت عن رؤيته، سيجلس تحت بيتها ليل نهار، دون أكل ولا شرب حتى تعفو عنه. لعلّه كان بحاجة للذهاب حتى جامايكا كي يعي أنّ فلورا فتاة أيامه وأحلامه، ولن يتنازل عنها أبدًا مهما كان السبب.

وعلى بعد مائتي متر عن بنايتها رأى أضواء زرقاء تومض في فناء البناية. *وما الذي حدث الآن؟ هنالك سيارة إسعاف. يا إلهي، أم فلورا... عسى ألا يكون الأمر خطيرًا. أنا موجود بكل الأحوال. فلورا ليست لوحدها. سأقف بجانبها. وإن توفيت العجوز فهذا أفضل في*

الواقع. هكذا تزيح فلورا عن ظهرها هذا الهمّ الثقيل، وتجد أمها السلام المنشود. ولكن ثمّتَ سيارة شرطة أيضًا.

ركن جراتزيانو سيارته على جانب الطريق واتجه إلى البناية. كانت سيارة الإسعاف جانب المدخل، وأبوابها الخلفية مفتوحة. وسيارة الشرطة، على بعد عشرة أمتار. لكنّ سيارة فلورا ليست هناك.

ما الذي جرى؟!

خرج برونو ميلي، مرتديًا لباس الشرطة، من البناية. التفت وترك الباب مفتوحًا. ظهر ممرضان يحملان النقالة. وعلى النقالة ثمّتَ جسد. مغطىً بكفن أبيض.

ماتت العجوز...

لكنه رأى تفصيلًا بسيطًا جفف دماءه في قلبه: غرة. غرة صهباء. غرة صهباء تظهر من تحت الكفن، وتتأرجح من النقالة كنجمة المآتم.

شعر بالغثيان وعدم القدرة على الوقوف، كأن في الأرض مغناطيس يسلب منه الحيوية والنشاط ليتركه هيكلًا عظميًا. كان يتقدم نحو برونو كأنه يطير. —ما الذي حدث؟

كان برونو مشغولًا بوضع الجثة في سيارة الإسعاف. التفت بفتور، ولكنه عندما رأى صديقه يظهر من العدم، انصعق لوهلة وهتف. —جراتزيانو! ماذا تفعل هنا؟ ألم تكن تقيم الحفلات مع باكو دي لوثيا؟

- ما الذي حدث؟

حرّك برونو رأسه وقال بنبرة من عايش ويلات كلّ الحروب. -توفيت الآنسة بالميري. عثرنا عليها في حوض الحمام... لا نعلم بعد إن كان حادثًا أم لا. رجّح الطبيب الشرعي أن يكون انتحارًا. لكنني أعلم أنّ الجميع يصفونها بالمجنونة وغريبة الأطوار. وللمفارقة، توفيت أمها في الليلة نفسها أيضًا. إنها مصيبة... اسمع يا جراتزيانو، نظّمت حفلة صغيرة في بيتي عصر هذا اليوم بمناسبة الترفيع...

التفّ جراتزيانو حول نفسه واتجه ببطء نحو السيارة. وبقي برونو ميلي مشتتًا، ثم سأل المرضين. – ماذا تفعلان؟ لن يتسع هذا الحيّز الضيق لجثتين.

تبدد التيار الإيجابي على حين غرة، وانقبض جناحا القطرس من الألم. كان يسقط في بحر مظلم وثمّتَ لجة عميقة سوداء، لا قرار لها، تستعدّ لابتلاعه.

147

أما فيديريكو بييريني، فكان في أحسن حال. ضايقه الأساتذة خلال العام الدراسي، لكنهم نجّحوه في النهاية. وهذا ما أسعد أباه، وإن كان الأمر عنده سيّان.

لن يراني أحد في العام المقبل. فهذا فياما لم ينه تعليمه في المدرسة وقال إنّه في مأمن من هؤلاء المتعلمين.

آخر أخبار فيديريكو أنّه أقام صداقة متينة في أوربانو مع ماورو كولاباتزي، الملقّب بجاناشا. وهو زعيم عصابة في السادسة عشرة من العمر، ويظلّ مع أصحابه ليل نهار أمام بار اللبن (محل متخصّص في مثلّجات اللبن).

كان لجاناشا خبرة طويلة في السرقة. علّم فيديريكو طريقتين في غاية البساطة كي يصبح ثريًا: تحطّم الزجاج، ثم تعلق شارتين ملونتين وهاهي السيارة ملكك.

كان سيعطيه ثلاثمائة ألف ليرة مقابل كلّ سيارة يحملها إليه. وإذا انضم إليه فياما ازدادت الأرباح. وفي النهاية كانت الصحبة أهمّ من أي شيء آخر. ثم إنّ إيسكيانو سكالو، من وجهة نظر معينة، تعدّ كموقف كبير للسيارات. وإذا كانت الشرطة فيها من المغفلين فهذا يولّد شعورًا بالأمان.

في تلك الليلة مثلًا، كان ينوي أن يسرق سيارة الفولف لصاحبها برونو ميلي. كان واثقًا أنّ الغبي لم يكن يقفل أبوابها، لاقتناعه بأن لا أحد يجرُؤ على سرقة سيارة شرطي. وكم كان مُخطئًا!

وفي الغد سيذهب إلى جنوا برفقة جاناشا، حيث يقال إنها مدينة المتعة. كانت أموره جيدة، سوى حزنه الوحيد على وفاة الآنسة بالمييري. غرقت في حوض الحمام. كانت نجمة مشهورة في خيالات عادته السرية، وهاهي تأفل باكرًا. فالاستمناء على الأموات ليس بالأمر الجميل، وقد قال له أحدهم إنه يجلب التعاسة.

بات يكنّ لها المودة بعد أن أحرق سيارتها، وخمد غضبه. ثم وجدها مع الأبله بيليا، ذلك الذي ضربه حين كان على وشك أن يقتل بييترو. هذا مثال حيّ عن السخافات التي تثير جنونه: كيف لبغل مثل بيليا أن ينكح ذات الصدر الكبير؟ الآنسة تستحق رجلًا أفضل من ذاك الوغد البائس الذي يظنّ نفسه بروس لي. ربما كان قضيبه ضخمًا، هذا هو التفسير الوحيد لهذه الظاهرة.

لكنّها توفيت. فلتذهب إلى جهنم، ما شأني أنا!

أمسك القرص الطائر ورماه إلى ستيفانو الذي كان في الجانب الآخر. لكنه كان ثقيلًا ومسرعًا كالصاروخ ففلت من بين يديه وسقط قرب النافورة.

- متى ستتعلم هذه اللعبة أيها الأحمق؟ - صرخ أندريا.

كانوا يلعبون منذ نصف ساعة، لكن الحرّ بدأ يرتفع والساحة ستفرغ من البشر بعد قليل. لم تعد لديه رغبة في اللعب مع هذين الغبيين. كان سيبحث عن فياما ويذهب إلى أوربانو ليقابل أصحابه في بار اللبن.

وفي تلك اللحظة، يظهر بييترو moروني على الدرّاجة. ولم يرغب فيديريكو بالاعتداء عليه. لقد سئم هذا النوع من التسلية منذ أن صاحب جاناشا. وضجر من القيام بدور الديك الصيّاح على المزبلة

بعد أن رأى أشياء مهمّة على بعد عدّة أميال. أمّا مهاترة مسكين مثل موروني فهذه حماقة صبيانية.

لقد رسب المسكين بمفرده وراح يبكي عند لوحة النتائج. لو كان الأمر بيد فيديريكو، لأهداه نجاحه الذي لا يغيّر فيه شيئًا. وحتى لو كان عشيق تلك القحبة جلوريا، فإنّ فيديريكو كان مُغرمًا بفتاة عرفها في بار اللبن، تدعى لوريدانا وتُلقّب لوري.

سأدعه بسلام.

لكن ستيفانو رونكا لم يشاطر زعيمه وجهة النظر. وبصق على بييترو ما إن مرّ بقربه. —ها يا رأس القضيب. لقد رسبت ونحن نجحنا.

148

صفعت البصقة خده. توقف بييترو، ووضع قدميه على الأرض لينظف وجهه. *لقد بصق في وجهي!* شعر بأمعائه تغلي والغضب الأعمى ينفجر في صدره. لقد حدث معه الكثير من الأشياء في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، ولم يكن ليحتمل أن يبصق عليه أحد.

- ستعيد السنة كلها أيّها المنيوك! —استمرت تلك البعوضة الكريهة بالشتم.

وثب بييترو عن الدرّاجة، وخطى ثلاثًا ثمّ صفعه على وجهه بكلّ عزم. فانثنى رأس ستيفانو إلى اليسار ببطء، وعاد إلى مكانه. حينها جحظت عينا ذلك الضبع، ومرّر راحة يده على الخد المصفوع. وغمغم في غمرة الضياع الأكبر. — من؟ من؟ — كانت الصفعة سريعة حتى أنه لم يعرف من الذي وجهّها إليه. رأى بييترو الآخرين يقتربان لإسعاف صديقهما. ولم يعد يهمّه شيء بعدئذ. —اقتربوا أيها الأوغاد! — زأر وهو يرفع قبضتيه.

أراد أندريا أن يردّ، لكن فيديريكو أمسك بذراعه. —انتظر قليلًا

حتى نرى إذا كان ستيفانو بوسعه أن يدافع عن نفسه. –لقد تلقّيتَ الصفعة من بييترو. هيا حطّم وجهه. ماذا تنتظر؟ أراهن أنك غير قادر، وأن بييترو سينسف رأسك.

كانت هذه أول صفعة يتلقاها ستيفانو من بييترو. نظر إلى صديقيْه وأدرك أن لا أحد منهما سيساعده. كان وحيدًا.

فراح ينتفخ حتى تضرّج وجهه في محاولة يائسة لدبّ الرعب في قلب عدوه، كما تفعل سحالي الصحراء. وغالبًا ما تنجح هذه الطريقة لكن ستيفانو لم يتفنن فيها. فما كان منه إلا أن كشر عن أنيابه، وصاح كالمعتوهين وتقدّم نحو بييترو. –سأقتلك! سأوجعك كثيرًا! سأفتح دبرك!

تدحرجا على الأرض وسط الساحة. وبدت الغلبة لبييترو بعد أن أمسك بمعصمي ستيفانو ووقف على بطنه ثم ركل وجهه وعنقه وظهره، وهو يتمتم بأقوال غريبة. والله أعلم ما كان سوف يحلّ بذلك الصعلوك لو لم يتدخل فيديريكو ويحجز بينهما. – كفى! كفى! لقد قضيت عليه. – وما زال بييترو يضرب ويرفس في الهواء. – قلت كفى. لقد انتصرت.

نفح بييترو الغبار عن ثيابه وهو يزفر بصعوبة وكانت أذناه تطنّان وصدره يؤلمه. ونهض ستيفانو باكيًا وأنفه ينزف دمًا. وذهب يعرج إلى النافورة، بينما يصفّق أندريا ويضحك.

رفع بييترو الدرّاجة عن الأرض.

- ليس عدلًا. –قال فيديريكو وهو يشعل سيجارة بينما يركب بييترو على السرج.
- ماذا؟
- أن يرسّبوك.
- لا يهمّني.
- حسنًا تفعل.
- عليّ أن أذهب. وداعًا. – أسند قدمه إلى الدوّاسة.

- أتعلم أنّ الآنسة باالميري توفيت؟
- أجل. لقد قتلتها أنا.
- لا تتفوّه بالهراء. —نفخ فيديريكو الدخان. —لقد توفيت في حوض الحمّام.
- ما هذا الهراء؟ — كرر أندريا.
- لا أقول هراء. — قال بييترو بجدية. — لقد قتلتها أنا.
- ولماذا قتلتها؟ — ابتسم فيديريكو.
- لأنها رسّبتني.
- وكيف تثبت أنك قتلتها.
- يوجد ثعبان صغير داخل البيت. —اندفع بييترو بالدراجة. — لقد وضعته أنا. —بييترو يبتعد. —بإمكانك أن تذهب وترى، إن لم تصدّق ما أقول.

149

أعتقد أنه يقول الحقيقة. قال فيديريكو لنفسه وهو يرمي عقب السيجارة. *بييترو موروني ليس بالفتى الذي يتفوه بالترّهات.*

150

أقام آل ميلي حفلة في بيتهم لسببين في غاية الأهمية.

أولًا، لأنّ برونو ارتقى في عمله وسوف ينضمّ إلى الفرقة الخاصة من سلك الشرطة في سبتمبر القادم. وبذلك سيتحقق حلمه أخيرًا، ويرتدي اللباس المدني للتقصي في الجرائم المنظمة. كما أنه اشترى سيارة غولف جديدة سيدفع ثمنها بأقساط مريحة جدًا.

ثانيًا، لأنّ إيتالو سوف يتقاعد ابتداءً من شهر سبتمبر نفسه. وبذلك فقد تحقّق حلمه هو أيضًا، وسيقبض رواتبه التقاعدية دون

القيام بشيء. ولن ينام بعدها في غرفة الحراسة داخل المدرسة بل في بيته كسيّد محترم يعتني بالبستان ويشاهد برامج التلفاز.

ورغم ذلك الحَرّ الإفريقي، نظّم الأب وابنه حفلة في المرج خلف البيت، وجهّزا الحطب والأحجار لإضرام نار الشواء، واشتريا أمعاء الخرفان وأفخاذ الخنازير والنقانق والجبن والأسماك. وارتدى إيتالو لباسًا قطنيًا خفيفًا وراح يراقب النار بعصا طويلة. وكان يمرر خرقة مبللة على اليقطين كي لا تضربها حرارة الشمس.

قاما بدعوة كل معارفهما تقريبًا، وكان هنالك ثلاثة أجيال على الأقل. الأطفال يلعبون بين الكروم ويجهزون الزينة، والأمهات الحوامل وأخريات وضعن مولودهنّ في العربة، والآباء الذين يأكلون ويشربون، وآخرون يلاعبون أولادهم، والعجائز يحتمون بالمظلة الكبيرة من حرّ شمس لا ترحم. المذياع يبثّ الأغاني الحديثة. والذباب يحوم بين الدخان وروائح الطعام الشهي، وينقضّ تارة على طبق السلطة وتارة أخرى على قطع البيتزا. وفي داخل البيت بعض الرجال يشاهدون مباراة لكرة القدم، وبعض النساء منشغلات بالثرثرة وتقطيع السالامي في المطبخ.

- ما ألذّ هذه الكاربونارا. هل خالتي من حضّرتها؟ —سأل برونو خطيبته لورينا وهو يبتلع لقمة كبيرة.
- وما أدراني أنا؟! —تأففت لورينا التي كانت منشغلة بأشياء أخرى، وقد اندلع جسدها بفعل الحمّام الشمسي على الشاطئ.
- لم لا تذهبين وتسألين؟ هكذا تحضّر الكاربونارا، وليست كالمكرونة المقلية المأساوية التي تحضّرينها. أراهن أنها من صنع خالتي العظيمة.
- لا يروق لي النهوض. — اعترضت لورينا.
- وتريدين مني أن أتزوجك. فلتنسي الأمر إذن.

كان أنطونيو باتشي جالسًا بين لورينا وزوجته أنطونيلا. توقّف عن

الطعام وتدخّل. – من جهة أنها لذيذة فهي لذيذة حقًا. ولكن كان على خالتك أن تضيف البصل كي تصبح مميزة. هذه هي الوصفة الرومانية الأصلية.

رفع برونو عينيه إلى السماء، واعترته الرغبة في خنق ذلك الغبي. ثم حمد السماء أنه لن يعمل معه ابتداء من الخريف المقبل. –ألا تعي حجم الهراء الذي تتفوه به يا رجل؟ أنت جاهل في الطبخ. الكاربونارا بالبصل؟!... مستحيل... اغرب عن وجهي هيا! –انفعل برونو حتى تطايرت أشلاء الكاربونارا من فمه.

– برونو محقّ. أنت لا تفقه شيئًا في فن الطبخ. البصل يُضاف إلى الماتريشانا. –أكّدت أنطونيلا التي لا تضيّع فرصة للانقضاض على زوجها.

رفع أنطونيو يديه مستسلمًا. – حسنًا اهدؤوا. ولو قلت إنّها تُطبخ بالقشدة هل كنتم ستطردونني؟ حسنًا... لا تُطبخ بالقشدة. موافق.

– أنت الذي تحدثت في موضوع لا تفقه منه شيئًا، وهذا ما يزعج في الأمر. –ردّ برونو غاضبًا.

– لو كان فيها البصل لأعجبتني أكثر. –قال أندريا باتشي الذي كان جالسًا في حضن أمّه ويوشك على إنهاء الصحن الثالث.

– طبعًا، لأنها تصبح دسمة جدًا. –نظر برونو إلى زميله. – عليك أن تأخذ هذا الطفل إلى الطبيب. أراهن أنه يزن ثمانين كيلوجرامًا. سيتحول إلى حوت عمّا قريب. كن حذرًا يا أنطونيو. –واستدار إلى أندريا. – لماذا أنت جائع إلى هذه الدرجة؟ – لم يجبه الفتى إذ كان يلحس الصحن. مطّ برونو ذراعيه وتنهد. –يلزمنا فنجان قهوة الآن... ألم يأت جراتزيانو؟

– وهل عاد جراتزيانو؟ – سأله أنطونيو.

– أجل، لقد رأيته أمام منزل بالميري. سألني عن الخطب. وبعد أن

أخبرته بالقصة مضى بعيدًا دون أن يلقي التحية!

- أتعلم ما الذي قال بييترو موروني يا أبتاه؟ – تدخّل أندريا.

- ألم يكن يعزف في إسبانيا؟ – قال باتشي الأب متجاهلًا باتشي الابن.

- لا أعلم. ربما أنهى الحفلات. أوصيته أن يأتي للغداء معنا.

- بابا! بابا! أتعلم ماذا قال بييترو موروني؟ – ألحّ أندريا ثانية.

- كفى يا ولد. لم لا تذهب للعب مع من هم في سنك وتتركنا بسلام؟

- وهل يستطيع أن ينهض بعد أن التَهَم كلّ شيء أمامه. لعلّه يحتاج إلى رافعة. – قال برونو.

- لكنني أريد أن أقول شيئًا مهمًا. –توسّل الصغير. –بييترو قال إنّه هو الذي قتل الآنسة...

- الآن وقد قلت ما عندك، اذهب للّعب هيا. – قال أبوه وهو يدفعه عنه.

- انتظر لحظة... – تأهب برونو ميلي، فهو ليس بشرطيّ بسيط كأنطونيو الأخرق. – ولأي سبب كان ليقتلها؟

- لأنها رسّبته. قال إنّها الحقيقة. وقال أيضًا إنّه وضع ثعبانًا صغيرًا في بيتها. وبوسعنا الذهاب والتأكّد من هذا إن كنّا لا نصدّق.

151

كان بييترو يساعد أباه وميمو في ترميم ركن الكلب زاغور، عندما وصلت السيارتان. واحدة للشرطة، والأخرى بيجو 205 خضراء بعلامة روما يركبها الشخصان.

رفع ماريو موروني رأسه.

- وماذا يريد هؤلاء الأوغاد الآن؟

- لقد جاؤوا لأجلي. – قال بييترو وهو يُلقي المطرقة على الأرض.

بعد ستة أعوام...

عزيزتي جلوريا، كيف حالك؟

قبل كل شيء أُهنّئك بعيد الميلاد ورأس السنة.

تكلّمت مع والدتي منذ بضعة أيام وقالت لي إنك ستذهبين إلى الجامعة في مدينة بولونيا. أخبرتها أمك بذلك. ستدرسين شيئًا له علاقة بالسينما، أليس كذلك؟ أي لا اقتصاد ولا تجارة ولا هم يحزنون. حسنًا فعلت بإلحاحك على والدك. كان هذا ما تنوين فعله، وعلى المرء أن يفعل الأمور التي يريدها. كلية السينما ستكون أكثر أهمية بالتأكيد ويقال عن بولونيا إنها مدينة رائعة ومليئة بالحياة. عندما أخرج من سجن القواصر، سأستقل القطار وأقوم برحلة في كل أوروبا، وسأمر من بولونيا كي أتعرف على المدينة بصحبتك.

لم يبق إلا القليل كما تعلمين. بعد شهرين وأسبوعين سأُتمّ أعوامي الثمانية عشر وأخرج من هنا. يبدو لي الأمر مستحيلًا يا جلوريا. سيتسنى لي الخروج من هذا المكان أخيرًا لأفعل ما أريد. لا أعرف حتى الآن ماذا أريد، ولكنهم قالوا لي عن جامعات مسائية وربما ألتحق بإحداها. اقترحوا عليّ عملًا مأجورًا هنا في مساعدة الذين يدخلون إلى السجن على الاندماج. يقول المعلمون إنني ماهر في التعامل مع الأطفال الصغار. لا أعرف. عليّ أن أفكر لاحقًا. أما الآن فأحلم بالسفر. روما، باريس، لندن، إسبانيا. وبعد الرحلة سيكون هنالك وقت للتفكير.

كنت مترددًا في مراسلتك، فنحن لا نتراسل منذ وقت بعيد. قلت لك

في الرسالة الأخيرة إنني لا أريد منك المجيء لزيارتي. أرجو أنك لم تغضبي مني، ولكنني لا أحتمل رؤيتك لساعتين، بعد كل هذا الزمان، وفي هذا المكان. لم نكن لنستطيع التحدث بشيء، كنا سنتكلم بأشياء معتادة في هذه الحالات ثم تمضين لشأنك وأنا أبقى تعيسًا. لذا قررت أن أتصل بك إبان خروجي لنلتقي في مكان جميل.

وها أنذا أكتبُ إليك لأنني أودُّ أن أخبرك بأمر، ما لبثتُ أفكّر فيه طوال هذه السنوات، وربما يخصّك بطريقة أو بأخرى. في ذلك اليوم قلت لفيديريكو عمّا فعلت بحق الآنسة بالميري. لو لم أفضح السر لما عرف أحد ما فعلت، ولما انتهيت في السِجن. ولطالما أجبت أخصائيّي النفس بأنّني فضحت أمري لأنّني أردتُ أن أُظهر قوّتي وردّة فعلي وغضبي أمام فيديريكو والآخرين. ولكنّني كنت أقول الترّهات بصراحة. واكتشفت ذلك منذ بضعة أسابيع حين وصل فتى من كالابريا كان قد قتل والده. عمرُه أربعة عشر عامًا ولا يُفهم من كلامه شيءٌ إذا تحدّث. كان والده يعود كلّ مساء إلى البيت ويعتدي على زوجته وابنته. وذات مساء أمسك أنطونيو (يلقّبونه كالابريا هنا) بسكين الخبز من الطاولة وغرسه في صدر أبيه. سألته عن السبب، ولماذا لم يذهب إلى الشرطة ويشتكي، ولماذا لم يُخبر أحدًا بالموضوع. لكنّه لم يجبني، كأنّني لست موجودًا أمامه. كان جالسًا يدخّن قرب النافذة. رويتُ له أنني أنا أيضًا قتلت شخصًا، عندما كنت في سنّه تقريبًا. فسألني عن الإحساس وأجبته إنه إحساس سيّئ يبقى في باطن النفس ولا يتلاشى أبدًا. فنظر إليّ وقال إنّه لم يشعر بذلك، بل شعر بأنّه مَلكٌ مُهيْمِنٌ. وقال: «لقد قتلته لأنني لا أريد أن أصبح وضيعًا خسيسًا مثله، أفضّل الموت على أن أصبح مثله». فكّرتُ كثيرًا في كلامه. وأدركت أنّه فهم دوافع جريمته. إننّا نحارب الشرور التي تنمو في دواخلنا وتحوّلنا إلى وحوش. لقد تجرّد عن ذاته، وفضّل أن يخسر حياةً لينجو بالأخرى. أعتقد إذن أنني أفشيت سرّي كي أتحرّر من عائلتي ومن إيسكيانو.

ولو كنت أعرف السبب لما أقدمت على الجريمة أساسًا، ولا أظن أنّنا نعرف سرّ تصرفاتنا. إنني لا أؤمن كثيرًا باللاوعي وعلم النفس، لأنني أرى أنّ كل امرئ هو نتيجة أفعاله في نهاية الأمر. وبالمقابل أكاد أجزم أنّ شيئًا ما في قرارة نفسي اتّخذ ذلك القرار عنّي.

لقد وعدتك في تلك الليلة على الشاطئ (لم تغب عن بالي يومًا) بأنني لن أخبر أحدًا بما فعلت. ولكن بعد أن رأيت الجثة ثانية، تحطّم شيء ما في نفسي وكان عليّ أن أعترف لأحد كي أتخلّص من هذا العبء. وأعتقد أن مصيري تغيّر بفضل ذلك، ولولا قراري لما أكملت الثانوية هنا ولما كنت أهيّئ نفسي للالتحاق بالجامعة. لم أكن أريد لحياتي أن تنتهي كحياة ميمو الذي ما يزال يحارب والدي (أمي تقول إنه بات مدمنًا على الكحول هو أيضًا). لم أكن أريد البقاء في إيسكيانو، ولم أشأ أن أصبح مثلهم. سأتمّ سنتي الثامنة عشرة عما قريب، وسأصبح رجلًا مستعدًا لمواجهة الحياة بأفضل الطرق.

أتعلمين ماذا قالت لي الآنسة بالميري في الحمّام؟ قالت إنّ الوعود تُطلق كي لا تصان. إنني أرى أنها على صواب. سأظلّ مُجرمًا إلى الأبد، لا شيء قادر على محو جريمة فظيعة حتى لو كانت عقوبة الإعدام.

أردت أن أقول لك هذا: لقد أخللت باتفاقيتنا ولعلّني كنت مُحقًا في ذلك. كفى. لا أريدك أن تحزني. قالت لي أمي إنّك أصبحت جميلة جدًا. وأنا كنت أعلم هذا. عندما كنّا صغارًا كنت متأكدًا أنك ستصبحين ملكة جمال إيطاليا.

قبلاتي

بييترو

ملاحظة: جهّزي نفسك. فحين أمرّ ببولونيا، سآخذك وأحملك بعيدًا.

معاوية عبد المجيد

مترجم سوري من مواليد دمشق عام 1985. درس الأدب الإيطالي في جامعة سيينا الإيطالية. علّم اللغة الإيطالية في كلية الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبية الأوروبية عن قسم الترجمة الأدبية من جامعة بولونيا الإيطالية وجامعة مولوز الفرنسية. نشر عدة مقالات عن الشعر الإيطالي في عدد من المجلات.

ترجم إلى العربية:

- **ضمير السيد زينو**، إيتالو سفيفو. دار أثر، السعودية 2013.
- **تريستانو يحتضر**، أنطونيو تابوكي. دار أثر، السعودية 2013.
- **بيريرا يدعي**، أنطونيو تابوكي. دار أثر، السعودية 2014.
- **اليوم ما قبل السعادة**، إري دي لوكا. دار أثر، السعودية 2014.

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

انقطاعات الموت

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

مِيتَتان لرجل واحد

المؤلَف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليصير علامة... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالةً... لتدلّ على إحالة وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كل حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمُهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفًا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبرات المعيش ومعترك الوجود الإنساني...

رقصة زوربا انتهت دستورا للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض، وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لا شيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

عرس الشاعر

المؤلِّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنّف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

الحب والظلال

المؤلّف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحياةً في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلّ منهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليّندي

السنة المفقودة

المؤلّف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

الحب في زمن الكوليرا

المؤلف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني

هل أصغينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخرَ العُمر على حافّة الهاوية؟

قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيّات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهابا وإيّابا... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا يصير الحبّ ترياقا لكلّ الآفات بدءا بفعل الزّمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وفرمينيا داثا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا اللاّتينيّة... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانية زمنا بلا كوليرا؟؟؟ أبدا... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءَهُ وآفتَهُ ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة ...

ظافر ناجي

رحلة في أقاصي الليل

المؤلِّف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة وأيمن حسن

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

سيلين متحدثا إلى ناشره

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

فريدريك بيغبيدي

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرَّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

سيمون دي بوفوار

حليب أسود

المؤلِّفة: إليف شفاق
البلد: تركيا
ترجمة: أحمد العلي

ليس«حليب أسود» مجرّد رحلة في تجربة اكتئاب ما بعدَ الولادة، أو سيرة ذاتية لأُمٍّ مُبدعة تَصادَفَ أن توقّفَ قلمها عن إنجاب الكلمات عندما أنجبت طفلها، بل هو تجربةُ وَعيٍ لِمَا يُمكن أن يحدُثَ حين تتصارع الأُنثى التي تَلِدُ الكلمات والأُنثى التي تَلِدُ الأطفال، وكيف يُشَقِّقُ هذا الصراعُ المبدعَةَ إلى كيانات مُتعدّدة تحرمُها من السلام والصفاء وحالة الرضا، ويجعلها كما كتبَت شفاق: في هَوَسٍ دائمٍ بشأن الدرب الذي أهمَلَت اختياره.

وإلى جانب المتعة وخِفّة الروح والطرافة في هذا الكتاب، فإنّه يُعيننا نحن النساء لنتصالح مع ذواتنا المتشظيّة إلى ذواتٍ وذواتٍ، وبأسلوبٍ لا يُثير الأسى.

تكتبُ ألِف شفَق ببراءةٍ تُشبه براءةَ أفلام الكارتون التي تُصوّرُ الجميعَ أبرياء، أو بشرًا في النهايةً، وتجعلنا نتعاطف معهم.

ألِف شفَق قلمٌ أصيل، لا يتبع ما يعثُرُ عليه في السياق ولا يُروّج له، بل يكتُبُ ما اختبرَهُ بنفسه مع احترام تجارب الآخرين. وقد برعَت شفَاق وأثبتت أنّها شُجاعةٌ وطَيّبةٌ مثل بطلات الحكايات الخرافيّة اللاتي يفُزنَ في النهاية.

د. بدرية البشر

يصدر قريبا

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستالة

ليلة مع صابرينا

المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أبو بكر العيادي

بائعة النثر الصغيرة

المؤلف: دانيال بيناك
البلد: فرنسا
ترجمة: معن عاقل

نرسيس وغولدموند

المؤلف: هرمان هسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

نيكولو أمانيتي

آخذك وأحملك بعيدًا

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الأوروبية ولا الإيطاليّة، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيداً».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

ISBN: 978-9938-833-50-8
9789938833508

مسكلياني